رواية

مكتبة ٥٨١

كارسن مكولرز

القلبُ صيادٌ وحيدٌ

ترجمة: عزّة حسون

مكتبة | 581

القلبُ صيادٌ وحيدٌ

روايــة

Author: **Carson McCullers** | اسم المؤلف: كارسن مكولرز

Title: **The Heart Is a Lonely Hunter** | عنوان الكتاب: القلبُ صيادٌ وحيدٌ

Translated by: **Azza Hassoun** | ترجمة: عزّة حسون

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** | الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © The Estate of Carson McCullers and Columbus State University's Carson McCullers Center for Writers and Musicians First published in the USA by Houghton Mifflin in 1940

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة
t.me/t_pdf

كارسن مكولرز

مكتبة | 581

القلبُ صيادٌ وحيدٌ

ترجمة: عزّة حسون

حول الكاتبة والرواية

ولدت كارسن مكولرز في التاسع عشر من شباط (فبراير) 1917 وتوفيت في التاسع والعشرين من أيلول (سبتمبر) 1967. تعد مكولرز من أهم كاتبات الرواية والقصة القصيرة والمسرح في الولايات المتحدة الأمريكية ومن بين أعمالها: *القلبُ صيادٌ وحيدٌ* (1940)، *تأملاتٌ في عينٍ ذهبية* (1941)، *أغنية المقهى الحزين* (1951)، *ساعة من دون عقارب* (1961). كتبت روايتها الأولى *القلبُ صيادٌ وحيدٌ* عندما كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، وحصدت الرواية نجاحاً كبيراً وصلت معه إلى قائمة أفضل الكتب مبيعاً وقتئذٍ. أصبحت الرواية من كلاسيكيات الأدب الأمريكي وصنفتها مجلة التايم من بين أهم الأعمال الأدبية بين عام 1923 و2005. في هذه الرواية تخترق مكولرز - بأسلوبها السردي السوداوي - صلب المجتمع الأمريكي في الجنوب وواقع العنصرية ووطأة الرأسمالية على فقرائه وموت الحلم الأمريكي أمام هذا الواقع المرير الذي ألقى بظلاله على الجميع سوداً وبيضاً.

شهادات

«بموهبتها الأدبية الأصيلة تقنعنا الآنسة مكولرز بأننا فوَّتنا على أنفسنا فرصة رؤية ما هو واضح في العالم الواقعي... إنّ مكولرز سيدة البصيرة النافذة والخاصة، وقاصّة لا نظير لها... إنّها كاتبة من الطبقة الأعلى».

• **ف. س. بريتشت**

«لم تستقِ كارسون مكولرز إلهامها من العناوين العريضة ثمّ ادعت أنّ ما كتبته روايات من بنات أفكارها. رغم اهتمام مكولرز ببربرية العنصرية في موطنها الأصلي في الجنوب، إلا أنّ قصصها القصيرة، ورواياتها مجازية وواضحة في الوقت ذاته. مجدت الفرد وبخاصة الخاسرين في الحياة... وعكست ذلك القلب الوحيد بيدٍ ذهبية».

• **جريدة النيويورك تايمز**

«وجدتُ في أعمالها كثافة ونبالة في الروح لم أشهدها كثيراً منذ كتابات هيرمن ميلفيل».

• **تينيسي ويليامز**

«إنّها موهوبة جداً. تملك الآنسة مكولرز قوة ملاحظة وذاكرة غير عادية، وموهبة فذّة في ترجمة الإحساس المسترجع في الذاكرة عبر اللغة».

• **ديانا تريلنغ**

«إنّ الجانب الأكثر إذهالاً في عملها تلك الإنسانية المدهشة التي مكنت كاتبة بيضاء - لأول مرة في الأدب الجنوبي - من التعامل مع شخصيات زنجية بتلك السهولة والعدالة التي تتعامل بها مع عرقها. ولا يمكن عزو هذا إلى أسباب فنية أو سياسية، بل ينبع هذا من موقفها الخاص من الحياة والذي مكّن الآنسة مكولرز من الترفع على ضغوط بيئتها، وتبني الإنسانية البيضاء والسوداء بمسحة وعي ورقة».

• ريتشارد رايت

«كان أدبها رائعاً ورزيناً، وفوق كل هذا أدباً ناضجاً».

• إليزابيث بوين

«تبقى موهبتها النثرية من بين الإنجازات القليلة التي تبعث على الرضى في أدب الدرجة الثانية».

• غور فيدال

إلى ريفز مكولرز ومارغريت ولامار سميث

الجزء الأول

مكتبة
t.me/t_pdf

-1-

في إحدى البلدات عاش أبكمان وكانا برفقة بعضهما على الدوام. يخرجان من منزلهما باكراً كل صباح، ويمشيان في الشارع بذارعين متشابكين في طريقهما إلى العمل. كان الصديقان مُختلفين جداً، فلطالما أخذ اليوناني السمين والحالم موقع القيادة، ببلوزته الصيفية الصفراء أو الخضراء من ماركة (بولو)، وقد دسّ - على نحو أخرق - القسم الأمامي منها فقط في سرواله بينما تدلى القسم الخلفي بشكلٍ مُهلهلٍ. وإن كان الطقس أكثر برودة، ارتدى سترة صوفية رماديةً فضفاضة. كان وجهه مدوراً ودُهنياً وبجفنين نصف مُغمضين، وشفاه مرسومة على شكل ابتسامة لطيفة وغبية. كان الأبكم الآخر طويلاً، وتُفصح عيناه عن سرعة بديهة وذكاء. كان نظيفاً على الدوام ومُهندماً على نحو جديّ.

يتمشّى الصديقان بصمتٍ كل صباح إلى أن يصلا إلى شارع البلدة الرئيس، ثمّ يتوجهان إلى متجر الفواكه والحلوى، ويتوقفان أمامه على الرصيف لبعض الوقت. يعمل اليوناني المدعو سبيروس أنتونوبوليس في متجر نسيبٍ له، ووظيفته صُنع الحلوى والسكاكر، والحفاظ على نظافة المكان. واعتاد الأبكم النحيل - المدعو جون سينغر - وضع يده

على ذراع صديقه مُحدقاً في عينيه لبعض الوقت قبل أن يتركه متوجهاً إلى عمله. بعد الوداع يعبر سينغر الشارع، ويمشي وحيداً إلى متجر المجوهرات، حيث يعمل نقّاشاً على الأدوات الفضية.

في أواخر الظهيرة يلتقي الصديقان. يعود سينغر إلى متجر الفواكه، وينتظر أن يجهز أنتونوبوليس ليعودا إلى المنزل. عندئذٍ يوضِّب اليوناني بكسلٍ صندوقاً من الدراق أو الشمام، أو يُطالع القسم الفكاهي من الجريدة في المطبخ خلف المتجر حيث يطهو. وقبل أن يغادرا يفتح أنتونوبوليس كيساً ورقياً كان قد أخفاه خلال النهار على رفٍ في المطبخ، وفي الكيس بقايا طعام منوعة ومحفوظة جمعها خلال النهار كقطع فواكه، أو عينات حلوى، أو بقايا نقانق محشوة بلحم الكبد. عادة وقبل أن يُغادرا يتوجه أنتونوبوليس بهدوء نحو الصندوق الزجاجي عند مدخل المتجر، حيث تُحفظ اللحوم والجبنة. يمدّ يده ويفتح الصندوق من الخلف، ثمّ يُدخل يده السمينة داخلها، ويمسك بحنان قطعة طريّة معينة كان قد وضع عينه عليها. أحياناً لا يراه نسيبه الذي يدير المتجر، ولكن إن رآه يرمقه بنظرةٍ تحذيرية، ويعلو العبوس وجهه الشاحب. عندئذٍ وبحزنٍ ينقل أنتونوبوليس القطعة التي وضع يده عليها من جهة إلى جهة أخرى في الصندوق. في تلك الأثناء يقف سينغر باستقامة، ويداه في جيبيه وينظر باتجاه آخر. لم يحب أبداً رؤية ذلك المشهد الصغير بين اليونانيين، لأنّه - وباستثناء الشرب وبعض المتع السرية والانعزالية المعينة - أحبّ أنتونوبوليس الأكل أكثر من أيّ شيء في العالم.

وعند حلول الغسق، يتمشى الأبكمان سويةً ببطء. في المنزل يتحدث سينغر على الدوام مع أنتونوبوليس، وترسم يداه الكلمات في سلسلة تشكيلات سريعة. كانت الحماسة تُغلف وجهه، وتلتمع عيناه الخضراوان الرماديتان بقوة، وبيديه النحيلتين والقويتين يُخبر أنتونوبوليس كل ما حدث معه خلال اليوم.

يجلس أنتونوبوليس بكسلٍ، ويحدق نحو سينغر، ونادراً ما يتكلم

مُحركاً يديه، وعندما يُحركهما فكأن ليقول: أريد تناول الطعام، أو النوم، أو الشراب. يُعبر أنتونوبوليس دوماً عن هذه الأشياء بالإشارات المُبهمة والمُتلعثمة ذاتها.

وعندما لا يكون ثملاً جداً في الليل يركع أمام سريره ويُصلي، وترسم يداه السمينتان كلمات كـ«يسوع القُدس» و«الرب» أو «العزيزة مريم». كانت هذه الكلمات الوحيدة التي قالها أنتونوبوليس. لم يعرف سينغر أبداً إلى أيّة درجة فهم صديقه كل الأمور التي يخبره بها، ولكن هذا لم يكن مُهماً بالنسبة له.

تشاركا الطابق العلوي من منزل صغير بالقرب من القسم التجاري في البلدة. يتألف الطابق من غرفتين، وعلى الموقد الزيتي في المطبخ طبخ أنتونوبوليس كل الوجبات. هناك في المطبخ كراسٍ عالية الظهر، من النوع العادي من أجل سينغر، وكنبة بحشيّة كبيرة لأنتونوبوليس. وتمّ تأثيث غرفة النوم بسرير مزدوج، مع لحاف من الريش من أجل اليوناني الضخم وسرير معدني صغير لسينغر.

لطالما أخذ تناول العشاء وقتاً طويلاً؛ لأنّ أنتونوبوليس يحبّ الطعام، ولأنّه بطيء جداً أيضاً. بعد الانتهاء من تناول الطعام، يستلقي اليوناني الضخم على الكنبة ويلعق بلسانه كُل سِنٍ من أسنانه، إمّا لتنظيفها من أحد الأطعمة الشهية، أو لأنّه لا يرغب بفقدان طعم الوجبة التي تناولها بينما يغسل سينغر الأطباق.

في بعض الأحيان يلعب الأبكمان الشطرنج. استمتع سينغر بهذه اللعبة لسنوات، وحتى قبل أن يُعلّمها لأنتونوبوليس. في البداية لم يظهر صديقه اهتماماً بالغاية من نقل قطع الشطرنج العديدة على الرقعة. ثمّ بدأ سينغر يحتفظ بزجاجة تحوي مشروباً لذيذاً تحت الطاولة يُخرجها بعد كل درس. لم يفهم اليوناني التحركات الغريبة للفرسان، والحركة الساحقة للملكات، ولكنّه تعلم القيام بمجموعة من الحركات الافتتاحية. كان يُفضل القطع البيضاء، ولم يكن يلعب إن حصل على «الرجال السود».

بعد الحركات الأولى، يتابع سينغر اللعبة لوحده بينما ينظر صديقه إليه بشكلٍ ناعس. وإن قام سينغر بهجمات رائعة على رجاله، وقتل في نهاية الدور الملك الأسود شعرَ أنتونوبوليس بالفخر وبالرضى.

لم يكن للأبكمين أصدقاء آخرون، وخارج أوقات عملهما كانا وحيدين، كل يوم يشبه الذي سبقه كثيراً، ولأنهما لوحدهما لم يُعكر عليهما أيّ شيء. يتوجهان إلى المكتبة مرّة أسبوعياً؛ من أجل أن يشتري سينغر كتاب ألغاز، وفي ليالي الجُمع يشاهدان فيلماً. أمّا في يوم تقاضي الأجر فيذهبان إلى متجر الصور الفوتوغرافية ذي العشر سنتات فوق المتجر الحربي-البحري حتى يلتقط أنتونوبوليس صورة لنفسه. كانت هذه الأماكن الوحيدة التي قاما بزيارات دورية إليها. وهناك أجزاء عديدة من البلدة لم يرياها البتة.

تقع البلدة وسط أقاصي الجنوب، حيث الصيف طويل، وأشهر برد الشتاء قليلة جداً. السماء كامدة على الدوام وبلون لازورديّ فاقع، وتسطع الشمس بضوءٍ مبهرٍ جداً. ينهمر مطر أيلول (سبتمبر) خفيفاً وبارداً، وربما يأتي بعده صقيع وأشهر قصيرة من البرد. فصل الشتاء مُتقلّب، ولكن يبقى الصيف على حرّه الشديد. كانت البلدة كبيرة نسبياً، وفي الشارع الأساسي عدة مبانٍ مؤلفة من طابقين، أو ثلاثة، ومكاتب تجارية. كانت المصانع أكبر مباني البلدة، ويعمل فيها عدد كبير من سكان البلدة؛ مصانع قطن كبيرة ومزدهرة ومعظم عمالها من الفقراء. غالباً ما كانت تعلو وجوه المارة في الشوارع نظرة يائسة، سببها الجوع، أو الوحدة.

لم يشعر الأبكمان بالوحدة أبداً. كانا قانعين بتناول الطعام والشراب في المنزل بينما يتحدث سينغر إلى صديقه بيديه بكل حميّة حول كل ما يدور في ذهنه. وبهذه الطريقة الهادئة مرّت السنوات، إلى أن بلغ سينغر الثانية والثلاثين، ومضى على وجوده في هذه البلدة مع أنتونوبوليس عشرة أعوام.

وفي أحد الأيّام مرض اليوناني. جلس في السرير، وقد وضع يديه

على معدته الكبيرة، وترقرقت الدموع الكبيرة على خديه الدهنيين. توجّه سينغر إلى نسيب صديقه، الذي كان يملك متجر الفواكه ليأخذ إجازة له، ورتّب من أجل أخذ إجازة من عمله أيضاً. وصف الطبيب حمية غذائية لأنتونوبوليس، وأخبره أنّه لم يعدْ بإمكانه شرب النبيذ بعد الآن. نفّذ سينغر أوامر الطبيب بصرامة. جلس طوال اليوم إلى جانب سرير صديقه، وقام بكل ما استطاع ليجعل مرور الوقت أسرع، ولكن كان أنتونوبوليس يرمقه بنظرة غاضبة من زاويتي عينيه، من دون أدنى شعورٍ بالترفيه.

كان اليوناني نكداً جداً، ويحاول دوماً العثور على خطبٍ ما في عصائر الفواكه والأطعمة التي يجهزها له سينغر، وأجبر صديقه باستمرار على مساعدته لينهض من السرير ويصلي. وكلما ركع استقرت مؤخرته الكبيرة على قدميه الصغيرتين السمينتين، وحرّك يديه وكأنّه يقول «العزيزة مريم» بينما أمسك بالصليب النحاسي الصغير المعلّق بخيطٍ قذرٍ حول رقبته، ثمّ تستقر عيناه الكبيرتان على السقف وقد شابتهما نظرة رعب. بعد هذا يغدو عبوساً ولا يسمح لصديقه بالتحدث معه أبداً.

كان سينغر صبوراً، وقام بكل ما يمكنه القيام به، ورسم له صوراً صغيرة. قام مرة برسم صورة شخصيّة لصديقه ليرفّه عنه، ولكن اليوناني انزعج من الصورة ورفض أن يصالحه إلى أن قام سينغر بإعادة رسم وجهه ليبدو أكثر شباباً وجمالاً، ولوّن شعره بالأصفر الفاقع، وعينيه باللون الأزرق الرمادي. عندها فقط جاهد اليونانيُّ وهو لكيلا يُظهر ابتهاجه بالأمر.

رعى سينغر صديقه بعناية شديدة، وبعد أسبوع أصبح أنتونوبوليس قادراً على العودة إلى العمل. ولكن منذ ذلك الوقت طرأ تغيير على طريقة حياتهما، وحلّت المصيبة على الصديقين.

لم يعد أنتونوبوليس مريضاً، ولكن تغييراً طرأ عليه. أصبح سريع الانفعال، ولم يعد قانعاً بقضاء الأماسي بهدوء في منزلهما. وكلما أراد الخروج مشى سينغر خلفه. دخل أنتانوبوليس إلى المطاعم، وكلما همّ

بالجلوس خطف خلسة قطع السكر أو مِرشّة الفلفل أو قطعة من أدوات الطاولة ووضعها في جيبه. دفع سينغر ثمن ما سرقه صديقه على الدوام، ولم تحدث أيّة متاعب. وفي المنزل يوبخ سينغر أنتونوبوليس بينما يحدق فيه اليوناني بابتسامة مُداهنة.

مرّت الأشهر وزادت عادات أنتونوبوليس سوءاً، وفي ظهيرة أحد الأيّام خرج بهدوء من متجر نسيبه وتبول أمام الناس على قارعة الطريق. أحياناً يلتقي على الرصيف بأناس لا تُعجبه وجوههم، ويصدمهم بمرفقه أو ببطنه عمداً. دخل إلى متجرٍ في أحد الأيّام وأخذ مصباحاً كبيراً من دون دفع ثمنه، وحاول في مرة أخرى أن يأخذ قطاراً كهربائياً رآه في واجهة أحد المحال.

بالنسبة لسينغر، كان كل هذا الوقت وقتاً عصيباً، واستمر باصطحاب أنتونوبوليس إلى قاعة المحكمة - خلال ساعات الغداء - لتسوية تلك الخروقات القانونية. أصبح سينغر مُطلعاً على إجراءات المحاكم وفي حالة اهتياج مستمر. أنفق المال الذي وضعه في البنك على الكفالات والمُخالفات. وضع كل جهوده وأمواله لإبقاء صديقه خارج السجن بسبب تهمٍ كالسرقة وسلوكيات مُخلة بالآداب العامة وتهجمات واعتداء بالضرب.

لم يورط نسيب اليوناني - الذي كان يعمل أنتونوبوليس لديه - نفسه في هذه المتاعب. سمح تشارلز باركر (كان ذلك هو الاسم الذي كَنّى نفسه به) لأنتونوبوليس بأنْ يبقى في المتجر، ولكن راقبه على الدوام بوجهه الممتقع والجامد، ولم يبذل أيّ جهدٍ لمساعدته. أخذ شعور غريب ينتاب سينغر نحو تشارلز باركر، وبدأ يكرهه.

عاش سينغر في حالة اضطراب وقلق مستمرين، ولكن أنتونوبوليس حافظ على وضعه المُداهن وتلك الابتسامة اللطيفة والرخوة التي لا تفارق وجهه مهما حدث. اعتقد سينغر لسنوات مضت أنّ ابتسامة صديقه توحي بشيءٍ ذكي وحكيم. لم يعرف أبداً درجة استيعاب أنتونوبوليس أو

بما يُفكر به. أمّا الآن فقد بدأ سينغر يلحظ على تعابير اليوناني الضخم شيئاً ماكراً وساخراً. اعتاد سينغر هزّ صديقه من كتفيه حتى يتعب، وشرح الأمور مراراً وتكراراً ولكن دون جدوى.

نفد مال سينغر واستدان القليل من الصائغ الذي يعمل لديه. وفي إحدى المرات لم يكن قادراً على دفع كفالة صديقه، وقضى أنتونوبوليس الليلة في السجن. وعندما حضر سينغر لإخراجه في اليوم التالي كان اليوناني مُكفهر الوجه ولم يرغب بالمغادرة، فقد تمتع بعشائه المكوّن من اللحم المقدّد، وخبز الذرة، مع بعض عصير الفاكهة المُركَّز، وأعجبته ترتيبات النّوم الجديدة وزملاؤه في الزنزانة.

عاش الأبكمان لوحدهما طويلاً، إلى درجة أنّ سينغر لم يكن لديه من يساعده في الأوقات العصيبة. لم يسمح أنتونوبوليس لأيّ شيء بإزعاجه، أو علاجه من عاداته، وأحياناً يطبخ الطبق الجديد الذي تذوقه في السجن. لم يكن بالإمكان التكهن بما قد يفعله في الشارع.

وأخيراً وقعت المصيبة الأخيرة على رأس سينغر.

في ظهيرة أحد الأيّام ذهب سينغر لموافاة أنتونوبوليس في متجر الفواكه، عندها سلّمه تشارلز باركر رسالة. أوضحت الرسالة أنّ تشارلز باركر قد قام بترتيبات لإدخال نسيبه إلى مصحّ الولاية الذي يبعد عن البلدة مئتي ميل. استغل تشارلز باركر نفوذه في البلدة وتمت تسوية جميع التفاصيل، ومن المُفترض أن يغادر أنتونوبوليس إلى المصحّ الأسبوع القادم.

قرأ سينغر الرسالة مراتٍ عدّة، وشعر بالعجز عن التفكير لبعضِ الوقت. كان تشارلز باركر يتحدث إليه من وراء المنضدة، ولكن لم يحاول حتى قراءة شفتيه وفهمه. وأخيراً كتب سينغر على دفتر صغير حمله معه على الدوام:

«لا يمكنك القيام بهذا. يجب أن يبقى أنتونوبوليس معي».

هزّ تشارلز باركر رأسه بانفعال. لم تكن لغته الأمريكية[1] جيدة، وكرر قوله «هذا ليس من شأنك».

علم سينغر أنّه تمّ الترتيب لكل شيء، فقد كان النسيب خائفاً من أن يغدو مسؤولاً عن أنتونوبوليس في يومٍ ما. كانت معرفة تشارلز باركر باللغة الأمريكية محدودة، ولكنّه فهم لغةَ الدولار الأمريكي جيداً، وقد استغل ماله ونفوذه لإدخال نسيبه إلى المصحّ من دون أيّ تأخير.

لم يكن بإمكان سينغر القيام بأيّ شيء.

حفل الأسبوع التالي بحركة محمومة. تحدث سينغر، ورغم أنّ حركة يديه لم تتوقف إلّا أنّها لم تسعفه في قول كل ما لديه. أراد أن يتحدث عن أنتونوبوليس، وعن كل الأفكار في عقله وقلبه، ولكن كان الوقت ضيقاً. لمعت عيناه الرماديتان، وبدا وجهه النابض بالحياة والذكي مُجهداً جداً. راقبه أنتونوبوليس بنعسٍ، ولم يعلم سينغر إلى أيّة درجة فهم صديقه ما قاله.

وحل اليوم الموعود الذي سيغادر فيه أنتونوبوليس. أخرج سينغر حقيبته، ووضَّب بعناية أفضل ممتلكاتهما المشتركة. حضّر أنتونوبوليس لنفسه الطعام ليتناوله خلال الرحلة، وفي وقت متأخر من ظهيرة ذلك اليوم، مشيا متقاطعي الذراعين في الشارع لآخر مرة. كانت ظهيرة باردة من أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وعلت في الجو غمائم زفيرهما.

كان تشارلز باركر سيسافر مع نسيبه، ولكنه وقف بعيداً عن الأبكمين في المحطة. حشر أنتونوبوليس نفسه في الحافلة، واستقر على أحد المقاعد الأمامية بكل استعداد واعٍ. راقبه سينغر من النافذة، وبدأ يتحدث باستماتة عبر يديه لآخر مرة مع صديقه، ولكن أنتونوبوليس كان مشغولاً جداً بتفقد الأطعمة المنوعة في صندوق غدائه إلى درجة أنّه - ولبرهة - لم يلقِ بالاً إلى أيّ شيء آخر. وقبل أن تبتعد الحافلة عن الرصيف التفت

1- لغة الإشارة الأمريكية (المترجمة)

إلى سينغر، وابتسم ابتسامة ماكرة وبعيدة وكأنهما في تلك اللحظة كانا على بعد أميال كبيرة حقاً.

بدت الأسابيع اللاحقة غير حقيقية. عمل سينغر طوال اليوم على مقعده في القسم الخلفي من متجر المجوهرات، وعاد ليلاً إلى المنزل وحيداً وعندئذ رغب بالنوم أكثر من أيّ شيء. وعند وصوله إلى المنزل يستلقي على سريره الصغير فوراً ويحاول أن ينام قليلاً. راودته الأحلام كلما غفا نصف إغفاءة، وكان أنتونوبوليس حاضراً فيها كلها. كانت يداه تهتزان بعصبية لأنّه يتحدث في أحلامه التي فيها يراقبه أنتونوبوليس.

حاول سينغر أن يفكر بالأوقات السابقة لمعرفته بصديقه، حاول أن يُعدّد أمام نفسه أموراً معينة حدثت معه عندما كان صغيراً، ولكن لم تبدُ أيّ من تلك الذكريات حقيقية.

كانت هناك حقيقة معينة تذكرها ولكن لم تكن مُهمة له. تذكر سينغر أنّه ورغم صممه منذ طفولته إلّا أنّه لم يكن أبكمَ حقيقياً. لقد تركوه يتيماً في عمرٍ مبكر جداً، وأُدخل إلى مؤسسة خاصة بالصُم. تعلم التحدث بيديه والقراءة. وقبل بلوغه التاسعة غدا قادراً على الحديث باللغة الأمريكية بيدٍ واحدة، وكان باستطاعته استخدام اليدين باللغة الأوربية أيضاً. تعلّم أن يتابع حركة شفاه الناس، وأن يفهم ما يقولونه، وأخيراً تعلّم التحدث.

كان يُنظر إليه على أنّه شخصٌ ذكي. تعلّم الدروس قبل بقية الطلاب، ولكن لم يعتد على الحديث بشفتيه. لم يبدُ التحدث بالشفتين أمراً طبيعياً بالنسبة له، وشعر أن لسانه أشبه بحوتٍ في فمه. عرف هذا من التعابير الفارغة التي تعلو وجوه الناس ممن تحدث إليهم بهذه الطريقة، وأنّ صوته أشبه بصوت حيوان ما، أو أنّ هناك ما يثير الغثيان في حديثه. كانت محاولة التحدث بفمه، أمراً مؤلماً بالنسبة له، ولكن كانت يداه مستعدتين على الدوام لتشكيل الكلمات التي أراد قولها. عندما بلغ الثانية والعشرين، توجه جنوباً، ووصل إلى هذه البلدة قادماً من شيكاغو،

والتقى بأنتونوبوليس على الفور. ومنذ ذلك الحين لم يتحدث بفمه أبداً؛ لأنّ صديقه لم يكن بحاجة إلى هذا.

لم يكن هنالك أيّة حقيقة باستثناء السنوات العشر التي قضاها مع أنتونوبوليس. وفي أنصاف أحلامه، رأى صديقه بشكل واضح جداً، وكلما استيقظ أثقله شعورٌ كبيرٌ ومؤلمٌ بالوحدة. بين الفينة والأخرى كان يُجهّز علبة في داخلها هدية ما ويرسلها إلى أنتونوبوليس، ولكنه لم يتلقَ أيّ رد. وهكذا مرّت الشهور بهذه الطريقة الفارغة والحالمة.

في الربيع طرأ تغيير على سينغر؛ لم يعد بإمكانه النوم واضطرب جسده جداً. ففي المساء تمشى بوتيرة واحدة في أرجاء الغرفة، وإن أخذ استراحة فلا تكون قبل ساعاتٍ معدودة من الفجر. كان يخرّ نائماً إلى أن يلامس شعاع الصباح منطقة جفنه السفلي الشبيهة بسيفٍ معقوف.

بدأ يقضي أمسياته بالتنزه في أنحاء البلدة، لم يعد يحتمل البيت الذي عاش فيه مع أنتونوبوليس، واستأجر مكاناً في بيتٍ متداعٍ لا يبعد كثيراً عن مركز البلدة. تناول وجبات طعامه في مطعم على بعد مبنيين. كان هذا المطعم في نهاية الشارع الرئيس ويُدعى (نيويورك كافيه). وفي أول يوم ذهب فيه إلى هناك عاين قائمة الطعام بسرعة، وكتب ملاحظة صغيرة سلّمها إلى صاحب المطعم:

> أريد على الفطور بيضة وقطعة خبزٍ مُحمص وقهوة ($ 0.15)
>
> أريد على الغداء حساءً (من أيّ نوع) وشطيرة لحم وحليباً ($ 0.25)
>
> لتقدم لي من فضلك على العشاء، ثلاثة أنواع من الخضار (أيّ نوع ما عدا الملفوف)، سمكاً أو لحماً وكأساً من الجعة ($ 0.25) شكراً لك

قرأ صاحب المطعم الورقة ونظر نحوه بحذر ولباقة. كان رجلاً خشناً متوسط الطولِ بلحيةٍ سوداء وكثة جداً لدرجة أنّ أسفل وجهه بدا وكأنّه مصبوب بالحديد. عادة ما يقف في الزاوية قرب آلة النقود، وقد قاطع يديه على صدره، يراقب بهدوء كل ما يدور حوله. وبدأ يألف سينغر وجه الرجل جيداً، فقد كان يأكل على إحدى طاولاته ثلاث مرّات يومياً.

في كل أمسية يمشي الأبكم لساعاتٍ وحده على الطريق. في بعض الأوقات من شهر آذار (مارس) تكون الليالي باردة، مع رياح قارسة، ورطبة، وتمطر السماء بغزارة، ولكن بالنسبة له لم يكن هذا مُهماً. كانت مشيته مضطربة، ودوماً أبقى يديه محشورتين في جيبي سرواله. ومع مرور الأسابيع أصبح النهار أكثر دفئاً وسقماً. وتدريجياً تحول اضطرابه إلى تعب وعلى سيماء وجهه حلّ هدوء عميق. طغى على هذا الوجه سلام كبير، من ذلك النوع الذي يطغى على وجوه الحزانى أو الحكماء. وبرغم هذا الطقس القاسي استمر بالتسكع على طرقات البلدة بصمتٍ ولوحده دوماً.

-2-

في إحدى الليالي الحالكة والحارة جداً، مطلع الصيف، وقف بيف برانن خلف آلة النقود في مطعم كافيه نيويورك. كانت الساعة الثانية عشرة والأضواء في الشارع قد أُطفئت، وألقى الضوء الخارج من المقهى مربعاً شديد الصُفرة على الرصيف. خلت الشوارع من المارة، ولكن داخل المطعم هناك ما يقارب الستة أشخاص يشربون الجعة، أو نبيذ سانتا لوتشيا أو الويسكي. انتظر بيف بهدوء وقد أراح مرفقه على المنضدة، بينما حكّ طرف أنفه الطويل بإبهامه. كانت عيناه يقظتين، وأخذ يراقب بشكل خاص رجلاً قصيراً وسميناً في رداء سروالي كان قد غدا ثملاً وصاخباً. وبين الفينة والأخرى يلقي نظرة على الأبكم الجالس لوحده على إحدى الطاولات في الوسط، أو إلى زبائن آخرين يجلسون قبالة المنضدة، ولكنّه يعود بنظره دوماً إلى الرجل الثمل في الرداء السرواليّ. بدأ الوقت يتأخر، وتابع بيف الانتظار بصمت من خلف المنضدة. في النهاية ألقى على المطعم نظرة فاحصة أخيرة، وتوجه إلى الباب الخلفي الذي يؤدي إلى الطابق العلوي.

دخل بهدوء إلى الغرفة في الطابق العلوي. كانت الغرفة مظلمة ولذلك دخلها بحذر. بعد أن مشى عدة خطوات ضرب إصبع قدمه بشيء صلب وانحنى ليتلمّسه. أوحى ملمسه بمقبض حقيبة مُلقاة على الأرض. لم يمض على وجوده في الغرفة سوى بضع ثوانٍ وكان على وشك مغادرتها عندما أنيرت الأضواء.

جلست أليس على السرير المجعد ونظرت نحوه.

«ما الذي تفعله هنا بهذه الحقيبة؟» سألته. «ألا يمكنك أن تتخلص من ذلك المجنون دون أن تعيد إليه ما يجعله يثمل؟»

«فلتستيقظي ولتنزلي بنفسك لطرده. اتصلي بالشرطة وليضعوه مع المتهمين وليأكل وقتها خبز الذرة مع البازلاء. هيّا يا سيدة برانن».

«سأفعل هذا إن بقي هنا حتى الغد، ولكن اترك الحقيبة وشأنها. فهي لم تعد ملك ذلك الطفيلي بعد الآن».

«أعرف الطفيليين وبلاونت ليس واحداً منهم. أنا نفسي... لا أعلم حقاً. ولكنني لست من ذلك النوع من اللصوص».

وضع بيف الحقيبة بهدوء على درج السّلم في الخارج. لم يكن الهواء عابقاً بالعفونة أو الرطوبة كما في الأسفل، وقد قرر البقاء هنا لبعض الوقت، ثمّ بلل وجهه بماء بارد قبل أن يعود.

«أخبرتك عمّا سأقوم به إن لم تتخلص من ذلك الرجل الليلة. أعلم أنك تسمح له بأخذ قيلولة في الخلف نهاراً، وتقدم له العشاء والجعة ليلاً، وها قد مرّ أسبوع ولم يدفع لك سنتاً. ستدمر أحاديثه وأفعاله الهوجاء كل فرصة بعيشٍ كريم».

«أنت لا تعرفين الناس، ولا تعرفين ما هو العمل الحقيقي؟» قال بيف. «أتى إليّ هذا الرجل الذي نتحدث عنه منذ اثني عشر يوماً غريباً عن البلدة. أعطانا في أول أسبوع عشرين دولاراً مقابل الخدمات. عشرين دولاراً بالحد الأدنى».

«ومنذ ذلك الوقت وهو يأكل ويشرب بالدين»، قالت أليس. «يعيش على الدين منذ خمسة أيّام، ويثمل باستمرار. هذا أمرٌ مشين، وفوق هذا فهو ليس سوى متبطل وغريب الأطوار».

«أحبّ غريبي الأطوار»، قال بيف.

«أعرف أنك تحبهم! أعرف أنّه عليك أن تحبهم يا سيد برانن فأنت واحد منهم».

فرك عينيه الزرقاوين، ولم يعد يعيرها أيّ اهتمام. طوال السنوات الخمس عشرة الأولى من زواجهما كانا يناديان بعضهما بأسمائهما الأولى. ثمّ أثناء إحدى مُشاجراتهما بدأا بمناداة بعضهما السيد والسيدة، ومنذ ذلك الوقت لم يتصالحا بما يكفي لتغيير الأمر.

«أحذرك فقط. عندما أنزل صباحاً لا أريد أن أراه».

ذهب بيف إلى الحمام، وبعد أن غسل وجهه قرر أن يأخذ بعض الوقت للحلاقة. كانت لحيته سوداءَ وكثّة، وكأنّها نمت خلال ثلاثة أيّام. وقف أمام المرآة وفرك خده مُفكراً. شعر بالأسف لأنّه تحدّث إلى أليس، فقد كان الصمت معها أفضل. وقد جعله بقاؤه بالقرب من تلك المرأة طوال الوقت شخصاً مُختلفاً عن ذاته الحقيقية. جعله قاسياً ووضيعاً وسوقياً مثلها تماماً. كانت عينا بيف جامدتين وثاقبتين، ونصف مخفيتين تحت جفنيه المتدليين بشكل ساخر. هناك خاتم زواج نسائي في الإصبع الخامس من يده الخشنة. كان الباب مفتوحاً خلفه، ومن المرآة تمكّن من رؤية أليس مستلقيةً على السرير.

«فلتُصغي»، قال بيف. «إنّ مشكلتك أنّك لا تملكين طيبة حقيقية. لم تحمل أيّة امرأة عرفتها هذه الطيبة الحقيقية التي أتحدث عنها».

«حسناً، أعرف أنك قادر على القيام بأمور لن يفخر أيّ رجل في هذا العالم بالقيام بها. أعرف أن...»

«ربما أعني أنك لا تملكين الفضول. فأنتِ لا ترين، أو تلاحظين أيّ شيء مهم يجري حولك. أنت لا تراقبين أو تفكرين أو تحاولين فهم أيّ شيء. قد يكون هذا في النهاية أكبر اختلاف بيننا».

كانت أليس شبه نائمة، ومن خلال المرآة راقبها بلا مبالاة. لم تكن تملك أيّة خصلة مميزة يمكنه أن يركّز اهتمامه عليها، وانتقل بنظرته من شعرها البني الباهت، إلى التضاريس المكتنزة لساقيها تحت الغطاء، وقادته الانحناءات الناعمة لوجهها إلى استدارة وركيها وفخذيها. عندما أشاح بنظره بعيداً عنها، لم تعلق أيّة سمة في ذاكرته، ولم يتذكّر سوى شكلها الكامل، من دون تفاصيل معينة.

«إن متعة المشهد أمر لن تعرفيه البتة».

وأتى ردها بصوتٍ مُتعب. «ذلك الرجل في الأسفل مشهد بحد ذاته، ومشهد مثير للفضول أيضاً. ولكنني اكتفيت منه».

«اللعنة، الرجل لا يعني شيئاً بالنسبة لي، إنّه ليس نسيباً أو صديقاً. لا تعرفين ما الذي يعنيه أن تهتمي بالكثير من التفاصيل، ومن ثمّ تعثري على شيء حقيقي».

قام بتشغيل المياه الساخنة وأخذ يحلق على عجل.

كان صباح الخامس عشر من شهر أيّار (مايو) عندما وصل جيك بلاونت إلى البلدة. لاحظه برانن على الفور وأخذ يراقبه. كان رجلاً قصيراً بكتفين عاليين كعارضتين، وشاربه صغيراً ومُشعثاً، وبدا وكأنّ دبوراً لدغه أسفل شفته السفلى. هناك سمات كثيرة متناقضة في الرجل، فرأسه كبير ومتناسق الشكل، ولكن رقبته رخوة ونحيلة كرقبة فتىً. بدا الشارب مزيفاً، وكأنّه أتى إلى حفلة تنكريّة وقد يسقط في أيّة لحظة فيما لو تحدث بسرعة كبيرة. جعله هذا يبدو رجلاً في منتصف العمر رغم الشباب البارز في جبهته العالية والناعمة وعينيه الواسعتين. كانت يداه ضخمتين، وقذرتين وقاسيتين، وارتدى حلّة كتانية بيضاءَ رخيصة. هناك شيءٌ مثير للضحك في الرجل، ولكن في الوقت ذاته سيخالجك شعور يمنعك من الضحك.

كان يطلب كأساً[1] كبيراً من الكحول يشربه خلال نصف ساعة. يجلس في كابينة[2]، ويتناول عشاءً كبيراً مكوّناً من الدجاج، ولاحقاً يقرأ كتاباً بينما يتناول الجعة. هذا ما حدث في البداية. ورغم مراقبة بيف الدقيقة لبلاونت إلّا أنّه لم يكن قادراً على التكهن بالأمور الجنونية التي حدثت لاحقاً. لم يرَ قبلاً رجلاً يتغير مراتٍ عديدة خلال اثني عشر يوماً. ولم يرَ رجلاً يشرب كثيراً ويبقى ثملاً لوقتٍ طويل.

1- ورد في الأصل (pint) وهي وحدة قياس اعتيادية لتقديم الجعة وتعادل نصف ليتر. (المترجمة)

2- كابينة عبارة عن طاولة معزولة بجدارين عن الطاولة التي قبلها وبعدها. (المترجمة)

رفع بيف طرف أنفه بإبهامه وحلق تحت شفته العليا. انتهى من حلاقة وجهه، وبدا وجهه ألطف. كانت أليس نائمةً عندما مر بغرفة النوم في طريقه للأسفل.

كانت الحقيبة ثقيلة. حملها إلى مدخل المطعم ووضعها عند آلة النقود حيث يقف عادة كل أمسية. وبشكل تلقائي ألقى نظرة متفحصة على المكان. لم تكن الغرفة مُكتظة كثيراً، فقد غادر بعض الزبائن، وما زال المكان على حاله. ما زال الأبكم يحتسي القهوة لوحده على إحدى الطاولات في الوسط، وما يزال السكّير يتحدث. لم يكن يوجه كلامه إلى أحد بعينه، أو إلى أيّ أحد قد يُصغي إليه. عندما أتى إلى المطعم في تلك الليلة كان رداء سروالي أزرق، بدلاً من البذلة الكتانية البيضاء التي يرتديها منذ اثني عشر يوماً. اختفت جواربه وكاحلاه مخدوشان وملطخان بالطين.

أصغى بيف بعناية إلى مونولوج السكير، والتقط شذراتٍ منه. بدا وكأن الرجل عاد إلى الحديث عن نوع غريب من السياسة. تحدث في الليلة السابقة عن أمكنة زارها في تكساس وأوكلاهوما وكارولاينا، وتطرق إلى موضوع ملاجئ القطط، ثمّ أصبحت دعاباته فظّة جداً فاضطر بيف إلى تقديم الجعة له لإسكاته. ولكن أغلب الأحيان لم يفهم أحد عمّا كان يتحدث عنه. كلام. كلام. كلام. خرجت الكلمات من حنجرته كشلال، ولكن المثير في الأمر تغييره للكنته، ونوع الكلمات التي استخدمها. تحدثَ أحياناً كعاملٍ في محلج قطن، وأحياناً كبروفيسور. استخدم كلمات طويلة جداً أوقعته في أخطاء قواعدية. كان من الصعب معرفة أيّ نوعٍ من الناس هو؛ لأنّه يتغير على الدوام. رفع بيف طرف أنفهِ بحذرٍ. لم يكن هناك أيّ ترابط في كلامه، ولكن عادة ما يكون الترابط الحقيقي موجوداً في العلاقة بين الكلام المُقال والدماغ الصادر عنه. لهذا الرجل عقلٌ جيد، أجل، ولكنه ينتقل من موضوع إلى آخر من دون منطقٍ يبرر هذا الانتقال. كان أشبه برجل يجنحُ عن السّكة الحديدية لسببٍ من الأسباب.

اتكأ بيف بكل وزنه على المنضدة، وأخذ يطالع صحيفة المساء. أتى في العنوان الرئيس: أن المجلس التشريعي للبلدة - وبعد أربعة أشهر من المداولات - وصل إلى قرار بأنّ الميزانية المحلية لا يمكنها تحمل تكلفة الإشارات الضوئية عند تقاطعات خطرة معينة في البلدة. كان في العمود الأيسر تقرير عن الحرب في الشرق. قرأ بيف العمودين بالاهتمام ذاته، وبينما تابعت عيناه الكلمات المطبوعة، بقيت حواسه مُتحفزة للضجة العالية حوله. عندما انتهى من قراءة المقالتين تابع النظر إلى الجريدة بعينين نصف مُغمضتين. شعر بيف بالتوتر فقد كان الرجل في ورطة، وعليه أن يصل إلى تسوية معه قبل حلول الصباح. علاوة على هذا شعر - ومن دون أيّ سببٍ- بأنّ شيئاً مُهماً سيحدث الليلة، لا يمكن لهذا لرجل أن يستمر بالتصرف هكذا إلى الأبد.

شعر بيف بأنّ شخصاً ما يقف عند المدخل، ورفع عينيه بسرعة. وقفت فتاةٌ صغيرةٌ بحدود الثانية عشرة بشعرٍ مضفورٍ وبهيئةٍ مُهلهلةٍ عند الباب، وأخذت تنظر إلى الداخل. ارتدت سروالاً خاكياً قصيراً وقميصاً أزرق وحذاء تنس، وبدت للوهلة الأولى كفتى. أبعد بيف الجريدة عندما رآها، وابتسم لها بينما توجهت نحوه.

«مرحباً يا ميك. هل كنت مع فريق فتيات الكشافة؟»

«لا»، أجابت. «لست عضوة فيه».

ومن زاوية عينه لاحظ أنّ السكير قد ضرب قبضته على الطاولة، وتحول عن الرجال الذين كان يتحدث معهم. أصبح صوت بيف أخشن بينما تحدث مع الفتاة الصغيرة أمامه.

«هل يعرف أهلك مكانك في هذا الوقت من بعد منتصف الليل؟»

«لا بأس في الأمر فهناك عصبة من الفتيان الذين يلعبون حتى وقتٍ متأخرٍ في حينا الليلة».

لم يرها هنا مع شخصٍ من عمرها أبداً، ولسنوات عديدة لحقت

أخاها الأكبر إلى كل مكان ذهب إليه. كانت عائلة كيلي عائلة كبيرة العدد. اعتادت ميك القدوم في أوقات أخرى، وهي تجرّ عربة فيها طفلان بأنفين يسيل منهما المُخاط. ولكن عادة ما تكون لوحدها إن لم تكن ترعى أحداً، أو تلاحق إخوتها الأكبر. وها هي تقف هنا، ويبدو أنّها غير قادرةٍ على اتخاد قرارٍ بشأن ما تريده، واستمرت بمسح شعرها الفاتح جداً والرطب بباطن يدها.

«أريد علبة سجائر، من النوع الأرخص لو سمحت».

أراد بيف أن يتحدث، ولكنّه تردد، ثمّ مدّ يده أسفل المنضدة. أخرجت ميك منديلاً، وبدأت تفّك عقدة في الزاوية حيث خبأت نقودها، وعندما هزّت العقدة وقعت العملات المعدنية على الأرض، وتدحرجت باتجاه بلاونت الذي وقف يدمدم مع نفسه. حدّق بلاونت لبرهة في العملات المعدنية كالدائخ، ولكن قبل أن تتمكن الفتاة من اللحاق بالعملات قرفص بتركيزٍ وبدأ يجمعها. خطا بتثاقلٍ نحو المنضدة، ووقف يهزّ بنسين وخمسة سنتات، وعملة من فئة العشرة سنتات في راحة يده.

«سبعة عشر سنت من أجل السجائر؟»

انتظر بيف، ونقلت ميك نظرها من رجلٍ إلى آخر. مازال السكير يحمل النقود بيده الكبيرة والقذرة، ثم وضعها في كومة صغيرة على المنضدة، وبهدوءٍ سحبَ بنساً، ونقره بطرف إصبعه على المنضدة.

«خمس عُملاتٍ للمتبجحين الذين زرعوا الحشيش، وخمسٌ للأغبياء الذين لفوه. هذا سنت لكَ يا بيف».

ثمّ حاول أن يركّز عينيه على عملة الخمسة سنتات ليقرأ الشعارات عليها. تابع اللعب بالعملتين الباقيتين بإصبعه وحركهما بشكلٍ دائري، وأخيراً دفعهما بعيداً.

«هذا تقدير متواضع للحرية والديمقراطية والطغيان. للحرية، والقرصنة».

وبهدوء التقط بيف النقود ووضعها في الدرج. بدت ميك وكأنّها تريد أن تبقى في المكان لبعض الوقت. نظرت إلى السكير نظرة طويلة، ثمّ حولت عينيها إلى وسط الغرفة حيث جلس الأبكم على طاولته لوحده، بعد وهلة حدّق بلاونت في الاتجاه نفسه. جلس الأبكم بصمتٍ وبجانبه كأس الجعة يرسم من دون اهتمام على الطاولة بعقبِ عود ثقاب مُحترق.

كان جيك بلاونت أول المتحدثين.

«أمر غريب! أشاهد هذا الرجل في نومي منذ ثلاث أو أربع ليالٍ، إنّه لا يدعني وشأني. ألم تلاحظ أنه لا يقول شيئاً البتة؟»

من النادر أن يناقش بيف أمر زبونٍ مع زبونٍ آخر.

«لا، لا يفعل»، أجاب على نحوٍ مُبهم.

«أمرٌ غريبٌ».

ونقلت ميك وزنها من رجلٍ إلى أخرى، ثمّ وضعت علبة السجائر في جيب سروالها القصير.

«لن يكون غريباً إن عرفت عنه أيّ شيء. يعيش السيد سينغر معنا، وقد استأجر غرفة في منزلنا»، قالت ميك.

«هل هذا صحيح؟» سأل بيف. «أقرّ أنني لم أعلم هذا».

مشت ميك باتجاه الباب، وأجابته دون أن تنظر حولها.

«أجل، إنّه يعيش معنا منذ ثلاثة أشهر».

حرر بيف كُمي قميصه، ثمّ أعاد طيهما إلى الأعلى بعناية. لم يُبعد عينيه عن ميك عند مغادرتها المطعم، وحتى بعد مرور عدة دقائق على مغادرتها تابع العبث بكُمي قميصه، والتحديق نحو المدخل، ثمّ قاطع يديه على صدره، والتفت إلى السكير مجدداً.

اتكأ بلاونت على المنضدة بتثاقل، وبدت عيناه البنيتان رطبتين ومفتوحتين على اتساعهما مع تعبيرٍ ذاهلٍ. أراد بشدةٍ الذهاب إلى الحمام إلى درجة أنّه وقف كالماعز. لاحت قطرات عرقٍ قذرة على رقبة بلاونت وبقعةُ زيتٍ على وجهه. كانت شفتاه مكتنزتين وحمراوين،

وغطى شعره البني جبهته، أمّا رداؤه السرواليّ فكان قصيراً جداً عليه، واستمر بشده عند منطقة الفرج.

«يا رجل، عليك أن تكون على دراية أفضل»، قال بيف أخيراً. «لا يمكنك أن تتصرف على هذا النحو. أتساءل لِمَ لَمْ يتمَّ اعتقالك إلى الآن بتهمة التشرد؟ يجب أن تصحو، تحتاج إلى الاغتسال وعليك أن تقصّ شعركَ. يا إلهي! أنت في هيئة غير لائقة لتتجول بين الناس».

عبس بلاونت وعضّ شفته السفلى.

«لا تعتبرها إهانة، ولا تغضب، افعل ما أقوله لك. عُد إلى المطبخ، وأخبر الفتى الأسود أن يجهز لك وعاءً كبيراً من الماء الساخن. أخبر ويلي أن يعطيك منشفة وصابونة ولتغتسل جيداً، ثمّ تناول بعض الحليب والخبز المُحمص، وافتح حقيبتك ولترتَدِ قميصاً نظيفاً وسروالاً، وغداً يمكنك أن تبدأ بفعل أيّ شيء تريده، وتعمل في أيّ مكانٍ تريد العمل فيه وترتب أمورك».

«أنت تعرف ما الذي يمكنك القيام به؟» قال بلاونت بثمالةٍ. «يمكنك فقط...»

«حسناً»، قال بيف بهدوء. «لا، لا يمكنني. فلتُحسن التصرف».

توجه بيف إلى نهاية المنضدة حيث يوجد برميل الجعة، وعاد بكأسين منها. التقط السكير كأسه على نحو أخرق، فانسكبت الجعة على يديه ولوث المنضدة. ارتشف بيف حصته باستمتاع واعٍ، ونظر إلى بلاونت بثباتٍ، وبعينين نصف مُغمضتين. لم يكن بلاونت غريب الأطوار رغمَ أنّ النظرة الأولى قد توحي بهذا الانطباع. يبدو وكأنّ شيئاً مشوهاً يعتمل في داخله، ولكن عندما تنظر إليه عن كثب يبدو طبيعياً وكما يجب أن يكون. إذاً، إن لم تكن هذه الغرابة في جسده، فلا بدّ وأنّها في عقله. يشبه رجلاً قضى وقتاً في السجنِ أو ارتاد جامعة هارفارد أو عاش مع أجانب من أمريكا الجنوبية لوقتٍ طويلٍ. يبدو كشخصٍ تواجد في مكان لا يُمكن أن يزوره الناس، أو قام بشيء لن يقوم به الآخرون.

أمال بيف رأسه إلى جانب واحد وقال، «من أين أنت؟»

«من اللامكان».

«لا بدّ وأنك ولدت في مكان ما. كارولاينا الشمالية؟ أم تينيسي؟ أم آلاباما؟ أم مكان ما...؟»

كانت عينا بلاونت حالمتين وزائغتين.

«كارولانيا»، أجاب.

«من الواضح أنك تجولت كثيراً»، ألمح بيف بلطف.

لم يُصغِ السكير، وأبعد ناظريه عن المنضدة. أخذ يحدق نحو الظلام في الخارج، نحو الشوارع الخالية من المارة، وبعد برهة توجه إلى الباب بخطوات مترنحة ومترددة.

«*وداعاً*[1]».

عاد بيف وحيداً مجدداً، وألقى على المطعم إحدى نظراته التفقدية السريعة. تجاوزت الساعة الآن الواحدة صباحاً، وهناك أربعة أو خمسة زبائن في المطعم. ما زال الأبكم جالساً لوحده على الطاولة وسط الغرفة. حدق بيف نحوه دون اهتمام، وهزّ بقايا الجعة في قعر كأسه، ثمّ أنهى شرابه بجرعة واحدة بطيئة، وعاد إلى جريدته المفرودة أمامه على المنضدة.

ولكنه في هذه المرة لم يتمكن من التركيز على الكلمات أمامه. تذكر ميك وتساءل إن كان عليه بيعها علبة السجائر؟ وإن كان التدخين ضاراً بالأطفال؟ وفكر بالطريقة التي نظرت بها إليه ميك شزراً، ورفعت غرّتها براحة يدها. فكر بصوتها الصبياني الأجش، وبعادتها في ارتداء سروال قصير خاكي، والتخايل كراعي بقر في فيلمٍ، واجتاحه إحساس بالرّقة والارتباك.

حول بيف اهتمامه بقلق نحو سينغر. جلس الأبكم، ويداه في جيبيه، وقد فتر كأس الجعة نصف الملآن أمامه. سيُقدم إلى سينغر جرعة ويسكي كهدية قبل أن يغادر، وما قاله لأليس صحيح فهو يحب غريبي

1- قالها بلاونت هنا بالإسبانية (المترجمة).

الأطوار حقاً، ولديه شعور خاص تجاه المرضى والمعاقين. فكلما أتى شخص ذو شفّة أرنبية أم مصاب بالسل إلى المكان قدّم له الجعة، أم زبون أحدب الظهر أم مُعاق جداً قدّم له ويسكي على حساب المطعم. هناك رجل فقد عضوه ورجله في انفجار مرجلٍ، وفي كل مرة يأتي فيها إلى البلدة هناك كأسٌ كبيرٌ من الجعة بانتظاره في مطعم كافيه نيويورك. لو كان سينغر من النوع الشغوف بالشراب، لكان حصل على الكحول بنصف السعر، وفي أيّ وقتٍ أراد. هزّ بيف رأسه، ثمّ وبكل عناية طوى جريدته، ووضعها تحت المنضدة مع جرائد أخرى عديدة. في نهاية الأسبوع يأخذ الجرائد إلى المخزن خلف المطبخ حيث يحتفظ بملف كامل من الجرائد المسائية بتواريخ متسلسلة منذ واحد وعشرين عاماً.

في الساعة الثانية صباحاً دخل بلاونت المطعم مجدداً. أحضر معه رجلاً زنجياً يحمل حقيبة سوداء. حاول السّكير أن يشده نحو المنضدة ليتناول شراب، ولكن الزنجي غادر حالما أدرك السبب الذي دفعه من أجله بلاونت للدخول إلى المكان. تعرّف بيف هذا الزنجي الذي يعمل كطبيب في البلدة منذ وقت طويل. هناك قرابة تربط الطبيب بالشاب ويلي الذي يعمل في المطبخ.

وقف السّكير في مكانه.

«ألا تعلم أنّه لا يمكنك أن تُدخل الزنوج إلى مكان يشرب فيه البيض؟» سأله أحدهم.

أخذ بيف يراقب ما يحدث من بعيد. كان بلاونت غاضباً جداً، وأصبح من السهل الآن إدراك مدى ثمالته.

«أنا نصف زنجي»، صاح في تحدٍ.

راقبه بيف بتيقظٍ، وغدا المكان هادئاً. وبدا مع فتحتي أنفه الغليظتين، وبياض عينيه المتموج، وكأنّه صادق فيما يقول بعض الشيء.

«نصفي زنجي وإيطالي ومهاجر من الطبقة الفقيرة وصيني. أنا كل هؤلاء».

سرى ضحكٌ في المكان.

«وأنا دنماركي وتركي وياباني وأمريكي».

مشى جيك بترنح نحو الطاولة حيث جلس الأبكم يشرب قهوته. كان صوته عالياً وأجشاً.

«أنا من يعلم، أنا الغريب على أرضٍ غريبةٍ».

«فلتهدأ»، قال له بيف.

لم يُعِرْ بلاونت اهتماماً لأحد في المكان، باستثناء الأبكم، فكلاهما كانا يُحدقان ببعضهما. بدت عينا الأبكم جامدتين ولطيفتين كعيني قطٍ، وكأنّ جسده بأكمله يُصغي. كان السّكير في حالة اهتياج.

«أنت الوحيد في هذه البلدة الذي يفهم ما الذي أعنيه»، قال بلاونت. «وأنا أتحدث إليك في عقلي منذ يومين لأنني أعلم أنك تفهم الأشياء التي أقولها».

علا ضحكُ أناسٍ في إحدى الكبائن، لأنّ السكير لم يكن يعلم أنّه اختار أصمّ وأبكم ليتحدث إليه. راقب بيف الرجلين بنظراتٍ مقتضبةٍ وسريعةٍ، وأصغى السمع جيداً.

جلس بلاونت على الطاولة، ومال باتجاه سينغر. «هناك من يعرفون، وهناك من لا يعرفون، ومن بين عشرة آلافِ شخصٍ لا يعلم هناك شخص واحد يعلم فقط. هذه المعجزة الأعظم - حقيقة أنّ هذه الملايين تعلم الكثير، ولكنها لا تعلم هذا. الأمر أشبه بما حصل في القرن الخامس عشر عندما صدّق الجميع أنّ العالم مُسطح، ولم يعلم الحقيقة سوى كولومبوس والقلة فقط. ولكن الأمر مُختلف، لأنّ معرفة حقيقة كروية الأرض تطلبت موهبة حقيقية، بينما هذه الحقيقة واضحة لدرجة أنّ عدم معرفة أحدٍ بها أشبه بمعجزة تاريخية أيّها الذكي».

أراح بيف مرفقيه على المنضدة، ونظر إلى بلاونت بفضولٍ وسأله، «هل تعلم ما هي هذه الحقيقة؟»

«لا تصغِ إليه»، قال بلاونت. «لا تبالِ بذلك السافل الأخرق والفضولي صاحب الخدود المكتنزة، لأنّه وكما ترى عندما يلتقي أشخاصٌ مثلنا، فهذا حدثٌ بحد ذاته ولكنه حدثٌ نادر. نلتقي أحياناً، ولا نعرف أنّ الآخر يعلمُ. هذا أمرٌ سَيِّئ، وحدث معي مراتٍ كثيرة، فكما ترى هناك القليل من أمثالنا».

«ماسونيون؟» سأل بيف.

«فلتخرس! أو سأخلعُ ذراعك، وأبرحكَ ضرباً بها»، صاح بلاونت عالياً. واقترب أكثر من الأبكم، وخرج صوته كهمسٍ ثملٍ.

«لماذا حدث هذا؟ لمَ تستمر معجزة الجهل هذه؟ هنالك سببٌ واحدٌ. المؤامرة - مؤامرة كبيرة وماكرة. مؤامرةٌ ظلامية».

تابع الرجال في الكابينة الضحك على السّكير الذي استمر بمحاورة الأبكم، إلّا أنّ بيف كان جاداً. أراد بلاونت أن يتأكد إن كان الأبكم يفهم تماماً ما يُقال له. حرّك الأبكم رأسه مراراً، وبدا مستغرقاً في التفكير. إنّه بطيء فقط، هذا كل ما في الأمر. بدأ بلاونت بإلقاء بعض النكات أثناء هذا الحديث عن المعرفة، ولم يبتسم الأبكم سوى بعد مرور لحظاتٍ على إلقاء هذه الملاحظة المُضحكة. بعدها عاد الحديث كئيباً مجدداً، وعلقت الابتسامة على وجهه لوقتٍ أطول. كان الرجل غريباً من كل بد، والناس يراقبونه حتى قبل أن يدركوا وجود شيء مُختلف فيه. عيناه تدفعان المرء إلى الاعتقاد بأنّه سمع أموراً لم يسمع بها أحد، وأنّه يعلم أموراً لا يمكن لأحد التكهن بها؛ لم يبدُ ككائن بشري حقيقي.

انحنى بلاونت من فوق الطاولة، وخرجت الكلمات من فمه وكأنّ سداً داخله قد انفجر، ولم يعد بيف قادراً على فهمه. كان لسان بلاونت ثقيلاً جداً بسبب الشراب، وتحدث بوتيرة جنونية إلى درجة أنّ كلماته تداخلت مع بعضها. تساءل بيف عن المكان الذي سيذهب إليه بلاونت عندما تطرده أليس، وهي ستفعل هذا في الصباح، هذا ما قالته.

تثاءب بيف بتعبٍ، ووضع أطراف أصابعه على فمه المفتوح إلى أن

ارتخى فكه. قاربت الساعة الثالثة صباحاً، إنّها الساعة الأكثر ركوداً في النهار والليل.

كان الأبكم صبوراً، وأصغى إلى بلاونت لساعة تقريباً. وبدأ الآن ينظر إلى الساعة بين الحين، والآخر. لم يلحظ بلاونت هذا وتابع حديثه من دون توقف. أخيراً توقف بلاونت عن الكلام ليلف سيجارة، عندها هزّ الأبكم رأسه باتجاه الساعة، وابتسم بتلك الطريقة الغامضة والخاصة به. نهض عن الطاولة، ويداه ما زالتا في جيبيه كما هي عادته ثمّ خرج بسرعة.

كان بلاونت ثملاً جداً لدرجة أنّه لم يدرك ما حدث، ولم ينتبه إلى أنّ الأبكم لم يُقدّم أيّة إجابات، وأخذ ينظر حوله في المكان، وفمه مفتوح وعيناه المخمورتان تدوران في المكان. بدأ العرق يغزو جبهته، وأخذ بلاونت يضرب الطاولة بقبضتيه غاضباً، لم يعد بالإمكان السماح له بالاستمرار لوقتٍ أطولٍ.

«تعال إلى هنا»، قال بيف بلطفٍ. «لقد غادر صديقك».

كان الرجل ما يزال يبحث عن سينغر، ولم يبدُ ثملاً كما كان قبل قليل، وعلت وجهه نظرة قبيحة.

«لدي شيء من أجلك هنا، وأريد أن أتحدث معك قليلاً». لاطفهُ بيف.

نهض بلاونت عن الطاولة، وتوجه بخطوات كبيرة، ومضطربة إلى الشارع مجدداً.

اتكأ بيف على الجدار، ثمّ خرج ودخل مرتين، ففي نهاية الأمر لم يكن هذا من شأنه. كانت الغرفة فارغة، وهادئة جداً، وطالت الدقائق. أرخى رأسه إلى الأمام من السأم، وبدا وكأن كل حركة في الغرفة تُغادر المكان ببطء؛ المنضدة والوجوه والكبائن والطاولات والمذياع في الزاوية ومراوح السقف التي تئزّ. بدا كل شيءٍ ثقيل الوطأة وساكناً.

لا بدّ أنّ النعاس قد غلبه، فقد كانت هناك يدٌ تهزّ مرفقه. عاد إلى وعيه ببطء، ونظر ليعرف ما الذي يريده هذا الشخص الذي يهزّه. وقف الفتى

الأسود ويلي الذي يعمل في المطبخ أمامه، وقد ارتدى قبعته ومئزره الأبيض الطويل.

تكلّم ويلي بتلعثم وبدا منفعلاً جداً حيال ما كان يحاول قوله:

«وهكذا ضرب بقبضته على هذا الجدار الحجري».

«ماذا؟»

«إنّه في أحد الأزقة على بعد شارعـيـيـيـن».

عدّل بيف كتفيه المسترخيين وعدّل ربطة عنقه.

«ماذا؟»

«يريدون أن يحضروه إلى هنا وقد يصلون في أيّة لحظة...»

«ويلي»، قال بيف بصبرٍ. «فلتبدأ من البداية ودعني أفهم الأمر».

«الرجل الأبيض القصير صاحب الششششوارب».

«أجل، السيد بلاونت».

«حسناً، لم ألحظ كيف بدأ الأمر. كنت أقف وراء الباب الخلفي عندما سمعت صوت شجار. بدا الأمر وكأنّ عراكاً كبيراً قد نشب في الزقاق، ولهذا رررركضت لأرى ما الذي يحدث، ووجدت هذا الرجل الأبيض مهتاجاً جداً. كان ينطح رأسه بأحد الجدران الحجرية ويضربه بقبضتيه، ويكيل السباب ويُقاتل. لم أر رجلاً أبيض يُقاتل مثله قبلاً. كان يضرب هذا الجدار هنا. قد يكون رأسه مُصاباً بالنظر إلى الطريقة التي ضرب فيها. ثمّ أتى رجلان أبيضان كانا قد سمعا الضجة ووقفا ونظرا...»

«ما الذي حدث؟»

«حسناً - أنت تعرفه، إنّه السيد الأبكم - كانت يداه في جيوبه - هنا...»

«السيد سينغر».

«وصل وأخذ ينظر حوله ليفهم ما الذي يحدث. وعندما رآه السيد ببببلاونت بدأ يتحدث ويصرخ. ثمّ وعلى حين غرة سقط على الأرض، وربمّا شجّ رأسه. أتى رجل شرطة وأخبره أحد الحاضرين: أنّ السيد بلاونت يقيم هنا».

هزّ بيف رأسه، ورتّب القصة التي سمعها للتو ترتيباً أدّق، ثمّ فرك أنفه، وفكر قليلاً.

«قد يصلون إلى هنا في أيّة لحظة». توجه ويلي إلى الباب، وألقى نظرة على الشارع، ثمّ استهل، «لقد أتوا وهم يجرونه».

احتشد بضعة متفرجين، ورجل شرطة في المطعم. في الخارج وقفت عاهرتان تنظران من النافذة الأمامية. من الغريب حقاً كيف يحتشد عدد كبير من الناس من كل حدب وصوب في كل مرة يقع فيها أمرٌ غير اعتيادي.

«لا فائدة من إثارة المزيد من الإزعاج غير الضروري»، قال بيف. نظر إلى الشرطي الذي كان يُمسك بالسّكير. «على الجميع المغادرة أيضاً».

وضع الشرطي السّكير على كرسي، ودفع بالحشد إلى الشارع مجدداً، ثمّ عاد إلى بيف.

«قال أحدهم أنّه يقيم معك».

«لا، ولكن لنفرض أنه يقيم معي»، قال بيف.

«هل تريدني أن آخذه معي؟»

فكر بيف: «لن يُسبب أيّة متاعب أخرى الليلة. بالطبع لا يمكنني أن أكون مسؤولاً عنه، ولكن أعتقد أنّه سيهدأ إن آويته».

«حسناً، سأعود مرة أخرى قبل أن تنتهي نوبتي».

بقي بيف وسينغر وبلاونت لوحدهم، ولأول مرة بعد إحضاره إلى هنا يولي بيف اهتماماً بالرجل السّكير. بدا وكأنّ بلاونت قد آذى فكه بشدة. أجلسوه على الطاولة، يده الضخمة على فمه ويهزّ إلى الخلف والأمام. كان رأسه ينزف، وجرى الدم على صدغه، وتقرّحت مفاصل أصابعه، وبدا قذراً جداً وكأنّه سُحب من مؤخرة عنقه خارج فتحة تصريف صحي. بدا منهاراً كُلياً وكأن كل العُصارة قد سُحبت منه. جلس الأبكم إلى الطاولة قبالته يحدق في المشهد بعينيه الرماديتين.

ثمّ اكتشف بيف أنّ بلاونت لم يؤذِ فكّه، بل وضع يده على فمه لأنّ شفتيه ترتجفان. وبدأت الدموع تجري على وجهه القذر، وبين الفينة والأخرى نظر من طرف عينه إلى بيف وسينغر. غضب لأنّهما رأياه يبكي فقد كان الأمر مُحرجاً. هزّ بيف كتفيه نحو الأبكم، ورفع حاجبيه، وكأنّه يقول «ما العمل؟» أمال سينغر رأسه جانباً.

كان بيف في ورطة، وتساءل متأملاً المشهد كيف يمكنه أن يتعامل مع الموقف. كان يحاول أن يتخذ قراراً عندما أخذ الأبكم قائمة الطعام، وقلبها، وكتب عليها.

«إن لم يكن بإمكانك التفكير بمكان يبيت فيه يمكنني أخذه معي إلى المنزل. ولكن أولاً سيكون بعض الحساء والقهوة مُفيداً له».

وبكل ارتياح هزّ بيف رأسه بقوةٍ، ثمّ وضع على الطاولة ثلاثة أطباق من وجبة عشاء الليلة الماضية التي كانت عبارة عن صحني حساء وقهوة وتحلية. ولكن بلاونت لم يأكل، ولم يكن ليُبعد يده عن فمه وكأنّ شفتيه جزءٌ خفي منها. لم يكن يريد أن يُبرزه. تنفس في شهقاتٍ غير منتظمة، واهتزت كتفاه الضخمتان بعصبيةٍ. أشار سينغر إلى طبقٍ تلو الآخر، بينما اكتفى بلاونت بالجلوس، ويده على فمه بينما هزّ رأسه.

أخذ بيف يتحدث ببطء حتى يراه الأبكم.

«العصبيّة...» قال محاولاً بدء حديث.

كان بخار الحساء ما زال يتصاعد في وجه بلاونت الذي وضع ملعقته فيه بيدٍ مرتجفةٍ. شرب الحساء، وأكل لقمة من طبق التحلية. كانت شفتاه الغليظتان واللحميتان ترتجفان، وقد أحنى رأسه جداً فوق طبقه.

انتبه بيف إلى هذا، وفكّرَ أنّ لكل شخص جزءاً فيزيولوجياً خاصاً يحميه على الدوام، وكان هذا الجزء عند الأبكم يديه، أمّا الفتاة ميك فقد اعتادت شدّ بلوزتها بأصابعها عند الصدر حتى تمنع القماش من الاحتكاك بحلمتي ثدييها الفتيين والطريين، واللتين بدأتا تبرزان على

ثدييها. أمّا بالنسبة إلى أليس فكان هذا الجزء شعرها، فهي لم تكن تسمح له بالنوم معها إن دهن فروة رأسه بالزيت. ولكن ماذا عنه؟

استمر بيف بلفٍّ خاتم الزواج في إصبعه الصغير. على أيّ حال بات يعلم أيّ جزء منه أصبح خارج هذه المعادلة، تلك الندبة العميقة على جبهته. حرّك يده في جيبه بتوتر وتحسس عضوه. أخذ يصفر بأغنية ونهض عن الطاولة. من الغريب حقاً ملاحظة هذا الجزء الجسدي المميز في الناس.

ساعد بيف وسينغر بلاونت الذي ترنح بضعفٍ لينهض على قدميه. توقف بلاونت عن البكاء الآن، ولكنه بدا وكأنّه يُفكر بأمرٍ ما مُحرج ومُحزن، وسار بالاتجاه الذي كان يُقاد إليه. أحضر بيف الحقيبة من خلف المنضدة، وشرح للأبكم عنها. بدا سينغر، وكأنّ ما من شيء يمكن أن يُفاجئه.

رافقهما بيف إلى المدخل.

«فلتتمالك نفسك، ولتبتعد عن المشكلات»، قال بيف لبلاونت.

بدأ سواد سماء الليل بالتراجع والتحول إلى أزرق غامق مع بزوغ ضوء الصباح الجديد، ولم يكن هناك سوى بضع نجمات فضية واهنة. الشوارع خاوية وهادئة وباردة تقريباً. حمل سينغر الحقيبة بيده اليسرى، وبيده الأخرى الحُرّة دعم بلاونت، ثمّ هزّ رأسه مودعاً بيف، وتابعا طريقهما معاً على الرصيف. بعد أن قطعا مسافة نصف شارع حولتهما العتمة الزرقاء إلى خيالات سوداء. بدت هيئة الأبكم مستقيمة وثابتة، بينما اتكأ عليه بلاونت المترنح بمنكبيه العريضين. عندما لم يعد قادراً على رؤيتهما، بقي بيف واقفاً لدقيقة، وتفحص السماء. أبهره وأوهنه عُمقها الواسع. فرك جبهته، وعاد إلى المطعم المُضاء بشدة.

وقف بيف خلف آلة النقود وانقبض وجهه وتصلب بينما حاول استعادة الأشياء التي حدثت خلال الليل في ذاكرته. انتابه إحساسٌ أنّ عليه شرح شيءٍ لنفسه. استعاد الأحداث بكل تفاصيلها المملة ولكنه بقي مُحتاراً.

فُتح الباب وأُغلق عدة مرّات، وتدفقت دفعة مفاجئة من الزبائن. انتهى الليل، ووضع ويلي بعض الكراسي على الطاولات، وأخذ يُنظف الأرضية. بات مستعداً للعودة إلى المنزل، وغنى بينما عمل. إنّ ويلي شخص كسول، ولطالما توقف عن العمل في المطبخ ليعزف قليلاً على الهارمونيكا التي يحملها معه على الدوام. أخذ يمسح الأرضيّة بحركات سريعة، ويهمهم بموسيقى زنجية غريبة.

ما زال المكان مُزدحماً، فهذه الساعة التي يلتقي فيها الرجال الذين سهروا طوال الليل بالرجال الصاحين لتوهم والجاهزين لبدء يوم جديدٍ. قدّم النادل الناعس الجعة والقهوة. لم يكن هناك أيّة ضجة أو أحاديث، وبدا وكأنّ كل شخص لوحده. أسبغ هذا الارتياب المتبادل بين الرجال الذين استفاقوا للتو والرجال الذين وصلوا إلى نهاية ليلةٍ طويلةٍ شعوراً بالاغتراب.

بدا مبنى البنك المقابل كالحاً جداً في ضوء الفجر، وشيئاً فشيئاً بدأ يتضح لون جدرانه الحجرية البيضاء. وأخيراً عندما بزغت أشعة الشمس الأولى، وأضاءت الشارع ألقى بيف نظرة أخيرة تفحّص بها المكان، وتوجه إلى الطابق العلوي.

دخل إلى الغرفة مُحركاً مقبض الباب بصخبٍ، لتنزعج أليس.

«يا إلهي! يا لها من ليلةٍ!»

استيقظت أليس متأهبة، وجلست على السرير المجعد كوجهٍ متجهم وتمططت. بدت الغرفة بلونٍ رمادي في ضوء شمس الصباح الباكر والحار. هناك زوج من الجوارب المرتخية والرثّة معلقٌ على حبل ستارة النافذة.

«أما زال ذلك السّكير الأحمق في الأسفل؟» سألت بإلحاح.

خلع بيف قميصه، وتفحص الياقة إن كانت نظيفة كفاية ليرتديه مجدداً.

«فلتنزلي، ولتتأكدي بنفسك. أخبرتك أنّ ما من أحد سيمنعك من طرده».

مدت أليس يدها وهي ما تزال ناعسة إلى الأرض بجانب السرير، وتناولت إنجيلاً، وقائمة طعام وكتاباً خاصاً بمدرسة الأحد. قلّبت بسرعة

صفحات الإنجيل الرقيقة إلى أن وصلت إلى مقطع معيّن، وبدأت تقرأ وهي تلفظ الكلمات بصوتٍ عالٍ وتركيز شديد. كان اليوم الأحد، وهي تُحضّر درسها الأسبوعي الذي ستعطيه لمجموعة من الصبية في كنيستها.

«كان يسوع سائراً على شاطئ بحر الجليل، فرأى سمعان وأخاه أندراوس يلقيان الشبكة في البحر، لأنهما كانا صيادين».

فقال لهما: «اتبعاني أجعلكما صيادي بشر».

«فتركا الشباك لوقتهما، وتبعاه».

توجه بيف إلى الحمام ليغتسل، واستمرت التمتمة الهادئة الصادرة عن أليس وهي تدرس بصوت عالٍ. أصغى بيف إليها.

«ـ وفي الصباح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يصلي هناك. لحق به سمعان وبقية من تبعوه، وعندما عثروا عليه قالوا له: الجميع يبحث عنك».

انتهت أليس من القراءة، وترك بيف الكلمات تدور مجدداً في داخله بلطفٍ. حاول أن يفصل الكلمات الحقيقية عن صوت أليس. أراد أن يتذكر المقطع كما اعتادت أمّه أن تقرأه عندما كان ولداً. حدق بحنين نحو خاتم الزواج في إصبعه الخامس والذي كان يعود لأمّه. تساءل مجدداً كيف كانت لتشعر حيال تركه للكنيسة والدين؟

«درس اليوم عن اجتماع المريدين»، قالت أليس لنفسها، وهي تُحضر الدرس. «والموضوع هو (الجميع يبحث عنك.)»

أيقظَ بيف نفسه على الفور من تأمله، وفتح صنبور الماء حتى آخره. خلع صِداره، وبدأ يغسل نفسه. لطالما اهتم بنظافته من حزام السروال وإلى الأعلى، وصباحاً يغسل صدره، وذراعيه ورقبته وقدميه بالصابون. يغتسل في حوض الاستحمام وينظف بقية أجزاء جسمه مرتين في كل فصلٍ من فصول السنة.

وقف بيف قرب السرير ينتظر بفارغ الصبر أن تنهض أليس، وعرف بالنظر إلى النافذة أنّ اليوم سيكون صحواً وحاراً جداً. انتهت أليس من قراءة الدرس وهي ما زالت مستلقية بكسلٍ على السرير رغم معرفتها أنّه ينتظرها لتنهض. تصاعد في داخله غضب هادئ وحزين. ضحك

بسخريةٍ، ثمّ قال بكل مرارةٍ: «إن أحببت يمكنني أن أجلس وأقرأ الجريدة لبعض الوقت، ولكن أرغب بأن تدعيني أنام الآن».

بدأت أليس ترتدي ثيابها ورتب بيف السرير، وببراعة عكس الأغطية بكل الطرق الممكنة، فوضع الأغطية العلوية في الأسفل، ثمّ قلبها بالعكس. عندما أصبح السرير مرتباً انتظرها لتغادر الغرفة قبل أن يخلع سرواله، ويتمدد تحت الأغطية. برزت قدماه من تحت الغطاء وبدا شعر صدره الخشن أسود جداً على أرضية الوسادة. اغتبط لأنّه لم يُخبر أليس بما حصل مع السّكير. أراد أن يتكلم مع أحدهم عن الموضوع، ربما إن سرد الوقائع بصوتٍ عالٍ قد يتمكن من معرفة ما الذي يحيره. تكلّم كثيراً ابن السافلة ذاك، ولكن ما من أحدٍ فهم ما كان يقصده بكلامه، والأرجح أنّه لم يفهمه أيضاً. غريبة هي الطريقة التي حام بها حول الأبكم، واختياره له ومحاولته أن يُعبر له عن كلّ مكنوناته كهدية مجانية.

لماذا؟

لأنّ بعض الرجال يُعبرون عن كل شيء شخصي في وقت ما قبل تخمره وتحوله إلى سُم، فإما يفرغونه في كائن بشري، أو في فكرة بشرية. يفعلون هذا لأنّه من سماتهم. كان الموضوع (الجميع يبحث عنك). ربما هذا هو السبب، لربما كان صينياً، فلقد قال إنّه كذلك، وربما كان زنجياً وإيطالياً ويهودياً، وربما إن صدّق الأمر كفاية، فقد يكون ما قاله بلاونت الحقيقة. كل شخص وكل شيء قاله كان...

أفرد بيف ذراعيه خارج الأغطية، وقاطع قدميه العاريتين. بدا وجهه مُسناً أكثر في ضوء الصباح مع جفنيه المُنكمشين والمُغلقين ولحيته الكثّة والمتصلبة كالمعدن على وجنتيه وفكّه. وتدريجياً بدأ فمه يزداد طراوة واسترخاءً. دخلت أشعة الشمس الذهبية الحادة عبر النافذة، وجعلت الغرفة حارّة ومضيئة. استدار بيف بتعبٍ، وغطّى عينيه بيديه. لم يكن هناك أحد سواه، سوى بارثيميلو - بيف العجوز بقبضتين ولسانٍ لاذعٍ - السيد برانن - بعينه.

-3-

أيّقظت أشعة الشمس الباكرة ميك رغم أنها سهرت لوقتٍ متأخرٍ جداً الليلة الفائتة. كان الجو حاراً جداً حتى على تناول القهوة والفطور لهذا تناولت ماءً مُثلجاً مع بعض الشراب الحلو المُركز والبسكويت البارد. عبثت في المطبخ قليلاً ثمّ خرجت إلى الشرفة الأمامية لتقرأ المجلات الفكاهية. فكرت أنّ السيد سينغر سيكون على الشرفة يُطالع الجريدة، كما هي عادته صباح الأحد، ولكن السيد سينغر لم يكن هناك. قال لها والدها فيما بعد أنّ سينغر وصل إلى البيت الليلة الماضية مُتأخراً ومعه شخصٌ، ثمّ صعدا إلى غرفته. انتظرت السيد سينغر لوقتٍ طويل فقد نزل جميع النُزلاء باستثنائه. وأخيراً عادت إلى المطبخ، وأخذت رالف من على كرسيه العالي وألبسته ثياباً جديدة ثمّ مسحت وجهه. وعندما عاد بابر إلى المنزل من مدرسة الأحد كانت ميك مستعدة لأخذ الأولاد خارجاً. تركت بابر يركب العربة مع رالف لأنّه كان حافياً والرصيف الحار قد يحرق قدميه. جرّت ميك العربة لمسافة ثمانية شوارع، إلى أن وصلوا إلى منزلٍ كبير قيد البناء، وما زال السُلم الذي يصل إلى حافة السطح في مكانه. تحلّت بالشجاعة وبدأت تتسلق.

«هلّا اهتممت برالف»، صرخت نحو بابر، «انتبه من البعوض، ولا تجعله يغفّ على جفنيه».

مرّت خمس دقائق. وقفت ميك وثبتت نفسها باستقامة. أفردت ذراعيها كجناحين. هذا هو المكان الذي يريد الجميع الوقوف عليه،

القمة، ولكن أولاداً كثراً فشلوا في الوصول إليها. خاف معظمهم، لأن من يفقد توازنه ويسقط عن الحافة سيموت. برزت سقوف البيوت المجاورة وقمم الأشجار الخضراء من كل مكان. وعلى الجانب الآخر من البلدة هناك أبراج الكنيسة ومداخن المصانع. السماء بلونٍ أزرق زاهٍ وحارٍ كالنار، وقد حولت الشمس لون كل شيء على الأرض إلى الأبيض أو الأسود الصارخ.

أرادت أن تُغني وصعدت كل الأغاني التي تعرفها أعلى حلقها، ولكن لم يخرج أيّ صوت. في الأسبوع الماضي أطلق فتىً كبير وصل إلى أعلى نقطة من السطح صرخة، ثمّ بدأ يصيح عالياً ويلقي خطاباً كان قد تعلمه في المدرسة الثانوية:

«أيّها الأصدقاء، أيّها الرومان، يا مواطنيّ فلتعيروني آذانكم!»

شيء ما في الوصول إلى القمة يمنح شعوراً جامحاً، ويجعلك ترغب بالصراخ أو الغناء أو رفع ذراعيك والطيران.

شعرت ميك بنعل حذاء التنس الذي ترتديه ينزلق، فباعدت قدميها لتساعد نفسها على تجاوز أعلى السطح. العمل على المنزل شبه مُنتهٍ، وسيكون من أكبر الأبنية في الحي، وهو مؤلف من طابقين مع سقفٍ عالٍ وسطحٍ منحدرٍ جداً أكثر من أيّ سطحِ بيتٍ رأته قبلاً، ولكن عاجلاً أو آجلاً سينتهي العمل عليه، وسيغادر النجارون، وسيضطر الأولاد إلى البحثِ عن مكان آخر للعب.

كانت لوحدها، وما من أحد بجوارها. وعمّ الهدوء المكان. أخذت تُفكر لبعض الوقت، وتناولت من جيب سروالها القصير علبة السجائر التي اشترتها الليلة الفائتة. ابتلعت الدُخان على مهل، ومنحتها السيجارة شعوراً مُسكراً. شعرت برأسها ثقيلاً ورخواً فوق كتفيها، ولكن كان عليها أن تُنهي السيجارة.

(م. ك.)

هذا ما ستكتبه على كل شيء عندما تبلغ السابعة عشرة، وتصبح مشهورة جداً. ستعود إلى المنزل في سيارة باكارد حمراء وبيضاء نُقش على أبوابها حروف اسمها الأولى. ستُطرز الحرفين (م. ك.) على مناديلها، وثيابها الداخلية. ربما ستصبح مُخترعة عظيمة، ستخترع مذياعاً صغيراً جداً بحجم حبة البازلاء، يمكن للناس أن يحملوه إلى كل مكان، ويضعونه في آذانهم. ستخترع أيضاً آلات طيران يمكن للناس أن يثبتوها على ظهورهم كحقيبة ظهر، ويطوفون حول العالم. بعد هذا ستكون أول شخص يصنع نفقاً كبيراً يقطع العالم ويصل إلى الصين حيث سيتمكن الناس من دخوله في بالونات كبيرة. ستكون هذه أول الأشياء التي ستقوم باختراعها، لقد خططت لكل هذا مُسبقاً.

عندما أنهت ميك نصف سيجارتها سحقتها، وقذفت بعقبها من على السطح المنحدر. انحنت إلى الأمام، وأراحت رأسها على ذراعيها، وأخذت تُهمهم لنفسها.

كان الأمر غريباً فلطالما صدحت معزوفة بيانو، أو معزوفات أخرى في رأسها. أيّاً كان ما تفعله أو تفكر به، يصدح اللحن في رأسها على الدوام. امتلكت إحدى المستأجرات في بيتهم، وتدعى الآنسة براون، مذياعاً في غرفتها. قضت ميك كل الشتاء الماضي جالسة على الدرج عصر كل أحد تستمع إلى البرامج الإذاعية التي في غالبيتها معزوفات كلاسيكية، وهي المعزوفات الوحيدة التي تذكرتها. هناك مقطوعة مميزة تجعل قلبها يقفز طرباً في كل مرة تسمعها. أحياناً بدت لها هذه المقطوعة المرافقة كقطع صغيرة ملونة من حلوى كريستالية، وفي أوقاتٍ أخرى، كأكثر شيءٍ لطيفٍ وحزينٍ يُمكن تخيله.

أتى صوت بكاء مُفاجئ لهذا وقفت ميك وأصغت. عبثت الريح بأطراف شعر ناصيتها، وبدا وجهها أبيض ورطباً بفعلِ الشمس المشرقة والحارة. استمر النشيج، وانتقلت ميك بحذر على امتداد السطح الشديد الانحدار على يديها وركبتيها. عندما وصلت إلى نهايته انحنت

إلى الأمام، واستلقت على بطنها إلى أن نتأ رأسها عند الحافة، وأصبح بإمكانها رؤية الأرض في الأسفل.

ما زال الولدان في المكان الذي تركتهما فيه. كان بابر مُقرفصاً فوق شيء ما على الأرض، وامتدّ ظلٌّ أسود صغيرٌ بقربه، أمّا رالف، فما زال في العربة. كان كبيراً كفاية ليقف على قدميه، وقد تمّسك بأطراف العربة وبكى بينما مالت القبعة على رأسه.

«بابر!» صاحت ميك. «انظر إلى ما يريده رالف وأعطه إياه».

نهض بابر، ونظر نحو الطفل بقسوة.

«لا يريد شيئاً».

«حسناً، فلتقم بهزه قليلاً إذاً».

صعدت ميك عائدة إلى المكان الذي كانت تجلس فيه قبلاً، أرادت أن تفكر لوقتٍ أطول في أمر شخصين أو ثلاثة أشخاص معينين، وأن تُغني لنفسها، وتضع الخطط، ولكن رالف استمر بالبكاء، ولم تعد تشعر بأيّ سلام.

أخذت تهبط السلم عند حافة السطح بجرأة. كانت الحافة شديدة الانحدار، وهناك بضعُ قطعٍ خشبيةٍ مثبتةً في الأسفل، وبعيدةً جداً عن بعضها لأنّ العمال استخدموها كمواطئ قدم أثناء حركتهم. شعرت بالدوار، وأخذ قلبها ينبضُ بشدةٍ، وهذا بدوره جعلها ترتجف. تحدثت مع نفسها بصوت عالٍ: «تمسكي هنا بكلتا يديكِ وبقوة، ولتنزلقي إلى الأسفل حتى تصل أصابع رجلكِ اليمنى إلى هناك، ولتبقي قريبة، ولتميلي نحو اليسار. الشجاعة يا ميك يجب أن تحافظي على شجاعتك».

إنّ النزولَ الجزءُ الأصعبُ في أيّة عملية تسلق. تطلّب منها الوصول إلى السُلم وقتاً طويلاً، وعاد إليها شعور الأمان مجدداً. عندما وقفت على الأرض أخيراً بدت أقصر وأصغر، وشعرت لوهلة أنّ قدميها على وشك الانهيار معها. رفعت سروالها القصير، وشدّت حزامها أكثر بقليل. ما زال رالف يبكي، ولكنها لم تلقِ بالاً إلى صوته، ودخلت البيت الجديد الفارغ.

وضعوا لافتة أمام المنزل الشهر الماضي تقول «لا يُسمح للأطفال بالدخول إلى البيت». ففي أحد الليالي تعاركت عصابة من الأولاد داخل المنزل، وركضت فتاة في الظلام إلى الغرفة التي ما زال العمل على تركيب أرضيتها جارياً، فسقطت، وكسرت رجلها. ما زالت الفتاة في المستشفى، ورجلها في الجبيرة. وفي حادثة أخرى أيضاً قام أحد الأولاد المشاغبين بالتبول على كل الجدران، وكتب بعض الألفاظ المشينة حقاً، ولكن لا يُهم حقاً عدد لافتات «ممنوع الدخول» التي سيضعونها لأنهم لن يتمكنوا من إبقاء الأولاد بعيداً إلى حين الانتهاء من طلاء المنزل، والعمل عليه، وانتقال سُكانه.

فاحت من الغرف رائحة خشب جديد، وعندما دخلت ميك أصدر نعل حذاء التنس الذي ترتديه صوتاً تردد صداه في أنحاء المنزل. كان الهواء ساخناً وساكناً. وقفت وسط الغرفة الأمامية لبعض الوقت، وفجأة شغل تفكيرها أمرٌ ما. بحثت في جيبها، وأخرجت قطعتين من الطباشير، إحداهما خضراء والأخرى حمراء.

رسمت ميك حروفاً كبيرة على مهل، وفي الأعلى كتبت «إديسون»، وتحته كتبت اسم «ديك»، و«تريسي»، و«موسوليني»، ثمّ وعند زاوية الأحرف الأكبر رسمت بالأخضر، وحددت الحواف بالأحمر، وكتبت حروف اسمها الأولى (م. ك.). عندما انتهت من هذا توجهت إلى الجدار المواجه لتكتب كلمةً سيئةً جداً. كتبت كلمة «كُس»، ووضعت تحتها حروف اسمها الأولى.

وقفت وسط الغرفة الفارغة، وتأملت ما قامت به والطباشير في يديها. لم تشعر بالرضى عن نتيجة ما قامت به. كانت تحاول أن تتذكر اسم ذلك الشخص الذي ألّف تلك القطعة الموسيقية التي سمعتها في المذياع الشتاء الماضي. استفسرت من فتاةٍ في المدرسة تملك بيانو، وتتلقى دروساً موسيقية عن هذا الشخص، وسألت الفتاة عمن يُعلمها العزف. تبين أنّ هذا الشخص مجرّد ولد عاش في أحد البلدان الأوروبية

منذ فترة طويلة، ولكن حتى وإن كان فتىً صغيراً إلا أنّه ألّف كل هذه المقطوعات الموسيقية الجميلة التي يمكن أن تُعزف على البيانو، وعلى الكمان أيضاً، ويمكن لفرقة ما، أو أوركسترا أن تعزفها أيضاً. استطاعت أن تستعيد في عقلها ست نغمات مختلفة من تلك المقطوعة التي سمعتها، كانت بعض هذه النغمات سريعة، ورنّانة، وهناك نغمة تشبه الرائحة التي تفوح ربيعاً بعد هطول المطر، وبطريقة ما أحزنتها، وحمّستها كل هذه النغمات في آنٍ معاً.

دمدمت بإحدى النغمات، وشعرت بعد مرور فترة على تواجدها في البيت الفارغ والحار بدموعها تنهمر من عينيها. تصلّبت حنجرتها وجفّت ولم تعد قادرة على الغناء. كتبت على عجل اسم ذلك الفتى في أعلى القائمة - موزارت.

ما زال رالف مُثبتاً إلى العربة كما تركته، وقد جلس بهدوء وسكينة ويداه السمينتان على حواف العربة. بدا كطفلٍ صيني بشعر غرّته الأسود المتساوي، وعينيه السوداوين. كانت الشمس في وجهه، ولهذا السبب أخذ يبكي، أمّا بابر فكان في الجوار. عندما رآها رالف قادمة حضّر نفسه للبكاء مجدداً. سحبت العربة إلى الظل قرب المنزل الجديد، وأخرجت من جيب قميصها قطعة هلام زرقاء وحشرتها في فم الطفل الدافئ، والصغير.

«ضع هذا في فمك وامضغه»، قالت له هذا، ولكن الأمر غير مجدٍ لأنّ رالف ما يزال صغيراً على التلذذ بالطعم الشهي والحقيقي للحلوى، فبالنسبة له سيكون أيّ حجرٍ بالجودة ذاتها. فهذا الأحمق الصغير سيبتلع الحلوى، والحجر بالطريقة ذاتها لأنه لا يفقه شيئاً في التذوق كما لا يفقه شيئاً في الكلام، إن قُلت له أنك ضجرت من جرّه إلى كل مكان، وتفكر برميه في النهر فسيكون الأمر مثل قولك له أنك تحبّه، فهو لا يرى اختلافاً كبيراً بينهما، ولهذا كان جرّه إلى كل مكان عبئاً مريعاً.

شبكت ميك يديها، وشدّتهما بقوة، ونفخت في الفراغ بين إبهاميها، انتفخ خدّاها، ولم يُسمع في البداية سوى صوت الهواء الخارج من بين

قبضتيها، ثمّ خرجت تصفيرة عالية وحادّة. بعد مرور بضع دقائق أتى بابر من وراء زاوية المنزل.

انتشلت ميك نشارة الخشب العالقة في شعر بابر، وعدّلت قبعة رالف. كانت هذه القبعة أفضل شيء يملكه، فهي مصنوعة من قماشٍ مُخرّمٍ ومطرزة بالكامل. الرباط تحت ذقنه بلونٍ أزرق من جهة، وأبيض من جِهة أخرى، وفوق كل أذن هنالك وردة. أصبح رأسه كبيراً جداً على القبعة، واهترأ التطريز، ولكنّها استمرت بوضعها على رأسه في كل مرة تأخذه فيها خارجاً. لم يكن لدى رالف عربة أطفال حقيقية كبقية أطفال الناس، أو حتى أحذية صيفية. كانوا يجرونه هنا وهناك في عربة قديمة متهالكة أحضرتها في عيد الميلاد منذ ثلاثة أعوام، إلّا أنّ هذه القبعة الجميلة أعطت لوجهه شكلاً.

لم يكن هناك أحد في الشارع، فقد كان الوقت نهاية الفترة الصباحية من يوم الأحد والطقس حارٌ جداً. أصدرت العربة صريراً وجلجلةً، ومشى بابر حافي القدمين على الرصيف الساخن جداً لدرجة أنّه أحرق قدميه. ألقت أشجار البلوط الخضراء على الأرض ظلالاً سوداء لطيفةً، ولكن لم يكن فيئها كافياً.

«فلتصعد إلى العربة»، قالت ميك لبابر. «ولتدع رالف يجلس في حضنك».

«يمكنني المشي».

لطالما سبب الصيف لبابر مغصاً، فهو لا يرتدي قميصاً وقد نتأت عظام أضلاعه بحدة وبلونٍ أبيض. بدا في أشعة الشمس شاحباً وليس أسمر، وبدت حلمتا صدره كحبتي زبيب زرقاوين عالقتين على صدره.

«لا مشكلة عندي في جرّك»، قالت ميك. «فلتصعد».

«حسناً».

جرّت ميك العربة ببطء فهي لم تكن مستعجلة للوصول إلى المنزل. بدأت تتحدث مع الولدين، ولكنها في الحقيقة كانت تتحدث مع نفسها.

إنّه لأمر غريب – هذه الأحلام التي أراها مؤخراً، الأمر أشبه بالسباحة، ولكن بدلاً من السباحة في المياه أشعر أنني أدفع يدي وأسبح عبر حشدٍ كبير من الناس، هذا الحشد أكبر بمئة مرة من الحشد في متجر كريس ظهيرة يوم السبت. إنّه أكبر حشد في العالم، وأنا أحياناً أصرخ وأسبح بين الناس، وأوقعهم أرضاً حيثما توجهت، وفي أحيانٍ أخرى أرى نفسي على الأرض والناس يتساقطون علي، وينبسط جوفي على الرصيف. أعتقد أنّه كابوس أكثر مما هو حلم عادي.

خلال أيّام الآحاد يمتلئ البيت بزوار المستأجرين، وتُسمع خشخشة أوراق الصُحف، ويتعالى دُخان سيجار ما، ويتناهى صوت خطو على السلالم طوال الوقت.

«بطبيعة الحال نريد أن تبقى بعض الأمور خاصة، ليس لأنها أمور سيئة بل لأننا نريدها أن تبقى سريّة. مثلاً هناك أمران أو ثلاثة أمور بالتحديد لا أريدكما أن تعرفاها حتى».

نزل بابر من العربة عندما وصلوا إلى الزاوية، وساعدها على إنزال العربة عن الرصيف، ورفعها على الرصيف التالي.

«ولكن هناك شيئاً أريده، وسأقدّم كل شيء مقابل الحصول عليه، إنّه البيانو. إن كان لدينا بيانو كنتُ لأتدرب كل ليلة، وأتعلم كل معزوفة في العالم. هذا هو الأمر الذي أريده أكثر من أيّ شيءٍ آخر».

وصلوا الآن إلى شارع بيتهم الذي كان من أكبر المنازل في القسم الشمالي من المدينة، ومكوَّناً من ثلاثة طوابق، ويقطنه أربعة عشر فرداً. لم يكونوا جميعاً من عائلة كيلي، ولكنهم أكلوا وناموا هناك مقابل خمسة دولارات للشخص، ولذلك يمكن اعتبارهم من العائلة. لم يكن السيد سينغر جزءاً من هذه المعادلة لأنّه يستأجر غرفة ويرتبها بنفسه.

كان المنزل ضيقاً ولم يُطلَ منذ سنواتٍ عديدة. بدا وكأنّ بناءه ليس قوياً بما يكفي ليتحمل ثلاثة طوابق فبدا مائلاً على أحد الجوانب.

فكّت ميك رالف، وأخرجته من العربة. عبرت الردهة بسرعة، ومن زاوية عينها لاحظت أنّ غرفة المعيشة مكتظة بالمستأجرين. كان والدها هناك أيضاً، ولا بدّ أن تكون أمّها في المطبخ. انتظر الجميع في غرفة تناول الطعام.

دخلت إلى أول غرفة من الغرف الثلاث التي احتفظت بها العائلة لنفسها. وضعت رالف على السرير الذي ينام عليه والدها، ووالدتها، وأعطته خيطاً من الخرز ليلعب به، ومن خلف باب الغرفة المجاورة والموصد سمعت أصواتاً وقررت أن تدخل.

توقفت كل من هيزل وإيتا عن الحديث عندما ظهرت ميك. جلست إيتا على الكرسي قرب النافذة تطلي أظافر قدميها بطلاءٍ أحمر، كان شعرها مرفوعاً للأعلى في لفائف صلبة، ووضعت كريماً للوجه على المنطقة الصغيرة تحت ذقنها حيث ظهرت بثرة، واستلقت هيزل بكسل على السرير كعادتها.

«ما الذي كُنتما تتحدثان عنه؟»

«هذا ليس من شأنك»، قالت إيتا. «اصمتي فقط ولتدعينا وشأننا».

«إنّها غرفتي أيضاً كما هي غرفتكما، لدي الحق بهذا المكان كما لكما الحق به». اختالت ميك في مشيتها من زاوية إلى أخرى إلى أنّ غطت بمشيتها كامل مساحة أرضية الغرفة. «لا يهمني البتة إثارة أيّ شجار، فكلّ ما أريده هو حقوقي».

وأرجعت ميك براحة كفها شعر ناصيتها إلى الوراء. قامت بهذه الحركة كثيراً إلى درجة أنّ صفّاً من الشعر النامي باتجاهات مختلفة برز فوق جبهتها، هزّت أنفها، وقامت بحركات في وجهها، وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، ثمّ عادت إلى التسكع في أرجاء الغرفة.

كانت هيزل، وإيتا متفقتين كأختين، ولكن إيتا تبدو كشخصٍ هش فكل ما كانت تفكر به هو السينما والمشاركة في الأفلام، وفي إحدى

المرات كتبت إلى جانيت ماكدونالد[1]، وحصلت على ردٍ مطبوع على الآلة الكاتبة يقول إنّها إن عرّجت على هوليوود يوماً ما يمكنها أن تأتي وتسبح في مسبحها، ومن يومئذٍ أصبح حوض السباحة هاجساً في رأس إيتا، وكان كل ما فكرت به هو الذهاب إلى هوليوود عندما تتمكن من جمع ثمن تذكرة الباص، والحصول على عمل كسكرتيرة، ثمّ تصبح صديقة لجانيت ماكادونالد، وتشارك في الأفلام.

كانت تتأنق على مدار اليوم، وكان هذا الجانب السَيِّئ فيها. لم تكن إيتا بجمال هيزل الطبيعي، والأهم أنّها لم تملك ذقناً، كانت تشّد فكها، وتقوم بالكثير من تمارين الذقن التي قرأت عنها في كتاب سينمائي. كانت تنظر دوماً إلى مظهرها الجانبي في المرآة، وتحاول أن تثبت فمها بطريقة ما ولكن الأمر لم يكن مجدياً، ولهذا كانت أحياناً تُمسك وجهها بكلتا يديها، وتبكي في الليالي.

إنّ هيزل كسولة تماماً، صحيح أنّها كانت جميلة، ولكنها غبية أيضاً. كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وبعد بيل كانت أكبر الأولاد في العائلة، وهنا تكمن المشكلة. حصلت على الحصة الأولى والأكبر من كل شيء- النصيب الأول من الثياب الجديدة، والقسم الأكبر من أيّة تحلية خاصّة. لم تضطر هيزل أبداً إلى بذل جهد للحصول على أيّ شيء فقد كانت رقيقة.

«هل ستطوفين في أرجاء الغرفة طوال اليوم؟ إنّ منظرك في ثياب الفتيان الغبية تلك يصيبني بالغثيان. يجب أن يقوم أحد بوضعك عند حدك يا ميك كيلي ويجعلك تحسنين التصرف»، قالت إيتا.

«اخرسي»، قالت ميك. «أرتدي السراويل القصيرة لأنني لا أريد ارتداء ثيابك القديمة. لا أريد أن أشبه أيّة واحدة منكما، ولن أفعل هذا

1- ممثلة ومغنية أمريكية (1903 - 1965) اشتهرت بأفلامها الغنائية كفيلم «روز ماري» 1938 وغيرها من الأفلام مع أهم ممثلي هوليوود آنذاك من أمثال موريس شيفالييه وإيدي نيلسون وكلارك غيبل. (المترجمة)

أبداً، لهذا السبب أرتدي السراويل القصيرة. أريد أن أصبح صبياً يوماً ما، وأنتقل للسكن مع بيل».

انحنت ميك تحت السرير، وأخرجت علبة قبعات كبيرة. حملت العلبة، وتوجهت إلى الباب وعلى إثر هذا قالت كلتا الأختين، «الحمد لله!»

أخذ بيل أفضل غرفة في بيت العائلة، وكانت أشبه بعرين له وحده إن استثنينا وجود بابر. قصّ بيل صوراً من المجلات - ومعظمها لوجوه فتيات جميلات - وعلّقها على الجدران، وفي زاوية أخرى هناك بعض الصور التي رسمتها ميك بنفسها العام الماضي عندما اشتركت في صف مجاني لتعليم الرسم. لم يكن في الغرفة سوى سرير ومكتب.

جلس بيل، وقد أحنى ظهره فوق المكتب يقرأ مجلة «ببيولارميكانيكس». باغتته ميك من الخلف ولفت ذراعيها حول كتفيه.

«مرحباً يا ابن العفريتة!»

لم يبدأ بمصارعتها كما اعتاد أن يفعل وقال، «مرحباً» ثمّ هزّ كتفيه قليلاً.

«هل يزعجك أن أبقى هنا لفترة؟»

«بالتأكيد لا، لا أمانع إن كنت ترغبين بالبقاء».

ركعت ميك على الأرض، وفكت شرائط علبة القبعات الكبيرة، ودارت بيديها على أطراف الغطاء، ولكن لسبب ما لم تأخذ قرارها بفتحه.

«كنت أفكر بما قمت به حيال هذا حتى الآن»، قالت. «قد ينجح الأمر، أو لا ينجح».

تابع بيل القراءة، وهي ما تزال راكعة فوق العلبة، ولكن من دون أن تفتحها. جالت عيناها على بيل بينما جلس وظهره لها يقرأ، وقد أسند إحدى قدميه الكبيرتين على الأخرى. كان حذاؤه بالياً. قال والدهما في إحدى المرات أنّ كل وجبات الغداء التي تناولها بيل ذهبت إلى قدميه، وكل وجبات الفطور إلى إحدى أذنيه، وكل وجبات عشائه إلى الأذن

الأخرى. كان هذا كلاماً لئيماً، وتألم بيل بسببه لشهر، ولكن كان الأمر مُضحكاً. توهجت أذناه من شدة الاحمرار، ورغم أنّه تخرج من المدرسة الثانوية إلّا أنّ نمرة قدمه ثلاثة عشر. حاول دوماً أن يُخفي قدميه أثناء الوقوف من خلال حكّ قدمٍ بالقدم الأخرى من الخلف إلّا أنّ سلوكه هذا جعل الأمر أسوأ.

فتحت ميك العلبة قليلاً، ثمّ أغلقتها مجدداً. شعرت بالحماسة الشديدة للنظر إلى داخلها الآن. نهضت، وتمشت في أرجاء الغرفة إلى أن هدأت قليلاً. بعد مرور بضع دقائق وقفت أمام الصور التي رسمتها في الصّف الحكومي المجاني لتعليم الرسم لأطفال المدارس شتاء العام الماضي. كان هناك صورة لعاصفة في المحيط، ولنورسٍ بحري تتقاذفه الرياح في الهواء. تدعى الصورة «نورس بحري بظهرٍ مكسور في عاصفة». كان المعلم قد وصف المحيط في الدرسين، أو الدروس الثلاثة الأولى، ولهذا بدأ الجميع تقريباً برسم هذا المشهد. على أيّ حال معظم الأطفال، لم يروا المحيط بأعينهم قبلاً.

كانت هذه أول لوحة ترسمها، وقد علّقها بيل على حائطه، أمّا بقية الرسومات، فكانت تعجّ بالناس. رسمت بضع عواصف محيطية في البداية - إحداها تصور طائرة شراعية تتحطم، والناس يقفزون لينقذوا أنفسهم، أمّا الأخرى فكانت لسفينة ملاحية عابرة للأطلسي تغرق، والناس يحاولون التدافع، والاحتشاد في قارب نجاة واحد.

توجهت ميك إلى الخزانة في غرفة بيل، وأخرجت بعض اللوحات الأخرى التي كانت قد رسمتها في الصف، رسمت بعضها بقلم الرصاص، وبعضها الآخر بالألوان المائية ولوحة واحدة بالألوان الزيتية. كانت جميعها لوحات تعج بالناس. تخيلت حريقاً كبيراً في شارع بورد، ورسمت متخيلة مسار الأمور حيث ألسنة اللهب باللون الأخضر والبرتقالي الزاهي، ومطعم السيد برانن وبنك فيرست ناشونال البناءان الوحيدان المتبقيان. هناك موتى على أرضية الشارع، وآخرون يركضون

هاربين، وهناك رجلٌ في ثياب النوم، وسيدة تحاول حمل حزمة من الموز معها. وهناك صورة أخرى تحمل عنوان «انفجار مرجل في المعمل» وفيه يقفز رجالٌ من النوافذ ومجموعة من الأولاد في بزّاتٍ سروالية يقفون معاً، ويُمسكون بعُلب طعام الغداء التي أحضروها لآبائهم. كانت اللوحة الزيتية صورة لأهل البلدة بأكملهم، وهم يتشاجرون في شارع بورد. لم تعرف أبداً سبب رسمها لهذه الصورة، ولم تفكر باسم مناسب لها. لم يكن هناك أيّة نيران، أو عواصف، أو أيّ سبب في الصورة قد يدفع إلى نشوب هذه المعركة، ولكن هناك أناس أكثر يتحركون في المكان، وأكثر من أيّة صورة أخرى رسمتها. كانت هذه أفضل لوحة، وإنّه لمن المؤسف حقاً أنّها لم تستطع التفكير باسمها الحقيقي، وفي مكان ما في عقلها كان هذا الاسم موجوداً.

أعادت ميك اللوحة إلى رف الخزانة. لم تعد أيّة لوحة منها بتلك الجودة التي رأتها سابقاً؛ فالناس فيها لم يملكوا الأصابع، وكانت بعض الأذرع أطول من الأرجل. كان الصف ممتعاً على أيّ حال. وقتئذٍ رسمت ما خطر على بالها، ومن دون سبب، ولكن في قلبها لم يولد الأمر شعوراً يضاهي الشعور الذي تمنحه الموسيقا. لم يكن هناك شيء بمثل جودة الموسيقا.

ركعت على الأرض، ورفعت بسرعة غطاء علبة القبعات. كان هناك قيثارة[1] مكسورة شُد إليها وترا كمنجة، ووتر غيتار، ووتر بانجو. من الواضح أن الكِسر في ظهر القيثارة أُصلح بشكل جيد باستخدام عجينة لاصقة، وغُطيت الفجوة في المنتصف بقطعة من الخشب. كانت نهاية الأوتار مثبتة على زند كمنجة، وتمّ حفر فجوات صوت على الجانب الآخر. صنعت ميك لنفسها كمنجة. حملت الكمنجة، ووضعتها في حضنها، وانتابها إحساس أنّها لم ترها قبلاً. في وقت ما مضى صنعت لبابر ماندولين صغير من علبة سيغار، وبعض الخيوط المطاطية، وهذا

1- أو أكلال وهي قيثارة من أصل برتغالي. (المترجمة)

ما حفزها لتصنع هذه الكمنجة، ومنذ ذلك الوقت أخذت تبحث في كل مكان عن قطع مختلفة، وأضافت كل يوم شيئاً جديداً إلى الكمنجة. بدا لها أنّها قامت بكل شيء ما عدا استخدام رأسها.

«بيل، هذه لا تبدو كأيّة كمنجة حقيقية رأيتها قبلاً».

كان بيل ما يزال يقرأ، «حقاً؟»

خططت لدوزنة الكمنجة في ذلك اليوم من خلال شد الأوتار، ولكن بما أنّها أدركت فجأة الشكل الأخير الذي انتهت عليه الكمنجة لم تعد ترغب بالنظر إليها. وعلى مهلها سحبت الأوتار الواحد تلو الآخر. أصدرت جميع تلك الأوتار ذات الرّنة القصيرة.

«كيف سأحصل على قوس؟ هل أنت متأكد أنّه يجب أن يصنع من شعر الحصان؟»

«أجل»، أجاب بيل بضيق.

«ألا يُمكن استخدام سلك معدني رفيع، أو شعر بشري على قضيبٍ خشبي؟»

فرك بيل قدميه ببعضهما ولم يُجب.

سبب غضبها ظهور حبات العرق على جبهتها، كان صوتها خشناً.

«إنّها ليست كمنجة سيئة حتى، إنّها مزيج بين الماندولين والقيثارة، وأنا أكره كلتا الآلتين، أكرههما».

التفت بيل إلى الوراء.

«إنّ النتيجة سيئة، لن تنفع فهي ليست جيدة».

«أخفضي صوتك»، قال بيل. «أما زلت تتحدثين عن تلك القيثارة القديمة التي كنت تعبثين بها؟ أخبرتك منذ البداية أنّه من الجنون أن تفكري بصنعِ كمنجة. هذا أمر لا يمكنك أن تصنعيه، بل يجب أن تشتريه. أعتقد أنّ الجميع يعرف هذه الحقيقة. ولكنني فكرت في نفسي أنّه لا ضير لو اكتشفت الأمر بنفسك».

كرهت بيل أحياناً أكثر من أيّ أحدٍ آخر في العالم. كان بيل مختلفاً

تماماً الآن عمّا اعتاد أن يكون. بدأت بضرب الكمنجة على الأرض، ودوسها، ثمّ أعادت الكمنجة إلى علبة القبعات بكل خشونة. اغرورقت عيناها بدموعٍ حارّة كالنار، وركلت العلبة ثم خرجت من الغرفة من دون أن تنظر إلى بيل.

وبينما كانت تعبر الردهة لتخرج إلى الحديقة الخلفية التقت بأمّها.

«ما خطبك؟ ماذا تفعلين الآن؟»

حاولت ميك أن تتملص ولكن أمّها أمسكتها من ذراعها. وبتجهم مسحت الدموع عن وجهها بظاهر كفها. كانت والدتها في المطبخ ولهذا ارتدت مئزرها وحذاءها البيتي. وكالعادة بدت وكأنّ أموراً كثيرة تشغلها، ولا تملك الوقت لتسألها المزيد من الأسئلة.

«أحضر السيد جاكسون الغداء لأختيه ولن يكون هناك ما يكفي من الكراسي، ولهذا ستأكلين اليوم مع بابر في المطبخ».

«لا بأس»، قالت ميك.

تركتها أمّها وشأنها، وذهبت لتخلع مئزرها. أتى من غرفة تناول الطعام صوت جرس الغداء، وعلا بشكلٍ مفاجئ حديث مرح. تمكنت من سماع والدها يتحدث كيف أنّه لم يعرف حجم خسارته جراء عدم احتفاظه بضمان الحوادث الذي كان لديه إلى أن كسر وركه. كان هذا الأمر الوحيد الذي لم يتمكن والدها من نسيانه - الطرق التي كان يمكنه من خلالها جني المال، ولكنه لم يقم بها. تناهى صوت قرقعة صحون، وبعد برهة توقف الحديث.

اتكأت ميك على درابزين الدرج، وفجأة علا صوت بكاء وصوت أحد مُصاب بالفواق. بدا لها عندما استعادت ما حصل في الشهر الأخير أنّها لم تُصدق في عقلها، ومنذ البداية، أنّ الكمنجة ستعمل، ولكن في قلبها أجبرت نفسها على الإيمان بهذا. وحتى الآن كان من الصعب أن تؤمن بالأمر، ولو قليلاً، كانت قد ضجرت من الأمر، ولم يعد بيل ذا عونٍ

في أيّ شيء. كانت تعتقد أنّ بيل أعظم شخص في العالم، واعتادت على اللحاق به إلى كل مكان يذهب إليه، سواء للصيد في الغابة، أم إلى النوادي التي كان يبنيها مع الصبية الآخرين، أم إلى آلة السلوت[1] خلف مطعم السيد برانن، كانت تلحقه إلى كل مكان. ربما لم يكن يقصد أن يخذلها بهذه الطريقة، ولكن على أيّ حال لم يعد بالإمكان أن يعودا صديقين قريبين بعد الآن.

في الردهة عبقت رائحة سجائر وغداء يوم الأحد. أخذت ميك نفساً عميقاً، وعادت إلى المطبخ. بدت رائحة الغداء لذيذة، وكانت جائعة. استطاعت سماع صوت بورشيا وهي تتحدث إلى بابر، وبدا وكأنّها تغني شيئاً ما، أو تخبره بشيء.

«وهذا السبب الآخر الذي يجعلني مختلفة تماماً عن مُعظم الفتيات الملونات»، قالت بورشيا بينما فتحت الباب.

«لماذا؟» سألت ميك.

جلست بورشيا، وبابر إلى طاولة المطبخ يتناولان طعام غدائهما. بدا فستان بورشيا ذو الطبعات الخضراء جميلاً على أرضية بشرتها السمراء الغامقة. ارتدت قرطين أخضرين، وقد مشطت شعرها وشدته إلى الوراء بقوة وبأناقة.

«أنتِ على الدوام تقتفين ما يقوله أحدهم، ثمّ ترغبين بمعرفة كل شيء عن الأمر»، قالت بورشيا. نهضت، ووقفت قرب الموقد الساخن، لتسكب طعام الغداء في صحن ميك. «كنت أتحدث مع بابر عن منزل جدي في أولد سارديس رود، وأخبره أنّ جدي وأخوالي يملكون المكان بأكمله والذي تبلغ مساحته خمسة عشر ونصف هكتاراً. كانوا يزرعونه قِطناً، ويبدلون المحصول في بعض السنوات بمحصول البازلاء حتى

1- Slot machine آلة للمقامرة يوضع فيها عملة نقدية، ويقوم اللاعب بسحب مقبض، وإن تشابهت الأرقام أو الصور التي تظهر على الشاشة بعد سحب المقبض يفوز اللاعب بكل ما يوجد في الآلة من عملات نقدية. (المترجمة)

تبقى التربة غنيّة، وتركوا هكتاراً واحداً على التلة من أجل أشجار الدُرّاق. يملكون أيضاً بغلاً وخنازير للاستيلاد، ولديهم على الدوام بين العشرين والخمس وعشرين دجاجة من أجل البيض والطبخ. لديهم قطعة أرض للخضار، وشجرتا جوز البقان، والكثير من التين والخوخ والتوت. هذه هي الحقيقة. لا يوجد مزرعة تضاهي بروعتها مزرعة جدي».

أسندت ميك مرفقها على الطاولة، وانحنت فوق الطبق. كانت بورشيا تُحب الحديث عن المزرعة أكثر من أيّ شيءٍ آخر باستثناء الحديث عن زوجها وأخيها. عندما يُصغي إليها المرء وهي تتحدث سيعتقد أنّ هذه المزارع الملونة رائعة، وبروعة البيت الأبيض نفسه.

«بدأ البيت بغرفة صغيرة واحدة، وبمرور السنين توسعوا في البناء حتى أصبح هناك مكان لجدي وأبنائه الأربعة وزوجاتهم وأطفالهم وأخي هاملتون. لديهم في غرفة الجلوس أورغن حقيقي، وفونوغراف، وعلى الجدار هناك صورة لجدي تمّ التقاطها في ثيابه المنزلية. كانوا يعلبون كل أنواع الفواكه والخضراوات، وأيّاً كانت حالة الطقس في الشتاء، سواء كان بارداً أو ممطراً، فقد كان لديهم الكثير ليأكلوه».

«لماذا لا تعيشين معهم إذاً؟»، سألتها ميك.

توقفت بورشيا عن تقشير البطاطا، ونقرت بأصابعها السمراء الطويلة على الطاولة في الوقت الذي خرجت فيه كلماتها، «هذه هي الحال هنا. كل شخص بنى غرفة لعائلته كما ترين، وكدّوا في العمل طوال كل تلك السنين ولكن هذا الزمن صعبٌ على الجميع، وكما ترين فقد عشت مع جدي عندما كُنت فتاة صغيرة، ولكن لم أقم بأيّ عملٍ منذئذٍ. وإن تورطت أنا، وويلي وهايبوي في أيّة متاعب يمكننا دوماً العودة إلى هناك وفي أيّ وقت».

«هل بنى والدك غرفة؟»

توقفت بورشيا عن المضغ. «أيّ والد؟ أتعنين والدي؟»

«بالتأكيد»، أجابت ميك.

«تعرفين جيّداً أنّ والدي طبيب أسود، ويقطن هنا في البلدة».

سمعت ميك بورشيا تقول هذا قبلاً، ولكن اعتقدت أنّ الأمر مجرّد حكاية، فكيف يمكن لرجل أسود أن يصبح طبيباً؟

«هذه هي الأمور هنا. قبل أن تتزوج والدتي بوالدي لم تعرف أبداً غير الطيبة الحقيقية. كان جدي سيد الطيبة بنفسه، ولكن والدي مُختلف عنه كما يختلف النهار عن الليل».

«ماذا تعنين؟» سألت ميك.

«لا، لم يكن رجلاً لئيماً»، قالت بورشيا على مهل. «ولكنه يعاني من خطبٍ ما، فوالدي لا يشبه الرجال السود الآخرين. من الصعب شرح هذا، فقد درس والدي لوحده، ودون منذ وقت طويل ملاحظات عن سبلِ النجاح. تحكم بكل تفصيل صغير في المنزل، وليلاً حاول أن يعطينا، نحن الأطفال، دروساً».

«لا أرى الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة»، قالت ميك.

«اسمعي، كان رجلاً هادئاً جداً معظم الأوقات كما ترين، ولكن في بعض الليالي تصيبه نوبة ما، ويغضب جداً، غضباً لم أره في رجلٍ قبلاً. كل من يعرف والدي يقول عنه أنّه رجلٌ مجنون. قام بأمور طائشةٍ وجنونية، وأمنا تركته، كنت في العاشرة آنذاك. أخذتنا أمي معها إلى مزرعة جدي، وترعرعنا هناك، ولطالما أرادنا والدي أن نعود، ولكن حتى عندما توفيت أمنا لم نعد نحن الأطفال إلى المنزل، ووالدي ما زال يسكن لوحده».

عادت ميك إلى الموقد، وملأت طبقها للمرة الثانية. كان صوت بورشيا يعلو، وينخفض وكأنّها تغني، ولم يكن هناك شيءٌ قادرٌ على إيقافها الآن.

«لا أرى والدي كثيراً، ربما أراه مرة كل أسبوع، ولكنني أفكر به طوال

الوقت. أشعر بالأسف عليه أكثر مما أشعر بالأسف على أيّ شخص آخر. أتوقع أنّه قرأ كُتباً أكثر مما فعل أيّ رجل أبيض في البلدة. قرأ كُتباً أكثر وقلق حيال أمور أكثر. إنّه رجل غارق في الكتب، والقلق، وفقد الإيمان بالله، وأدار ظهره للدين، وهنا تتلخص كل مشكلاته».

كانت بورشيا متحمسة، فهي تتحمس في كل مرة تتحدث فيها عن الله، أو ويلي، أو أخيها، أو هايبوي، أو زوجها.

«أنا لا أجعجع عالياً بالأمر، ولكنني أنتمي إلى الكنيسة المشيخية. ونحن في الكنيسة لا نحبّ كل هذا القلق، والسباب، ولا نتلقى القربان كل أسبوع، ثمّ ننغمس في الملذات. في كنيستنا نغني وندع الوعظ للكاهن، وأنا أقول الحقيقة عندما أقول إنّه لن يضيرك القليل من الغناء والوعظ يا ميك. عليكِ اصطحاب أخيكِ الصغير إلى مدرسة الأحد، وأنت كبيرة بما يكفي لتدخلي وتجلسي في الكنيسة. يبدو لي من الطريقة المتعالية التي تتصرفين بها في الآونة الأخيرة أنّ قدمك على حافة الهوة».

«هذا جنون»، قالت ميك.

«إنّ هايبوي رجلٌ متدينٌ حتى قبل أن نتزوج، ويُحب رفع معنوياته كل أحد بالغناء، وتطهير نفسه. ولكن بعد زواجنا دفعته للانضمام إلي، ورغم صعوبة إبقائه هادئاً أحياناً، ولكنني أعتقد أنه يبلي جيداً».

«لم أعد أؤمن بالله تماماً كما لم أعد أؤمن بسانتا كلوز». قالت ميك.

«انتظري قليلاً! يبدو لي أحياناً أنك تُفضلين والدك على أيّ شخص آخر تعرفينه».

«أنا؟ أتقولين بأنني أُفضل والدي؟»

«لا أعني أنه هذا التفضيل يتعلق بالوجه، أو بأيّ مظهر خارجي، أنا أتحدث عن شكل ولون روحكما».

جلس بابر يوزع نظراته بينهما، وكان منديله مُحكماً حول رقبته، وما يزال يُمسك ملعقته في يده، ثمّ طرح سؤالاً، «ما الذي يأكله الله؟»

نهضت ميك عن الطاولة، ووقفت في الردهة على أهبة المغادرة. كانت مشاكسة بورشيا ممتعة أحياناً، فهي تبدأ حديثها بالنغمة ذاتها، وتكرر الأمور ذاتها، وكأنّها الأمور الوحيدة التي تعرفها.

«الناس مثلك، ومثل والدك ممن لا يذهبون إلى الكنيسة، لا ينعمون بالسلام أبداً. فلتأخذيني أنا على سبيل المثال، أنا مؤمنة، وأشعر بالسلام، وبابر يملك السلام أيضاً، وكل من هايبوي، وويلي أيضاً. ويبدو لي أنّ السيد سينغر يملك هذا السلام أيضاً. شعرت بهذا مُذ رأيته لأول مرة».

«كما تشائين»، قالت ميك. «أنت أكثر جنوناً من والدك».

«ولكنك لم تُحبي الله أبداً، أو حتى أيّ شخص. أنت قاسية ومتصلبة كالجلد البقري. أعرف أنك ستتجولين في أنحاء البلدة ظهيرة هذا اليوم دون أن تشعري بالرضى، ستتسكعين في الأرجاء وكأنك تبحثين عن شيءٍ فقدته. ستُجهدين نفسك بالحماس، وسيخفق قلبك بقوة كافية لقتلك لأنك لا تحبين، ولا تملكين السلام، عندها فقط لن يُساعدك أيّ شيء».

«ماذا يا بورشيا؟» سأل بابر. «ما نوع الأطعمة التي يأكلها الله؟»

ضحكت ميك، وخرجت من الغرفة.

طافت في أنحاء المنزل طوال فترة بعد الظهيرة، لأنّها لم تستطع الاسترخاء. كانت تمرّ بمثل هذه الأيّام. ولكن ما جعلها قلقة الآن تفكيرها بالكمنجة. لم تكن لتتمكن من صنع كمنجة حقيقية، وبعد كل أسابيع التخطيط أصيبت بالسقم من الأمر. ولكن كيف يمكنها ضمان نجاح الأمر؟ هل هذا غباء؟ ربما عندما يتوق الناس إلى شيء بهذه القوة، فإن التوق يجعلهم يثقون بكل شيء قد يوصلهم إليه.

لم ترغب ميك بالعودة إلى الغُرف التي تشغلها العائلة، ولم تعد ترغب بالحديث إلى أيّ من المستأجرين. لم يكن أمامها أيّ مكان سوى الشارع حيث الشمس الحارقة. تسكعت بلا هُدى في الردهة، واستمرت بمسح

شعرها المُشعث إلى الوراء براحة كفها. «اللعنة»، قالت لنفسها بصوتٍ عالٍ. «أعتقد أنني سأعرف ما أريده عندما أكون قرب بيانو حقيقي، وأكثر من أيّ شيء آخر».

تعاني بورشيا من نوع ما من الجنون الزنجي، ولكنها لم تكن بهذا السوء. لم تكن لتتصرف مع بابر، أو رالف بتلك الطريقة الماكرة واللئيمة التي تتصرف بها بعض الفتيات السوداوات. ولكن بورشيا قالت إنّها لم تُحب أحداً. توقفت ميك عن المشي ووقفت بثبات بينما فركت رأسها بقبضتها. «ما الذي ستعتقده بورشيا إن علمت حقاً؟ ما الذي ستفكر به؟»

لطالما احتفظت ميك بأمور لنفسها، وهذه حقيقة مؤكدة.

صعدت ميك الدرج على مهل، وتجاوزت أول غرفة مُستأجرة، وتوجهت إلى الثانية. كانت بعض الأبواب مفتوحة ليمرّ تيار هوائي، وضجّ المنزل بأصواتٍ عديدة. توقفت ميك عند العتبات الأخيرة من نهاية السُلم، وجلست. إن أدارت السيدة براون مذياعها يمكنها أن تسمع الموسيقى وقد تُذاع بعض البرامج الجيدة.

وضعت يدها على ركبتها، وعقدت أربطة حذاء التنس الذي ترتديه. ما الذي ستقوله بورشيا إن علمت أنّ هناك الكثير من التداعي! وأنّ الأمر ينتهي في كل مرة بشعورٍ، وكأنّ جزءاً من نفسها تشظّى إلى مئة قطعة.

جلست ميك على الدرج لوقتٍ طويل. لم تقم السيدة براون بتشغيل مذياعها، ولم يكن هناك شيء سوى أصوات الناس. فكرت لوقتٍ طويل، وتابعت ضرب فخذيها بقبضتيها، وشعرت وكأنّ وجهها قد تناثر إلى قطعٍ، ولم يكن باستطاعتها بقاؤه مرفوعاً. كان الشعور أسوأ من الشعور بالجوع قبل أيّ غداء، ولكنه أشبه بالقول «أريد... أريد... أريد» هذا كل ما استطاعت التفكير به، ولكن ما هي هذه الرغبة الحقيقية، هذا ما لم تعرفه.

بعد مرور ما يُقارب الساعة تعالى صوت قبضة باب تُدار في الغرفة المُستأجرة في الأعلى نظرت ميك على عجل، ورأت السيد سينغر.

وقف في الردهة لبضع دقائق، ورأت وجهه حزيناً وهادئاً، ثمّ توجه إلى الحمام، ولم يخرج ضيفه معه. ومن حيث كانت تجلس استطاعت رؤية الغرفة، كان الضيف نائماً على السرير، والأغطية فوقه. انتظرت أن يخرج السيد سينغر من الحمام. تحسست بيديها وجنتيها اللتين كانتا حارتين جداً. قد يكون صحيحاً أنّها تصعد إلى هنا لتتمكن من رؤية السيد سينغر بينما تُصغي إلى مذياع السيدة براون في الطابق السفلي. وتساءلت عن نوع الموسيقا التي يسمعها السيد سينغر في عقله والتي لا تلتقطها أذناه، لا أحد يعلم. وما هي الأمور التي سيقولها لو استطاع التحدث، ولكن حتى هذا لن يعرفه أحدٌ أيضاً.

انتظرت ميك، وبعد قليل خرج إلى الردهة مرة أخرى، وتمنت أن ينظر باتجاهها، ويبتسم لها. وعندما وصل إلى باب الغرفة نظر باتجاهها، وهزّ رأسه ابتسمت ميك ابتسامة كبيرة ومضطربة. دخل إلى غرفته، وأغلق الباب، ربما كان يعني بهذا أن يدعوها إلى الداخل لتراه. وفجأة أرادت ميك أن تدخل إلى غرفته. ستدخل غرفته قريباً عندما يُغادر ضيفه، وسترى السيد سينغر. ستقوم بهذا حقاً.

مرّت فترة ما بعد الظهر ببطء، وما زالت ميك جالسة على الدرج لوحدها، وفي رأسها صدحت موسيقى ذلك المدعو موزارت مجدداً. كم كان الأمر غريباً، ولكن ذكرها السيد سينغر بتلك الموسيقى. تمنّت أن تعثر على مكان يمكنها الذهاب إليه والهمهمة بتلك الموسيقى بصوتٍ عالٍ. هناك نوع خاصٌ جداً من الموسيقى، ولا يمكن استحضاره في منزلٍ مُزدحم بالناس. لمن الغريب حقاً كيف يغدو المرء وحيداً في منزلٍ مزدحم؟ حاولت ميك أن تفكر بمكانٍ خاصٍ وجيد يمكنها أن تذهب إليه، وتكون لوحدها لتدرس الموسيقى. لكن ورغم تفكيرها بالأمر لوقتٍ طويل إلّا أنّها علمت مُنذ البداية أنّ مثل هذا المكان غير موجود.

-4-

استفاق جيك بلاونت في وقتٍ متأخر من بعد الظهر، مع شعورٍ بأنّه نام نوماً كافياً. كانت الغرفة التي نام فيها صغيرة، ومرتبة، وفيها مكتب، ومنضدة، وسرير، وبضعة كراسٍ، وعلى المكتب مروحة كهربائية تدور من جدار إلى جدار، وعندما لفح هواء المروحة وجه جيك فكّر بالماء البارد. بجوار النافذة هناك رجلٌ جالسٌ إلى طاولة، ويحدق إلى لعبة شطرنج أمامه. بدت الغرفة في ضوء النهار أليفة لجيك. تعرّف على وجه الرجل على الفور، وشعر بأنّه يعرفه منذ زمنٍ طويل.

تداخلت الكثير من الذكريات في ذهن جيك، فاستلقى ساكناً بلا حراك وبعينين مفتوحتين، وقد بسط راحة كفيه للأعلى. بدت يداه كبيرتين وسمراوين جداً فوق أرضية الشرشف الأبيض. عندما رفع يديه إلى وجهه لاحظ أنهما مليئتان بالخدوش، والكدمات، وأوردته غائرة، وكأنه كان يُمسك بشيء صلب لوقتٍ طويل. بدا وجهه مُتعباً وقذراً، وانسدل شعره البني على جبهته، ومال شاربه بشكل منحرف، وبدا حاجباه الشبيهان بجناحين كثين وأشعثين، وبينما استلقى هناك تحركت شفتاه مرة، أو مرتين، واختلج شاربه كرجفة عصبية.

جلس بعد برهة وخبط بإحدى قبضتيه الكبيرتين على جانب رأسه ليرتب شعره. ألقى الرجل الذي كان يلعب الشطرنج نظرة سريعة نحوه وابتسم له.

«يا إلهي أنا عطشان»، قال جيك. «أشعر وكأنّ كل جنود الجيش الروسي مشوا بجواربهم مشيتهم العسكرية في فمي».

نظر الرجل إليه، وكان ما يزال يبتسم ثمّ مدّ يده فجأة إلى الجانب الآخر، وتناول إبريقاً من الماء المُثلّج وكأساً. تجرّع جيك الماء في جرعات كبيرة، ووقف نصف عارٍ وسط الغرفة، وقد ألقى رأسه إلى الوراء، وأطبق إحدى يديه كقبضة مُحكمة. تجرع أربعة كؤوسٍ أخرى قبل أن يأخذ نفساً عميقاً، ويسترخي قليلاً.

وسرعان ما عادت إليه ذكريات معينة. لم يتذكر عودته إلى هذا المنزل مع هذا الرجل، ولكن مع مرور الوقت بدأ يتذكر ما حصل. غسل وجهه في حوضٍ من الماء البارد، وبعد ذلك شربا القهوة وتحدثا. باح بكل شيء يُثقل كاهله، وأصغى الرجل إليه. تحدث عن نفسه بصوتٍ مبحوح، ولكنّه تذكر الانطباعات على وجه الرجل أكثر من أيّ شيءٍ قاله. ذهبا إلى النوم في الصباح، والستائر مُسدلة حتى لا يدخل أيّ ضوء. في البداية استمر بالاستيقاظ من الكوابيس التي رآها، وكان يُشعل الضوء حتى يُصفي ذهنه مجدداً. أيقظ الضوء زميله أيضاً، ولكنّه لم يبدِ أيّة شكوى أبداً.

«لماذا لم تطردني الليلة الماضية؟»

ابتسم الرجل مجدداً، وتساءل جيك عن سبب كونه هادئاً جداً. نظر حوله بحثاً عن ملابسه، وانتبه إلى أنّ حقيبته كانت على الأرض بقرب السرير. لم يتذكر كيف استعادها من المطعم الذي كان يدين له بثمن المشروبات. كانت كتبه، وبذلته البيضاء، وبعض القمصان موجودة كما وضبها تماماً، وأخذ يرتدي ثيابه على عجل.

وجد إبريق قهوة جاهزاً على الطاولة عندما انتهى من ارتداء ثيابه. مدّ الرجل يده إلى جيب صدّاره الذي علّقه على ظهر كُرسي، أخرج بطاقة، وناولها إلى جيك الذي أخذها باستغراب. كان اسم الرجل - جون سينغر - محفوراً وسط البطاقة، وتحته كُتب بالحبر وبالدقة التفصيلية ذاتها للأحرف المحفورة رسالة قصيرة.

«أنا أصمّ وأبكم، ولكنني أقرأ الشفاه وأفهم ما يُقال لي. من فضلك لا تصرخ».

شعر جيك بالخفة، والخواء جراء الصدمة، وحدّق كل من جيك، وجون سينغر ببعضهما فقط.

«أتساءل كم كان سيلزمني من الوقت لأدرك هذا؟» قال جيك.

تابع سينغر حركة شفتيه جيداً عندما تحدث وقال إنّه لاحظ ذلك مسبقاً ولكنه اعتقد أنّ سينغر أحمق!

جلسا على الطاولة، وشربا قهوة ساخنة في أكواب زرقاء. كان جو الغرفة لطيفاً، وخففت ظلال الستائر نصف المُسدلة من الوهج القوي القادم من النافذة. جلب سينغر من خزانته علبة معدنية تحوي على رغيف من الخبز، وبعض البرتقال وجبناً. لم يأكل كثيراً، بل جلس، وقد أرخى ظهره على الكرسي، وإحدى يديه في جيبه. أكل جيك بجوع، وأراد مغادرة المكان على الفور ليفكر بأمور معينة. وبما أنّه تائه عليه أن يبحث عن عمل ما على الفور. كان جو الغرفة الهادئة مسالماً ومريحاً جداً، ولا يستدعي القلق، أراد فقط الخروج للتمشي قليلاً.

«هل يوجد صمٌ وبكمٌ آخرون هنا؟» سأل. «هل تملك الكثير من الأصدقاء؟»

كان سينغر ما يزال يبتسم. لم يفهم الكلمات في البداية، وتوجب على جيك أن يعيد ما قال. رفع سينغر حاجبيه الحادين والداكنين وهزّ رأسه.

«هل تشعر بالوحدة؟»

هزّ الرجل رأسه بطريقة قد تعني نعم أو لا. جلسا بصمتٍ لبعض الوقت، ثمّ نهض جيك مغادراً. شكر سينغر كثيراً على استضافته له، وحرّك شفتيه على مهل حرصاً منه على أن يفهمه. ابتسم الأبكم مجدداً وهزّ كتفيه. عندما سأله جيك إن كان باستطاعته أن يترك حقيبته تحت السرير لبضعة أيّام، هزّ الأبكم رأسه بالموافقة.

ثمّ أخرج سينغر يديه من جيبه، وكتب بقلمٍ فضي على دفتر بكل دقة.

«يمكنني أن أضع فراشاً على الأرض، ويمكنك أن تبقى هنا حتى تجد مكاناً، فأنا في الخارج معظم اليوم، ولن يكون هناك أيّة مشكلة».

شعر جيك أن شفتيه تهتزان تحت وطأة شعورٍ مفاجئ بالامتنان، ولكنه لم يستطع قبول العرض. «شكراً، لدي مكان أبيت فيه». ردّ على الأبكم.

وبينما كان يُهمّ مغادراً ناوله الأبكم رداء سرواليا، وقد لفه على شكل صُرّة محكمة بالإضافة إلى خمسة وسبعين سنتاً. كان الرداء السروالي متسخاً، وعندما تعرّف عليه جيك اجتاحته دوامة من ذكريات الأسبوع الماضي المُفاجئة. أوضح له سينغر أنّ المال الذي ناوله إيّاه كان موجوداً في جيوبه.

«وداعاً»، قال جيك. «سأعود في وقتٍ قريب».

ترك جيك الأبكم واقفاً عند الباب، ويداه ما تزالان في جيبيه مع نصف ابتسامة على وجهه. عندما نزل بضع درجات على السلم، التفت إلى الوراء ولوح بيده. لوح له الأبكم وأغلق الباب.

كان الوهج في الخارج مفاجئاً، وحاداً على عينيه. وقف على الرصيف المواجه للمنزل مأخوذاً جداً في البداية بأشعة الشمس، ولم يتمكن من الرؤية بوضوح. هناك فتاة صغيرة تجلس على درابزين البيت، وقد رآها في مكان ما قبلاً. تذكر السروال الصبياني الذي كانت ترتديه وكيف كانت تنظر شزراً.

حمل الرداء السروالي الملفوف.

«أريد أن أتخلص من هذا الرداء. هل تعرفين أين يمكنني العثور على حاوية قمامة؟»

قفزت الطفلة عن الدرابزين. «إنّها في الحديقة الخلفية. سأريك المكان».

لحقها عبر الزقاق الضيّق، والرّطب بجانب المنزل. عندما وصلا إلى الحديقة الخلفية رأى جيك زنجيين يجلسان على عتبات الدرج الخلفي. كانا في حلتين وحذائين أبيضين. أحد الزنجيين طويل، ويرتدي ربطة عنقٍ، وجوارب بلونٍ أخضر زاهٍ، أمّا الثاني فكان خُلاسياً ببشرة فاتحة،

ومتوسط الطول، وقد جلس يمسح هارمونيكا معدنية بركبته. وعلى عكس رفيقه الطويل ارتدى جوارب، وربطة عنق بلونٍ أحمر زاهٍ.

أشارت الطفلة إلى حاوية القمامة بالقرب من السياج الخلفي، والتفتت إلى نافذة إلى المطبخ، ونادت، «بورشيا! هايبوي وويلي هنا بانتظارك».

أجاب صوت ناعم من المطبخ: «ليس عليك أن تصرخي بصوتٍ عالٍ. أعلم أنهما هنا، وأنا أرتدي قبعتي الآن».

لفّ جيك الرداء السروالي قبل أن يرميه. كان الرداء مُجعداً، وملطخاً بالطين، وإحدى فردتي السروال ممزقة، ومُلطخة ببُقع دماء من الأمام. رمى الرداء في الحاوية. خرجت الفتاة الزنجية من المنزل، وانضمت إلى الرجلين الجالسين على الدرج بالحُلتين البيضاوين. انتبه جيك إلى أنّ الفتاة الصغيرة في السروال القصير تنظر إليه بإمعان شديد، وقد نقلت تركيز وزن جسمها من قدم إلى قدم أخرى وبدت مُتحمسة.

«هل أنت نسيب السيد سينغر؟» سألته.

«لا من قريب ولا من بعيد».

«صديق قريب؟»

«قريب بما يكفي لأقضي الليلة معه».

«كنت أتساءل فقط».

«من أيّ جهة يمكنني الذهاب إلى الشارع الرئيس؟»

أشارت إلى اليمين. «على بعد شارعين من هذا الطريق».

مشّط جيك شاربيه بأصابعه، وانطلق مخشخشاً بالخمسة وسبعين سنتاً في يديه بينما عضّ شفته السفلى إلى أن غدا لونها قرمزياً. مشى الزنوج الثلاثة أمامه يتحدثون مع بعضهم، ولأنّه كان يشعر بالوحدة في بلدة غريبة بقي قريباً منهم، وأصغى السمع إلى ما كانوا يتحدثون به. تأبطت الفتاة ذراعي الرجلين، كانت في ثوبٍ أخضر، وقبعة، وحذاء أحمرين ومشى الرجلان قريباً منها.

«ما هي مخططاتنا لهذه الأمسية؟» سألت الفتاة.

«يعتمد الأمر بأكمله عليك يا عزيزتي»، قال الفتى الطويل. «ليس لدي أنا، وويلي أية مخططات خاصّة».

نقلت نظرها من رجلٍ إلى آخر. «يجب أن تقررا».

«حسناً_» قال الفتى الأقصر ذو الجوارب الحمراء. «كنت أخطط مع هايبوي بأن نذهب ثلاثتنا إلى الكنيسة».

أجابت الفتاة بشكل غنائي في ثلاث نغمات مختلفة.

«ح-س-ن-اً. وبعد الكنيسة أفكر بأنّ نذهب ونجلس مع أبينا لبعض الوقت - لوقتٍ قصيرٍ فقط».

انعطفوا عند الزاوية الأولى، ووقف جيك يراقبهم لدقيقة قبل أن يتابعوا المشي.

كان الشارع الرئيس هادئاً، وقائظاً، وخالياً تقريباً. لم يدرك حتى الآن أنّ اليوم يوم الأحد، وسببت له هذه الفكرة الاكتئاب. كانت المظلات الشمسية مُسدلة فوق المتاجر، وبدا منظر الأبنية عارياً تحت ضوء الشمس المُبهر. مرّ بمطعم نيويورك كافيه، كان الباب مفتوحاً إلّا أنّ المكان بدا خالياً ومُظلماً. لم يجد جوارباً ليرتديها هذا الصباح، وحرقت حرارة الرصيف أسفل حذائه. كانت الشمس أشبه بقطعة حديدية حارة تضغط على رأسه. بدت البلدة مقفرة أكثر من أيّ مكان عرفه، وأثار فيه سكون الشارع شعوراً غريباً. عندما كان ثملاً بدا المكان عنيفاً وصاخباً، ولكن الآن يبدو وكأنّ كل شيء في حالة سكون مُفاجئ.

توجه إلى محل الفواكه، والحلوى لشراء صحيفة، ورأى إعلاناً مُقتضباً جداً يطلب موظفين. كان هناك عروض عمل عديدة تطلب شُباناً بين الخامسة والعشرين والأربعين قادرين على قيادة سيارات، وبيع منتجات منوعة لقاء عمولة. تجاوز هذه الطلبات بسرعة، ولكن استرعى انتباهه قليلاً إعلان يطلب سائق شاحنة، وما لفته كثيراً في العرض الملاحظة المكتوبة في الأسفل:

مطلوب ميكانيكي خبير للعمل في معرض (ساني ديكسي)

ومن دون أن يعي ما يفعل، عاد إلى باب المطعم حيث قضى وقته خلال الأسبوعين الماضيين. كان المطعم، ومتجر الفواكه المكانين الوحيدين غير المُغلقين في الشارع. قرر جيك فجأة أن يدخل ويرى بيف برانن.

بدا المطعم مُظلماً جداً بعد كل ذلك الضوء المبهر في الخارج. كان كل شيء أكثر كآبة وهدوءً ممّا يتذكره. وقف برانن وراء آلة النقود كعادته، وذراعاه متشابكان على صدره. جلست زوجته الممتلئة، والجميلة تبرد أظافر يديها عند النهاية الأخرى للمنضدة. لاحظ جيك بأنهما حدقا ببعضهما عندما دخل.

«طاب يومك»، قال برانن.

شعر جيك بشيء ما في الأجواء، ربما كان الرجل يضحك؛ لأنّه تذكر الأشياء التي حدثت عندما كان جيك ثملاً. وقف جيك بلا حراك، وبامتعاض.

«علبة من سجائر تارغيت من فضلك».

وبينما مدّ برانن يده تحت المنضدة، ليأخذ علبة التبغ قرر جيك أنّ برانن لم يكن يضحك. في ضوء النهار لم يبدُ وجه الرجل قاسياً كما بدا ليلاً. كان شاحباً، وكأنّه لم ينمْ، وفي عينيه نظرة كنظرة بازٍ متحفزٍ.

«تحدث»، قال جيك. «بكم أدين لك؟»

فتح برانن دُرجاً، ووضع على الطاولة دفتراً كدفاتر المدارس الحكومية. قلّب صفحات الدفتر على مهل بينما راقبه جيك. بدا الدفتر أقرب إلى دفتر ملاحظات خاص أكثر مما هو دفترٌ لتسجيل حسابات عادية وسطوره طويلة مكونة من أرقام أضيفت، وضُربت ببعضها، وطُرحت مع رسوم صغيرة. توقف برانن عند صفحة معينة، ورأى جيك اسم عائلته مكتوباً في الزاوية. لم يكن هناك أرقام على تلك الصفحة، بل مجرد إشارات صح وخطأ، وفي مكان ما على الصفحة رُسمت قطط

صغيرة مكتنزة بذيولٍ طويلة معقوفة في وضعية الجلوس. حدّق جيك، وبدت وجوه القطط الصغيرة بشرية وأنثوية. هناك شبه بين وجوهها ووجه السيدة برانن.

«هناك حساب جعة غير مدفوع»، قال السيد برانن. «ووجبات غداء مدفوعة. هناك الكثير من كؤوس الويسكي! دعني أرَ...». فرك برانن أنفه، وأسدل جفنيه ثمّ أغلق الدفتر.

«عشرون دولاراً تقريباً».

«سيتطلب دفع المبلغ وقتاً طويلاً»، قال جيك. «ولكنك قد تحصل على نقودك».

«لا داعٍ للعجلة».

انحنى جيك فوق المنضدة، «أخبرني أيّ نوع من البلدات هذه البلدة؟».

«النوع العادي»، قال برانن. «كأيّ مكان آخر له المساحة ذاتها».

«كم يبلغ عدد السكان؟»

«حوالي ثلاثين ألفاً».

فتح جيك علبة التبغ، ولفّ لنفسه سيجارة. كانت يداه ترتجفان. «وغالبيتها محالج؟»

«هذا صحيح. هناك أربعة محالج قطن كبيرة، وهي محالج رئيسة. هناك معمل جوارب ومعامل تفصل بذور القطن ومناشر خشب».

«كيف هي الأجور؟»

«يمكنني القول إنّ متوسط الأجر عشرة أو أحد عشر دولاراً أسبوعياً، ولكنهم يُسرحون العُمال بين الفينة والأخرى. لمَ تسأل كل هذه الأسئلة؟ هل تحاول الحصول على عمل في أحد المعامل؟»

رفع جيك قبضته، وفرك عينه بنعسٍ.

«لا أعلم. قد أفعل، وقد لا أفعل». وضع الجريدة على المنضدة، وأشار إلى الإعلان الذي قرأه للتو.

«أعتقد أنني سأذهب، وأتحقق من الأمر».

قرأ برانن الإعلان وتأمله.

«أجل»، أجاب أخيراً. «رأيت ذلك المعرض، إنّه ليس كبيراً. هناك بضع ألعاب غريبة كلعبة الأحصنة الخشبية الطائرة[1] وأراجيح. يستقطب الملونين والعاملين في المعامل والأطفال، وينتقل بين مختلف الأماكن المفتوحة من البلدة».

«هلّا أخبرتني كيف أصل إلى هناك؟»

رافقه برانن إلى الباب، وأشار إلى الجهة ثمّ سأله:

«هل رافقت سينغر إلى المنزل هذا الصباح؟»

أومأ جيك برأسه.

«ما رأيك فيه؟» سأله برانن.

عضّ جيك على شفتيه، واستحضر في ذهنه وجه الأبكم بوضوح شديد. كان وجهه أشبه بوجه صديق عرفه منذ وقتٍ طويل. كان جيك يُفكر بسينغر مذ ترك غرفته.

«لم أعرف أنّه أبله»، قال أخيراً.

استأنف جيك المشي في الشارع الخالي والحار، ولم يمشِ كغريب في بلدة غريبة بل كمن يبحث عن شخصٍ ما، وسرعان ما دخل إلى إحدى مناطق المصانع المحاذية للنهر. غدت الشوارع أضيق وغير مُمهدة ومكتظة، وعلا نداء مجموعات أطفال مُعفرين بالغبار وجوعى لبعضهم وهم يلعبون. بدت الأكواخ المكونة من غرفتين والمتشابهة متهالكة وغير مطلية، وأضفى الشلال أعلى النهر صوت تدفق بعيد إلى المكان. وقف الناس بصمت عند مداخل المنازل، أو جلسوا على عتبات السلالم الخارجية. حدّقوا نحو جيك بوجوه صفراء خالية التعابير، وقابل نظراتهم إليه بعينين بُنيتين واسعتين. مشى جيك مترنحاً، وبين الفينة والأخرى مسح فمه بظاهر يده المُشعرة.

1- Flying Jinny لعبة الأحصنة الخشبية الدوارة والمتواجدة في مدن الملاهي. (المترجمة)

عند نهاية شارع كان هناك شارعٌ خال استخدام فيما مضى كمكبِ خُردة السيارات القديمة. ما زال على الأرض بقايا آلات وأنابيب داخلية متشققة. هناك مقطورة مركونة في زاوية الباحة، وبالقرب منها حِصانٌ خشبي مغطى جزئياً بالخيش.

اقترب جيك على مهل من المكان الذي وقف فيه طفلان في أردية سروالية أمام حصان خشبي، وبالقرب منهما جلس زنجي على صندوق في ضوء شمس المغيب، وقد طوى ركبتيه باتجاه معاكس لبعضهما، وفي إحدى يديه كيسٌ من قطع الشوكولا الذائبة. راقبه جيك يضع أصابعه بين قطع الحلوى الذائبة ثمّ يلعقها على مهل.

«من مدير هذه المؤسسة؟»

دفع الزنجي بإصبعين بين شفتيه ثمّ لحسهما بلسانه. «إنّه رجل أصهب»، قال بعد انتهائه من لعق الإصبعين. «هذا كل ما أعرفه أيّها الكابتن».

«أين هو الآن؟»

«هناك عند تلك العربة الكبيرة».

نزع جيك ربطة عنقه أثناء مروره فوق العشب ثمّ حشرها في جيبه. بدأت الشمس تغيب، وفوق خط أسطح المنازل الأسود بدت السماء بلونٍ قرمزي دافئ. وقف مالك المعرض يُدخن سيجارة وحده، وقد وقف شعر رأسه كإسفنجة. حدّق جيك نحوه بعينين رماديتين واهنتين.

«أأنت المدير؟»

«أجل، أدعى باترسون».

«رأيت إعلان عمل في صحيفة الصباح».

«أجل، لا أريد شخصاً غِرّاً بلا خبرة. أحتاج إلى ميكانيكي خبير».

«لدي الكثير من الخبرة»، قال جيك.

«ما الذي قُمت به؟»

«عملت حائكاً ومُصلّح أنوال، وعملت في الكراجات، وفي محل تجميع قطع سيارات. عملت في مُختلف أنواع الأعمال».

قاده باترسون نحو حصان خشبي مغطى جزئياً. بدت الأحصنة الخشبية ثابتة وساكنة تحت شمس أواخر منتصف الظهيرة. استقرا على حصانين من دون حركة، وأمامهما ارتفعت قُضبان الأحصنة الذهبية الكامدة. كان على العجيزة القذرة للحصان الأقرب إلى جيك ثلمٌ، وقد غُطيت العينان اللتان بدتا مرعوبتين بسبب الطلاء المتقشر في المحجرين. بدا هذا الحصان المخصص للمرح كغرضٍ ما في حلمٍ ثملٍ.

«أحتاج إلى ميكانيكي خبير يدير العمل ويحافظ على سير الأمور جيداً»، قال باترسون.

«يمكنني أن أقوم بهذا كما يجب».

«إنّه عملٌ مُجهد»، شرح باترسون. «أنت مسؤول عن كامل الموقع، وبالإضافة إلى مسؤولية العناية بالآلة عليك الحفاظ على النظام بين الحشود. يجب أن تحرص على أنّ كل من يركب يملك بطاقة، وأن تتأكد من أنّ البطاقات سليمة، وليست بطاقات قديمة لدخول قاعة رقص ما. يريد الجميع أن يمتطي الأحصنة، وستتفاجأ بما سيحاول الزنوج فعله معك عندما لا يكون معهم أي نقود، يجب أن تُبقي عينيك مفتوحتين طوال الوقت».

قاده باترسون إلى داخل آلة الأحصنة الدوارة، وأشار إلى أجزائها المختلفة، ثمّ حرّك ذراعاً ما، وصدر صوت موسيقى ميكانيكية ضعيفة وناشزة. يبدو أنّ هذا الموكب الخشبي من الأحصنة فصلهما عن بقية العالم حولهما. عندما توقفت الأحصنة سأل جيك بضعة أسئلة، وشغّل الآلة بنفسه.

«تركني الرجل الذي كان يعمل معي»، قال باترسون عندما خرج من الساحة. «أكره إحضار عامل جديد».

«متى أبدأ؟»

«إنّ فترة الغداء بعد الظهر، ونعمل ستة أيام أسبوعياً. نبدأ تمام الساعة الرابعة، وننتهي في الثانية عشرة صباحاً. يجب أن تكون هنا حوالي

الساعة الثالثة، وتبدأ بتجهيز الأمور، وستحتاج إلى ساعة كاملة بعد نهاية العمل كل ليلة لتوضيب الأمور».

«ماذا عن الراتب؟»

«اثنا عشر دولاراً».

أومأ جيك برأسه موافقاً، ومدّ باترسون يداً بيضاء ورخوة جداً بأظافر قذرة.

كان الوقت متأخراً عندما غادر جيك الساحة الفارغة، والسماء شديدة الزرقة قد ابيضت، وارتفع من الشرق قمرٌ أبيض. خفف ضوء الغسق من وضوح الحدود الخارجية للمنازل على طول الشارع. لم يعد جيك مباشرة عبر شارع ويفرز بل تسكع في المنطقة المجاورة. شمّ روائح معينة وسمع أصواتاً في البعيد، وهذا جعله يتوقف بين الفينة والأخرى على جانب الطريق المُغبر. مشى شارداً ومتمايلاً من جهة إلى أخرى دون هدىً، وشعر برأسه خفيفاً وكأنّه مصنوع من الزجاج الرقيق. يبدو وكأنّ تغييراً كيميائياً يحدث في داخله، وأخذت الجعة والويسكي اللتان خزّنهما في منظومته بالتفاعل معاً. ترنح من الثمالة، وبدت الشوارع التي كانت ميتة قبلاً نابضة بالحياة الآن. كان هناك شريط من العشب المُقطع على حد الشارع، وبينما مشى جيك قريباً من هذا الشريط شعر وكأنّ العشب يرتفع قريباً من وجهه. جلس على الشريط العشبي، واتكأ على عمود الهاتف. جلس بشكل مريح، وقاطع ساقيه على الطريقة التركية، وأخذ يهذّب نهاية شاربه. وحضرته كلمات نطق بها لنفسهِ بصوتٍ عالٍ وحالمٍ.

«الاستياء زهرة الفقر الأجمل، أجل».

كان من الجيد أن يتحدث فقد منحه صوته متعة، وكأنّ لنغمته صدىً عالقاً في الهواء يتردد مرتين مع كل كلمة ينطقها. بلع ريقه، ورطّب فمه ليتابع حديثه، وفجأة أراد أن يعود إلى غرفة الأبكم الهادئة، ويُخبره بكل الأفكار التي تدور في باله. من الغريب أن يرغب بالتحدث مع هذا الأبكم، ولكنّه كان يشعر بالوحدة.

هجعت الشوارع التي امتدت أمامه في ظلمة خفيفة مع بداية حلول المساء. بين الفينة والأخرى يمر رجالٌ على طول الشارع الضيّق قريباً منه جداً، ويتحدثون بأصوات رتيبة إلى بعضهم وقد ارتفعت غمامة من الغبار حول أقدامهم مع كل خطوة، أو تمرّ فتيات أو أمٌّ مع طفل على كتفها. جلس جيك بخدرٍ لبعض الوقت وفي النهاية نهض على قدميه ومشى.

كانت جادة ويفرز مُظلمة، ورسمت الأضواء الزيتية بُقعاً ضوئية صفراء مرتعشة عند مداخل المنازل وعلى النوافذ. هناك منازل غارقة في ظلمة تامة، وعائلات جلست على عتبات الدرج الأمامي للمنزل، وما من ضوء في المكان سوى انعكاس ضوء المنزل المجاور. أطلّت امرأة من نافذة ورشقت في الشارع دلواً من الماء القذر. لوثت بضع قطرات منه وجه جيك. كان بالإمكان سماع أصوات عالية وغاضبة من الفناء الخلفي لبعض المنازل. ومن منازل أخرى تناهى صوت هادئ لكرسي يهتزّ ببطء.

توقف جيك أمام أحد المنازل حيث جلس على عتباته الأمامية ثلاثة رجال بوجوه تلمع بضوءٍ أصفر باهت قادم من داخل المنزل. اثنان منهم حافيان في بدلات سروالية، ولكن من دون قمصان تحتها. أحدهما طويل ومرن البنية، أمّا الآخر فكان ضئيلاً ولديه بثرة مُتقيحة في زاوية فمه. ارتدى الرجل الثالث قميصاً وسروالاً، ووضع قبعة قشّية على ركبته.

«مرحباً»، قال جيك.

حدّق الرجال الثلاثة فيه بوجوه غائرة وخالية من التعابير. دمدموا بشيءٍ ما، ولكن لم يغيروا وضعياتهم التي جلسوا عليها. أخرج جيك علبة سجائر تارغيت من جيبه، ومررها لهم ثمّ جلس على العتبة الأخيرة ونزع حذاءه. كان ملمس الأرض الرطبة والبارد تحت قدميه جميلاً.

«هل تعملون حالياً؟»

«أجل»، قال الرجل صاحب القُبعة القشّية. «معظم الوقت».

عبث جيك بأصابع قدميه وقال، «أحمل بشارة، وأريد إخبار أحدهم عنها».

ابتسم الرجل، ومن الشارع الضيّق أتى صوت امرأة تُغني. علق الدُخان المُتصاعد من السجائر في الهواء الساكن حولهم. عبر طفل صغير الشارع، ثمّ توقف وفتح سحّاب سرواله ليتبول.

«هناك خيمة عند الزاوية واليوم أحد»، قال الرجل الضئيل في النهاية. «يمكنك أن تذهب إلى هناك وتخبرهم بكل الكلام المقدس الذي تريده».

«إنّه ليس من ذلك النوع بل أفضل، إنّه الحقيقة».

«من أيّ نوع؟»

أخذ جيك يمصّ طرف شاربه، ولم يُجب وبعد وهلة قال، «هل شهدتم أي إضرابات هنا؟»

«مرة واحـدة»، قال الرجل الطويل. «شهد المكان هنا أحد هذه الإضرابات منذ ستِ سنين».

«ما الذي حدث؟»

عدّل الرجل صاحب البثرة على فمه وضعية ساقيه، ورمى عقب السيجارة على الأرض. «حسناً... توقفوا عن العمل لأنّهم أرادوا عشرين سنتاً في الساعة. بلغ عددهم ثلاثمئة، وتسكعوا في الطرقات طوال اليوم. رفض أصحاب المعمل مطالبهم وأخرجوا العمال بالشاحنات من المعمل، وخلال أسبوع عجّت المدينة بأناس قدموا إلى هنا طلباً للعمل».

استدار جيك حتى يُصبح وجهه مُقابلاً لوجوههم. جلس الرجال على العتبتين فوق العتبة التي جلس عليها، ولهذا اضطر إلى رفع رأسه لينظر في أعينهم.

«ألا يغضبكم الأمر؟»

«ما الذي تعنيه بقولك (يغضبكم)؟»

انتفض الوريد في جبهة جيك وغدا قُرمزياً. «يا يسوع العظيم! أعني غضب... غـ ضـ ب... غضب». تجهم في وجوههم المُربكة والغائرة. ومن خلال الباب المفتوح خلفهم تمكن من رؤية ما يوجد داخل المنزل. هناك في الغرفة الأمامية ثلاثة أسرّة ومغسلة، أمّا في الغرفة الخلفية فهناك

امرأة حافية القدمين نائمة على كرسي. ومن إحدى الشُرفات القريبة والمُظلمة أتى صوت غيتار.

«كنت أحد الذين أخرجوا في الشاحنات»، قال الرجل.

«لا فرق فما أحاول قوله لك أمر واضح وبسيط. إن الأوغاد الذين يملكون المحالج من أصحاب الملايين، بينما القاطفون والندّافون والعاملون على الآلات ممن يغزلون وينسجون القُماش بالكاد يجنون ما يكفي لسدّ الرمق، هل فهمت؟ لهذا عندما تتجول في الشوارع، وتفكر بالأمر، وترى الناس الجائعة والمُحطمة والأطفال الكُسّح ألا تغضب؟ ألا تغضب؟»

بدا وجه جيك مُهتاجاً وقاتماً، وارتعشت شفتاه. نظر الرجال الثلاثة نحوه بحذر، ثمّ أخذ الرجل ذو القبعة القشّية يضحك.

«استمر بالضحك، اجلس هناك وجهز نفسك لتتعرض للضرب».

ضحك الرجال على مهلٍ وبهدوء في آنٍ معاً. نفض جيك الغبار عن باطن قدميه، وارتدى حذاءه. كانت قبضتاه مُحكمتين بشدة، وقد لوى فمه على شكل ابتسامة ساخرة. «اضحكوا فهذا كل ما تجيدونه. أتمنى أن تجلسوا هنا وتضحكوا إلى أن تتعفنوا!» وبينما مضى جيك في طريقه في هيئة مُتصلبة لاحقه صوت ضحكهم وصفيرهم.

كان الشارع الرئيس مُضاءً بشكلٍ مُبهر. تلكأ جيك عند إحدى الزوايا بينما عبث بالفكّة في جيبه. اختلج رأسه، ورغم حرارة الليل إلا أنّ إحساساً بالبرودة نخر جسده. فكر بالأبكم، وأراد العودة إليه فوراً والجلوس معه. انتقى من متجر الفواكه والحلوى الذي اشترى منه الصحيفة بعد ظهر ذلك اليوم سلة من الفواكه المُغلّفة بالسلوفان. قال له اليوناني خلف النُضد إنّ الثمن ستون سِنتاً، وعندما دفع ثمن ما اشترى لم يبق معه سوى خمسة سنتات. عند خروجه من المتجر أدرك أن سلة الفاكهة هدية غريبة لرجل بأتمّ صحة. تدلت بضع حبات عنب من الغلاف فالتقطها بشهية.

عندما وصل جيك كان سينغر في المنزل جالساً بالقرب من النافذة، وقد وضع أمامه لعبة الشطرنج على الطاولة. ما زالت الغرفة على الحال الذي تركها عليه جيك؛ المروحة تدور وإبريق الماء المُثلّج بالقرب من السرير. هناك قبعة بانمية[1] على السرير ومظلّة ورقية، يبدو أنّ الأبكم قد وصل لتوه. أشار سينغر برأسه نحو الكرسي مقابله على الطاولة، ودفع بلوح لعبة الشطرنج جانباً. أراح سينغر ظهره على الكرسي، ويداه في جيبيه. بدا على وجهه استفهام حيال ما حدث مع جيك منذ مغادرته.

وضع جيك الفواكه على الطاولة وقال، «في ظهيرة هذا اليوم كان الأمر أشبه بالخروج والبحث على أخطبوط وإلباسه الجوارب».

ابتسم الأبكم، ولكن لم يعرف جيك إن فهم سينغر ما قاله. نظر الأبكم إلى الفواكه باستغراب ثمّ فتح الغلاف السلوفاني. عندما ناوله سينغر قطع الفواكه بدا وكأنّ شيئاً غريباً جداً علا وجهه. حاول جيك أن يفهم النظرة ولكنها حيرته. ثمّ ابتسم سينغر ابتسامة مُشرقة.

«حصلت على عمل ظهر هذا اليوم. إنّه عمل في الملاهي. سأكون مسؤولاً عن تشغيل الأحصنة الخشبية».

لم يكن الأبكم متفاجئاً أبداً، وتوجه إلى الخزانة ثمّ أخرج زجاجة نبيذ وكأسين. شربا في صمتٍ، وشعر جيك أنّه لم يدخل غرفةً بهذه الهدوء قبلاً. ألقى الضوء فوق رأسه انعكاساً غريباً لنفسه في كأس النبيذ المتلألئ في يده. إنها ذات الصورة الكاريكاتيرية التي رآها لنفسه على أسطح الأباريق المتعرجة أو الأكواب المعدنية، وجه سمين يشبه البيضة بشاربين ممتدين حتى أذنيه تقريباً. حمل الأبكم قبّالته كأس النبيذ بيديه. بدأ النبيذ يتغلغل في عروق جيك، وشعر بنفسه يدخل مجدداً في حالة عدم اتزان وثمالة. ارتعش شارباه فجأة، وبدفعٍ من الحماسة التي اعتملت فيه أسند مرفقيه على ركبتيه، وألقى على سينغر نظرة واسعة وفاحصة.

1- قبعة عريضة مصنوعة من مواد قشية كأوراق أشجار النخيل المدارية ويرتديها الناس في بنما. (المترجمة)

«أراهن أنني الرجل الوحيد الغاضب في البلدة. أتحدث عن الغضب الحقيقي، غضب عشر سنوات كاملة. كُدت أدخل في مُشاجرة مُنذ برهة. يبدو لي أحياناً أنني مجنون. لست واثقاً من هذا حقاً».

دفع سينغر بالنبيذ نحو ضيفه. شرب جيك من الزجاجة وفرك أعلى رأسه.

«كما ترى، أنا شخصان في شخصٍ واحد، وأحدهما رجل مُتعلّم. زرت بعضاً من أكبر المكتبات الوطنية وقرأت، قرأت طوال الوقت. قرأت الكتب التي تتحدث عن الحقيقة الصادقة والصرفة. في حقيبتي كُتبٌ لكارل ماركس وثورشتاين فيبلين[1] ومن على شاكلتهما من المؤلفين. قرأتهم مراراً وتكراراً، وكلما درست أكثر غضبت أكثر. أحفظ كل كلمة مطبوعة في كل صفحة. ولكنني سأبدأ كلامي بالقول إنّني أحبّ الكلمات؛ «المادية الجدلية» و«المراوغة اليسوعية» - حرّك جيك المقاطع اللفظية في فمه بوقارٍ رقيق - «الميل الغائي»...».

مسح الأبكم جبهته بمنديل مطوي بعناية.

«ولكن ما أحاول قوله هو التالي: عندما يعرف شخصٌ ما الحقيقة، ولا يستطيع جعل الآخرين يفهمونها فماذا يفعل؟»

تناول سينغر كأس النبيذ وملأه حتى الحافة، ثمّ وضعه بثبات في يد جيك المصابة. «تريدني أن أثمل، صحيح؟» قال جيك وحرّك ذراعه بشكلٍ مُفاجئ، فسكب بضع قطرات من النبيذ على سرواله الأبيض. «فلتصغِ! هناك وضاعة وفساد في كل مكان. هذه الغرفة، زجاجة نبيذ العنب وهذه الفواكه في السّلة كلها نتاج الربح والخسارة. يقدم الجميع موافقتهم السلبية على هذه الوضاعة، يكدح بعضهم بشقاء من أجل كل لقمة نتناولها وكل قطعة ثياب نرتديها، ويبدو أن الجميع يجهلون هذا. الجميع صمٌ بكمٌ وبليدون... أغبياء ودنيئون».

1- باحث اقتصادي أمريكي (1857-1929) اشتهر بشخصيته وأفكاره الغريبة، ومن بين مؤلفاته كتاب *نظرية الطبقة المرفهة* الذي طبق فيه نظرية داروين في دراسته للحياة الاقتصادية المعاصرة. (المترجمة)

ضغط جيك بقبضتيه على صدغيه، وذهبت أفكاره في اتجاهات مختلفة. لم يعد قادراً على ضبطها. أراد أن يصاب بالسعار، ويخرج للقتال بعنفٍ مع أحدهم في الشوارع المُكتظة.

أخذ الأبكم قلمه الفضيّ، وتابع التحديق نحو جيك بكل اهتمام وصبر. كتب بحذرٍ على قطعة ورقية: «هل أنت ديمقراطي أم جمهوري؟» ومرر الورقة عبر الطاولة. سحقها جيك في يده. بدأت الغرفة تلف به مجدداً، ولم يعد قادراً حتى على القراءة.

أبقى عينيه على وجه الأبكم ليحافظ على ثباته. كانت عينا سينغر الشيء الوحيد الثابت في الغرفة، عينان بألوان متغيرة وببقع كهرمانية ورمادية وبُنية فاتحة. حدق بهما جيك مطولاً، وشعر أنّه منوّم مغناطيسياً، وتراجعت رغبته بإثارة الشغب، وشعر بالهدوء مجدداً. بدت العينان وكأنهما تفهمان كل ما يقوله، وأنهما تحملان رسالة معينة له. بعد برهة استرجعت الغرفة ثباتها مجدداً.

«أنت تفهم الأمر»، قال في صوتٍ خفيض. «وتعرف مقصدي».

صدح صوت جرس الكنيسة الفضي والهادئ من بعيد.

ألقى القمر ضوءاً أبيض على سطح المنزل المجاور، واكتست السماء زرقة صيفيّة فاتحة. لقد قضي الأمر؛ سيبيت جيك مع سينغر لبضعة أيام حتى يعثر على غرفة. عندما انتهى النبيذ وضع الأبكم حشيّة على الأرض قرب السرير. ودون أن يخلع جيك أيّة قطعة من ثيابه استلقى وغط في النوم سريعاً.

-5-

بعيداً عن الشارع الرئيس وفي أحد أحياء الزنوج في البلدة جلس الطبيب بينديكت مادي كوبلاند في مطبخه المُظلم وحده. تجاوزت الساعة التاسعة، وقد هدأت أجراس الكنيسة الآن. ورغم حرارة الليل الشديدة هناك نار ضعيفة في موقد الحطب المدور. جلس الطبيب كوبلاند بالقرب منه، وانحنى إلى الأمام على كرسي مطبخ بظهرٍ عالٍ، ووضع رأسه بين يديه الطويلتين والنحيلتين، وشعّ وجهه بوميضٍ أحمر من الجمر في الموقد. في هذا الضوء بدت شفتاه أرجوانيتين تقريباً على أرضية بشرته السوداء، واكتسى شعره الأبيض المشدود للوراء على رأسه كقبعة من صوف الخروف بلون أزرق أيضاً. جلس بلا حراك وعلى هذه الوضعية لوقتٍ طويل. ورغم ارتدائه لنظاراتٍ بإطار فضي إلّا أن نظرة عينيه بقيت ثابتة ورصينة. تنحنح ونظّف حنجرته بقوة، وأخذ كتاباً عن الأرض بجانب الكرسي. غرقت الغرفة من حوله في الظلمة الشديدة، ووجه الكتاب قريباً من الموقد ليرى الأحرف. الليلة يقرأ سبينوزا، ولم يفهم تماماً العرض الدقيق للأفكار والمفردات المركبة في كتابه، ولكن بينما قرأ أحسّ بغاية قوية وحقيقية خلف الكلمات المكتوبة، وشعر أنّه يكاد يفهم ما يقرأه.

يستيقظ أحياناً الطبيب كوبلاند في الليل على صوت جرس الباب الحاد، ويجد في الغرفة الأمامية مريضاً بعظمةٍ مكسورةٍ، أو بجرحٍ من شفرة. ولكن هذه الليلة لم يُزعجه أحد. وبعد ساعات عزلة قضاها جالساً في المطبخ المُعتم بدأ يتمايل ببطء من جهة إلى أخرى، ثمّ خرج

من حنجرته صوت أشبه بنحيبٍ غنائي. بدأ يُصدر هذا الصوت عندما أتت بورشيا.

علم الطبيب كوبلاند بوصولها مُسبقاً، والتقط من الشارع في الخارج صوت هارمونيكا تعزف أغنية بلوز وعلم أنّ ابنه ويليام من يعزفها. ومن دون أن يُشعل الأضواء في الردهة ذهب ليفتح الباب الأمامي. لم يخرج إلى الشُرفة بل وقف في الظلام خلف الستار الغربالي للباب. كان ضوء القمر ساطعاً، واستقرت ظلال بورشيا وويليام وهايبوي السوداء بوضوح في الشارع المُغبر. كان للمنازل المجاورة مظهر بائس، إلّا أنّ منزل الطبيب كوبلاند مختلف عن الأبنية المجاورة، فقد بُني بمتانة من الحجر والجِصّ، وأحاط سياج بأوتاد حول الباحة الأمامية الصغيرة. لوحت بورشيا لزوجها وأخيها عند البوابة، وقرعت على الستار الغربالي.

«لماذا تجلس لوحدك هنا في العتمة؟»

دخلوا عبر الردهة المُظلمة إلى المطبخ.

«لديك مصابيح كهربائية فاخرة، لذلك من غير الطبيعي أن تجلس في الظلام طوال الوقت».

أدار الطبيب كوبلاند اللمبة المُعلّقة فوق الطاولة، وفجأة أصبحت الغرفة مضاءة جداً، ثمّ قال: «الظلام يناسبني».

كانت الغرفة نظيفة وفارغة. ومن إحدى جهات المطبخ هناك على الطاولة كتب ومحبرة، وعلى الجانب الآخر شوكة وملعقة وصحن. جلس الطبيب كوبلاند بشكل مستقيم، وقاطع ساقيه. في البداية جلست بورشيا باستقامة أيضاً. هناك شبه كبير بين الأب والابنة، فكلاهما يملك ذات الأنف الأفطس والعريض، والفم والناصية ذاتهما، ولكن بشرة بورشيا أفتح مقارنة ببشرة والدها.

«إنّ الحرارة شديدة هنا»، قالت بورشيا. «يبدو لي أنك ستترك النار تخمد، ولن تشعلها إلّا عندما تطبخ».

«إن أردتِ تغيير المكان يمكننا الذهاب إلى مكتبي»، قال الطبيب كوبلاند.

«أعتقد أنني سأكون على ما يُرام. لا أرغب بالانتقال إلى المكتب».

عدّل الطبيب كوبلاند نظاراته ذات الإطار الفضيّ، ثمّ طوى يديه فوق حضنه.

«كيف هي أحوالكِ منذ آخر مرة كُنا فيها معاً؟ أنت وزوجكِ وأخوكِ؟»

استرخت بورشيا وخلعت خفيها.

«أنا وهايبوي وويلي متفقون تماماً».

«أما يزال يليام يسكن معك؟»

«حتماً»، قالت بورشيا. «فكما ترى لدينا نحن الثلاثة طريقة حياة خاصة، ولدينا مخططنا الخاص. يدفع هايبوي الإيجار، وأدفع أنا ثمن الطعام من مالي، وويلي يهتم بكل واجباتنا الكنسية والتأمين ولوازم المنزل وسهرة ليلة السبت. نملك نحن الثلاثة مخططاً، ويؤدي كل شخص منا دوره».

جلس الطبيب كوبلاند، وقد أحنى رأسه، وشدّ أصابعه إلى أن طقطقت جميع مفاصله. تدلت أزرار قميصه النظيفة تحت معصميه، ومن تحت الأزرار بدت يداه أفتح لوناً مقارنة ببقية جسمه وراحتاه بلونٍ أصفر فاتح. كان ليديه مظهر ورع ومُنكمش، وكأنهما نُظفتا بفرشاة وتم نقعهما لوقتٍ طويل في وعاء مائي.

«كُدت أنسى ما أحضرته»، قالت بورشيا. «هل تناولت العشاء؟»

يتحدث الطبيب كوبلاند بعناية شديدة دوماً لدرجة أنّ كل مقطع صوتي يصدر عنه، يبدو وكأنّه تعرض للفلترة بين شفتيه الغليظتين الغائرتين.

«لا، لم أتناول العشاء بعد».

فتحت بورشيا كيساً ورقياً كانت قد وضعته على طاولة المطبخ. «أحضرت تشكيلة من الملفوف، وفكرت بتناول العشاء معاً. أحضرت

أيضاً قطعة من لحم الخاصرة. ها هي الخُضار، وهي تحتاج إلى التتبيل. لا تُمانع إن كانت الخُضار مطبوخة مع اللحم، صحيح؟»

«لا يُهم».

«أنت لا تتناول اللحم؟»

«لا ولأسباب خاصّة تماماً أنا نباتي، ولكن لا يُهم إن كنت تريدين طهو الخُضار مع قطعة اللحم».

ومن دون أن ترتدي حذاءها مجدداً وقفت بورشيا عند الطاولة وبكل عناية أخذت تتفحص الخُضار.

«إنّ ملمس الأرضية تحت قدميّ جميل جداً. هل تمانع إن مشيت بهذه الطريقة من دون خفيّ الضيقين والمؤلمين؟»

«لا»، قال الطبيب كوبلاند. «لا بأس في ذلك».

«إذاً... دعونا نتناول هذه الخُضار اللذيذة وبعضاً من كعكعة الذُرة وقهوة. وسأقطّع بضع شرائح من هذا اللحم الأبيض وأقليه بنفسي».

لحق الطبيب كوبلاند بورشيا بعينيه. تحركت ببطء في أرجاء الغرفة بجوربيها. تناولت القدور النظيفة المُعلقة على الجدار ثمّ أشعلت النار، وغسلت الخُضار ونظفتها من الأوساخ. فتح الطبيب كوبلاند فمه مرة واحدة ليتكلم ثمّ زمّ شفتيه مجدداً.

«إذاً تملكين أنت وزوجك وأخوك خطة تعاونية مُشتركة»، قال أخيراً.

«هذا صحيح».

طقطق الطبيب كوبلاند أصابعه وحاول أن يُفرقع مفاصله مجدداً. «هل تخططين لإنجاب أطفال؟»

لم تنظر بورشيا إلى والدها، وبغضب تخلصت من الماء في قدر الخُضار.

«يبدو لي أنّ هناك أموراً»، قالت «بيد الله وحده».

لم يضيفا شيئاً آخر. تركت بورشيا العشاء لينضج على الموقد،

وجلست بصمت تاركة يديها الطويلتين على سجيتهما بين ركبتيها. استقر رأس الطبيب كوبلاند على صدره، وكأنّه قد غفا ولكنّه لم يكن نائماً فبين الفينة والأخرى تعلو وجهه رعشة عصبية، عندها يتنفس بعمق، ويضبط معالم وجهه. أخذت روائح العشاء تغطي الغرفة الخانقة، ووسط هذا الهدوء بدا صوت الساعة أعلى الخزانة الصغيرة عالياً، وبسبب حديثهما الأخير أتى صوت التكّات الرتيبة للساعة ككلمة «أطـ-فال، أطـ-فال».

يلتقي بأحد هؤلاء الأطفال على الدوام، فمنهم من يزحف على الأرض عارياً، أو من انخرط في لعبة الكرات الزجاجية، أو من أحاط بذراعه فتاةً في شارع مُظلم. وكلهم صبيةٌ يحملون اسم بينديكت كوبلاند، ولكن بالنسبة للفتيات فهناك أسماء كبيني مي أو ماديبين أو بينديِن مادين. أحصاهم أحد الأيّام، ووصل عددهم إلى أكثر من اثني عشر طفلاً يرجع نسبهم إليه.

ولكن الطبيب كوبلاند قال وبرر وحضّ طوال حياته على أنّ هذا خطأ. قال لهم إنّ كل الأسباب متوفرة حتى لا يكون هناك طفل سادس أو خامس أو تاسع، واقترح أنّ ما نحتاجه ليس المزيد من الأطفال بل المزيد من الفُرص للموجودين حالياً على الأرض. وحضّهم على تحسين نسل العرق الزنجي. كان يتحدث إليهم بكلمات بسيطة ودوماً بالطريقة ذاتها، ومع مرور السنين بدأ الكلام يخرج منه كقصيدة غاضبة حفظها عن ظهر قلب.

درس وعلّم تطور كل النظريات الحديثة، ووزع بنفسه ومن جيبه المواد على مرضاه. إنّه أول طبيب في البلدة يُفكر بهذه الطريقة. أعطى وشرح، أعطى وعلّم، ولكن في كل أسبوع يذهب للمساعدة في إنجاب أطفال جدد، المزيد من الأطفال غير الشرعيين.

إنّه جانب واحد، واحد فقط.

علِم طوال حياته أن هناك غاية من وراء عمله، ولطالما علم أنّ

قدره تعليم شعبه. يتجول طوال اليوم حاملاً حقيبته من منزل إلى آخر، ويتحدث إلى الناس بشتى الأمور.

وبعد يومٍ طويل متعب وحين يفتح البوابة الأمامية للبيت مساءً يتلاشى التعبُ. هناك هاملتون وكارل ماركس وبورشيا وويليام الصغير، وهناك ديزي أيضاً.

رفعت بورشيا غطاء القِدر على الموقد وحرّكت الخُضار بشوكة.

«أبي...» قالت بعد وهلة.

تنحنح الطبيب كوبلاند لينظف حنجرته، وبصق في منديل. خرج صوته لاذعاً وخشناً.

«أجل؟»

«لنتوقف عن الجدال بين بعضنا».

«نحن لا نتجادل»، قال الطبيب كوبلاند.

«لا يكون الجدال بالكلمات فقط»، قالت بورشيا. «يبدو لي أننا نتجادل على الدوام حتى عندما نجلس بهدوء، هذا هو الشعور الذي ينتابني حالياً. سأقول لكَ الحقيقة. في كُل مرّة آتي إلى هنا لرؤيتك أشعر بالإجهاد لذلك دعنا نحاول ألا نتجادل بعد الآن».

«حتماً لا أرغب بأن نتجادل. أعتذر إن راودك هذا الشعور يا ابنتي».

صبّت القهوة، وناولت والدها كوباً من القهوة غير المُحلاة. ووضعت في كوبها بضع ملاعق من السُكر.

«بدأت أجوع وستجدون الطعام لذيذاً. اشربوا قهوتكم بينما أخبركم بشيء حدث معي منذ فترة. الأمر انتهى الآن، ويبدو مُضحكاً بعض الشيء، ولكن هناك سبب كافٍ لكيلا نضحك كثيراً».

«فلتتحدثي»، قال الطبيب كوبلاند.

«حسناً، مُنذ فترة أتى رجل ملون بهيّ الطلعة وأنيق إلى البلدة هنا. دعا نفسه بالسيد بي. إف. ماسون، وقال إنّه أتى من العاصمة واشنطن. كان يمشي كل يوم في الشارع وبيده عصا المشي وقد ارتدى قميصاً جميلاً.

وفي الليل ارتاد كافيه سوسايتي، وأكل برقيّ أكثر من أيّ رجل في البلدة. طلب كل ليلة زجاجة جِن وشريحتي لحم خنزير على العشاء. قابل الجميع بابتسامة، وأحنى رأسه للفتيات بينما أمسك الباب لهن في طريق الدخول أو الخروج. وخلال أسبوع كان قد ترك انطباعاً مُرضياً في كل مكان ذهب إليه. بدأ الناس يطرحون الأسئلة، ويتساءلون عن هذا السيد الغني المدعو بي. إف. ماسون، وبعد أن قدّم نفسه بدأ يهتم بالعمل».

مطّت بورشيا شفتيها وأخذت تنفخ في فنجان قهوتها.

«أفترض أنكم قرأتم في الصحيفة عمّا قامت به حكومة بينشر للعجائز؟»

أومأ الطبيب كوبلاند برأسه وقال، «رواتب التقاعد».

«حسناً، كان لماسون علاقة بهذا. كان من أعضاء الحكومة، وعليه أن يذهب إلى المكتب الرئاسي في العاصمة واشنطن للانضمام إلى الجميع من أجل تشكيل حكومة بينشر. طرق جميع الأبواب، وشرح للناس كيف أنّه بدفع دولار واحد مقابل الانضمام ثمّ خمسةً وعشرين سنتاً أسبوعياً وبعد خمسةٍ وأربعين عاماً سيحصلون من الحكومة على خمسين دولاراً شهرياً لبقية حياتهم. تحمس جميع من عرفهم لهذا الأمر، ومنح كل من انضم صورة مجانية للرئيس مع اسمه وتوقيعه أسفل الصورة. أخبرهم أنّه مع نهاية الشهور الستة ستوزع على كل عضو بذلات مجانية. كان النادي يُدعى «اتحاد مُناصري بينشر العظيم للملونين». ومع نهاية الشهر الثاني كان من المفترض أن يحصل الجميع على شريط برتقالي يحمل الحروف الأولى من اسم النادي، كبقية الأشياء التي تحمل أحرفاً أولى في الحكومة كما تعرف. انتقل من منزل إلى منزل مع كتابه الصغير، وسارع الجميع إلى الانضمام. دوّن أسماءهم، وأخذ منهم المال. جمع المال كل سبت، وخلال ثلاثة أسابيع انضم الكثير من الناس إلى السيد بي. إف. ماسون إلى درجة أنّ يوم السبت لم يعد كافياً لتسوية الأمور. واضطر إلى استئجار شخص

لجمع المال في كل ثلاثة أو أربعة أحياء. كُنت أجمع كل سبت بالقرب من حينا، وكنت مسؤولة عن ذلك القسم. بالطبع انضم ويلي في البداية من أجل نفسه ومن أجل هايبوي ومن أجلي».

«رأيت صوراً كثيرة للرئيس في المنازل القريبة من المنزل الذي أعيش فيه، وأتذكر أنني سمعت اسم ماسون. ألم يكن لصاً؟» قال الطبيب كوبلاند.

«كان لصاً»، قالت بورشيا. «اكتشف أحدهم أمر السيد بي. إف. ماسون وتمّ اعتقاله. اكتشفوا أنّه كان من أتلانتا، ولم يرَ العاصمة واشنطن أو حتى الرئيس. كان كل المال قد أُخفي أو أُنفق. وقتها دفع ويلي سبعة دولارات وخمسين سنتاً».

بدا الطبيب كوبلاند مُتحمساً. «هذا ما عنيته بقولي...»

«فيما بعد»، قالت بورشيا. «استيقظ ذلك الرجل ومذراة حادة في بطنه. كل شيء انتهى الآن، ويبدو مُضحكاً بعض الشيء، ولكن من كل بد لدينا سبب كافٍ لكيلا نضحك بشدة».

«يجلس العرق الأسود على الصليب بإرادته كل جُمعة»، قال الطبيب كوبلاند.

اهتزت يدا بورشيا وسكبت القهوة على صحن الفنجان الذي تحمله. لعقت القهوة عن ذراعها.

«ما الذي تعنيه؟»

«أعني أنني أنظر طوال الوقت. أعني أنني إن وجدت عشرة زنوج – عشرة من أبناء جلدتي – يملكون الجَلد والعقل والشجاعة ومستعدون للتخلي عن كل ما يملكون...»

وضعت بورشيا قهوتها. «نحن لا نتكلم عن هذا الموضوع».

«فقط أربعة زنوج»، قال الطبيب كوبلاند. «ما يعادل عددكم أنتِ وهاملتون وكارل ماركس وويليام. أربعة زنوج فقط يملكون مقومات وشجاعة حقيقية وأصيلة...»

«أملك أنا وويلي وهايبوي الشجاعة»، قالت بورشيا بغضب. «هذا عالم قاسٍ ويبدو لي أننا نحن الثلاثة نُعاني في الحياة حقاً».

صمتوا للحظة، ووضع الطبيب كوبلاند نظاراته على الطاولة، ثمّ ضغط محجري عينيه بأصابعه المُنكمشة.

«تستخدم كلمة «زنجي» طوال الوقت»، قالت بورشيا. «وهذه الكلمة تؤذي مشاعر الناس، حتى كلمة «أسود» العادية أفضل من هذه الكلمة. ولكن الناس المهذبين بغض النظر عن لونهم يقولون كلمة «ملوَّن»...».

لم يُجب الطبيب كوبلاند.

«لتأخذني أنا وويلي، فنحن لسنا ملونين تماماً. كانت بشرة أُمنا فاتحة حقاً، وكلانا يحمل قدراً لا بأس به من الدم الأبيض فينا، وهايبوي هندي ولديه جانبه الهندي. ما من أحد منا ملون أباً عن جد، والكلمة التي تستخدمها طول الوقت تؤذي مشاعر الناس».

«لا تُهمني الذرائع. ما يُهمني الحقائق فقط»، قال الطبيب كوبلاند.

«حسناً، إليك هذه الحقيقة؛ الجميع يهابك. حتماً سيتطلب الأمر الكثير من الجِن لإحضار هاملتون وبادي وويلي وهايبوي إلى هذا المنزل ليجلسوا معك كما أفعل. يقول ويلي بأنّه يتذكرك عندما كان طفلاً صغيراً فقط، وأنّه كان يخاف منك آنذاك».

سعل الطبيب كوبلاند سعالاً جافاً ونظّف حنجرته.

«الجميع يملك مشاعر - ولا يهم من يكونون - ولن يدخل أحد إلى منزل يعلم أنّ مشاعره ستتأذى فيه، وأنت تتصرف بالطريقة ذاتها. رأيت مشاعرك تُجرح مراتٍ كثيرة من قبل أناس بيضٍ لا يعرفون هذا».

«لا، لم تري مشاعري تُجرح»، قال الطبيب كوبلاند.

«بالطبع أدرك أنني وويلي وزوجي هايبوي غير مُتعلمين. ولكن هايبوي وويلي رجلان أصيلان كالذهب، وهناك فرق بينك وبينهما».

«أجل»، قال الطبيب كوبلاند.

«لا يهتم أيٌّ منا، هاملتون أو بادي أو ويلي أو أنا، بالتحدث مثلك. فنحن نتحدث كأمنا وأهلها وأقربائها. تبالغ بالتفكير في كل شيء، بينما نحن نتحدث من قلوبنا، وهذا هو الحال منذ وقت طويل وأحد الاختلافات بيننا».

«أجل»، قال الطبيب كوبلاند.

«لا يُمكن للمرء اختيار أطفاله، ولكنّه يستطيع أن يُنشئهم بالطريقة التي يريدهم أن ينشأوا عليها. حاولت تجربة هذا وبقوة أكثر مما حاول أيّ رجل. وليس هناك أحد سواي الآن يريد أن يأتي إلى هنا، ويجلس معك كما أنت».

كان الضوء باهراً جداً في وجه الطبيب كوبلاند، وصوت بورشيا عالياً وخشناً. سعل الطبيب كوبلاند وارتعش وجهه بالكامل. حاول أن يُمسك بكوب القهوة البارد، ولكن فشلت يداه بالحفاظ على ثباتهما. ترقرقت الدموع من عينيه، ورفع نظارته في محاولة لإخفاء هذه الرعشة.

لاحظت بورشيا هذا، وتوجهت على الفور نحوه. وضعت ذراعيها حول رأسه، وضغطت خدّها على جبهته.

«لقد جرحت مشاعر والدي»، قالت بلطف.

«لا»، خرج صوته خشناً. «لكن من الغباء والسذاجة إعادة هذا الكلام عن جرح المشاعر».

ترقرقت الدموع على خده ببطء وكستهما النار بالأزرق والأخضر والأحمر. «أنا آسفة بصدقٍ حقاً»، قالت بورشيا.

مسح الطبيب كوبلاند وجهه بمنديله القُطني وقال، «لا بأس».

«دعونا لا نتجادل بعد الآن. لا يمكنني تحمل هذا الخلاف بيننا. يبدو لي أن شيئاً سيئاً حقاً يقع في كل مرة نجتمع فيها. دعونا لا نتجادل بعد الآن».

«أجل دعونا لا نتجادل بعد الآن»، قال الطبيب كوبلاند.

تنشقت بورشيا ونظّفت أنفها بظاهر يدها، ووقفت لعدة دقائق

وذراعاها تُحيطان برأس والدها. ثمّ وبعد برهة مسحت وجهها للمرة الأخيرة، وتوجهت إلى قدر الخضار على الموقد.

«تحتاج إلى وقتٍ طويل لتنضج»، قالت بمرح. «أعتقد أنني سأبدأ الآن بصنع كعكات الذرة الصغيرة والمناسبة للخضار».

تحركت بورشيا في جوربيها ببطء في المطبخ، ولحقها والدها بعينيه. ولبرهة عمّ الصمت بينهما مجدداً.

بدت بورشيا لعينيه الرطبتين والمشوشتين شبيهة بوالدتها. منذ سنوات اعتادت ديزي التحرك بصمتٍ وبانشغال في أرجاء المطبخ. لم تكن ديزي سوداء مثله، كان جلدها بلون العسل الغامق الجميل، ولطالما كانت هادئة ولطيفة. ولكن تحت لطفها الهادئ هناك عِناد، ولا يهم كم حاول تفهم الأمر لأنّه في النهاية بات عاجزاً عن فهمه.

حضّها دوماً وأخبرها بكل ما في قلبه، بينما استمرت على لطفها وعلى عدم الإصغاء إليه، وبالتصرف على سجيتها.

ثمّ أتى لاحقاً كل من هاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا. كان هذا الشعور بوجود غاية حقيقية وصادقة في وجودهم قوياً لدرجة علم فيها كيف يجب أن يكون كل شيء معهم. سيغدو هاملتون عالماً عظيماً، وكارل ماركس مُعلماً للعرق الزنجي، وويليام مُحامياً ليحارب الظلم وبورشيا طبيبة للنساء والأطفال.

أخبرهم منذ نعومة أظفارهم عن النير - نير الخضوع والكسل - الذي عليهم إزاحته عن كاهلهم. وعندما كبروا قليلاً فرض عليهم فكرة ألا وجود لإله مقدس بل حيواتهم المُقدسة، وأنّ وراء وجود كل واحد منهم غاية حقيقية وصادقة. أخبرهم بهذا مراراً وتكراراً بينما جلسوا مع بعضهم بعيداً عنه ينظرون إلى أمهم بعيونٍ كبيرة كعيون أطفال الزنوج. اعتادت ديزي الجلوس بلطفٍ وعناد دون أن تُصغي إليه.

ولإيمانه بوجود غاية حقيقية من وجود هاملتون وكارل ماركس

ووِيليام وبورشيا علم أن كل تفصيل سيكون مُهماً. ففي كل خريف يأخذهم إلى البلدة ويشتري لهم أحذية وجوارب سوداء جيدة. كان يشتري لبورشيا فساتين سوداء مصنوعة من الصوف بياقاتٍ وأردان كتانية بيضاء. لم يردهم أن يرتدوا ثياباً فضفاضة بألوانٍ زاهية، ولكنهم رغبوا بارتداء هذه الثياب الفضفاضة والزاهية إلى المدرسة. قالت له ديزي إنّ الأطفال يشعرون بالخجل من ثيابهم، وبأنّه والدٌ قاسٍ. علم كيف يجب أن يُدار المنزل حيث لا وجود لأشياء ثمينة أو تقاويم مُبهرجة أو وسادات مُخرمة أو أيّ شكل من أشكال الزينة. كان كل شيء في المنزل بسيطاً وغامقاً، ويُشجع على العمل، ويؤكد غائية حقيقية وصادقة.

وفي إحدى الليالي اكتشف أنّ ديزي ثقبت أذني بورشيا، وفي مرة أخرى وجد دُمية من ذلك النوع ذي الخدود والعيون الكبيرة والشعر المرفوع للأعلى بتنورة من الريش على المستوقد عندما عاد إلى المنزل. كانت ديزي لطيفة وعنيدة، ورفضت أن تُنزلها عن المستوقد. علم أيضاً أنّ ديزي لقنت الأطفال ثقافة الخضوع، وأخبرتهم عن الجنة والنار، وأقنعتهم بوجود الأشباح والأماكن المسكونة. داومت ديزي على الذهاب إلى الكنيسة كل أحد، وتحدثت مع الواعظ عن زوجها بحزن. وبسبب عنادها أخذت الأطفال إلى الكنيسة أيضاً حيث أصغوا إلى ما قيل هناك.

كان العرق الأسود بأكمله مريضاً. انشغل الطبيب كوبلاند طوال اليوم وأحياناً في الليل. وبعد يومٍ عمل طويل ينتابه قلق عظيم فعندما يفتح البوابة الأمامية للمنزل يسمعُ عزف ويليام على مشطٍ ملفوف بورق حمام، بينما هاملتون وكارل ماركس يصنعان الكريب من أجل الحصول على مال للغذاء، وبورشيا تضحك مع أمّها، يبدأ معهم من جديد.

يبدأ معهم من جديد ولكن بطريقة مُختلفة. كان يستحضر دروسهم، ويتحدث معهم. يجلس الأولاد قرب بعضهم، وينظرون إلى أمّهم. تحدث وتحدث، ولكن ما من أحدٍ منهم أراد أن يفهم.

كان الشعور الذي ينتابه وقتئذ شعوراً زنجياً قاتماً ومريعاً. يحاول عندها الجلوس في مكتبه ليقرأ أو يتأمل إلى أن يهدأ ويبدأ مجدداً، ويُسدل ستائر الغرفة حتى لا يكون هناك أي شيء آخر عدا الضوء الباهر والكتب والتأمل. ولكن أحياناً لا يعود إليه هذا الإحساس بالهدوء. كان شاباً وقتئذ، ولم يكن هذا الشعور المريع ليذهب بالدراسة.

خاف هاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا منه، ولجؤوا إلى أمّهم. عندما كان يُدرك هذا أحياناً يجتاحه شعور أسود، وحار فيما عليه فعله.

لم يكن قادراً على وضع حدٍ لهذه الأمور المريعة، وبعد ذلك لم يعد قادراً على الفهم.

«إن رائحة العشاء لذيذة من كل بد»، قالت بورشيا. «أعتقد أنّه من الأفضل أن نأكل الآن لأنّ هايبوي وويلي قد يصلان في أي لحظة».

وضع الطبيب كوبلاند نظاراته، وسحب كرسيه نحو الطاولة.

«أين يقضي زوجك وويليام الأمسية؟»

«يلعبان لعبة رمي حدوة الحصان. يملك المدعو رايموند جونز مكاناً للعب في حديقة بيته الخلفية. وهذا المدعو رايموند وأخته لاف جونز يلعبان كل ليلة. إنّ لاف فتاة قبيحة، ولا أمانع ذهاب هايبوي وويليام إلى منزلهما في أيّ وقتٍ يشاءان. ولكن أخبراني أنهما سيعودان الساعة العاشرة والربع، وأتوقع وصولهما في أي وقت الآن».

«قبل أن أنسى»، قال الطبيب كوبلاند. «هل تصلك أخبار عن هاملتون وكارل ماركس؟»

«تصلني أخبار من هاملتون. لقد استلم العمل كله تقريباً في مزرعة جدي. يعمل بادي في بلدة موبيل، لكنه لم يكن يوماً مُغرماً بكتابة الرسائل. على أيّ حال يملك بادي طريقة لطيفة في التعامل مع الناس، وهذا لا يجعلني أقلق عليه، إنّه من النوع الذي ينسجم بشكل جيد».

جلسا بصمت حول الطاولة قبل العشاء. استمرت بورشيا في التحديق إلى الساعة فوق الخزانة الصغيرة لأنّ وقت وصول هايبوي وويليام قد اقترب. أحنى الطبيب كوبلاند رأسه فوق الطبق، أمسك بالشوكة في يده وكأنّها غرض ثقيل، وارتعشت أصابعه. تذوق الطعام، وابتلع كل لقمة بصعوبة. كان هناك إحساس بالتوتر، وبدا وكأنهما أرادا أن يتابعا الحديث عن أي شيء.

لم يكن الطبيب كوبلاند يعرف كيف يبدأ. اعتقد أحياناً أنه تحدث كثيراً إلى أطفاله في السنوات السابقة، وأنهم فهموا القليل جداً مما قاله، وأنّه لم يعد لديه أيّ شيء ليقوله الآن. بعد برهة مسح فمه بمنديله وتحدث بصوتٍ متردد.

«بالكاد تحدثتِ عن نفسك. أخبريني عن عملك وعمّا تفعلينه في الآونة الأخيرة».

«ما زلت مع عائلة كيلي بالطبع»، قالت بورشيا. «ولكن كما أخبرتك يا أبي لا أعلم إلى متى يمكنني مجاراتهم. إنّ العمل شاق، ويتطلب مني إنجازه وقتاً طويلاً على الدوام. على أيّ حال هذا لا يُزعجني، ولكن ما يقلقني هو الأجر. من المفترض أن أتقاضى ثلاثة دولارات أسبوعياً ولكن السيدة كيلي تُنقص دولاراً أو خمسين سنتاً من الأجر الكامل. بالطبع تعوض لي المبلغ الناقص في أقرب فرصة، ولكن هذا يغضبني».

«هذا ليس صائباً»، قال الطبيب كوبلاند. «لمَ تتحملين؟»

«إنّه ليس خطؤها، فلا يد لها في الأمر»، قالت بورشيا. «إن نصف القاطنين في ذلك المنزل لا يدفعون الإيجار، والحفاظ على نظافة المكان وترتيبه أمرٌ مكلفٌ جداً. أقول لك الصدق، بالكاد تستطيع عائلة كيلي إدارة الأمور. إنهم يُقاسون جداً».

«لا بدّ وأنّ هناك عملاً آخر يمكنك الحصول عليه».

«أعلم ولكن عائلة كيلي عائلة بيضاء رائعة حقاً. أنا مُغرمة بهم حقاً،

وأشعر بأنّ أطفالهم الصغار الثلاثة كأطفال أبناء جلدتي. أشعر بأنني أبليت حسناً في تربية بابر والطفل، ورغم أنني وميك نتجادل على الدوام إلّا أنني مغرمة بها حقاً».

«ولكن يجب أن تُفكري بنفسك»، قال الطبيب كوبلاند.

«إن ميك الآن...» قالت بورشيا. «قضية جديّة. لا يعرف أحد كيفية التعامل مع تلك الطفلة. إنها متعالية وعنيدة جداً، وهناك ما يعتمل في داخلها طوال الوقت. لدي شعور غريب تجاه تلك الطفلة. أعتقد أنّها ستكون مفاجأة حقيقية في أحد الأيام، ولكن لا أعلم إن كانت مفاجأة جيدة أو سيئة. تُحيرني ميك أحياناً، ولكنني ما زلت مُغرمة بها».

«يجب أن تهتمي بلقمة عيشك أولاً».

«كما قلت لكَ إنّها ليست غلطة السيدة كيلي. إنّ إدارة ذلك المنزل الكبير مكلفة جداً، ولا تُدفع الإيجارات بانتظام. لا يوجد سوى شخص واحد في المنزل يدفع مبلغاً جيداً لقاء غرفته، وفي الموعد المحدد من دون تأخير. يسكن هذا الرجل هناك منذ فترة وجيزة، وهو من جماعة الصُم والبُكم. إنّه أول شخص من تلك الجماعة أراه عن كثب، ولكنّه رجل أبيض جيد».

«طويل ونحيل وعيناه بلونٍ رمادي وأخضر؟» سأل الطبيب كوبلاند على حين غِرّة. «وهو مُهذّب على الدوام مع الجميع ومظهره مرتب؟ لا يشبه أيّ شخصٍ آخر في البلدة، إنّه أقرب لسكان الشمال أو قد يكون يهودياً؟»

«هذا هو»، أجابت بورشيا.

علت الحماسة وجه الطبيب كوبلاند. طوى قطعة كعك الذرة المسطحة ووضعها في مرق الخضار في صحنه، وبدأ يأكل بشهية جديدة ثمّ قال:

«لدي مريض أصم وأبكم».

«كيف تعرفت على السيد سينغر؟» سألت بورشيا.

سعل الطبيب كوبلاند، وغطّى فمه بمنديل.

«رأيته عدة مرّات».

«من الأفضل أن أنظف الآن»، قالت بورشيا. «لقد مر ما يكفي من الوقت على عودة ويلي وهايبوي، لديك حوض غسيل أطباق حقيقي، ومياه جارية ممتازة، وسأنتهي من تنظيف هذه الأطباق الصغيرة بلمح البصر».

كانت غطرسة العرق الأبيض القضية الوحيدة التي حاول لسنوات أن يبقيها بعيداً عن تفكيره. وكلما اعتمله شعور بالاستياء تأمل ودرس، وعندما يمشي في الشارع أو بين البيض يتصرف بكبرياء، ويبقى صامتاً على الدوام. عندما كان أصغر نادوه «يا صبي»، ولكن الآن أصبح لقبه «العم». «أيها العم اذهب إلى محطة الوقود عند الزاوية، وأرسل لي الميكانيكي». هذا ما قاله له رجلٌ أبيض يقود سيارة منذ وقتٍ ليس بالبعيد. «أيها الفتى فلتساعدني في هذا» - «أيها العم فلتقم بهذا». لم يكن يُصغي إليهم بل يُتابع المشي بكبرياء وصمت.

منذ بضع ليالٍ تقدم منه رجل أبيض مخمور، وسحبه من الشارع. وقتئذٍ حمل حقيبته معه، وكان متجهاً لرؤية شخصٍ مصاب، ولكن السّكير سحبه إلى داخل مطعم رجلٍ أبيض وعندها أخذ الرجال البيض عند المنضدة بالصراخ بكل وقاحة. علم الطبيب كوبلاند أنّ السّكير يسخر منه، ولكن حتى في ذلك الوقت أبقى على كبريائه.

لكن ما حدث مع هذا الرجل الأبيض الطويل والنحيل ذي العينين الخضراوين الرماديتين لم يحدث معه قبلاً مع أيّ رجل أبيض.

زاره هذا الرجل في ليلة مُظلمة وماطرة منذ عدة أسابيع. كان الطبيب كوبلاند قد عاد من حالة ولادة، ووقف هذا الرجل تحت المطر عند الزاوية. حاول أن يُشعل سيجارة، ولكن فشل في إشعال كل عيدان العلبة الواحد تلو الآخر، ووقف مع سيجارة غير مُشتعلة في فمه. خرج هذا الرجل الأبيض، وقدم له عود ثقاب مُشتعل. تمكنا وسط العتمة ولهب

عود الثقاب بينهما من رؤية وجهي بعضهما. ابتسم الرجل الأبيض، وأشعل له سيجارته. لم يكن يعلم ما الذي عليه قوله، لأنّ أيّاً من هذا لم يحصل معه قبلاً.

وقفا معاً لبضع دقائق عند زاوية الشارع ثمّ قدّم له الرجل الأبيض بطاقته. أراد أن يتحدث إلى الرجل الأبيض، ويسأله بضعة أسئلة، ولكن لم يكن واثقاً تمام الثقة إن كان سيفهمه. وبسبب وقاحة كل الرجال البيض خاف من خسارة كبريائه في مبادرة ودية.

ولكن الرجل الأبيض أشعل له سيجارته، وابتسم وبدا أنّه يريد أن يكون معه. ومنذئذٍ قلّب الأمر في رأسه مراراً وتكراراً.

«لدي مريض أصمّ وأبكم»، قال الطبيب كوبلاند لبورشيا.

«المريض فتى في الخامسة، وبطريقة ما لا يمكنه أن يتخلص من شعوره بأنني الملام على إعاقته. قمت بتوليده وبعد زيارتين لاحقتين لعملية الولادة نسيت أمره. عانى من مشكلة في أذنه، ولكن الأم لم تهتم بإفرازات أذنه، ولم تحضره لرؤيتي. عندما أحضروه أخيراً لأهتم به كان الوقت قد تأخر. إنّه لا يسمع شيئاً، وبالتالي لا يمكنه التحدث طبعاً. ولكنني راقبته جيداً وبدا لي أنّه لو كان طبيعياً لكان طفلاً ذكياً جداً».

«لطالما اهتممت كثيراً بالأطفال الصِغار»، قال بورشيا. «تكترث لأمرهم أكثر مما تكترث لأمر البالغين، أليس هذا صحيح؟»

«لم يعد هناك أمل لهذا الطفل الصغير»، قال الطبيب كوبلاند. «ولكن بالنسبة له - أنوي أن أقوم بتحريات عن مؤسسة ما قد تهتم بحالته».

«سيعطيك السيد سينغر معلومات، إنّه رجلٌ أبيض لطيف وغير متكبر أبداً».

«لا أعلم...» قال الطبيب كوبلاند. «فكرت مرة أو مرتين بكتابة رسالة له لأعرف إن كان يستطيع أن يعطيني معلومات».

«حتماً لو كنت مكانك لفعلت هذا. أنت كاتب رسائل عظيم وسأسلم

رسالتك إلى السيد سينغر»، قالت بورشيا. «لقد نزل إلى المطبخ منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يحمل بعض القمصان التي أرادني أن أغسلها له، ولم تكن تلك القمصان متسخة كما لو أنّ القديس يوحنا المعمدان من يرتديها. كل ما كان عليّ القيام به وضعها في ماء دافئ، ودعك الياقة قليلاً ثمّ أكويها. في تلك الليلة أخذت خمسة قمصان نظيفة إلى غرفته، أتعلم كم أعطاني؟»

«لا».

«لقد ابتسم كعادته وأعطاني دولاراً... دولاراً كاملاً من أجل هذه القمصان الصغيرة. إنّه رجلٌ أبيض عطوف ولطيف، ولن أخاف من سؤاله أيّ سؤال، ولن أمانع أن أكتب لذلك الرجل الأبيض اللطيف رسالة بنفسي. فلتقم الآن ولتكتب الرسالة يا أبي إن كنت تريد هذا».

«ربما سأفعل»، قال الطبيب كوبلاند.

جلست بورشيا فجأة وبدأت بترتيب شعرها الزيتي والمشدود إلى الخلف. أتى صوت هارمونيكا خافت، وشيئاً فشيئاً أخذت الموسيقى تعلو.

«وصل ويلي وهايبوي»، قال بورشيا. «يجب أن أخرج الآن وألقاهما. فلتهتم بنفسك، وأرسل لي خبراً إن كنت تحتاجني في أي شيء. تمتعت بالعشاء معك وبالحديث كثيراً».

أضحت موسيقى الهارمونيكا واضحة جداً الآن، وعرفا أنّ العازف ويلي الذي انتظر عند البوابة الخارجية.

«انتظري قليلاً»، قال الطبيب كوبلاند. «رأيت زوجك مرتين، وأعتقد أننا لم نتقابل كما يجب، وها قد مرّت ثلاثة أعوام منذ زار ويليام أباه. لمَ لا تطلبين منهما أن يدخلا لبعض الوقت؟»

وقفت بورشيا في الردهة تلمس شعرها وقرطيها بأصابعها.

«في المرة الأخيرة التي أتى فيها ويلي إلى هنا آذيت مشاعره. أنت لا تفهم كم هو...»

«حسناً إذاً»، قال الطبيب كوبلاند. «كان مجرّد اقتراح».

«انتظر»، قالت بورشيا. «سأناديهما. سأدعوهما للدخول على الفور».

أشعل الطبيب كوبلاند سيجارة وذرع الغرفة مشياً. لم يتمكن من تثبيت نظارته في وضعية مناسبة، واستمر رجفان يديه. أتت من الحديقة الأمامية أصوات خفيضة، ثمّ لحقها صوت خطوات ثقيلة في الردهة ودخل كل من بورشيا وويليام وهايبوي.

«ها نحن هنا»، قالت بورشيا. «هايبوي! لا أعتقد أنك ووالدي تعارفتما كما يجب، رغم أنكما تعرفان بعضكما».

صافح الطبيب كوبلاند ويلي وهايبوي. تراجع ويلي إلى الحائط بخجلٍ، ولكن هايبوي تقدم إلى الأمام، وانحنى بطريقة رسمية وقال:

«سمعت الكثير عنك. يسعدني التعرف عليك».

أحضرت بورشيا والطبيب كوبلاند الكراسي من الردهة، وجلس أربعتهم حول الموقد. بقوا صامتين ومرتبكين. حدّق ويلي بتوتر في المكان حوله وبالكتب على طاولة المطبخ وبحوض غسل الأطباق وبالسرير النقّال عند الحائط وبوالده. عبس هايبوي وأخذ يعبث بربطة عنقه. بدا الطبيب كوبلاند وكأنّه على وشك التحدث، إلّا أنّه بلل شفتيه وبقي على صمته.

«ويلي كُنت تُبلي جيداً على الهارمونيكا»، قالت بورشيا أخيراً. «يبدو لي أنّ هايبوي أخذ زجاجة جِن من أحدهم».

«لا يا سيدتي»، قال هايبوي بتهذيب شديد. «لم نتناول شيئاً منذ السبت. كُنا نتمتع بلعبة رمي حدوة الحصان».

استمر الطبيب كوبلاند على صمته، وتابعوا جميعاً التحديق به والانتظار. كانت الغرفة ضيقة وتوتر الجميع بسبب الهدوء.

«أواجه مشكلة حقيقية مع ثياب هذين الرجلين»، قالت بورشيا. «أغسل لهما بذلات بيضاء كل سبت، وأكويها مرتين أسبوعياً. ولكن

فلتنظر إليهما الآن. لا يرتديانها إلّا عندما يعودان من العمل إلى المنزل، ولكن بعد يومين تبدو البذلات سوداء تماماً. لقد كويت سرواليهما الليلة الفائتة ولا توجد أيّة تجعيدة عليهما».

استمر صمت الطبيب كوبلاند وأبقى عينيه على وجه ابنه. لاحظ ويلي هذا، وعضّ أصابعه الخشنة والجلفة، ثم حدّق نحو قدميه. شعر الطبيب كوبلاند أنّ نبضه في معصمه وصدغيه يدّق بسرعة. سعل وأحكم قبضته على صدره. أراد أن يتحدث إلى ابنه، ولكنه لم يتمكن من التفكير بشيءٍ ليقوله، واجتاحته تلك المرارة القديمة. لم يملك وقتاً ليتأملها ويكبحها. تسارع نبضه مجدداً وشعر بالارتباك. كان الجميع ينظر إليه والصمت قوي جداً، ولذلك شعر بضرورة بدء حديث.

خرج صوته عالياً ولا يشبه صوته الحقيقي.

«أتساءل يا ويليام إلى أيّ درجة ما زلت تتذكر الأمور التي قُلتها لك عندما كنت صغيراً».

«لا أفهم ما الذي تعنيه»، قال ويلي.

باغتت هذه الكلمات الطبيب كوبلاند قبل أن يعرف ما الذي سيقوله.

«أعني أنني قدمت كل ما أعرفه لك ولهاملتون وكارل ماركس. ووضعت كل ثقتي وأملي فيكم. وكل ما حصلت عليه بالمقابل سوء فهمٍ أجوف وتبطل ولامبالاة. لم يبقَ أيّ شيء مما وضعته، حُرمت منه كله. وكل ما حاولت القيام به...»

«كفى»، قالت بورشيا. «وعدتني يا أبي أنّه لن يقع أيّ جدال بيننا. هذا جنون، لا يمكننا تحمل تكلفة أيّ جدال».

نهضت بورشيا وتوجهت إلى الباب الأمامي، ولحقها كل من ويلي وهايبوي على عجل. كان الطبيب كوبلاند آخر من توجه إلى الباب الأمامي.

وقفوا في الظلام عند الباب الأمامي لبرهة. حاول الطبيب كوبلاند

أن يتكلم، ولكن تاه صوته في مكان ما في أعماقه. وقف ويلي وهايبوي وبورشيا معاً.

وضعت بورشيا أحد ذراعيها على ظهري زوجها وأخيها، ومدّت اليد في الذراع الأخرى نحو الطبيب كوبلاند.

«لنتصالح قبل أن نُغادر. لا يمكنني تحمل هذا الجدال بيننا، دعونا لا نتجادل بعد الآن».

وبصمتٍ صافح الطبيب كوبلاند أيادي الجميع مجدداً واعتذر.

«لا بأس»، قال هايبوي.

«لا بأس بالنسبة لي أيضاً»، تمتم ويلي

أمسكت بورشيا بأيديهم جميعاً وقالت، «لا يمكننا تحمل تكلفة الجدال».

ودّعوا بعضهم، وراقبهم الطبيب كوبلاند من الشرفة الأمامية بينما ساروا معاً في الشارع.

خلّف وقع أقدامهم صوتاً موحشاً، وشعر الطبيب كوبلاند بالضعف والتعب. وعلى بعد شارع أخذ ويلي يعزف على الهارمونيكا مجدداً موسيقى حزينة وخاوية. بقي الطبيب كوبلاند على الشرفة إلى أن اختفوا بعيداً عن أنظاره.

أطفأ الطبيب كوبلاند الأنوار في المنزل وجلس في العتمة قبالة الموقد، ولكن لم يشعر بالسلام. أراد أن يبعد هاملتون وكارل ماركس وويليام عن ذهنه. وعادت إلى ذاكرته كل كلمة قالتها بورشيا له بطريقة صاخبة وقاسية. نهض فجأة وشغّل الضوء. جلس عند الطاولة مع كتب سبينوزا وويليام شكسبير وكارل ماركس. عندما قرأ سبينوزا بصوتٍ عالٍ خرج صوته قوياً وعميقاً.

فكّر بالرجل الأبيض الذي تحدث إليه. سيكون من الجيد لو ساعده الرجل الأبيض في قضية المريض الأصمّ أوغستوس بينديكت ميدي

لويس. سيكون من الجيد أن يكتب للرجل الأبيض، حتى لو لم يكن لديه هذا السبب وهذه الأسئلة ليطرحها. وضع الطبيب كوبلاند رأسه بين يديه وخرج من حنجرته صوتٌ غريب أشبه بأنين غنائي. تذكر وجه الرجل الأبيض عندما ابتسم له، والسلام الذي شعّ منه، واللهب الأصفر لعود الثقاب أمامه في تلك الليلة الماطرة.

-6-

بحلول منتصف الصيف كان لدى سينغر زوار أكثر من أي شخصٍ في ذلك المنزل. وفي الأماسي هناك دوماً أصوات خارجة من غرفته. بعد تناول العشاء في مطعم كافيه نيويورك يستحم سينغر، ويرتدي إحدى بذلاته المغسولة بالماء البارد ولا يخرج من المنزل مجدداً. كان جو الغرفة هادئاً ولطيفاً. يملك براداً صغيراً في الخزانة حيث احتفظ بزجاجات من الجِعة الباردة والعصائر. لم يكن مشغولاً أو على عجلة من أمره أبداً، ولطالما استقبل زواره عند الباب بابتسامة ترحيبية.

أحبّت ميك الصعود إلى غرفة السيد سينغر. حتى وإن كان أصمّ وأبكم إلّا أنّه كان يفهم كل كلمة تقولها له. كان الحديث معه أشبه بلعبة إلّا أنّ الأمر كان أكبر من مجرّد لعبة، إنّه أشبه باكتشاف أشياء جديدة في الموسيقى. أطلعته عن بعضٍ من خططها التي لن تُخبرها لأيّ أحد آخر. تركها تعبث بأحجار الشطرنج الجميلة الخاصة به. وفي إحدى المرات كانت مُتحمسة وعلقت نهاية قميصها بالمروحة الكهربائية. تصرف عندها بطريقة لطيفة لدرجة أنّها لم تشعر بالإحراج مما حدث على الإطلاق. باستثناء والدها كان السيد سينغر ألطف رجل عرفته.

عندما كتب الطبيب كوبلاند رسالة إلى جون سينغر بخصوص أوغستوس بينديكت ميدي لويس أتاه ردٌ لطيف ودعوة للزيارة بأقرب فرصة سانحة. ذهب الطبيب كوبلاند إلى المنزل، وجلس مع بورشيا قليلاً في المطبخ ثمّ صعد السلالم إلى غرفة الرجل الأبيض. لم يكن

هناك أيّ أثر لأي غطرسة واضحة على هذا الرجل. تناولا الليمونادة معاً، وكتب الأبكم الأجوبة على الأسئلة التي كان يرغب الطبيب كوبلاند بطرحها. كان هذا الرجل مُختلفاً عن أيّ شخص آخر قابله الطبيب كوبلاند من العرق الأبيض. وبعد هذه الزيارة أخذ الطبيب كوبلاند يتأمل في شأن هذا الرجل لوقتٍ طويل، ولاحقاً، ولأنّ الأبكم قدّم له دعوة للعودة بطريقة دمثة زاره مرة أخرى.

حضر جيك بلاونت كل أسبوع، وكلما صعد إلى غرفة سينغر اهتز الدرج بأكمله. عادة ما كان يُحضر معه كيساً فيه زجاجات جعة، وغالباً ما يخرج صوته عالياً وغاضباً من الغرفة، ولكن قبل أن يُغادر يغدو صوته أكثر هدوءاً تدريجياً. عندما يهبط الدرج لا يحمل معه كيس الجعة، بل يبتعد سارحاً وكأنّه غير منتبه إلى أين يذهب.

حتى بيف برانن أتى إلى غرفة الأبكم في إحدى الليالي، ولكن لم يستطع الغياب عن المطعم طويلاً، ولهذا غادر بعض نصف ساعة.

تصرّف سينغر بأسلوبٍ واحد مع الجميع. يجلس على كرسي بظهر عالٍ عند النافذة، وقد دس يديه بقوة في جيبيه، ويومئ ويبتسم ليُظهر لضيوفه أنّه يفهم ما يقولونه له.

إن لم يزره أحد مساءً يتوجه سينغر إلى السينما، ويشاهد فيلماً في وقتٍ متأخر. أحبّ الجلوس، ومشاهدة الممثلين يتحدثون ويتحركون على الشاشة. لا ينظر إلى عنوان الفيلم قبل الدخول، ولم يهتم بما يعرضونه فقد كان يُشاهد كل مشهد بالاهتمام ذاته.

ثمّ وفي يومٍ من أيام شهر تموز (يوليو) خرج فجأة وترك باب غرفته مفتوحاً. كان هناك على الطاولة مظروف موجه إلى السيدة كيلي، ويحوي على أربعة دولارات لقاء إيجار الغرفة. اختفت ممتلكاته القليلة، وتركت الغرفة خاوية من أيّ شيء. عندما أتى زواره ورأوا غرفته الفارغة غادروا بشعور بالمفاجأة المؤلمة. لم يتصوروا السبب الذي قد يدفع أيّ أحد إلى فعل هذا بالأبكم.

قضى سينغر كل عطلته الصيفية في البلدة حيث المصح الذي أُدخل إليه أنتونوبوليس. خطط لهذه الرحلة قبل شهور، وتخيل كل لحظة سيقضيانها معاً. قام قبل أسبوعين بالحجز الفندقي ولوقت طويل حمل بطاقة ركوب القطار معه في مظروف وضعه في جيبه.

لم يتغير أنتونوبوليس على الإطلاق. عندما دخل سينغر إلى غرفته سار على مهله وبوداعة للقاء صديقه. أصبح أنتونوبوليس الآن أكثر سُمنة من ذي قبل، ولكن الابتسامة الحالمة على وجهه بقيت على حالها. حمل سينغر بعض الصُرر على ذراعيه وهي أول شيء لفت انتباه اليوناني. كانت الهدايا عبارة عن مبذلٍ قرمزي وخُفي حمام ناعمين وقميصي نوم يحملان حروفاً أولى. بحث أنتونوبوليس جيداً بين الأقمشة في الأكياس الورقية، وعندما لم يعثر على ما يُؤكل رمى الهدايا بازدراء على السرير ولم يلتفت إليها أبداً.

كانت الغرفة كبيرة ومضاءة، وقد صُفت بضعة أسرّة جنباً إلى جنب. هناك ثلاثة عجائز يلعبون لعبة سلابجاك[1] في إحدى الزوايا، ولكنهم لم يلقوا بالاً إلى سينغر وأنتونوبوليس. جلس الصديقان لوحدهما في الجانب الآخر من الغرفة.

بدا لسينغر وكأنّ سنوات مرّت مُنذ كانا معاً. لم يكن هناك الكثير ليقال، ولم تعد يداه ترسمان الكلمات بسرعة كافية. شعر بحرقةٍ في عينيه الخضراوين، والتمعت حبّات العرق على جبهته. عاجله مجدداً وبقوّة ذلك الإحساس القديم بالابتهاج والسعادة لدرجة أنّه لم يكن قادراً على تمالك نفسه.

ثبّت أنتونوبوليس عينيه الداكنتين والزيتيتين على صديقه ولم يتحرك. تحسس بيديه وعلى نحو أخرق سِرج سرواله. أخبره سينغر أموراً عديدة من بينها زواره في الغرفة. أخبره أنهم ساعدوه على تجاوز وحدته، وأنّهم كانوا أناساً غرباء يثرثرون على الدوام، ولكنه أحبّ استضافتهم. رسم

1- لعبة ورق سهلة وهي شائعة بين الأطفال. (المترجمة)

رسوماً سريعة لجيك بلاونت وميك والطبيب كوبلاند. وحالما أدرك سينغر أنّ أنتونوبوليس لم يكن مُهتماً، مزق الرسومات ونسي أمرها. عندما أتى المرافق ليخبره أنّ الوقت انتهى، لم يكن سينغر قد انتهى من قول نصف ما كان يريد قوله، ولكنّه غادر الغرفة مُتعباً وسعيداً جداً.

لم يكن باستطاعة المرضى استقبال زوارهم سوى أيام الخميس والأحد. وفي الأيام التي لم يتمكن فيها سينغر من مقابلة أنتونوبوليس تمشى في غرفته في الفندق.

كانت زيارته الثانية كزيارته الأولى باستثناء أنّ العجائز في الغرفة راقبوهما بلا مبالاة، ولم يلعبوا الورق.

حصل سينغر بعد بذل جهدٍ كبير على الإذن باصطحاب أنتونوبوليس معه خارجاً لبضع ساعات. خطط مُسبقاً لكل تفاصيل هذه الرحلة القصيرة. ذهبا إلى البلدة بسيارة الأجرة وفي الرابعة والنصف توجها إلى غرفة الطعام في الفندق. تمتع أنتونوبوليس جداً بوجبته الإضافية. طلب نصف الأطباق الموجودة على القائمة وأكل كل شيء بنهم، ولكن عندما انتهى لم يكن يرغب بالمُغادرة وتمسّك بالطاولة. حاول سينغر إنهاضه عن الطاولة بالملاطفة، وأراد سائق التاكسي استخدام العنف معه. جلس أنتونوبوليس جامداً، وبدأ يقوم بإيحاءات غير لائقة كلّما اقتربا منه. وأخيراً اشترى سينغر زجاجة ويسكي من مدير الفندق وأغراه ليعود إلى سيارة الأجرة مجدداً. عندما رمى سينغر الزجاجة المُغلقة من النافذة بكى أنتونوبوليس لشعوره بالخيبة والمهانة. سببت نهاية رحلتهما الصغيرة الحزن الشديد لسينغر.

كانت زيارته التالية الزيارة الأخيرة، فعطلة الأسبوعين على وشك الانتهاء. نسي أنتونوبوليس ما حدث قبلاً. جلسا في الزاوية نفسها من الغرفة، ومرّت اللحظات بسرعة. تحدثت يدا سينغر بيأس، وكان وجهه النحيل شاحباً. وحان الوقت أخيراً ليغادر. أمسك صديقه من ذراعه، ونظر إلى وجهه بالطريقة ذاتها التي نظر إليه كل يوم عند ذهابهما إلى

العمل. حدّق أنتونوبوليس به على نحو ناعس، ولم يتحرك. ترك سينغر الغرفة، وقد حشر يديه بقوة في جيبيه.

عاد سينغر إلى غرفته في المنزل، وعادت ميك وجيك بلاونت والطبيب كوبلاند إلى زيارته مجدداً. أراد كل واحد منهم أن يعلم أين كان، ولمَ لمْ يُخبرهم عن خططه. تظاهر سينغر أنّه لم يفهم أسئلتهم، وابتسم بغموض.

أتوا إلى غرفة سينغر الواحد تلو الآخر لقضاء الأمسية معه. بدا الأبكم سارحاً وهادئاً طوال الوقت. كانت عيناه الملونتان بألوان كثيرة واللطيفتان حزينتين كعيني ساحر. أتت ميك كيلي وجيك بلاونت والطبيب كوبلاند للتحدث في الغرفة الصامتة لأنهم شعروا أنّ الأبكم سيفهمهم دوماً متى أرادوا الحديث معه، وربما أكثر من هذا.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثاني

-1-

كان صيفاً مُختلفاً عن أي صيفٍ تتذكره ميك. لم يحدث الكثير مما يمكنها وصفه بأفكار أو بكلمات، ولكنها شعرت بتغيير ما. كانت متحمسة طوال الوقت، وصباحاً لم تطق صبراً لمغادرة سريرها وبدء يومها، وكرهت كثيراً اضطرارها للعودة إلى النوم مساءً.

بعد الإفطار مباشرة تأخذ الأطفال في نزهة، وباستثناء أوقات الوجبات لم يدخلوا المنزل أبداً. هاموا لوقتٍ طويل في الشوارع بينما سحبت ميك عربة رالف، وسار بابر خلفها. كانت مشغولة على الدوام بالأفكار والخطط. تنظر على حين غرة أحياناً، وتدرك أنّها في قسم قصي من البلدة لم تذهب إليه قبلاً. التقوا بأخيها بيل في الشوارع مرة أو مرتين، ولكن كان ذهنها مشغولاً جداً، ولم تنتبه له إلى أن أمسك بها من ذراعها ليجبرها على رؤيته.

في الصباحات الباكرة يغدو الجو لطيفاً بعض الشيء، وتتطاول ظلالهم على الرصيف أمامهم، ولكن في منتصف النهار تصبح السماء أكثر إبهاراً وحرّاً. كان الوهج شديداً جداً، ومن الصعب إبقاء العيون مفتوحة. في أوقاتٍ كثيرة اختلطت خططها بشأن أمور على وشك الحدوث لها مع خطط الجليد والثلج. تتخيل أحياناً أنّها في سويسرا حيث الجبال مُغطاة

بالثلوج، وهي تتزلج على الجليد البارد والمائل للأخضر. سيتزلج السيد سينغر معها، وربما يرافقهما كارول لومبارد[1]وأرتورو توسكانيني[2] الذي تسمع موسيقاه في المذياع. سيتزلجان معاً، وقد يقع السيد سينغر تحت الجليد، وستخاطر عندها بالغطس والسباحة تحت الجليد لتنقذ حياته. كانت هذه إحدى خططها التي جالت في رأسها على الدوام.

وعادة بعد أن يمشوا لفترة تضع بابر ورالف في مكان ظليل. كان بابر طفلاً ظريفاً، وقد دربته بشكل جيد جداً. إن طلبت منه ألا يبتعد عن رالف، فلن يذهب للّعب بالكرات الزجاجية مع الأطفال في شوارع بعيدة. لعب بابر لوحده قرب العربة، وعندما تتركه لم تقلق عليه كثيراً. تذهب ميك إلى المكتبة لمطالعة مجلة الناشيونال جيوغرافيك، أو تتجول في الأرجاء لتفكر أكثر. إن كان لديها المال اشترت من متجر السيد برانن سجائر أو شوكولا ميلكي وي. كان السيد برانن يخفض من أسعار الأشياء التي يشتريها الأطفال، ويبيعهم البضائع التي تساوي خمسة سنتات بثلاثة سنتات.

أيّا كان ما تفعله، وفي أيّ وقت، تصدح الموسيقى في رأسها على الدوام. تُهمهم أحياناً لنفسها وهي تمشي، وفي أوقات أخرى تُصغي بصمت إلى الأغاني التي تصدح في داخلها. سمعت كل أنواع الموسيقى، وصدح بعضها في ذهنها دون أن تكون قد سمعتها في أيّ مكان قبلاً.

ليلاً وعندما ينام الأطفال تتحرر. كان هذا أهم وقت في يومها. تحدث الكثير من الأمور عندما تكون لوحدها في الظلام. وبعد العشاء تخرج من المنزل مجدداً. لم يكن بإمكانها إخبار أيّ أحد عن الأشياء التي تفعلها ليلاً، وعندما تسألها أمّها أسئلة تختلق قصة صغيرة تبدو منطقية. ولكن

1- ممثلة أمريكية شهيرة من حقبة الثلاثينات (1908-1942) من بين أفلامها الجريمة الكاملة (1921) والقرن العشرون (1934). (المترجمة)

2- قائد أوركسترا إيطالي شهير (1867-1957) قاد الكثير من الحفلات الموسيقية حول العالم. (المترجمة)

في مُعظم الأوقات إن ناداها أحد تركض بعيداً وكأنّها لم تسمع النداء. ينطبق هذا على الجميع ما عدا والدها، فهناك شيءٌ في صوت والدها لا يمكنها أن تركض هاربة منه. كان من أضخم وأطول الرجال في البلدة، ولكن صوته هادئ ولطيف إلى درجة أنّ الناس يُفاجَؤون لدى سماعه يتكلم. ومهما كانت على عجلة من أمرها تتوقف على الدوام عندما يناديها والدها.

أدركت ميك هذا الصيف شيئاً بخصوص والدها لم تعرفه قبلاً فهي حتى ذلك الوقت لم تفكر به كشخصٍ حقيقي ومستقل عن البقية. يناديها في كثيرٍ من الأوقات، فتذهب إلى الغرفة الأمامية حيث يعمل، وتقف بقربه لبضع دقائق، ولكن عندما تُصغي إليه لا تركز على الأمور التي يقولها لها. في إحدى الليالي أدركت فجأة أمراً يخصّ والدها. لم يحدث في تلك الليلة أي شيء غير اعتيادي، ولم تعلم ما الذي جعلها تفهم ما يقوله لها. بعد ذلك شعرت أنّها أكبر سناً، وبأنّها تعرفه جيداً كما قد تعرف أيّ شخص.

حدث هذا في ليلة من ليالي أواخر شهر آب (أغسطس)، وكانت على عجلة من أمرها، فعليها أن تصل إلى ذلك المنزل بحلول التاسعة. ناداها والدها، وذهبت إلى الغرفة الأمامية حيث جلس مسترخياً عند طاولة عمله. ولسبب ما لم تكن جلسته هناك طبيعية، فهو حتى وقوع الحادث له كان بنّاء ونجاراً، يغادر البيت كل يوم قبل طلوع الفجر في ردائه السروالي، ويغيب طوال اليوم. وأحياناً في الليالي يحاول إصلاح الساعات كعملٍ إضافي. حاول ولوقتٍ طويل أن يحصل على عمل في متجر المجوهرات حيث يمكنه أن يجلس طوال اليوم وراء مكتب في قميصٍ نظيف وربطة عنق. ولكن الآن وبما أنّه لم يعد قادراً على العمل كنجار وضع لافتة أمام مدخل البيت كُتب عليها «تصليح ساعات حائط وساعات يد بسعرٍ رخيص». ولكن لم يكن له هيئة خاصة تشبه هيئة الصاغة الذين كان معظمهم من اليهود صغار البنية ذوي البشرة الغامقة

والسريعين جداً، والعاملين في متاجر وسط البلدة. بدا والدها طويلاً جداً من وراء طاولة العمل الخاصة به، وعظامه الكبيرة متصلة ببعضها على نحوٍ رخو.

حدّق والدها بها، ولم تعرف أنّه لم يملك سبباً لاستدعائها. أراد بشدة التحدث إليها فقط، وحاول أن يُفكر بطريقة ما ليبدأ حديثه. كانت عيناه العسليتان واسعتين وسط وجهه النحيل والطويل، وبما أنّه فقد كل شعره فقد منحته قمة صلعته الشاحبة مظهراً عارياً. استمر بالتحديق نحوها دون أن يقول شيئاً، ولكنها كانت على عجلة من أمرها، فعليها أن تصل إلى ذلك البيت بحلول التاسعة تماماً، ولم يكن هناك وقت لإضاعته. انتبه والدها إلى أنّها على عجلة من أمرها، وتنحنح منظّفاً حنجرته.

«لدي شيء من أجلك، إنّه ليس بالشيء الكبير، ولكن يمكنك أن تُدللي نفسك به».

لم يعطها مالاً فهو يشعر بالوحدة ويريد الحديث معها فقط. كان يوفر من المال الذي يكسبه ما يكفي لتناول الجعة مرتين أسبوعياً، وبجانب كرسيه زجاجتان، إحداهما فارغة، والأخرى فُتحت للتو. كان يُحب الحديث مع أحدهم كلما شرب الجعة. عبث والدها بحزام سرواله، وأشاحت ميك بنظرها بعيداً. خلال هذا الصيف بدأ والدها يتصرف كالأطفال في طريقة إخفائه للنقود التي احتفظ بها لنفسه. يخبئها أحياناً في حذائه، وأحياناً أخرى في شقٍ صغير صنعه في حزام سرواله. كانت مترددة حيال أخذ الخمسة سنتات، ولكن عندما مدّ يده كانت يدها مفتوحة وجاهزة.

«لدي الكثير من العمل لأقوم به ولا أعلم من أين أبدأ»، قال لها.

كان هذا عكس الحقيقة تماماً، وهو يعرف هذا جيداً كما تعرفه هي أيضاً. لم يكن لديه الكثير من الساعات ليُصلحها، وعندما كان ينتهي يتسكع في المنزل، ويقوم بأي عمل مطلوب، يجلس ليلاً عند طاولة العمل، وينظف أي نابض أو سير قديم محاولاً أن يجعل العمل مستمراً

حتى موعد النوم. ومنذ أن كسر وركه لم يعد قادراً على العمل بثبات ولكنه يعبث بشيءٍ ما على الدوام.

«فكرت كثيراً الليلة»، قال والدها. صبّ الجعة ورش بضع حبيبات من الملح على ظاهر يده ثمّ لعق الملح، وتناول جرعة جعة من الكأس.

كانت في عجلة من أمرها لدرجة أصبح فيها من الصعب عليها الوقوف بثبات، وقد لاحظ والدها هذا. حاول أن يقول شيئاً، ولكن لم يستدعها لقول أيّ شيء خاص. أراد فقط أن يتحدث معها لبعض الوقت. بدأ يتحدث، ويتجرع الجعة، وتبادلا النظر إلى بعضهما. وازداد الهدوء أكثر، ولم يتحدثا بكلمة واحدة.

وهنا أدركت شيئاً في والدها. لم يكن الأمر يشبه تعلّم حقيقة جديدة، بل فهمت هذا الشيء الذي عرفته طوال الوقت، ولكن ليس بعقلها. وفجأة أدركت أنها تفهم والدها، وأنّه رجل وحيد وعجوز يشعر بالإقصاء عن العائلة. لم يأتِ أيّ ولد من أولاده إليه لطلب أيّ شيء لأنّه لا يجني ما يكفي من المال. وفي وحدته أراد أن يكون قريباً من أحد أولاده، وكان جميعهم مشغولين، ولم يعرفوا بحقيقة شعوره بأنّه لم يكن مفيداً لأحد.

فهمت ميك هذا بينما نظرا إلى بعضهما، وهذا أثار فيها شعوراً غريباً. التقط والدها زنبرك ساعة، ونظّفه بفرشاة غُمست في البنزين.

«أعلم أنك في عجلة من أمرك. لقد ناديتك لأسلم عليك».

«لا، أنا لست في عجلة»، قالت له. «بصدق».

جلست تلك الليلة على الكرسي بجانب الطاولة، وتحدثا لبعض الوقت. تحدث والدها عن الحسابات والمصاريف، وكيف ستكون الأمور مختلفة فيما لو أدارها بطريقة مُختلفة. شرب الجعة وترقرقت الدموع من عينيه، ومسح أنفه بكُم قميصه. بقيت معه لوقت طويل تلك الليلة. حتى ولو لم تكن في عجلة من أمرها – ولسببٍ ما – لم تكن لتحدثه عن الأمور التي تجول في ذهنها، ولا عن الليالي القائظة والمُظلمة.

إنّ تلك الليالي سريّة، وكانت الأوقات الأهم بالنسبة لها طوال ذلك الصيف. مشت لوحدها في الظلمة، وكأنّها الشخص الوحيد في البلدة. في الليل يُقفر كل شارع تقريباً كالشارع الذي يقع فيه بيتها. يخاف بعض الأولاد من المشي وسط العتمة في الأماكن الغريبة، ولكنّها لم تكن مثلهم. خافت الفتيات من خروج رجلٍ ما من أيّ مكان، ودسّ عضوه فيهن كما يحدث بين المتزوجين. كانت معظم الفتيات مجنونات، فلو قفز أي شخص بحجم جو لويس أو ماونتن مان دين أمام أية واحدة، وأراد العراك يمكنها الجري بسرعة، ولكن إن كان وزنه قريباً من وزنها يمكنها عندها أن تبرحه ضرباً، وتُكمل طريقها.

كانت الليالي رائعة، ولم يكن لديها الوقت لتفكر بمثل هذه الأمور كالخوف مثلاً. وكلما تواجدت في عتمةٍ ما فكرت بالموسيقا. كانت تُغني لنفسها أثناء المشي في الشوارع. شعرت أن البلدة كلها تُصغي إليها دون أن تعرف أنّها ميك كيلي.

تعلمت الكثير عن الموسيقا خلال هذه الليالي الصيفية الحُرّة. عندما كانت تتجول في الأجزاء الراقية من البلدة تسمع صوت مذياع في كل منزل حيث كل النوافذ مفتوحة وتصدح منها موسيقا رائعة. وبعد مرور فترة من الزمن أصبحت تعرف البيوت التي تُدير البرامج التي ترغب بسماعها. كان هناك بيت مميز تصدح منه موسيقا أوركسترا جيدة، وفي الليل تتوجه إلى ذلك المنزل، وتتسلل إلى الحديقة المظلمة لتصغي إلى الموسيقا. أحاطت بذلك المنزل شجيرات جميلة، وجلست ميك تحت شجيرة بالقرب من النافذة. وبعد أن ينتهي البرنامج تقف في الحديقة المظلمة، وتفكر لوقتٍ طويل ويداها في جيبيها. كان الاستماع إلى هذه الموسيقا التي تذاع في المذياع ودراستها الجزء الأكثر حقيقية من كل ذلك الصيف.

«أغلق الباب يا سيدي»، قالت ميك بالإسبانية.

أتى جواب بابر بالإسبانية حاداً كشوكة.

«هلّا قمت بمعروفٍ من أجلي»،

إنّ تعلّم اللغة الإسبانية في المدرسة أمر عظيم. هناك شيء ما في التحدث بلغة أجنبية جعلها تشعر وكأنّها جالت في أماكن كثيرة. فمنذ بداية المدرسة وفي ظهيرة كل يوم تمتعت باستخدام المفردات والجمل الإسبانية الجديدة التي تعلمتها في ذلك اليوم. شعر بابر بالإرباك في البداية، ولكن أصبحت مشاهدة وجهه أثناء تحدثها بلغة أجنبية أمراً مسلياً، فلقد انخرط في الدور على الفور، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ يُقلّد كل شيء قالته، وتذكر الكلمات التي تعلمها أيضاً. حتماً لم يكن يعلم ما الذي تعنيه كل تلك الجمل، ولكن لم تنطق ميك بها لمعناها بل لمجرّد النطق بها. وبعد مرور فترة من الزمن تعلم الولد بسرعة كبيرة لدرجة أنّها توقفت عن التحدث بالإسبانية، وبدأت تخترع أصواتاً جديدة. لم يمضِ وقت طويل حتى التقط بابر هذه الأصوات الجديدة التي أصدرتها، لم يكن هناك من يتفوق على بابر كيلي العظيم.

«سأتظاهر بأنني أتمشى نحو هذا المنزل لأول مرّة»، قالت ميك. «عندها يمكنني أن أعرف إن كانت الزينة جيدة أم لا».

توجهت إلى الشرفة الأمامية، وعادت ثم وقفت في الردهة. كانت تجهز هي وبابر وبورشيا ووالدها الردهة وغرفة تناول الطعام من أجل الحفلة. كانت الزينة عبارة عن أوراق خريفية وعناقيد عنب وأوراق حمراء من قماش الكريب. هناك أوراق صفراء زاهية على رف المستوقد في غرفة تناول الطعام، وأخرى على حمّالة القبعات. هناك أيضاً عناقيد عنب على طول الجدران، وعلى الطاولات حيث استقر وعاء مشروب البانش. تدلت الأوراق الحمراء كشراريب طويلة من المستوقد، والتفت حول ظهور الكراسي. هناك الكثير من الزينة، وكل شيء على ما يرام.

فركت جبهتها بيدها، وزرت عينيها. وقف بابر إلى جانبها، وقلّدها في كل حركة قامت بها.

«أريد حقاً أن تسير هذه الحفلة على ما يرام. أريد ذلك حقاً».

ستكون هذه أول حفلة تقيمها، وهي لم تحضر سوى أربع أو خمس حفلات في حياتها. في الصيف الماضي ذهبت إلى حفلة تخرج، ولكن لم يسألها أيّ صبي مرافقته خلال الحفلة أو الرقص معها. وقفت بجانب وعاء البانش طوال الحفلة إلى أن انتهت كل المرطبات، ومن ثمّ عادت إلى المنزل. لن تكون هذه الحفلة كتلك الحفلة أبداً. خلال ساعات من الآن سيتدفق الناس، وسيبدأ الهرج والمرج.

كان من الصعب عليها أن تتذكر كيف أتتها فكرة الحفلة. خطرت لها بعد أن بدأت دراستها في مدرسة فوكيشنال. إنّ المدرسة الثانوية رائعة، وكل شيء فيها مختلف عن المدرسة الإعدادية. لم تكن لتحبها إلى هذا الحد لو أخذت دروساً في الكتابة الاختزالية كما فعلت هيزل وإيتا، فقد حصلت على إذن خاص وأخذت دروساً في الميكانيك كأيّ صبي. كانت صفوف الميكانيك والجبر والإسبانية رائعة، أمّا الإنكليزية فصعبة جداً. تدعى مُعلمة اللغة الإنكليزية الآنسة مينر. وتناقل الجميع إشاعة مفادها أنّ الآنسة مينر قد باعت دماغها إلى طبيب مشهور مقابل عشرة آلاف دولار، وأنّها بعد أن تتوفى سيفتح الطبيب جمجمتها ويدرس سبب ذكائها. خلال الدروس الكتابية طرحت أسئلة كالتالي: «عددوا ثمانية معاصرين مشهورين للطبيب جونسون»، أو «اكتبوا عشرة اقتباسات من كاهن ويكفيلد[1]». تختار الطلاب حسب الترتيب الأبجدي لأسمائهم، وتركت دفتر العلامات مفتوحاً خلال الدروس. وحتى وإن كانت ذكية إلّا أنّها نكدة. زارت معلمة اللغة الإسبانية أوروبا مرة واحدة، وقالت لهم إنّ الفرنسيين يحملون أرغفة الخبز من دون تغليف في طريق عودتهم إلى المنزل، وأنهم يقفون في الشوارع ويتحدثون بينما ترتطم قطع الخبز بأعمدة النور. قالت أيضاً إنّه لم يكن هناك ماء في فرنسا، لا يوجد شيء سوى النبيذ.

1- رواية كتبها الروائي الإيرلندي أوليفر غولدسميث ونشرت في عام 1766. تعد من أشهر روايات القرن الثامن عشر، ولاقت شعبية كبيرة في المجتمع الفيكتوري. (المترجمة)

إنّ مدرسة فوكيشنال رائعة على كافة الصعد. يتمشى الطلاب في الردهات بين الصفوف، ويجتمعون أثناء استراحة الغداء في الصالة الرياضية. إلّا أن أمراً ما بدأ يزعجها، ففي الردهات حيث يتمشى الطلاب مع بعضهم بدا الجميع وكأنهم أفراد جماعة معينة. تعرفت خلال أسبوع على طلاب في الردهات وفي الصفوف، وتحدثت معهم، ولكن كان هذا كل شيء، ولم تصبح فرداً في أية مجموعة. كانت تتوجه في المدرسة الإعدادية إلى أيّ حشدٍ من الطلاب ترغب بالانخراط معه، وينتهي الأمر. أمّا هنا فالأمر مختلف.

خلال الأسبوع الأول تمشّت في الردهة لوحدها، وفكرت بالأمر. خططت للانخراط في جماعة معينة بالزخم ذاته الذي فكرت فيه بالموسيقى. شغلتها هاتان الفكرتان طوال الوقت، وأخيراً خطرت لها فكرة الحفلة.

كانت حازمة في توجيه الدعوات. لم تكن تريد أيّاً من طلاب المدرسة الإعدادية، أو أي أحد تحت سن الثانية عشرة. دعت من تراوحت أعمارهم بين الثلاثة والخمسة عشر. تعرف كل من دعتهم بما يكفي لتتحدث معهم في الردهات، ومن لم تعرف أسماءهم استفسرت عنها. اتصلت بكل من كان لديه هاتف ودعت البقية في المدرسة.

عندما دعتهم على الهاتف قالت الشيء ذاته للجميع، وطلبت من بابر أن يبقي آذانه صاغية إلى ما تقوله. عرّفت عن نفسها:

«أنا ميك كيلي». وإن لم يفهموا الاسم أعادته إلى أن فهموه. «أقيم حفلة في الساعة الثامنة من مساء السبت، وأنت مدعو إليها. أعيش في الشارع الرابع في المبنى103 في الشقة (أ)».

بدت كلمة الشقة (أ) رائعة على الهاتف. أجاب الجميع تقريباً بأنهم سيسعدون بالحضور إلى الحفلة. حاول عدة صبيان مشاكسين أن يتذاكوا، واستمروا بسؤالها عن اسمها مراراً وتكراراً. وحاول أحدهم أن يتصرف بظرافة وقال لها: «لا أعرفك». وأجابته على الفور بجواب

ساحق: «فلتذهب ولتأكل العشب!» باستثناء ذلك الفتى المتذاكي كان هناك عشرة صبية وعشر فتيات، وأخبروها جميعاً أنهم قادمون. ستكون حفلة حقيقية ومختلفة وأفضل من أيّة حفلة حضرتها أو سمعت عنها قبلاً.

ألقت ميك نظرة أخيرة إلى ردهة المنزل وغرفة تناول الطعام، وتوقفت عند حمّالة القبعات وأمامها صورة العجوز ذي الوجه القذر. إنّها صورة جدّ والدتها الذي كان برتبة رائد في الحرب الأهلية وقُتل في ساحة المعركة. في إحدى المرات رسم طفلٌ على الوجه نظارات ولحية، وعندما مُحيت علامات قلم الرصاص عن الصورة بقيت أثارها ولوثت الوجه، ولهذا السبب أطلقت عليه اسم العجوز ذي الوجه القذر. كانت الصورة في إطار لوحات من ثلاثة أقسام، وعلى كلا الجانبين صور لولديه. كان الولدان بمثل عمر بابر في بزتين رسميتين، وتعلو الدهشة وجهيهما. لقد قُتلا في المعارك أيضاً منذ وقتٍ طويل.

«سأنزل هذه الصورة قبل الحفلة. أعتقد أنّها تبدو سوقية، ألا تعتقد هذا؟»

«لا أعلم»، أجاب بابر. «هل نحن سوقيون يا ميك؟»

«أنا لست كذلك».

وضعت الصورة تحت حمّالة القبعات. إنّ الزينة جيدة، وستلقى إعجاب السيد سينغر عندما يعود إلى المنزل. بدت الغرف فارغة وهادئة جداً، والطاولة جاهزة من أجل العشاء، وبعده سيحين وقت الحفلة. توجهت إلى المطبخ لتتفقد المرطبات.

«هل تعتقدين أنّ كل شيء سيكون على ما يرام؟» سألت ميك بورشيا.

كانت بورشيا تُعدّ البسكويت والمرطبات على الموقد. هناك شطائر من الزبدة والمربى وقطع من الشوكولا وشراب البانش. غُطيت الشطائر بقطعة قماشية رطبة. استرقت النظر إليها، ولم تتناول أيّة شطيرة.

«أخبرتك أربعين مرة أنّ كل شيء سيكون على ما يرام»، قالت بورشيا. «وأنني حالما أعود من إعداد العشاء في المنزل سأضع مريلتي البيضاء

وأقدّم الطعام كما يجب، وأنني سأغادر في الساعة التاسعة والنصف. إنّها ليلة السبت ولدينا أنا وهيلبوي وويلي مخططات أيضاً».

«بالتأكيد»، أجابت ميك. «أريد أن أقدم المساعدة إلى أن تبدأ الحفلة».

استسلمت أخيراً وتناولت شطيرة. أجبرت بابر على البقاء، وتوجهت إلى الغرفة الوسطى في المنزل. كان الثوب الذي سترتديه على السرير. تصرفت هيزل وإيتا بطيبة، وأعارتاها أفضل أثوابهما رغم أنّهما لم تكونا مدعوتين إلى الحفلة. كان هناك ثوب إيتا الأزرق والطويل من قماش الكريب وحذاءٌ أبيضُ وتاجٌ مرصَّعٌ بأحجار صناعية ملونة ستضعه على رأسها. بدت هذه الثياب جميلة حقاً، وكان من الصعب عليها حقاً أن تتخيل كيف ستبدو فيها.

كان الوقت أواخر الظهيرة، وظهرت الشمس من النافذة وهي تنحدر انحداراً طويلاً وأصفر. سيتطلب منها ارتداء الثياب من أجل الحفلة ساعتين لذلك عليها أن تبدأ الآن. عندما بدأت تفكر كيف أنّها سترتدي ثياباً جميلة لم يعد بوسعها الجلوس والانتظار، وتوجهت ببطء شديد إلى الحمام، وخلعت سروالها القصير القديم وقميصها، وقامت بتشغيل المياه. فركت الأجزاء القاسية من كعبها وركبتيها ومرفقيها على وجه الخصوص. مكثت في الحمام طويلاً.

ركضت عارية إلى وسط الغرفة، وبدأت ترتدي ثيابها. ارتدت ثوباً داخلياً حريرياً وجوارب حريرية أيضاً، بل وارتدت إحدى حمالات الصدر الخاصة بإيتا دون أن يكون من داعٍ لهذا. وبكل حذر ارتدت الثوب وانتعلت الحذاء. كانت هذه أول مرّة ترتدي فيها ثوب سهرة. وقفت مطولاً أمام المرآة. إنها طويلة جداً ولهذا انحسر الثوب فوق كاحليها إنشين أو ثلاثة إنشات. كان الحذاء ضيقاً وآلم قدميها. وقفت لوقتٍ طويل أمام المرآة، وقررت أخيراً أن شكلها يبدو إمّا ساذجاً أو جميلاً جداً – أحد الاثنين.

جرّبت أن تُصفف شعرها بست طرقٍ مختلفة. واجهت بعض الصعوبة في رفع شعرها عند الجبهة، ولهذا بللت غرّتها بلعابها وقسمتها إلى ثلاثة أجزاء. وأخيراً ثبتت التاج في شعرها ووضعت الكثير من حمرة الشفاه والصباغ على وجهها. عندما انتهت رفعت ذقنها، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وكأنها نجمة سينمائية. أدارت وجهها ببطء من جهة إلى أخرى. بدت جميلة حقاً.

لم تشعر بأنّها تشبه نفسها بل شخصاً مختلفاً تماماً عن ميك كيلي الحقيقية. ما زال هناك ساعتان قبل بدء الحفلة، وشعرت بالحرج من أن يراها أيّ أحد من العائلة وهي جاهزة قبل الحفلة. توجهت إلى الحمام مجدداً وأقفلت الباب. لم تجلس حتى لا تُجعّد الفستان، ولهذا وقفت في منتصف الحمام. بدا وكأنّ الجدران القريبة منها تضغط على كل الحماس الذي يعتمل في داخلها. شعرت بأنّها مختلفة عن ميك كيلي القديمة، وعلمت أنّ هذه الحفلة ستكون أفضل من أيّ شيء آخر في كل حياتها.

«مرحى! شراب البانش!»

«أجمل فستان...».

«أخبريني! هل حللت مسألة المثلث... ستة وأربعون ضرب عشر».

«اسمح لي! ابتعد عن طريقي!»

فُتح وأُغلق الباب الأمامي بقوة بينما اندفع الناس إلى المنزل. علت الأصوات الخشنة والناعمة في آنٍ معاً، إلى أن تحولت إلى ضجة كبيرة. وقفت الفتيات في مجموعات بفساتين السهرة الطويلة والراقية، وتجول الفتيان في الأرجاء بسراويل ذات خصر عالٍ، وببذلات كبذلات التدريب العسكري أو ببذلات خريفية غامقة. كان الهرج شديداً إلى درجة أنّ ميك لم تميز وجه أحد. وقفت بالقرب من حمّالة القبعات، وراقبت الحفلة.

«فليأخذ الجميع بطاقة حفلة، وليبدأ بالكتابة عليها».

كانت الغرفة في البداية صاخبة جداً، ولم يسمع أحد شيئاً أو يلتفت

إليها. احتشد الفتية حول وعاء البانش إلى درجة أنّ الطاولة وعناقيد العنب اختفت خلفهم. وبرز وجه والدها فقط فوق رؤوس الصبية وهو يبتسم ويوزع المشروب في كؤوس ورقية. وعند قاعدة حمّالة القبعات بجانبها هناك مرطبان من الحلوى ومنديلان. اعتقدت فتاتان أنّ الحفلة حفلة عيد ميلادها فجلبتا لها الهدايا، وشكرتهما ميك بينما فتحت الهدايا دون أن تخبرهما أنّها ستبلغ الرابعة عشر بعد ثمانية أشهر. بدا الجميع نظيفاً وأنيقاً مثلها وروائحهم زكية. مسّد الصبية شعر الرأس إلى الأسفل وبدا رطباً وزلقاً، ووقفت الفتيات بأثوابهن الطويلة والملونة أشبه بمجموعة أزهار زاهية. كانت البداية رائعة. إنّ بداية هذه الحفلة رائعة.

«أصلي اسكتلندي وإيرلندي وفرنسي و...».

«دمائي ألمانية...».

صرخت ميك بشأن بطاقات الحفلة مرّة أخرى قبل أن تدخل إلى غرفة تناول الطعام، وسرعان ما أخذ الناس بالتجمع في الردهة. أخذ كل شخص بطاقة، واصطفوا في مجموعات عند حائط الغرفة. الآن بدأت الحفلة الحقيقية.

حدث كل هذا فجأة وبطريقة غريبة... فجأة عمّ الهدوء. وقف الصبية معاً على جانب واحد من الغرفة والفتيات في الجهة المقابلة. ولسبب ما توقف الجميع دفعةً واحدة عن إصدار الضجيج. رفع الصبية بطاقاتهم، ونظروا إلى الفتيات، وبدت الغرفة هادئة جداً. لم يطلب أيٍّ من الصبية شريكة للرقص كما كان من المفترض أن يحدث. وبدأ الهدوء المريع يزداد سوءاً. لم ترتد ميك ما يكفي من الحفلات لتتعلم ما الذي يجب فعله في هذه الحالة. وبدأ الصبية يقرصون بعضهم ويتكلمون، وقهقهت الفتيات اللواتي حتى لو لم ينظرن إلى الصبية يمكن المرء أن يدرك أنّ الشيء الوحيد الذي يشغلهن أن يكنّ ذوات شعبية. انتهى الصمت المريع الآن، ولكن ساد جو من التململ في الغرفة.

بعد برهة توجه أحد الفتية إلى فتاة تدعى دولوريس براون. وحالما

وقع لها الفتى بطاقة الحفلة هرع بقية الصبية إلى دولوريس دفعة واحدة. عندما امتلأت بطاقتها، انتقلوا إلى فتاة أخرى تدعى ماري. وبعد ذلك توقف كل شيء مجدداً وبشكل مُفاجئ. حصلت فتاة أو فتاتان على بضعة توقيعات، وتقدم ثلاثة صبية نحو ميك لأنّها كانت مضيفة الحفلة. هذا كل ما حدث.

اجتمع الناس في غرفة الطعام والردهة، وتحلق الصبيان على وجه التحديد حول وعاء البانش، وأخذوا يتباهون أمام بعضهم. تجمعت الفتيات معاً، وضحكن كثيراً وكأنهن يدعين أنهنّ يقضين وقتاً طيباً. فكَّرَ الصبية بالفتيات، وفكرت الفتيات بالصبية. ولكن كل هذا لم يُثر سوى شعور بالغرابة في أرجاء الغرفة.

أثناء هذا فقط انتبهت ميك إلى هاري مينويتز الذي يعيش في البيت المجاور لبيتهم وتعرفه طوال حياتها. رغم أنّه أكبر منها بعامين إلّا أنّها كبرت أسرع منه. وفي الصيف كانا يتصارعان على مرجة بالقرب من الشارع. كان هاري يهودياً ولكن مظهره لم يوحِ بهذا فشعره بني فاتح ومسترسل. كان أنيقاً جداً الليلة، وعندما وصلَ إلى الباب علّق على حمّالة القبعات قبعة لها ريشة.

لم تكن ثيابه ما أثارت انتباهها. كان هناك شيء قد تغير في وجهه فهو لم يكن يرتدي نظاراته ذات الإطار المصنوع من العظم والتي اعتاد ارتداءها. كانت إحدى عينيه تذرف قيحاً أحمر مما حدا به إلى إمالة رأسه جانبياً كطائر ليرى. استمر بلمس القيح بيديه الناحلتين والطويلتين، وبدا أنّ القيح يؤلمه. عندما طلب من والدها أن يصبّ له مشروب البانش في كوبه الورقي ألصق الكوب بوجهه. من الواضح أنّه بحاجة ماسة إلى نظاراته. كان متوتراً وارتطم كثيراً بالناس. لم يطلب من أيّة فتاة توقيعاً سوى منها لأنّها كانت صاحبة الحفلة.

انتهى مشروب البانش، وخاف والدها من أن يشعرها هذا بالحرج لهذا توجه هو ووالدتها إلى المطبخ لإعداد الليموناذة. وقف المدعوون

على الشرفة الأمامية والرصيف، وشعرت ميك بالسعادة عندما خرجت لاستنشاق هواء الليل البارد. عندما خرجت من المنزل القائظ والمضاء اشتمت رائحة الخريف الجديد في الظلمة.

وعندها رأت شيئاً لم تكن تتوقعه. على طول حافة رصيف الشارع المعتم هناك مجموعة من صبية الجوار. هناك بيت وساكر ويلس وبيبي وسبيرريبس، كانت العصابة بأكملها هناك، وكانت أعمارهم تتراوح بين من هم أصغر من بابر ومن بلغ الثانية عشرة. هناك أيضاً أطفال لم تعرفهم أبداً، وقد عرفوا بشأن الحفلة، وأتوا للتسكع في الأنحاء. وهناك أولاد بعمرها وأكبر منها لم تقم بدعوتهم لأنهم كانوا لئيمين معها أو لأنّها كانت لئيمة معهم. كانوا قذرين وفي سراويل قصيرة عادية أو تدلت أطراف ثيابهم الداخلية إلى الخارج أو في ثياب نهارية عادية. تسكعوا في الظلام وراقبوا الحفلة. انتابها شعوران عندما رأت هؤلاء الأطفال؛ أولهما بالحزن والثاني بشيء يشبه التحذير.

«حصلت على هذا التوقيع منك»، قال هاري مينويتز وكأنّه يقرأ بطاقته، ولكن ميك لم تر كتابة على البطاقة. خرج والدها إلى الشرفة، وأطلق الصافرة إيذاناً ببداية الرقصة الأولى.

«أجل، لنذهب». قالت ميك.

انطلقا للتمشي في الجوار، وفي ثوبها الطويل شعرت ميك بأنّها راقية جداً. صاح أحد الأولاد في الظلام، «انظروا إلى ميك كيلي! انظروا إليها». تابعت ميك المشي وكأنّها لم تسمع شيئاً. كان سبيرريبس من تفوه بهذا وفي يوم ما قريباً ستمسك به وتلقنه درساً. مشت ميك وهاري بسرعة على طول الرصيف المظلم، وعندما وصلا إلى نهاية الشارع تابعا طريقهما في شارع آخر.

«كم عمرك يا ميك؟ ثلاثة عشرة؟»

«سأبلغ الرابعة عشرة».

كانت تعرف بما يُفكر به هاري، والأمر يقلقها طوال الوقت. بطول خمسة أقدام وستة إنشات وبوزنٍ يصل إلى مئة وثلاثة باوندات كانت في الثالثة عشرة فقط. بدا كل ولد في الحفلة قزماً بجانبها باستثناء هاري الأقصر منها ببضع إنشات فقط. لم يرد أحد الرقص مع فتاة أطول منه.

«لقد ازداد طولي ثلاثة أو أربعة إنشات خلال العام الماضي»، قالت ميك.

«رأيت مرة في أحد المعارض سيدة طولها ثمانية أقدام ونصف، ولكن أعتقد أنك لن تبلغي هذا الطول».

وقف هاري بجانب شجيرة آس حمراء. لم يكن أحد في الجوار، ثمّ أخرج شيئاً من جيبه، وبدأ يعبث به. انحنت لترى ما الذي معه. كان ينظف نظاراته بمنديله.

«عذراً»، قال هذا ووضع نظارته وسمعت تنفسه العميق.

«عليك أن ترتدي نظاراتك طوال الوقت».

«أجل».

«كيف تتمكن من التحرك دونهما؟»

كان الليل هادئاً وعاتماً جداً. أمسك هاري بمرفقها بينما عبرا الشارع.

«هناك شابة معينة في الحفلة تعتقد أنّ الفتى الذي يرتدي نظارات يبدو مُخنثاً. هذه الشابة... أوه، حسناً... أعتقد أنّها أنا...».

لم يُنهِ جملته، وانكمش على نفسه فجأة، ثمّ ركض بضع خطوات وقفز ليلتقط ورقة على ارتفاع أربعة أقدام فوق رأسه. لم تر ميك في الظلام سوى تلك الورقة العالية. قفز قفزة جيدة وأمسك بها من أول محاولة، ثمّ وضع الورقة في فمه، وأخذ يسدد بضع لكمات في الظلام. حذت ميك حذوه.

وكالعادة كان هناك أغنية تصدح في رأسها، وتهمهم بها لنفسها.

«ماذا تغنين؟»

«إنّها مقطوعة لرجلٍ يدعى موزارت».

شعر هاري بشعورٍ جيد، ومشى بشكل مراوغ وكأنّه ملاكم سريع.

«يبدو اسمه ألمانياً».

«أعتقد هذا».

«فاشي؟» سألها.

«ماذا؟»

«سألت إن كان موزارت فاشياً أو نازياً؟»

فكَّرَت ميك لدقيقة. «لا، إن النازيين جدد وهذا الرجل ميت منذ زمن».

«هذا أمرٌ جيد». بدأ يلكم الظلام مجدداً، وأراد أن يسأل سؤالاً آخراً.

«إنّه أمر جيد»، قال مجدداً.

«ماذا؟»

«لأنني أكره الفاشيين. إن رأيت أحدهم يمشي على الطريق سأقتله».

نظرت ميك إلى هاري. ألقت أوراق الشجر تحت أضواء الشارع ظلالاً سريعة. بدا هاري متحمساً.

«لماذا؟»

«يا إلهي! ألا تقرئين الصحف؟ انظري، إنّ الأمر...».

عادا إلى الشارع أمام البيت. ما زال الهرج والمرج يعمّه. صرخ الناس وركضوا على الأرصفة، وانتابها شعور بالغثيان في بطنها.

«لم يكن هناك وقت للشرح ما لم نتجول مرة أخرى في الشارع. لا أمانع إخبارك بأنني أكره الفاشيين. أريد أن أتحدث بالموضوع».

ربما كانت هذه أول فرصة له للحديث عن هذه الأفكار مع شخصٍ ما، ولكن لم يكن لديها الوقت لتستمع. كانت مشغولة بالنظر إلى ما وقعَ نظرها عليه أمام المنزل.

«حسناً، سأراك لاحقاً». انتهت الجولة، ويمكنها الآن أن تركز على الفوضى التي تراها.

ما الذي حدث في غيابها؟ تركت الناس في ثيابهم الأنيقة، وكانت الحفلة راقية، ولكن الآن وبعد مرور خمس دقائق بدا المكان أشبه بمنزل مجانين. أثناء غيابها خرج هؤلاء الفتية من الظلام واقتحموا الحفلة. يا لوقاحتهم! ضرب بيت ويليز العجوز على الباب الأمامي بكأس من البانش في يده. صرخوا وركضوا واختلطوا مع المدعوين في ثيابهم الداخلية البارزة والعادية.

عبثت بيبي ويلسون على الشرفة الأمامية، وهي لم تتجاوز الأربع سنوات. كان بإمكان أيّ أحد أن يدرك أنّه عليها أن تذهب إلى البيت، وتأوي إلى السرير كبابر تماماً. هبطت بيبي الدرج دفعة واحدة، ورفعت وعاء البانش فوق رأسها. لم يكن هناك من سببٍ وجيه لوجودها هنا أبداً. كانت ابنة أخت السيدة برانن، وكان باستطاعتها الحصول على حلوى ومشروبات مجانية من متجره في أيّ وقتٍ تريد. وحالما وصلت إلى الرصيف أمسكت بها ميك من ذراعها وقالت لها: «عودي إلى المنزل بيبي ويلسون، هيا الآن».

نظرت ميك حولها لترى إن كان هناك أحد آخر، ولتعيد الأمور إلى نصابها مجدداً وكما كانت. توجهت إلى ساكر ويلز الذي وقف عند نهاية الرصيف في الظلام وقد أمسك بكوبه الورقي، ونظر إلى الجميع بطريقة حالمة. كان ساكر في السابعة، ولم يرتدِ سروالاً، وصدره وقدماه عاريان. لم يسبب أيّ شغب ولكن كانت ميك غاضبة من كل ما حدث.

أمسكت بساكر من كتفيه، وبدأت تهزه. في البداية أحكم فكيه، ولكن بعد دقيقة بدأت أسنانه تصطك. «اذهب إلى المنزل يا ساكر ويلز، وتوقف عن التسكع هنا فأنت غير مدعو». عندما أفلتته، استدار ساكر على عقبيه وسار ببطء في الشارع، ولكنه لم يتوجه إلى المنزل. تجاوز الزاوية ورأته يجلس على الرصيف، ويشاهد الحفلة حيث اعتقد أنّها لن تراه.

شعرت ميك بشعور جيد لبضع دقائق لأنّها قرّعت ساكر، ولكن بعد ذلك بدأت تشعر بقلقٍ كبير، ودعته للعودة. كان الفتية الكبار من أفسدوا

كل شيء، إنهم المشاغبون الحقيقيون والأكثر وقاحة على الإطلاق. شربوا كل المرطبات، وأفسدوا الحفلة بإثارة الشغب. اندفعوا من الباب الأمامي يصرخون ويتدافعون. توجهت ميك إلى بيت ويلس فهو الأسوأ بينهم. كان يرتدي خوذة كالتي يرتديها لاعبو كرة القدم الأمريكية، ويصطدم بالناس. كان بيت في الرابعة عشرة ولكنه ما زال في الصف السابع. توجهت نحوه إلا أنّه كان كبيراً جداً لتقوم بهزه كما فعلت مع ساكر. عندما طلبت منه العودة إلى المنزل تمايل جانباً، ورفع أنفه في وجهها.

«لقد زرت ست ولايات مُختلفة... فلوريدا وآلاباما...».

«مصنوع من قماش فضي مع وشاح».

كانت الحفلة بأكملها في حالة يرثى لها، فالجميع يتحدث في الوقت ذاته، واختلط المدعوون من مدرسة فوكيشنال مع عصابة الجيران. وما زال الفتية والفتيات يقفون في جماعات منفصلة، ولم يتقدم أحد من شريكه. في المنزل انتهت الليمونادة تقريباً، ولم يكن هناك سوى وعاء كبير من الماء مع قشور الليمون الطافية فوق الماء. لطالما تصرف والدها بلطفٍ مع الأطفال، فلقد قدم البانش لكل من رفع كأسه الورقي نحوه. قدمت بورشيا الشطائر عندما دخلت ميك إلى غرفة تناول الطعام، وخلال خمس دقائق انتهت الشطائر. لم تحصل ميك سوى على شطيرة واحدة، وكانت شطيرة مُربى مع غموس زهري اللون يسيل من الخبز.

بقيت بورشيا في غرفة تناول الطعام لتراقب الحفلة.

«أتمتع بوقتي ولا أريد المغادرة. أبلغت هايبوي وويلي بأنني سأبقى وأن يقوما بمخططات ليلة السبت من دوني. إن الجميع هنا متحمس، وسأنتظر لأرى نهاية هذه الحفلة».

الحماسة! هذه هي الكلمة المطلوبة. كان يمكنها أن تشعر بهذه الحماسة في أرجاء الغرفة والشرفة الأمامية والرصيف، وشعرت هي أيضاً بالحماسة. لم يكن السبب ثوبها الرائع أو الشكل الجميل لوجهها كما رأته عندما مرّت بجانب مرآة حمّالة القبعات، وعاينت الصباغ

الأحمر على وجنتيها، وتاج الأحجار الصناعية على شعرها. ربما كان السبب، الزينة وكل هؤلاء الناس من مدرسة فوكيشنال، والتقاء الأولاد مع بعضهم.

«انظروا إليها تركض!»

«اللعنة! توقف».

«فلتتصرف بما يناسب عمرك!»

هناك مجموعة من الفتيات اللواتي ركضن في الشارع، وأمسكن بأثوابهن وتطاير شعرهن خلفهن. قطّع الصبيان رماحاً طويلة وحادة من شجيرة الرمح الإسباني، ولاحقوا الفتيات بها. كان جميع الطلاب الجدد في مدرسة فوكيشنال في ثياب مناسبة للحفل إلّا أنهم تصرفوا كأطفال. كان الأمر لعبة وغير لعبة في آنٍ معاً. تقدّم أحد الصبية نحوها وبيده رمحٌ، وبدأت تركض.

إنّ فكرة الحفلة انتهت الآن، وتحول الأمر إلى لعب عادي، ولكنّها كانت الليلة الأكثر جنوناً في حياتها وكل هذا بسبب الأولاد. إنهم أشبه بالمرض المُعدي، وقدومهم إلى الحفلة أنساهم أمر المدرسة الثانوية، وأنهم أصبحوا بالغين. يشبه الأمر تلك اللحظات السابقة للذهاب إلى الحمام للاستحمام بعد العبث في أرجاء الحديقة الخلفية واللعب بالقذارة كثيراً من أجل ذلك الشعور الجيد بالاتساخ. تحول الجميع إلى أطفالٍ مجانين وعابثين ليلة السبت، وشعرت أنّها الأكثر جنوناً بينهم.

صرخت وتدافعت، وكانت أول من جرّب كل الألعاب الجديدة. أثارت الكثير من الضجة، وتحرّكت في الأرجاء بسرعة كبيرة، ولم تلاحظ ما الذي كان يفعله البقية. لم تسعفها أنفاسها في القيام بكل الأفعال الجنونية التي أرادت القيام بها.

«الخندق أسفل الطريق! الخندق! الخندق!»

انطلقت أولاً إلى نهاية الشارع الذي وضعوا فيه أنابيب جديدة تحت

الأرض، وحفروا خندقاً ضخماً وعميقاً. كانت المشاعل حول الخندق مضيئة وحمراء في العتمة. لم يكن بوسعها الانتظار لتنزل في الخندق، وركضت إلى أن وصلت إلى شعلة صغيرة تتماوج وقفزت.

لو كانت تنتعل حذاء التنس خاصتها لكانت هبطت كقطة، ولكنها انزلقت في الحذاء العالي وصدمت معدتها بأنبوب. توقفت عن التنفس، واستلقت دون حراك ثمّ أغلقت عينيها.

الحفلة! تخيلت لوقتٍ طويل كيف ستكون عليه، وتخيلت كل من سيأتون من مدرسة فوكيشنال، والمجموعة التي أرادت التسكع معها كل يوم. ستشعر بشعورٍ مختلف في ردهات المدرسة بعد أن عرفت الآن أنهم لم يكونوا مميزين بل مجرد أطفال كبقية الأطفال. جرى كل شيء على ما يرام في هذه الحفلة التي أفسدت، ولكن كل شيء انتهى، كانت هذه النهاية.

تسلقت ميك الخندق، هناك بعض الصبية الذين يلعبون حول المشاعل الصغيرة. ألقت النار وهجاً أحمر وظلالاً طويلة وسريعة. توجه أحد الأولاد إلى المنزل، ووضع قناعاً غبياً اشتراه من أجل الهالوين. لم يتغير شيء في الحفلة ولكنها تغيرت.

مشت ببطء نحو المنزل، وعندما مرّت بالقرب من الأولاد لم تتكلم أو تنظر إليهم. حُطمت الزينة في الردهة، وبدا المنزل فارغاً جداً لأنّ الجميع في الخارج. خلعت ثوبها الأزرق في الحمام. كانت حافته ممزقة، وقامت بطيه حتى لا يظهر التمزق. ضاع التاج في مكان ما، وكان سروالها القصير القديم وقميصها على السرير حيث تركتهما. بعد كل هذا أصبحت كبيرة جداً على ارتداء السروال القصير، وهي لن ترتديه بعد الليلة، لن ترتديه مجدداً.

وقفت ميك على الشرفة الأمامية، كان وجهها أبيض من الصباغ الذي وضعته قبلاً. كورت يديها أمام فمها وأخذت نفساً عميقاً.

«عاد الجميع إلى منازلهم! الباب مُغلق! انتهت الحفلة!»

عادت لوحدها مجدداً مع الليل الهادئ والمليء بالأسرار. لم يكن الوقت متأخراً، وظهرت مربعات الضوء على نوافذ البيوت على امتداد الشوارع. مشت ببطء ويداها في جيبيها، ومال رأسها إلى جهة واحدة. مشت لوقتٍ طويل دون أن تنتبه أين كانت وجهتها.

أخذت البيوت تتباعد أكثر. ووصلت إلى منطقة لمنازلها حدائق بأشجار كبيرة وشجيرات سوداء. نظرت حولها، ورأت نفسها بقرب هذا المنزل الذي كانت تذهب إليه كثيراً في الصيف. قادتها قدماها إلى هناك دون أن تعرف. عندما وصلت إلى المنزل انتظرت إلى أن تأكدت أنّ ما من أحد يمكن أن يراها، ثمّ عبرت الحديقة الجانبية.

كان المذياع يعمل كالعادة، وقفت قرب النافذة لهنيهة، وراقبت الناس داخل المنزل. الرجل الأصلع والسيدة ذات الشعر الرمادي يلعبان الورق عند الطاولة. جلست ميك على الأرض. هذا المكان رائع وخفي. بالقرب منها هناك أشجار أرز كثيفة أخفتها تماماً. لم تكن برامج المذياع جيدة لهذه الليلة، فقد كان أحدهم يغني أغاني شعبية تنتهي جميعها بالطريقة ذاتها. شعرت بالخواء، ودسّت يدها في جيبها وتحسسته بأصابعها. هناك زبيب وكستناء وخيط خرز وسيجارة مع أعواد ثقاب. أشعلت السيجارة، ولفت ركبتيها بيديها. شعرت بنفسها بأنّه فارغة جداً ودون أدنى شعور أو فكرة.

تتابعت البرامج الإذاعية وراء بعضها، وكلها كانت سيئة، ولكنّها لم تكن مهتمة بشيء معين. دخنت، وانتزعت بضع حشائش عن الأرض. بعد قليل بدأ مذيع جديد بالحديث، وذكر اسم بيتهوفن. قرأت ميك في المكتبة عن هذا الموسيقي. لُفظ اسمه مع ياء واحدة بعد الباء، ولكنه كان يُكتب بياءين. هذا الرجل ألماني كموزارت. عندما كان على قيد الحياة تحدث بلغة أجنبية، وعاش في مكان أجنبي كما أرادت أن تفعل. قال المذيع أنهم سيذيعون سيمفونيته الثالثة. سمعت نصف السيمفونية لأنّها أرادت أن تمشي، ولأنّها لم تعد مهتمة بما يذيعونه. ثمّ بدأت الموسيقا، ورفعت ميك رأسها، ووضعت قبضتها على حنجرتها.

كيف حصل هذا؟ لوهلة ترددت الافتتاحية من جهة إلى أخرى، أشبه بالمشية العسكرية وكأنّ الربّ يتهادى في الليل. وفجأة بدا وكأن القسم الخارجي من ذاتها تجمّد، وبقي ذلك الجزء الأول من الموسيقا حاراً في قلبها. لم تستطع حتى سماع ما أتى بعده، وجلست هناك جامدة تنتظر بقبضتين مشدودتين. بعد برهة عادت الموسيقا بقوة أكبر وبصوتٍ أعلى. لم يكن لهذا أيّة علاقة بالرب، بل بها، ميك كيلي، التي تمشي في حلم يقظة ولوحدها ليلاً. تحت الشمس الساطعة وفي الظلام مع كل المخططات والمشاعر، عبّرت هذه الموسيقا عنها، عن ذاتها الصريحة والحقيقية.

لم تتمكن من الإصغاء جيداً حتى تُنهي كامل السيمفونية، فقد كانت الموسيقى تغلي في داخلها. ماذا؟ هل تتعلق بأجزاءٍ معينة رائعة وتفكر بها مراراً وتكراراً حتى لا تنساها لاحقاً؟ أم تترك العنان لنفسها وتستمع إلى كل جزء دون التفكير به أو محاولة تذكره؟ يا إلهي! هذه الموسيقى تختصر العالم بأكمله، ولم يكن بوسعها أن تُصغي بقوة أكبر. وأخيراً صدحت الافتتاحية مجدداً مع كل الأدوات الموسيقية التي انطلقت معاً مع كل نوتة موسيقية كقبضة قاسية ومُحكمة تضرب قلبها، وانتهى الجزء الأول.

لم تأخذ هذه الموسيقى وقتاً طويلاً أو قصيراً، فلا علاقة لها بالوقت الذي يمضي على الإطلاق. جلست وقد أحكمت ذراعيها حول قدميها تعضّ بقوة ركبتها المالحة. لم تشعر بالوقت، ربما أصغت إلى الموسيقا لخمس ثوانٍ أو طوال نصف الليل. كان الجزء الثاني سوداوياً، وأشبه بلحنٍ عسكري بطيء. لم يكن حزيناً، ولكن بدا وكأنّ العالم بأكمله ميت وأسود. لم تكن إعادة التفكير بهذا اللحن مجدية. عزفت إحدى الأدوات الموسيقية الشبيهة بالبوق لحناً حزيناً وهادئاً. ثمّ تصاعدت الموسيقى بغضب مع حماسة مبطنة، وأخيراً عاد اللحن العسكري السوداوي مجدداً.

ربما كانت موسيقى الجزء الأخير من السيمفونية أكثر ما أحبّته. كانت موسيقى سعيدة وكأنّ أعظم الناس على الأرض يركضون ويقفزون بعزمٍ وحريةٍ. ستوقع مثل هذه الموسيقى الرائعة أسوأ أذية ممكنة، فقد جسّدت العالم بأكمله. وشعرت ميك أنّ وجودها لم يكن كافياً ليصغي إليها.

انتهت السيمفونية. تصلّبت في جلستها، وأحاطت ركبتيها بذراعيها. بدأ برنامج آخر، ووضعت إصبعيها في أذنيها. خلّفت الموسيقى فيها أذى سيئاً وخواءً. لم تكن قادرة على تذكر أيّ شيء من السيمفونية، ولا حتى النوتات الأخيرة. حاولت أن تتذكر، ولكن لم تُفلح في تذكر أيّة نغمة. وبما أنّ السمفونية انتهت الآن لم يعد هناك سوى قلبها الشبيه بأرنبٍ مع ألمٍ مريع فيه.

أُطفئ المذياع والأضواء في المنزل. كانت الليلة حالكة جداً، وفجأة أخذت ميك تضرب فخذيها بقبضتيها. ضربت على العضلة ذاتها بكل قوتها، وانحدرت الدموع على وجنتيها، ولكنها لم تشعر أنّ هذا قوي كفاية. كانت الحجارة تحت الشجيرة حادة. قبضت على حفنة منها ثمّ فركتها على العضلة ذاتها إلى أن أدمت يدها، واستلقت على الأرض وحدّقت في الليل. منحها ذلك الألم الناري في قدمها شعوراً أفضل. استرخت على العشب الرطب، وبعد مرور بعض الوقت عادت أنفاسها هادئة ومنتظمة مجدداً.

لِمَ لَمْ يدرك المستكشفون أنّ العالم كروي من النظر إلى السماء؟ كانت السماء منحنية كقعر وعاء زجاجي كبير، وبلونٍ أزرق غامق مع نثار نجوم لامعة. كانت الليلة هادئة، وفي الجو رائحة دافئة لأشجار الأرز. لم تحاول التفكير بالموسيقى أبداً عندما صدحت في رأسها مجدداً. استرجعت القسم الأول من الموسيقى كما سمعته. أصغت إليه بهدوء وببطء، وفكرت بالنوتات الموسيقية كمسألة هندسية حتى تتذكرها. كان باستطاعتها رؤية شكل الأصوات بوضوح كبير، ولذلك لن تنساها.

شعرت بشعور جيد الآن، وهمست ببعض الكلمات بصوتٍ عالٍ:

«سامحني يا إلهي لأنني لا أعرف ما الذي أفعله». لمَ فكرت بهذا؟ يعلم الجميع ومنذ عدة سنوات أنّه لا وجود لربٍ حقيقي. عندما كانت تفكر بما كانت تتخيله كربٍ تتخيل السيد سينغر مرتدياً قطعة قماشية بيضاء طويلة. إن الله صامت، وربما لهذا السبب فكرت بالسيد سينغر. نطقت الكلمات مجدداً، وكأنّها تتفوه بها أمام السيد سينغر: «سامحني يا إلهي لأنني لا أعرف ما الذي أفعله».

هذا الجزء من الموسيقى جميل وصافٍ، وتستطيع غناءه الآن وكلما أرادت. ربما لاحقاً عندما تستيقظ في صباحٍ ما ستتذكر المزيد من تلك الموسيقى. إن سمعت السيمفونية مجدداً ستُضاف أجزاء أخرى إلى ما حفظته في عقلها، وربما إن تمكنت من سماعها أربع مرّات، أربع مرات فقط ستحفظها تماماً. قد يحدث هذا.

أصغت مجدداً إلى افتتاحية هذه الموسيقى، وأخذت النوتات تتصاعد ببطء وهدوء، وبدا وكأنّها تغرق ببطء في الأرض المعتمة.

استفاقت ميك مرتعشة، فالهواء أصبح بارداً. وقبل أن تصحو حلمت أنّ أختها إيتا تسحب كل الأغطية وحاولت أن تقول: «دعيني أتغطى بالبطانية قليلاً...»، ثمّ فتحت عينيها. كانت السماء حالكة جداً، واختفت كل النجوم، والعشب رطب. نهضت على عجل لأنّ والدها سيكون قلقاً عليها، وعندها تذكرت الموسيقى. لم تكن تعرف إن كان الوقت منتصف الليل أو الثالثة فجراً، ولهذا هرعت عائدة إلى المنزل. انبعثت من الجو رائحة كرائحة الخريف، وصدحت الموسيقى في رأسها بصوتٍ عالٍ وسريع، وركضت بسرعة أكبر على أرصفة الشوارع التي تؤدي إلى المنزل.

-2-

بحلول شهر تشرين الأول (أكتوبر) غدا النهار أكثر زرقة وبرودة. أبدل بيف برانن سرواله القطني الخفيف بسروال صوفي أزرق داكن، ووضع خلف المنضدة آلة تصنع الشوكولا الساخنة. كانت ميك متحيزة جداً للشوكولا الساخنة، ولذلك أتت ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً لتشرب كوباً منها. قدمها بيف لها مقابل خمسة سنتات بدلاً من عشرة سنتات، وكان يريد أن يقدمها لها مجاناً. راقبها بينما وقفت خلف المنضدة، وشعر بالاضطراب والحزن. كان يرغب بأنّ يمدّ يده، ويلمس جبينها المسفوع بأشعة الشمس وشعرها الأشعث بطريقة لم يلمس بها أيّة امرأة قبلاً. اعتمل في داخله شعور بالقلق، وكلما تحدث معها خرج صوته خشناً وغريباً.

هناك الكثير من الهموم التي تشغل باله، فقبل أيّ شيء لم تكن أليس على ما يرام. وها هي تعمل في الطابق السفلي كالعادة من السابعة صباحاً وحتى العاشرة ليلاً، ولكن حركتها غدت بطيئة، وظهرت دوائر بنيّة تحت عينيها. ظهر عليها هذا الاعتلال بأوضح أشكاله أثناء العمل. في أحد أيام الآحاد عندما كانت تكتب قائمة الطعام لذلك اليوم على الآلة الطابعة قامت بتسعير طبق العشاء الخاص والذي كان طبق الدجاج الملكي بعشرين سنتاً بدلاً من خمسين، ولم تكتشف الخطأ إلى أن طلب العديد من الزبائن الطبق وحان الوقت ليدفعوا. وفي إحدى المرات صرّفت ورقتين من فئة خمسة دولار وثلاثة من فئة الدولار مقابل عشرة

دولارات. وقف بيف وراقبها لوقتٍ طويل بينما فرك أنفه ساهماً وعيناه نصف مغمضتين.

لم يتحدثا عن هذا، وعمل ليلاً في الطابق السفلي بينما نامت في الأعلى. كانت تدير المطعم لوحدها صباحاً. وعندما يعملان معاً يقف خلفها وراء آلة النقود، ويهتم بالمطبخ والطاولات كالعادة. لم يتحدثا مع بعض سوى في شؤون العمل، ولكن بيف راقبها بوجهٍ حائر.

وفي ظهيرة الثامن من شهر تشرين الأول (أكتوبر) أتت صرخة ألم من غرفة نومهما. هرع بيف إلى الطابق العلويِ، وخلال ساعة أوصلوا أليس إلى المستشفى، وأزال الطبيب منها ورماً بحجم طفلٍ حديث الولادة، وبعد ساعة من العملية توفيت أليس.

جلس بيف بالقرب من سريرها في المستشفى مصعوقاً. كان حاضراً عندما توفيت. بدت عيناها مُخدرتين وضبابيتين من المُخدر، ثمّ تصلبتا كالزجاج. انسحب كل من الطبيب والممرضة من الغرفة، وتابع بيف التحديق في وجهها. وباستثناء ذلك الشحوب الأزرق لم يكن هناك أيّ فرق. ركز على كل تفصيل فيها، وكأنّه لم يرها كل يوم خلال واحد وعشرين سنة. جلس هناك، وتحولت أفكاره إلى الصورة المختزنة في داخله منذ وقتٍ طويل.

فكر بالمحيط الأخضر البارد وخط الرمال الذهبي، والأطفال الصغار الذين يلعبون على حافة الشريط الحريري لزبد الماء، والفتاة السمراء الصغيرة القوية البنية، والصبية الصغار العُراة، والأطفال شبه البالغين الذين يركضون وينادون بعضهم بأصوات حلوة وعالية. هناك أطفال يعرفهم، مايك وأنسبائه وبيبي، وهناك أيضاً وجوه صغيرة غريبة لم يرها قبلاً. أحنى بيف رأسه.

بعد مرور فترة من الزمن نهض عن كرسيه ووقف وسط الغرفة. استطاع سماع صوت أخت زوجته لوسيل تمشي في الردهة الخارجية. زحفت نحلة سمينة أعلى المنضدة، وببراعة أمسك بها بيف بيده،

وأطلقها من النافذة المفتوحة. حدق في الوجه الميت لمرة أخرى، ثمّ وباتزان الأرمل فتح الباب الذي يؤدي إلى رواق المستشفى.

في الطابق العلوي جلس بيف في وقتٍ متأخر من الصباح التالي يخيط. لماذا؟ لمَ في حالات الحب الحقيقي لا يتبع الشريك الذي بقي شريكه المتوفي بالانتحار؟ هل لأنّ الأحياء يجب أن يدفنوا الأموات؟ هل السبب هو الطقوس الدقيقة التي يجب أن تجرى بعد الموت؟ هل لأنّ الذي بقي على قيد الحياة يصعد على مسرح ما لمدة من الزمن، ومع كل دقيقة تمر وهو تحت الكثير من الأنظار يتضخم الوقت بشكل غير محدود؟ أم لأنّ هناك مناسبة يجب أن يتكفل بأمرها؟ أو ربما لأنّه عندما يكون هناك حب يجب أن يبقى الأرمل/ ة بانتظار انبعاث المحبوب حتى لا يكون الذي رحل ميتاً حقاً، وليُخلق مجدداً وللمرة الثانية في روح من بقي على قيد الحياة؟ لماذا؟

انحنى بيف قريباً من الشيء الذي كان يخيطه، وفكر في أمور عديدة. كان يخيط بمهارة، وكان النسيج اللحمي على أطراف أصابعه قاسياً جداً لذلك أدخل الإبرة في القماش من دون كُشتبان. انتهى من حياكة شريطي حداد سيضعهما على كمي بذلتين رماديتين، وهو الآن يخيط الشريط الأخير.

كان النهار رائقاً وحاراً، وتناثرت أولى الأوراق الخريفية الميتة في الشوارع. خرج باكراً، ومرّت الدقائق طويلةً، وأمامه ساعات فراغ لا محدودة. أقفل باب المطعم، ووقف خارجاً مع باقة من الزنابق البيضاء. توجه أولاً إلى دار الجنازات، وتفحص بدقة تشكيلة التوابيت. تلمس المواد التي صنعت منها البطانة واختبر قوة الإطار الخشبي.

«ما نوع قماش هذا التابوت يا جورجيت؟»

أجابت الحانوتية على سؤاله بصوت مُداهن.

«ما هي نسبة من يطلبون حرق جثثهم؟»

مشى بيف في الشارع مجدداً بكل الرسمية المطلوبة. هبّت من الغرب ريح دافئة، وكانت الشمس ساطعة جداً. توقفت ساعته، ولهذا التفت إلى نهاية الشارع حيث وضع ويلبر كيلي لافتة محله. جلس كيلي على مقعده في ثوب حمام مرقع. كان متجره غرفة نومه أيضاً، وهناك طفلة جالسة في عربتها بهدوء. مرّت الدقائق وما زال هناك الكثير من الوقت للتأمل والتساؤل. طلب من كيلي أن يشرح الاستخدام الحقيقي للجواهر في الساعة. لاحظ النظرة المشوهة في عين كيلي اليمنى كما بدت من خلال نظارة الساعاتي التي يرتديها. تحدثا لبعض الوقت عن تشارلميون وميونخ. وبما أنّ الوقت ما يزال باكراً قرر أن يصعد إلى غرفة الأبكم.

كان سينغر يرتدي ثيابه استعداداً للذهاب إلى العمل. أرسل له سينغر البارحة رسالة تعزية. جلس بيف على السرير ودخنا معاً. نظر سينغر إليه بعينيه الخضراوين اللّماحتين، وعرض عليه تناول القهوة. لم يتكلم بيف، وتوقف الأبكم ليربت على كتفه، وينظر مرة أخرى إلى وجهه. عندما انتهى سينغر من ارتداء ثيابه خرجا سويةً.

اشترى بيف شريطاً أسود من المتجر، وقابل واعظ كنيسة أليس. عندما انتهى ترتيب كل شيء عاد إلى المنزل. «كل شيء يجب أن يكون مُنظماً»، هذا كل ما فكر به. جمع ثياب أليس وممتلكاتها الشخصية لتأخذها لوسيل، ونظّف المكان بعناية، ورتَّبَ أدراج الخزانة، بل وحتى أعاد ترتيب رفوف المطبخ في الأسفل، ونزع الشرائط القماشية باهتة اللون للمراوح الكهربائية. وعندما انتهى من كل هذا جلس في المغطس، واستحم مجدداً، وانتهى الصباح.

اقتطع بيف الخيط بأسنانه، ورتب الشريط الأسود على كُمّ معطفه. كانت لوسيل تنتظره في هذه الأثناء، وهي ستركب معه ومع بيبي في عربة الجنازة. أزاح سلّة الخياطة، ورتب المعطف مع شريط الحداد بكلّ عناية على كتفيه. ألقى نظرة سريعة على أرجاء الغرفة ليرى إن كان كل شيء على ما يرام قبل أن يغادر مجدداً.

بعد مرور ساعة كان بيف في مطبخ لوسيل. جلس وقد قاطع ساقيه، ووضع منديلاً على فخذه يحتسي كوباً من الشاي. إن لوسيل وأليس مُختلفتان من جميع النواحي، ولم يكن من السهل إدراك أنّهما أختان. كانت لوسيل نحيلة وسمراء، وقد ارتدت ثياباً سوداء بالكامل اليوم، ورتبت شعر بيبي. انتظرت الطفلة بصبر وهي جالسة عند طاولة المطبخ، وقد طوت يديها فوق حضنها بينما رتبت أمّها شعرها. أضاءت أشعة الشمس الخفيفة واللطيفة الغرفة.

«بارثيميلو...». قالت لوسيل.

«ماذا؟»

«لا تبدأ بالتفكير بما حصل أبداً».

«لن أفعل»، أجاب بيف.

«الأمر أشبه بارتداء غمامة طوال الوقت تمنعك من التفكير والتشتت أو العودة إلى الماضي. كل ما يمكنني أن أسمح لنفسي بالتفكير به هو الذهاب إلى العمل كل يوم، وتحضير الوجبات ومستقبل بيبي».

«هذا هو الموقف الصحيح».

«أقوم بتجعيد شعر بيبي وأنا في المتجر، ولكن التجعيدات لا تدوم طويلاً وأفكر بأن أجعلها دائمة. لا أريد أن أقوم بتجعيد شعرها بنفسي، أفكر بأخذها إلى أتلانتا عندما أزور خبير التجميل، وأجعّد لها شعرها هناك».

«يا إلهي! إنّها ما تزال في الرابعة وقد يخيفها الأمر. وعلاوة على هذا قد تجعل الخصل المجعدة شعرها خشناً».

غمّست لوسيل المشط في كأس من الماء، وسرّحت الخصل فوق أذن بيبي.

«لا، لن يحصل هذا، إنّها بحاجة إلى الخصل. قد تكون بيبي صغيرة، ولكنّها تملك الكثير من الطموح مثلي، وهذا يعد بالكثير.

حكّ بيف باطن يده بأظافره، وهزّ رأسه.

«في كل مرة نذهب فيها أنا وبيبي إلى السينما، ونشاهد الممثلين يؤدون أدوارهم بروعة تشعر بيبي بالطريقة ذاتها التي أشعر بها. أقسم أنّها تنفعل يا بارثيميلو إلى درجة أنني لا أستطيع إقناعها بتناول عشائها بعد أن نعود».

«يا رب السموات!» قال بيف.

«إنها تتحسن كثيراً في صفوف الرقص والتعبير. سأدعها في العام القادم تأخذ دروس بيانو لأنني أعتقد أنّ هذا سيساعدها على العزف قليلاً. سيسمح لها مدرس الرقص بأداء رقصة فردية في حفلة. أعتقد أنني يجب أن أدفع بيبي بكل استطاعتي. فكلما بدأت مهنتها باكراً كان هذا أفضل. سيكون هذا أفضل لكلينا».

«يا إلهي!»

«أنت لا تفهم. لا يمكن معاملة الطفل الموهوب كبقية الأطفال العاديين. لهذا السبب أريد أن تبتعد بيبي عن هذا المكان السوقي، لا يمكنني أن أسمح لها بالتحدث دون تهذيب كالأطفال المشاغبين حولها، أو تركض بجنون كما يفعلون».

«أعرف الأطفال في هذا الشارع»، قال بيف. «إنهم جيدون... هناك أطفال عائلة كيلي في الشارع المُقابل وابن عائلة كرين».

«أنت تعرف جيداً أن ما من أحد بينهم من مستوى بيبي».

رتبت لوسيل آخر خصلة مموجة في شعر بيبي، وقرصت خدي الطفلة لتضفي عليهما المزيد من التورد، ثمّ رفعتها وأنزلتها على الأرض. ارتدت بيبي للجنازة فستاناً أبيض قصيراً مع حذاء وجوارب بيضاء وكفوف بيضاء أيضاً، ورفعت نظرها نحو بيف. لطالما رفعت بيبي نظرها إلى الأعلى في كل مرة ينظر إليها الناس بشكل مباشر.

جلسوا في المطبخ الصغير الحار لبعض الوقت دون أن يتفوهوا بكلمة، ثمّ انخرطت لوسيل بالبكاء.

«لم نكن أختين قريبتين ولدينا خلافاتنا، ولم نلتقِ كثيراً، ربما لأنني كنت أصغر عمراً. لكن هناك شيء تحفزه رابطة الدم عندما يقع حدث كهذا».

ربّت بيف عليها بلطف.

«أعلم كيف كانت علاقتكما»، قالت. «لم تكن العلاقة بينكما سعيدة طوال الوقت، ربما هذا يزيد من سوء الوضع عليك الآن».

حمل بيف بيبي من تحت إبطيها، ووضعها على كتفيه. لقد ازداد ثقل الطفلة مع الزمن. حملها بعناية بينما دخل إلى غرفة الجلوس. شعرت بيبي بالدفء والقرب على كتفه، وبدت تنورتها بيضاء جداً على أرضية قماش معطفه الحالك السواد، وأحكمت قبضة يدها الصغيرة على إحدى أذنيه.

«عمو بيف! انظر كيف أقوم بفتح ساقيّ».

وضع بيف بيبي بلطفٍ على الأرض مجدداً. رفعت ذراعيها فوق رأسها، وببطء باعدت ساقيها باتجاهين معاكسين على الأرضية الشمعية الصفراء، وخلال لحظات جلست على قدم ممدودة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، ورفعت ذراعيها في زاوية رائعة، ونظرت جانباً نحو الحائط مع تعبير حزين على وجهها.

وقفت مجدداً وقالت، «انظر إلي وأنا أقوم بالشقلبة. انظر إلي...».

«عزيزتي فلتهدئي قليلاً». قالت لوسيل. وجلست بقرب بيف على الكنبة المُخملية.

«ألا تذكرك به. شيء ما في عينيها ووجهها؟»

«لا أبداً. لا أرى أدنى شبه بين بيبي وليروي ويلسون».

بدت لوسيل نحيلة وأكبر من عمرها، ربما كان السبب الثوب الأسود الذي ترتديه، وحقيقة أنّها كانت تبكي.

«في النهاية علينا أن نُقر أنّه والد بيبي»، قالت لوسيل. «لا أعلم. أعتقد أنني كنت غبية حيال أمرين وهما ليروي وبيبي».

بدا الجزء الحديث والنامي من لحية بيف أزرق على بشرة وجهه الباهتة، وخرج صوته مُتعباً.

«ألم تفكري ملياً وحاولت معرفة ماذا حدث وما النتيجة التي وصلت؟»

«ليس فيما يتعلق به، كما أعتقد».

تحدث بيف بسأم وكانت عيناه شبه مُغمضتين.

«تزوجتِ شخصاً ما بعمر السابعة عشرة، وبعد هذا أتت المشاكل تباعاً. تطلقتما وبعد سنتين تزوجتما للمرة الثانية، والآن تركك مجدداً، ولا تعلمين أين هو. يبدو أنّ هذه الحقائق تثبت أمراً واحداً وهي أنكما غير مناسبين لبعضكما، بغض النظر عن الجانب الشخصي ونوع شخصيتكما».

«يعلم الله أنني أدركت أنّه شخص بائس. آمل فقط ألّا يطرق بابي مجدداً».

«انظري يا بيبي»، قال بيف بسرعة. شدّ أصابعه ورفع يديه. «هذه هي الكنيسة وهذا برجها. افتحي الباب، وسترين شعب الله».

هزّت لوسيل رأسها.

«لا تزعج نفسك بشأن بيبي، فلقد أخبرتها بكل شيء. إنّها تعرف كل الحكاية من ألفها إلى يائها».

«إذاً عندما يعود ستدعينه يبقى هنا، ويعيش على حسابك كما يريد، وكما حدث في السابق؟»

«أجل، أعتقد أنني سأفعل. ففي كل مرة يُقرع جرس الباب، أو يرن الهاتف، وفي كل مرّة يطأ أحد الشرفة، يدفعني شيء ما في عقلي إلى التفكير بذلك الرجل».

فتح بيف راحة يديه الاثنتين وقال، «كما هو متوقع».

دقّت الساعة الثانية. كانت الغرفة عابقة جداً وحارة. قامت بيبي بشقلبة أخرى، وفتحت ساقيها باتجاهين متعاكسين على الأرضية الشمعية. حملها بيف ووضعها في حضنه، وتدلت قدماها الصغيرتان بمحاذاة ساقه. قامت بيبي بفك أزرار صدّاره وخبأت وجهها فيه.

«اسمع»، قالت لوسيل. «إن سألتك سؤالاً هل تعدني بأنك ستخبرني الحقيقة؟»

«بالتأكيد».

«مهما كانت؟»

تلمس بيف شعر بيبي الذهبي الناعم، ووضع يده بلطف على جانب رأسها الصغير.

«بالطبع».

«منذ سبع سنوات وبعد زواجي في المرة الأولى عاد ليروي في إحدى الليالي من بيتك ورأسه مغطى بالكدمات. أخبرني أنك أمسكت به من رقبته، وضربت رأسه بالحائط، واخترع قصة عن سبب قيامك بهذا، ولكنني أريد أن أعرف السبب الحقيقي».

عبث بيف بخاتم الزواج في إصبعه.

«لم أستلطف ليروي أبداً، وجرت بيننا مشادة. كنت مختلفاً آنذاك عمّا أنا عليه الآن».

«لا. هناك سبب حقيقي دفعك إلى القيام بهذا. نحن نعرف بعضنا منذ وقت طويل جداً، وأعرف أنّه لديك سبب حقيقي وراء كل شيء تقوم به. يعمل عقلك على الأسباب، وليس على الرغبات. وعدتني أن تخبرني الحقيقة وأريد أن أعرف».

«لن يعني الأمر أيّ شيء الآن».

«أخبرتك أنني أريد أن أعرف».

«حسناً»، قال بيف. «أتى في تلك الليلة وبدأ يشرب. وعندما ثمل بدأ بالحديث بشكلٍ مسيء عنك. قال إنّه يستطيع العودة إلى المنزل مرّة في الشهر، ويضربك ضرباً مُبرحاً، وستتحملين هذا، وأنك بعد هذا ستخرجين إلى الردهة، وتضحكين بصوتٍ عالٍ عدة مرّات حتى يعتقد الجيران في الغرف الأخرى أنكما كنتما تلعبان، وأنّ الأمر مجرّد مزحة. هذا ما حدث ولهذا فلتنسي الأمر».

جلست لوسيل باستقامة، وبرزت بقعة حمراء على كل خد من خديها.

«أترى يا بارثيميلو، لهذا السبب يجب أن أرتدي غمّامتين طوال الوقت حتى لا أنظر إلى الخلف أو جانباً. كل ما يمكن أن أسمح لعقلي التفكير به هو الذهاب إلى العمل كل يوم، وتجهيز ثلاث وجبات هنا في المنزل، والتركيز على مهنة بيبي».

«أجل».

«أرجو أن تفعل هذا أيضاً، وألا تفكر بالماضي».

طأطأ بيف رأسه على صدره، وأغلق عينيه. لم يكن قادراً على التفكير بأليس طوال اليوم. عندما حاول أن يتذكر وجهها أحسّ بفراغٍ غريب فيه. إنّ الأمر الوحيد الذي يتذكره فيها قدماها. كانت قدماها صغيرتين وممتلئتين وبيضاوين بأصابع سمينة، وراحة القدم وردية، وبالقرب من الكعب الأيسر هناك شامة بنية صغيرة. في ليلة زواجهما نزع حذاءها وجوربها وقبّل قدميها. وبعد التفكير بالأمر كانتا تستحقان التقدير فاليابانيون يعتقدون أنّ أفضل أجزاء المرأة -

تحرّك بيف في مكانه، ونظر إلى ساعته. عليهم أن يغادروا بعد قليل، ويتوجهوا إلى الكنيسة حيث ستُقام مراسم الدفن. مرّ في عقله بكل المشاعر التي سيشعر بها خلال المراسم. الكنيسة والمشي بخطى جنائزية وراء السيارة التي تحمل التابوت مع لوسيل وبيبي وجموع الناس الواقفة برؤوس محنية تحت شمس أيلول (سبتمبر). ستسقط أشعة الشمس على الأضرحة البيضاء، وعلى الزهور الذابلة وعلى الخيم البيضاء التي تغطي القبر المفتوح حديثاً. ثمّ عاد بخياله إلى المنزل.

«ماذا؟»

«لا يُهم مدى اختلافنا فهناك شيء ما في الأخت بالدم»، قالت لوسيل.

رفع بيف رأسه. «لمَ لا تتزوجين مرة أخرى؟ رجلاً شاباً ولطيفاً لم يتزوج قبلاً يهتم بك وببيبي؟ إن نسيت أمر ليروي ستكونين زوجة صالحة لأحدهم».

تمهلت لوسيل في الإجابة ثمّ قالت أخيراً: «أنت تعلم كيف كنا على الدوام. كنا نفهم بعضنا جيداً طوال الوقت تقريباً ومن دون أية لواعج في القلب من الطرفين. حسناً هذه أقرب مسافة أريدها من أي رجل مجدداً».

«أشعر بالطريقة ذاتها»، قال بيف.

بعد نصف ساعة سُمع طرقٌ على الباب. كانت سيارة الجنازة مركونة أمام المنزل. نهض كل من بيف ولوسيل على مهلهما، وتوجه ثلاثتهم مع بيبي في فستانها الحريري الأبيض في المقدمة إلى الخارج بهدوء رزين.

لم يفتح بيف المطعم في صباح اليوم التالي، ثمّ مع بداية المساء أزال الزنابق الذابلة عند المدخل الأمامي، وفتح المكان مجدداً. تقدم الزبائن القدامى نحو آلة النقود قبل أن يطلبوا الطعام، وحضر جميع الزبائن المعتادين: سينغر وبلاونت والعديد من الرجال الذين يعملون في المتاجر على طول الشارع وعمال المحالج عند النهر. بعد تقديم العشاء ظهرت ميك كيلي مع أخيها الصغير ووضع عملة من فئة خمسة سنتات في آلة السلوت. عندما خسرت عملتها النقدية استمرت بضرب الآلة بقبضتيها وفتح لها الحصالة لتتأكد إن كان هناك نقود، ثمّ وضعت قطعة نقدية أخرى من فئة خمسة سنتات، وكادت تربح الجائزة الكبرى. تدفقت العملات المعدنية وتدحرجت على الأرض. حرصت الفتاة وأخوها الصغير على إبقاء عيونهما مفتوحة على القطع النقدية، والتقطاها كلها حتى لا يضع أي زبون قدمه على أي قطعة قبل أن يلتقطاها. جلس الأبكم على الطاولة وسط المطعم، وعشاؤه أمامَه، وجلس جيك بلاونت قبالته يحتسي الجعة في ثياب يوم الأحد ويتحدث. كان كل شيء على عهده، وبعد قليل أصبح الجو رمادياً من دُخان السجائر، وازدادت الضجة. كان بيف يقظاً، ولم يفوت أيّ صوتٍ أو حركة.

«أتجول في كل مكان»، قالت بلاونت. انحنى بجدية فوق الطاولة، وأبقى عينيه على وجه الأبكم. «أتجول في كل مكان وأخبرهم الحقيقة

ولكنهم يضحكون، لا يمكنني جعلهم يفهمون شيئاً. لا يهم ما الذي أقوله لأنني وكما يبدو لا أستطيع جعلهم يرون الحقيقة».

هزّ سينغر رأسه، ومسح فمه بمنديله. كان عشاؤه قد برد لأنه لم يستطع أن ينظر إلى طعامه فقد كان مهذباً جداً، وترك بلاونت يتابع حديثه.

كانت الكلمات التي خرجت من الطفلين عند آلة السلوت عالية وواضحة وسط أصوات الرجال الأكثر خشونة. وضعت ميك عملة نقدية أخرى من فئة خمسة سنتات في الآلة، وألقت بين الحين والآخر نظرة على الطاولة الوسطى، ولكن جلس الأبكم وظهره لها ولهذا لم يرها.

«طلب السيد سينغر دجاجاً مقلياً، ولم يأكل لقمة واحدة»، قال بابر الصغير.

سحبت ميك ذراع الآلة على مهل. «فلتهتم بشؤونك».

«تصعدين دوماً إلى غرفته أو تذهبين إلى الأمكنة التي يتواجد فيها».

«طلبت منك أن تصمت يا بابر كيلي».

«أجل».

هزّته ميك إلى أن اصطكت أسنانه، ووجهته نحو الباب.

«عُد إلى المنزل ولتنم. أخبرتك أنني أخذت كفايتي منك ومن رالف خلال النهار، ولا أريدك أن تتسكع معي ليلاً حيث من المفروض أن أكون حرّة».

مدّ بابر يده الصغيرة القذرة.

«أعطني قطعة نقدية إذاً».

عندما وضع المال في جيب قميصه غادر عائداً إلى المنزل.

عدّل بيف معطفه، ومسح شعره إلى الوراء. كانت ربطة عنقه سوداء، وعلى أحد أكمام المعطف الرمادي هناك شريط الحداد الذي خاطه. أراد أن يتوجه إلى آلة السلوت، ويتحدث إلى ميك، ولكن شيئاً ما منعه من القيام بهذا. أخذ نفساً عميقاً، وشرب كأساً من الماء. صدحت موسيقى

أوركسترا راقصة من المذياع، ولم يكن يرغب بالإصغاء إليها. كانت كل الأنغام بالنسبة له على مدار السنوات العشر الماضية متشابهة ولم يكن قادراً على تمييزها عن بعضها. لم يستمتع بالموسيقى منذ عام 1928، ولكن عندما كان طفلاً عزف على الماندولين، وحفظ كلمات وأنغام كل أغنية معاصرة آنذاك.

وضع إصبعه على طرف أنفه، وأمال رأسه إلى جانب واحد. لقد كبرت ميك كثيراً خلال السنة الماضية، وقريباً ستصبح أطول منه. ارتدت سترة حمراء وتنورة زرقاء ذات طيات كانت قد بدأت ترتديها كل يوم منذ بداية المدرسة، ولكن الطيات ارتخت كثيراً الآن، وتدلى طرف التنورة فوق ركبتيها الناتئتين. إنّها بعمرٍ بدت فيه كفتى بالغ أكثر منها فتاة، وبالحديث عن هذا، غالباً ما يفوت أذكى الناس نقطة مهمة وهي أنّهم بطبيعتهم ثنائيو الجنس، ولهذا الزواج والسرير ليسا كل شيء حتماً. ما الدليل؟ الشباب الحقيقي والشيخوخة. غالباً ما تصبح أصوات الرجال العجائز عالية وناعمة، ويمشون متبخترين، بينما يزداد وزن النساء العجائز وتصبح أصواتهن خشنة وعميقة، ويظهر لديهن شارب أسود صغير. وحقيقة أنّه تمنى أحياناً أن يكون أُماً لميك وبابر دليل على هذا الجزء الأنثوي فيه. فجأة ابتعد بيف عن آلة النقود.

كانت الجرائد في حالة فوضى فهو لم يقم بأرشفة أيّة جريدة منذ أسبوعين. أخذ مجموعة من الجرائد من تحت المنضدة، وبعينين خبيرتين ألقى نظرة سريعة من ترويسة الصفحة وحتى آخرها. سيتفحص غداً أكوام الجرائد في الغرفة الخلفية، وسيرى إن كان سيقوم بتغيير نظام أرشفة الملفات. لقد بنى رفوفاً واستخدم صناديق المعلبات المتينة والتي شحنها إلى هنا ليستخدمها كأدراج. تبدأ الأرشفة من تاريخ 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 وحتى اللحظة الراهنة. هناك مجلدات بخطوط عريضة تحت عناوين الأحداث التاريخية، وهناك ثلاث مجموعات من الملخصات: الأولى عالمية وتبدأ من الهدنة وحتى ما بعد أحداث

ميونخ؛ والثانية وطنية والثالثة محليّة منذ أطلق العمدة ليستر النار على زوجته في النادي الريفي وحتى حريق محلج هادسن. قام بتسجيل وتلخيص وتجميع كل شيء منذ عشرين عاماً. ابتسم بيف بهدوء خلف يده التي فرك بها فكّه. لطالما أرادت أليس التخلص من الأوراق حتى تحول الغرفة إلى حمام للسيدات. تذمرت من الأمر طوال الوقت ولمرة واحدة - لمرة واحدة - قام بضربها بسبب هذا.

انغمس بيف بهدوء في تفاصيل الجريدة التي أمامه، وقرأ بإمعان وتركيز، ولكن بدفع من العادة في جزءٍ آخر من شخصيته بقي متيقظاً لكل شيء حوله. ما زال جيك بلاونت يتحدث، ويضرب الطاولة بقبضته بين الحين والآخر. تجرّع الأبكم الجعة، وتحلّقت ميك متوترة بالقرب من المذياع، وحدّقت بالزبائن. قرأ بيف كل كلمة في الصفحة الأولى، وكتب بضع ملاحظات على الهوامش.

ثمّ على حين غرّة رفع نظره بتعبيرٍ ينم عن المفاجأة. فتح فمه ليتثاءب ثمّ أغلقه. صدحت من المذياع أغنية قديمة تعود إلى الأيام التي كان فيها هو وأليس مخطوبين وهي بعنوان «صلاة طفل عند المغيب»[1]. توجه مع أليس في أحد أيام الآحاد إلى بحيرة أولد سارديس، واستأجرا قارب تجذيف. عند المغيب عزف على الماندولين بينما غنّت أليس. ارتدت وقتها قبعة بحارة، وعندما أحاط خصرها بذراعه...

أحسّ بيف بشبكة من المشاعر المفقودة. طوى الجرائد، وأعادها إلى مكانها تحت المنضدة. وقف على قدمٍ واحدة، ثمّ بدّل إلى القدم الأخرى. وأخيراً نادى ميك.

«هل تُصغين إلى الموسيقا؟»

أطفأت ميك المذياع.

1- ظهرت الأغنية في عام 1918 وأداها هنري بور. احتلت المرتبة الأولى في سباق أفضل مئة أغنية في الولايات المتحدة ذلك العام، وبيعت منها مليون نسخة آنذاك وهو رقم قياسي. (المترجمة)

«لا، لا يوجد أيّ شيء الليلة».

كل ما عليه فعله ليشغل باله عنها أن يركز على شيء آخر. انحنى فوق المنضدة، وراقب الزبائن الواحد تلو الآخر. وأخيراً استقر انتباهه على الأبكم على الطاولة الوسطى. ورأى ميك تقترب منه، وجلست بعد أن دعاها. أشار بيف إلى شيء على قائمة الطعام، وأحضرت النادلة لميك كوكاكولا. لن يطلب أحد من فتاة صغيرة أن تجلس على الطاولة التي يشرب عليها مع رجلٍ آخر سوى شخص مجنون كهذا الأبكم المنعزل عن الناس. أبقى كلٌ من بلاونت وميك عيونهما على سينغر. تحدثا وتغيرت معالم وجه الأبكم بينما راقبهما. كان الأمر مضحكاً. هل السبب هما أم هو؟ جلس سينغر ساكناً ويداه في جيبيه، ولأنّه لا يتكلم بدا كرئيس. ما الذي يفكر به مثل هذا الشخص؟ ما الذي كان يعلمه.

خلال الأمسية توجه بيف إلى الطاولة الوسطى مرتين، ولكنه انسحب بعيداً في كل مرّة. بعد أن غادروا تابع التفكير في أمر الأبكم، وعندما استيقظ باكراً في الفجر استلقى في سريره، وقلّب الأسئلة والأجوبة في رأسه، ولكن دون أن يكون راضياً عمّا وصل إليه. تملكه هذا اللغز، وأقلقه في صميم عقله، وخلّف وراءه شعوراً بعدم الراحة. هناك خطب ما في الأمر.

-3-

تحدث الطبيب كوبلاند إلى السيد سينغر مرّات عديدة، إنّه حقاً لا يشبه الرجال البيض الذين قابلهم في حياته. كان رجلاً حكيماً، ويفهم معنى المسعى الراسخ والحقيقي في الحياة بطريقة لا يشبهه بها أيّ رجل أبيض. إنّه يصغي، ويعكس وجهه لطفاً ومسحة يهودية - مسحة معرفة المرء أنّه ينتمي إلى عرقٍ مُضطهد. في إحدى المرات اصطحب الطبيب السيد سينغر معه خلال جولاته على المرضى. قاده عبر الطرق الباردة والضيقة التي تفوح برائحة القاذورات والمرض والدهن المقلي، وعرض عليه رقعة جلدية مزروعة بنجاح على وجه امرأة مصابة بحرقٍ شديد، وطفلاً مصاباً بالزهري كان قد عالجه، وأراه طفحاً مُتقشراً على راحة يد، وعيناً مصابة بالعمى وقواطع أمامية مائلة. زارا أكواخاً مؤلفة من غرفتين يعيش فيها جموع من الناس تتراوح بين الاثني عشر إلى أربعة عشر شخصاً. وفي غرفة حيث النار تخبو بلونٍ برتقالي في المدفأة شعرا بالعجز أمام رجل عجوز يختنق بذات الرئة. مشى السيد سينغر وراءه وراقب وفهم. أعطى لكل طفل عملة معدنية من فئة خمسة سنتات، وبسبب هدوئه ولطفه لم يُزعج المرضى كما كان ليفعل أيّ زائر آخر.

كان طقس تلك الأيام بارداً ومخادعاً، ووقعت في البلدة جائحة الإنفلونزا، ولهذا انشغل الطبيب كوبلاند معظم ساعات الليل والنهار. ذهب إلى ذلك الجزء من المدينة حيث يقطن الزنوج في سيارة الدودج العالية والتي يستخدمها منذ تسع سنين. قام بإلصاق الستائر بالنوافذ

ليمنع دخول تيارات الهواء، وأحكم شاله الصوفي الرمادي حول عنقه. خلال هذا الوقت لم يلتقِ ببورشيا أو ويليام أو هايبوي، ولكنه غالباً ما فكر بهم.

في إحدى المرات وأثناء جولاته أتت بورشيا لرؤيته، وتركت له ملاحظة تقول إنّها استعارت نصف كيس من دقيق الذرة.

وفي إحدى الليالي كان مُتعباً جداً لدرجة أنّه، ورغم وجود مرضى يتوجب عليه زيارتهم، شرب حليباً دافئاً، وخلد إلى النوم. وقتها شعر بالبرد وبالحمى ولم يكن قادراً على النوم في البداية. ثمّ عندما بدا وكأنّه أخذ يغطّ في النوم سمع صوتاً يناديه. نهض متبرماً وهو في قميص النوم. فتح الباب الأمامي وهناك وقفت بورشيا.

«فليكن يسوع في عوننا يا أبي»، قالت له.

وقف الطبيب مرتجفاً في قميص النوم الذي أحكمه حول خصره. رفع يده ووضعها على حنجرته ونظر إليها، وانتظر.

«يتعلق الأمر بويلي. لقد كان فتىً شقياً، وأوقع نفسه في ورطة كبيرة، ويجب أن نقوم بشيء حيال الأمر».

عبر الطبيب كوبلاند الردهة بخطوات قوية. توقف في غرفة النوم ليأخذ رداء الحمام وشاله وخفيه وعاد إلى المطبخ حيث انتظرته بورشيا. بدا المطبخ بارداً وبلا حياة.

«حسناً. ما الذي قام به؟ ما الأمر؟»

«انتظر قليلاً. دعني أجمع أفكاري، وأفكر بطريقة لأوضح لك الأمر».

مزّق بعض أوراق الجرائد بالقرب من المدفأة، والتقط بضعة أعواد ليشعلها.

«دعني أوقد النار عنك»، قالت بورشيا. «فلتجلس عند الطاولة، وحالما يُصبح الفرن ساخناً سأجهز فنجاناً من القهوة. قد لا يبدو الأمر سيئاً جداً إن شربت القهوة».

«انتهت القهوة البارحة».

عندما قال هذا انخرطت بورشيا في البكاء. وبكل عنف حشرت أوراقاً وخشباً في الموقد، وأشعلته بيدٍ مرتجفة.

«إليك الأمر»، قالت له. «كان ويلي وهايبوي يتسكعان الليلة في مكان ما لا عمل لهما فيه. تعلم أنني أريد دوماً أن يكون ويلي وهايبوي قريبين مني. حسناً، لو كنت هناك ما وقعت هذه المصيبة، ولكنني كنت في اجتماع السيدات في الكنيسة. اهتاج الصبيان، وذهبا إلى قصر مدام ريبا للتسلية، وأنت تعرف يا أبي أنّ هذا أمر سَيِّئ حتماً، فذلك المكان مكان شرير، ووصلا إلى رجل يبيع بطاقات الدخول. لديهم هناك زنجيات مغناجات وقذرات يهززن مؤخراتهن، ولديهم ستائر ساتانية حمراء و...»

«ابنتي»، قال الطبيب كوبلاند بانفعال، وضغط بيده على جانب رأسه. «أعرف المكان، فلتدخلي في الموضوع».

«كانت لاف جونز هناك، وهي فتاة سوداء سيئة السمعة. احتسى ويلي الكحول، وأخذ يحوم حولها إلى أن دخل في شجار. تشاجر مع ذلك الفتى المدعو جونباغ من أجل الفتاة لاف، وتعاركا لبعض الوقت بأيديهما ثمّ أخرج جونباغ سكينه. لم يكن لدى ويلي سكين لذلك صرخ عالياً وبغضب، وأخذ يبحث عن أي شيء يقاتل به في الردهة. أخيراً عثر هايبوي على شفرة حلاقة وأعطاها إلى ويلي الذي كاد يقطع رأس جونباغ بها».

شدّ الطبيب كوبلاند شاله حوله.

«هل مات؟»

«الفتى شرير جداً ولا يموت بسهولة. إنّه في المستشفى، ولكنه سيخرج، ولن يطول الوقت حتى يعود إلى إثارة المتاعب مرّة أخرى».

«وويليام؟»

حضرت الشرطة، وأخذته إلى السجن في منطقة بلاك ماريا، وهو ما زال مسجوناً.

«هل تعرض للأذى؟»

«أجل، لقد أصيب في عينه، وخسر بعضاً من لحم مؤخرته، ولكن الأمر لا يزعجه. أمّا الشيء الذي لا أستطيع فهمه فهو كيف أنّه عبث مع تلك الفتاة المدعوة لاف. إن بشرتها أكثر سواداً من بشرتي بعشر مرّات، وأبشع من أيّة زنجية رأيتها في حياتي. تمشي وكأنّ هناك بيضة بين ساقيها تحاول ألا تكسرها. إنّها ليست نظيفة، وها هو ويلي قد ورط نفسه في المتاعب في أجلها».

انحنى الطبيب قريباً من الموقد وتأوه. أخذ يسعل وتصلّب وجهه. ثمّ رفع منديله الورقي نحو فمه الذي تبّقع بالدم. امتقعت بشرة وجهه الغامقة بلونٍ مائل إلى الخضرة.

«بالطبع أتى هايبوي وأخبرني سريعاً بكل ما حدث. هل تفهم؟ لا شأن لهايبوي مع تلك الفتيات السيئات. كان فقط برفقة ويليام وهو حزين جداً على ويلي، ويجلس على رصيف الشارع أمام السجن منذئذ». ترقرقت الدموع الحارة على وجه بورشيا. «أنت لا تعلم كيف كنا نحن الثلاثة. كان لدينا خططنا وكل شيء يجرى على ما يرام، حتى المال لم يكن مصدر قلق لنا. يدفع هايبوي الإيجار، وأنا أشتري الطعام، وتكفل ويلي بليالي السبت. لطالما كُنا كالتوأم الثلاثي».

حلّ الصباح أخيراً، وانطلقت صفارات المحالج تدعو العمال إلى أول نوبة عمل. أشرقت الشمس، وأضاءت صحون الفناجين النظيفة والمعلقة على الحائط فوق الموقد. جلسا لوقتٍ طويل. شدّت بورشيا كثيراً على أقراط أذنيها حتى احمرّت شحمتاهما، وأصبح لونهما ضارباً إلى الأرجواني، بينما دفن الطبيب كوبلاند رأسه بين يديه.

«يخيل إليّ»، قالت بورشيا أخيراً، «إن استطعنا أن نحث الكثير من البيض إلى كتابة رسائل عن ويلي فقد يكون الأمر مفيداً. ذهبت إلى السيد برانن وكتب لي ما طلبته تماماً. كان في مطعمه كما هي عادته كل ليلة، ولهذا ذهبت إلى هناك وشرحت له الأمر. سآخذ الرسالة معي إلى المنزل، وقد وضعتها في الإنجيل حتى لا أضيعها أو تتسخ».

«ما الذي جاء في الرسالة؟»

«كتب السيد برانن ما طلبته، وقال في رسالته إن ويلي يعمل لدى السيد برانن منذ ثلاثة أعوام، وأنّه فتى ملون جيد وكفؤ، وأنّه لم يتورط في أية متاعب قبلاً، وأنّه رغم الفرص العديدة التي أتيحت له ليسرق من المطعم كأيّ فتى ملون آخر وكيف...».

«تباً! لا فائدة من هذا». قال الطبيب كوبلاند.

«لا يمكننا الجلوس والانتظار وويلي مسجون. أخي ويلي فتى لطيف حتى وإن اقترف أمراً سيئاً الليلة. لا يمكننا الجلوس والانتظار».

«علينا أن نفعل هذا. هذا الشيء الوحيد الذي يمكننا القيام به».

«حسناً، أعلم أنني لن أقوم بهذا».

نهضت بورشيا عن الكرسي. تحركت عيناها بارتباك في أرجاء الغرفة، وكأنّها تبحث عن شيء ما، ثمّ توجهت فجأة نحو الباب الأمامي.

«انتظري قليلاً»، قال الطبيب كوبلاند. «إلى أين تنوين الذهاب الآن؟»

«يجب أن أذهب إلى العمل، لا يمكنني أن أغيب. يجب أن أبقى مع السيدة كيلي وأحصل على راتبي كل أسبوع».

«أريد الذهاب إلى السجن»، قال الطبيب كوبلاند. «لربما أتمكن من رؤية ويليام».

«سأرافقك إلى السجن في طريقي إلى العمل. يجب أن يذهب هايبوي إلى عمله أيضاً، أو سيجلس طوال الصباح حزيناً على ويلي».

ارتدى الطبيب كوبلاند ثيابه على عجل، وانضم إلى بورشيا التي كانت تنتظره في الردهة، وخرجا في هذا الصباح الخريفي الأزرق والبارد. كان الرجال في السجن وقحين معهما، ولم يعرفا سوى القليل عمّا جرى. ذهب بعدها الطبيب كوبلاند ليستشير مُحامياً تعامل معه مُسبقاً. كانت الأيام التالية طويلة، وتضج بالأفكار القلقة. حددوا محاكمة ويليام بعد ثلاثة أسابيع وأدين بالاعتداء باستخدام سلاح مميت، وحُكم

عليه بالأعمال الشاقة لتسعة أشهر، وأرسل إلى السجن فوراً في القسم الشمالي من الولاية.

مازال الطبيب كوبلاند يؤمن بالمسعى الراسخ والحقيقي فيه حتى الآن، ولكنه لم يملك الوقت ليُفكر به، وانتقل من بيت إلى آخر ولكن يبدو أنّ العمل لا نهاية له. انطلق في الصباح الباكر بسيارته للقيام بالجولات، وفي الساعة الحادية عشر تدفق المرضى إلى مكتبه. تسرب هواء خريفي وقارس، وغزت المنزل رائحة حارة وعفنة ولهذا أخذ يسعل. امتلأت المقاعد في الردهة بالمرضى الزنوج المنتظرين، واكتظت الشرفة وغرفة نومه بهم أحياناً. كان هناك عمل طوال النهار وأحياناً حتى منتصف الليل. وبسبب التعب الذي كان شعر به أراد التمدد على الأرض والضرب بقبضتيه والبكاء. إن تمكن من أخذ قسط من الراحة فسيكون على ما يرام. كان يعاني من السل، ويقيس حرارته أربع مرّات يومياً، ويجري صورة أشعة مرة شهرياً. ولكنه لم يتمكن من أخذ قسط من الراحة لأنّ هناك ما هو أكبر من التعب وهو هذا المسعى الراسخ والحقيقي.

يُفكر بهذا المسعى أحياناً، وبعد يوم وليلة طويلين من العمل يشعر بالفراغ، وينسى لبعض الوقت ما كان هذا المسعى، ويستعيده مجدداً، ويغدو قلقاً وتواقاً للقيام بمهام جديدة، ولكن غالباً ما تعلق الكلمات في فمه، ويغدو صوته خشناً ومنخفضاً كما كان قبلاً. كان يدفع بالكلمات من فمه إلى وجوه المرضى الزنوج من أهله.

غالباً ما تحدث إلى السيد سينغر عن الكيمياء ومعضلة الكون ومخزون المني اللامحدود والثديين والبيوض الناضجة، وعن الانقسامات المعقدة والتي تقدر بالملايين للخلايا، وعن لغز المادة الحيّة وسهولة الموت، وتحدث معه عن المسألة العرقية.

«أُحضر شعبي إلى هنا من البوادي العظيمة والأدغال الخضراء الكثيفة»، قال للسيد سينغر في أحد المرات. «وخلال سلسلة طويلة من الرحلات إلى شاطئ هذا البلد مات الآلاف، ولم ينجُ سوى الأقوياء.

كانوا مكبلين في سفنٍ قذرة أحضرتهم إلى هنا وماتوا مجدداً، ولم ينجُ سوى الزنوج الجسورين أصحاب الإرادة. تعرضوا إلى الضرب والتكبيل بالسلاسل، وتم بيعهم في الشوارع، ومات الأضعف من بين هؤلاء الأقوياء مجدداً. وأخيراً وعبر السنوات المُرّة ما يزال الأقوى من شعبي هنا بأولادهم وبناتهم وأحفادهم وأولاد أحفادهم».

***

«أتيت لاستعارة شيء ولأطلب معروفاً»، قالت بورشيا.

كان الطبيب كوبلاند وحده في المطبخ عندما دخلت عبر الردهة ووقفت في الممر لتخبره بشيء. وها قد مرّ أسبوعان على دخول ويليام إلى السجن، وتغيرت بورشيا خلالهما، فلم يعد شعرها ممسداً بالزيت وممشطاً كما كان بالعادة، وبدت عيناها محتقنتين بالدم، وكأنّها تشرب الكحول، وخداها غائران. كانت بلون وجهها العسلي الحزين تشبه أمّها حقاً.

«أريد الصحون والفناجين البيضاء الجميلة».

«يمكنك أن تأخذيها، وتحتفظي بها».

«لا، أريد أن أستعيرها فقط. أتيت إلى هنا لأطلب معروفاً أيضاً».

«أي شيء ترغبين به»، قال الطبيب كوبلاند.

جلست بورشيا على الطاولة قبالة والدها.

«حسناً في البداية أعتقد أنّه من الأفضل شرح الأمر. أبي لدي رسالة من جدي ويقول فيها إنّهم قادمون غداً، وسيقضون الليلة وجزءاً من نهار الأحد معنا. إنهم قلقون جداً حيال ويلي، ويشعر جدي أنّه علينا أن نجتمع سوياً مجدداً. إنّه على حق. أريد حقاً أن أرى أنسباءنا مجدداً. أشعر بحنين شديد منذ رحيل ويلي».

«يمكنك أن تأخذي الصحون وأي شيء آخر تريدينه من هنا»، قال الطبيب كوبلاند. «ولكن لتشدي كتفيك يا ابنتي، فأنت تقفين بوضعية سيئة».

«سيكون لمّ شمل حقيقياً. أنت تعلم أنّها المرة الأولى التي سيقضي فيها جدي الليل في البلدة منذ عشرين عاماً، فهو لم ينم خارج منزله طوال حياته سوى مرتين، ويغدو متوتراً بعض الشيء ليلاً. فهو ينهض طوال الليل ليشرب الماء، ويتفقد إن كان الأطفال مُتغطين جيداً. أشعر ببعض القلق على جدي، ولا أعرف إن كان سيشعر بالراحة هنا».

«أي شيء أملكه وتعتقدين أنّك ستحتاجينه...»

«بالطبع سيحضرهم لي جاكسون»، قالت بورشيا. «وإن كان لي جاكسون من سيحضرهم سيتطلب وصولهم إلى هنا نهاراً كاملاً. لا أتوقع وصولهم حتى وقت العشاء. سيكون جدي صبوراً جداً مع لي جاكسون كعادته، ولن يدفعه إلى الاستعجال».

«يا إلهي؟ أما يزال ذلك البغل حياً؟ لا بدّ وأنّ عمره ثمانية عشر عاماً».

«إنّه أكبر عمراً، وجدي يستخدمه للعمل منذ عشرين عاماً. امتلك جدي هذا البغل منذ وقت طويل، وكان يقول دوماً أنّه يشعر بوجود صلة دم بينهما. إنّه يفهم ويحب لي جاكسون كما يفهم ويحب أحفاده. لم أرَ إنساناً يفهم تماماً ما يفكر به أيّ حيوان كجدي الذي تربطه مشاعر قوية مع كل كائن يمشي ويأكل».

«عشرون عاماً وقت طويل لبغل».

«حتماً... أصبح لي جاكسون ضعيفاً حقاً الآن، ولكن جدي يعتني به عناية جيدة. عندما يستخدمه للفلاحة تحت الشمس الحارقة يضع جدي على رأسه قبعة قش كبيرة كالتي يرتديها، ولكن مع ثقوب مكان الأذنين. إن قبعة البغل مثار ضحك حقاً، ولا يقبل لي جاكسون أن يذهب للفلاحة من دون تلك القبعة على رأسه».

أخذ الطبيب كوبلاند الأطباق الخزفية البيضاء من على الرف، وبدأ يلفها بورق الجرائد.

«هل لديك ما يكفي من الطناجر والمقالي لطبخ الطعام؟»

«الكثير»، قالت بورشيا. «لن أطبخ شيئاً خاصاً، فجدي رجل كريم، ويُحضر معه دوماً شيئاً عندما تجتمع العائلة على العشاء. سأحرص على صنع الكثير من عصيدة الذرة والملفوف، وسأطبخ باوندين من سمك البوري».

«هذا جيد».

بسطت بورشيا أصابعها الصفراء المتوترة.

«هناك أمر آخر لم أخبرك عنه بعد. إنّها مفاجأة. سيحضر بادي وهاملتون أيضاً. لم يمضِ وقت طويل على عودة بادي من موبيل[1]، وهو يعمل الآن في المزرعة».

«مرت خمسة أعوام على آخر مرة رأيت فيها كارل ماركس».

«وهذا هو المعروف الذي أتيت لأطلبه منك»، قالت بورشيا. «أتتذكر عندما دخلت وأخبرك أنني أريد استعارة شيء، وطلب معروف».

طقطق الطبيب كوبلاند مفاصل أصابعه. «أجل».

«حسناً. أتيت لأعرف إن كنت ستحضر لمّ الشمل غداً. سيكون كل أولادك هناك باستثناء ويلي. أعتقد أنّه عليك أن تنضم إلينا. أنا متأكدة أنك ستكون سعيداً إن حضرت».

هاملتون وكارل ماركس وبورشيا وويليام.

خلع الطبيب كوبلاند نظاراته، وضغط بأصابعه على جفنيه. ولبعض الوقت رآهم بشكل واضح جداً بالصورة التي كانوا عليها منذ زمنٍ طويل. ثمّ رفع نظره، وعدّل نظارته على أنفه وقال:

«شكراً لكِ، سآتي».

ليلاً جلس وحده قرب الموقد في الغرفة المظلمة مُسترجعاً بذاكرته الماضي. عاد بذكرياته إلى طفولته. لقد ولدت أمّه كعبدة وبعد أن تحررت عملت كغاسلة ثياب. كان والده مُبشراً معروفاً باسم جون براون. علموه

1- مدينة في ولاية آلاباما (المترجمة)

وادخر والداه دولارين إلى ثلاثة دولارات من النقود التي كانا يكسبانها كل أسبوع من أجله. عندما بلغ السابعة عشرة من العمر أرسلوه إلى الشمال مع ثمانين دولاراً خبأها في حذائه. عمل كحداد وكنادل وخادم في فندق. وكان طوال هذا الوقت يدرس ويقرأ ويذهب إلى المدرسة. توفي والده ولم تُعمر والدته بعده، وبعد عشر سنوات من الصراع أصبح طبيباً وعرف مهمته وعاد إلى الجنوب مجدداً.

تزوج وأسس منزلاً، وذهب من منزل إلى منزل إلى ما لا نهاية، وتحدث عن مسعاه الثابت في الحياة. أثار اليائسون من شعبه جنونه وشعوراً عاصفاً وشريراً بالدمار في داخله. كان يشرب كحولاً قوياً في بعض الأوقات، ويضرب رأسه بالجدار. هناك في قلبه عنف وحشي ففي إحدى المرات أمسك قضيب تحريك النار عند الموقد، وضرب به زوجته. أخذت زوجته هاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا معها إلى منزل والدها. صارع في روحه وحارب السواد الشرير فيه، ولكن ديزي لم تعد إليه، وبعد ثماني سنوات توفيت وأبناؤه لم يعودوا أطفالاً، ولم يعودوا إليه. تُرك لوحده رجلاً عجوزاً في منزل فارغ.

في الساعة الخامسة تماماً من بعد ظهر اليوم التالي وصل إلى المنزل حيث تعيش بورشيا وهايبوي. كانا يسكنان في ذلك الجزء من المدينة يدعى شوغر هيل. إنّ المنزل أشبه بكوخ ضيق مع شرفة أمامية وغرفتين. تناهت من الداخل غمغمة أصواتٍ متداخلة. تقدم الطبيب كوبلاند بثبات، ووقف في الممر يحمل قبعته الرثة في يده.

اكتظت الغرفة بالناس، ولم يلحظه أحد في البداية. بحث عن وجه كارل ماركس وهاملتون. بالإضافة إليهما كان هناك الجد وطفلان جلسا على الأرض. كان ما يزال ينظر في وجهي ولديه عندما رأته بورشيا يقف عند الباب.

«أتى أبي»، قالت بورشيا.

توقفت الأصوات، والتفت الجد من على كرسيه إلى الخلف. كان

نحيلاً بظهر محني ومليئاً بالتجاعيد. يرتدي البذلة ذاتها السوداء الضاربة إلى الرمادي التي اعتاد ارتداءها منذ ثلاثين عاماً قبل زفاف ابنته، وعلى صدار البذلة تدلّت سلسلة ساعة نحاسية قذرة. نظر كل من كارل ماركس وهاملتون إلى بعضهما، ثمّ نظرا أرضاً وأخيراً انتقلا ببصرهما إلى والدهما.

«بينديكت مادي...». قال الرجل العجوز. «مضى وقت طويل. وقت طويل حقاً».

«صحيح!» قالت بورشيا. «هذا أول لمّ شملٍ لنا جميعاً منذ أعوام. فلتحضر كرسياً من المطبخ يا هايبوي. أبي ها هو بادي وهاملتون».

صافح الطبيب كوبلاند أيدي ولديه. كانا رجلين طويلين وقويين وصعبي المراس، وتحت قميصيهما الأزرقين والأردية السروالية لاحت بشرتهما بلون عسلي غني كلون بشرة بورشيا. لم ينظرا في عينيه، ولم تشِ نظرة عيونهما بحُبٍ أو كُره.

«من المؤسف ألا يتمكن الجميع من القدوم. العمة سارة والعم جيك والبقية»، قال هايبوي. «ولكن شرفنا كل من أتى اليوم».

«كانت العربة مكتظة جداً»، قال أحد الأطفال. «اضطررنا إلى المشي بسبب هذا».

حكّ الجد أذنه بعود ثقاب وقال، «يجب أن يبقى أحدهم في المنزل».

لعقت بورشيا شفتيها الداكنتين الرقيقتين وقالت، «أفكر بويلي. لطالما أحبّ هذه التجمعات، أو أي نوع من النشاطات، لا يمكنني التوقف عن التفكير به».

سرت في أرجاء الغرفة غمغمة تنّم عن الموافقة على ما قالته بورشيا.

أراح الرجل العجوز ظهره على الكرسي، وهزّ رأسه إلى الأمام والخلف. «عزيزتي بورشيا. هلّا قرأت لنا قليلاً. إن كلمات الرب ذات عون كبير في الأوقات العصيبة».

تناولت بورشيا الإنجيل عن الطاولة في وسط الغرفة.

«ما الجزء الذي تريد سماعه يا جدي؟»

«إنّه كتاب الرب، أيّ جزء يقع نظرك عليه سيكون مناسباً».

قرأت بورشيا من فصل لوقا. قرأت ببطء وهي تتابع الكلمات بإصبعها الطويلة والنحيلة. كانت الغرفة هادئة، وقد جلس الطبيب كوبلاند عند طرف المجموعة يطقطق مفاصله، وعيناه تنتقلان عبر الغرفة من نقطة إلى أخرى. كانت الغرفة صغيرة جداً والهواء عابق وخانق، أمّا الجدران الأربعة فكانت مكتظة بالتقاويم وإعلانات مجلات ملونة. هناك مزهرية من الورود الحمراء على رف المستوقد. كانت النار في المدفأة هادئة، وألقى الضوء المتراقص من المصباح الزيتي ظلالاً على الجدار. قرأت بورشيا بإيقاعٍ بطيء لدرجة أنّ الكلمات نامت في أذني الطبيب كوبلاند، وشعر بالنعاس. استرخى كارل ماركس في جلسته على الأرض بالقرب من الأطفال، وغالب النعاس كل من هامتلون وهايبوي. ولم يُصغِ إلى الكلمات ويركز في معناها سوى الرجل العجوز.

انتهت بورشيا من قراءة الفصل، وأغلقت الكتاب.

«فكرت في هذا الأمر كثيراً»، قال الجد.

صحا جميع الحاضرين من نومهم.

«ماذا؟» قالت بورشيا.

«أعني أنكم تطلقون عليه الأجزاء التي تتحدث عن المسيح الذي أحيا الموتى وشفى المرضى؟»

«بالطبع نفعل هذا يا سيدي»، قال هايبوي باحترام.

«في أحيانٍ كثيرة عندما أفلح الأرض أو أعمل»، قال الجد بهدوء. «أفكر وأحسب الوقت حتى قدوم المسيح إلى هذه الأرض مرة ثانية. ولأنني أريد حصول الأمر بشدة أعتقد أنّ الأمر سيحدث خلال حياتي. فكرت بالأمر كثيراً، وإليكم الطريقة التي خططت فيها للقائي به. فكرت بأنني سأقف أمام المسيح مع كل أولادي وأحفادي وأولاد أحفادي وأقربائي وأصدقائي وأقول له: «أيها المسيح، نحن الأناس الملونون

تُعساء». وعندها سيضع يده المقدسة على رؤوسنا، وسنغدو على الفور بيضاً كالقطن. هذه هي الأفكار والخطط التي عششت في قلبي كثيراً».

ساد الصمت في أرجاء الغرفة. لعب الطبيب كوبلاند بزر قميصه عند نهاية الكمين، وتنحنح لينظف حنجرته. تسارع نبض قلبه جداً، وانقبضت حنجرته بإحكام. جلس في زاوية الغرفة، وشعر بالعزلة والغضب لوحده.

«هل رأى أحدكم أيّة إشارات سماوية؟» سأل الجد.

«أنا رأيت يا جدي»، قال هايبوي. «في إحدى المرات عندما كنت مصاباً بذات الرئة رأيت وجه الله يخرج من الموقد باتجاهي. كان وجه رجل أبيض كبير بلحية بيضاء وعينين زرقاوين».

«رأيت شبحاً»، قالت طفلة من بين الأطفال الموجودين.

«رأيت في إحدى المرات...». قال أحد الفتية الصغار.

رفع الجد يده وقال: «فلتصمتوا يا أطفال. أنت يا سيليا وأنتَ يا ويتمن - إنّه وقت الإصغاء وليس التحدث. لم أرَ إشارة حقيقية سوى مرّة واحدة، وإليكم قصة رؤيتي لها. حدث الأمر في الصيف الماضي. كان الطقس حاراً، وكنت أحفر حول جذور جذع شجرة بلوط كبيرة بالقرب من حظيرة الخنازير وعندما انحنيت للأسفل انتابتني رعشة مفاجئة في أسفل ظهري. عدّلت من وقفتي، وكان كل شيء مظلماً حولي. كنت أضع يدي على ظهري، وأنظر إلى السماء عندما رأيت فجأة ملاكاً صغيراً. كان ملاكاً على هيئة فتاة بيضاء صغيرة بشعرٍ أشقر وفي رداءٍ أبيض، وتطير في السماء بالقرب من الشمس. وبعد أن عُدت إلى المنزل، وصلّيت قرأت في الإنجيل وبعد ثلاثة أيام عدت إلى الحقل مجدداً».

شعر الطبيب كوبلاند بذلك الغضب الشرير فيه يصعد مجدداً. صعدت الكلمات غير المكتملة عبر حنجرته، ولكن لم يستطع النطق بها. كان الجميع يصغي إلى الرجل العجوز، ولن يلقوا بالاً إلى أيّ حديث منطقي. هؤلاء الناس هم شعبي. هذا ما حاول أن يقنع نفسه به، ولأنه أصيب بالبكم لم تساعده هذه الفكرة، ولذلك جلس متوتراً ومتجهماً.

«إنّه لأمر غريب»، قال الجد. «أنت طبيب جيد يا بينديكت مادي. لمَ أصاب بهذه الأوجاع في أسفل ظهري أحياناً عندما أحفر أو أزرع لوقتٍ طويل؟ لم تزعجني هذه الأوجاع؟»

«كم عمرك الآن؟» سأل الطبيب كوبلاند.

«بين السبعين والثمانين».

كان الرجل العجوز مغرماً بالطب والعلاجات. عندما كان يأتي مع عائلته لزيارة ديزي كان يفحص نفسه، ويعود إلى منزله مع أدوية ومراهم لجميع أهل بيته، ولكن عندما تركت ديزي منزل زوجها لم يعد يأتي واكتفى بالمطهرات والحبوب التي تظهر في إعلانات الجرائد. كان الرجل العجوز ينظر إلى الطبيب كوبلاند بتوقٍ خجل.

«اشرب الكثير من الماء»، قال الطبيب كوبلاند. «ولتسترح قدر الإمكان».

توجهت بورشيا إلى المطبخ لتحضر العشاء، وبدأت تعبق في الغرفة روائح دافئة. جرى حديث هادئ وفارغ، ولكن لم يصغِ إليه الطبيب كوبلاند. نظر بين الحين والآخر إلى كارل ماركس وهاملتون. تحدث كارل ماركس مع جو لويس، بينما تحدث هاملتون عن عاصفة البَرد التي دمرت جزءاً من المحصول. عندما التقت عيناهما بعيني والدهما عبسا، وعدلا من وضعية أقدامهما على الأرض. تابع الطبيب كوبلاند التحديق بهما ببؤس وغضب.

صرّ الطبيب كوبلاند على أسنانه، وفكر مطولاً بأمر هاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا والمسعى الثابت والصادق في الحياة الذي فكر به لهم إلى درجة أنّ النظر إلى وجوههم الآن بعث فيه شعوراً أسود ومضمراً. لو استطاع أخبارهم بهذا الشعور لمرة واحدة منذ بداية شعوره به وحتى هذه الليلة، فسيخفف هذا البوح الألم المُبرح القابع في قلبه، ولكنهم لن يصغوا أو يفهموا.

انكمش على نفسه إلى درجة أنّ كل عضلة في جسده تصلبت وتوترت.

لم يُصغِ أو ينظر إلى ما حوله. جلس في الزاوية كرجلٍ أعمى وأبكم. انتقلوا إلى طاولة العشاء وتلا الرجل العجوز صلاة شكر قبل تناول الطعام. لم يأكل الطبيب كوبلاند. عندما أحضر هايبوي زجاجة من الجن، ضحكوا ومرروها من فم إلى آخر، ولكن الطبيب كوبلاند رفض أن يشرب. جلس في صمتٍ مطبقٍ، وأخيراً تناول قبعته، وترك المنزل دون أن يودع أحداً. فحتى لو تمكن من قول الحقيقة الصريحة لم تكن الكلمات لتسعفه.

استلقى على السرير طوال الليل صاحياً ومتوتراً. كان اليوم التالي يوم الأحد، وقام ببعض زيارات للمرضى، وفي منتصف الصباح توجه إلى غرفة السيد سينغر. هدّأت هذه الزيارة من مشاعر الوحدة التي تعتمل فيه إلى درجة أنّه عندما ودع السيد سينغر استعاد شعور السلام في داخله مرة أخرى.

بأي حال وقبل أن يخرج من المنزل غادره هذا الشعور بالسلام عندما تعرض إلى ذلك الحدث. حدق أسفل الدرج الذي سينزله، ورأى رجلاً أبيض يحمل كيساً ورقياً كبيراً. اقترب من الدرابزين حتى يتمكن كل منهما من المرور، ولكن كان الرجل الأبيض يصعد الدرج درجتين في كل خطوة، ودون أن ينظر اصطدم الرجلان بقوة تركت الطبيب مع شعور بالغثيان وبأنفاسٍ متقطعة.

«يا يسوع، لم أرك».

نظر الطبيب كوبلاند إليه بعناية ولم يُجب. كان قد رأى هذا الرجل الأبيض قبلاً. تذكر الجسد الضئيل وفظ الشكل وتلك اليدين الكبيرتين والخرقاوين. ثمّ وبنظرة طبيب راقب وجه الرجل، ورأى في عينيه نظرة غريبة وجامدة، نظرة من انطوى على نفسه، نظرة جنون.

«آسف»، قال الرجل الأبيض.

وضع الطبيب كوبلاند يده على الدرابزين، وتابع نزول الدرج.

-4-

«من كان هذا الشخص؟» سأل جيك بلاونت. «من كان ذلك الرجل الملون والطويل الذي خرج للتو؟»

كانت الغرفة الصغيرة مرتبة جداً، وألقت الشمس بضوئها على صحن العنب القرمزي على الطاولة. جلس سينغر، وقد أرجع كرسيه إلى الوراء ويداه في جيبيه ينظر من النافذة.

«اصطدمت به على الدرج، ونظر إلي نظرة... لم ينظر إلي أحد بتلك النظرة القذرة جداً».

وضع جيك كيس زجاجات الجعة على الطاولة، وأدرك بشكل صادم أنّ سينغر لم ينتبه إلى وجوده في الغرفة. توجه بلاونت إلى النافذة، ولمس سينغر على كتفه.

«لم أقصد أن أصطدم به، ولم يكن هناك من داعٍ ليتصرف معي بتلك الطريقة».

ارتجف جيك فقد كانت الغرفة باردة رغم أنّ الشمس ساطعة في الخارج. رفع سينغر سبابته، وتوجه إلى الردهة، ثمّ عاد ومعه دلو من الفحم وأعواد خشبية ليوقد المدفأة. راقبه جيك يركع أمام المدفأة، ويكسر الأعواد على ركبته، ويرتبها فوق قطع ورق. كان سينغر يضع الفحم وفق ترتيب معين. لم تشتعل النار في البداية، واهتزت ألسنة اللهب بضعف، وخنقتها سحابة دخانية سوداء. غطى سينغر الحاجز المعدني أمام المدفأة بجريدتين، وبثّ الهواء في النار حياةً جديدة. كان

هناك في الغرفة صوتٌ أشبه بالزئير. اشتعل الورق، وبدأ يذوب، وأضاء الحاجز المعدني بصفحة من النيران البرتقالية المُفرقعة.

كان طعم أول زجاجة جعة في الصباح خفيفاً ولذيذاً. تجرّع جيك حصته بسرعة، ومسح فمه بظاهر كفه.

«كنت أعرف سيدة من وقتٍ طويل»، قال جيك. «وأنت تذكرني بها، تدعى الآنسة كلارا. كان لديها مزرعة صغيرة في تكساس، وتصنع نوعاً من الحلويات المعجونة بالفواكه المجففة والمكسرات، وتبيعها في المدينة. إنّها سيدة طويلة وضخمة وحسنة المظهر. ترتدي سترات فضفاضة وحذاءً ريفياً وقبعة رجل. عندما تعرفت عليها كانت زوجها متوفياً، وقد أتيت على ذكرها لأنني لو لم أتعرف عليها لم أكن لأعرف الحقيقة، ولكنت أكملت حياتي كالملايين غيري ممن لا يعرفون. ربما كنت أصبحت مُبشراً أو عاملاً في محلج قطن أو رجل مبيعات، وضيعت حياتي كلها».

هزّ جيك رأسه متعجباً.

«لكي تفهم يجب أن تعرف ما حدث سابقاً. فكما ترى عشت في كاستونيا عندما كنت صغيراً. كنت قزماً بقدمين ملتويتين، وببنية ضئيلة جداً لا تسمح لي بالعمل في محلج. عملت كصبي في صالة بولينغ، كنت أقوم بترتيب الأوتاد في آخر ممر البولينغ، وأحصل على وجبات الطعام كأجر، ثمّ سمعت في إحدى المرات أنّ أيّ فتى ذكي وسريع يمكنه أن يجني ثلاثين سنت في اليوم بربط وترتيب أوراق التبغ في مكان ليس بالبعيد عن المكان الذي كنت فيه. وهكذا توجهت إلى هناك، وجنيت ثلاثين سنتاً في الساعة. حدث هذا عندما كنت بعمر العاشرة. تخلّت عني عائلتي ولم أكتب لهم، فقد كانوا سعداء لأنني رحلت. أنت تفهم كيف هي هذه الأمور. علاوة على هذا لم يكن أحد منهم يجيد القراءة سوى أختي».

لوح بيده في الهواء وكأنّه يهشّ شيئاً ما عن وجهه.

«أنا أعني ما أقوله. إنّ إيماني الأول بالمسيح، هناك رجل يعمل في المكان ذاته الذي أعمل فيه، ويملك خيمة تقوم مقام الهيكل يعظ فيها كل يوم. ذهبت وأصغيت إليه واعتنقت إيمانه. كنت أفكر بالمسيح طوال الوقت، ودرست الإنجيل في أوقات فراغي وصلّيت. وفي إحدى الليالي أخذت مطرقة وبدأت أدقّ يدي على الطاولة. كنت غاضباً وطرقت المسمار حتى نهايته، كانت يدي مثبتة بالمسمار إلى الطاولة، نظرت إليها وبدأت أصابعي ترتعش وتزرق.

رفع جيك يده، وأشار إلى الندبة البيضاء المشوهة في الوسط».

«أردت أن أكون مُبشراً. أعني أن أسافر في البلد، وأعظ، وأقيم اجتماعات دينية. خلال هذا الوقت انتقلت من مكان إلى آخر وعندما كدت أبلغ العشرين من عمري وصلت إلى تكساس. عملت في بستان جوز البقان وقريباً من المكان التي عاشت فيه الآنسة كلارا. تعرفت عليها، وكنت أحياناً أزورها في منزلها ليلاً. تحدثت معي، ولم أفهم كل شيء دفعة واحدة كما ترى. فهذه ليست الطريقة التي تجري فيها الأمور مع أيّ أحدٍ منا. تحدث الأمور بالتدريج. بدأت القراءة، وكنت أعمل فقط لأوفر المال، وأخصص بعض الوقت للدراسة. كان الأمر أشبه بولادة ثانية. فقط من يشبهونا يمكنهم أن يفهموا ما الذي يعنيه هذا؛ أن نفتح عيوننا ونرى. إننا أشبه بأناسٍ قادمين من مكان ما بعيد جداً».

وافقه سينغر. كانت الغرفة مريحة وكأنّها منزل. أخرج سينغر من الخزانة علبة معدنية تحوي على بسكويت مملح وفواكه وجبنة، انتقى برتقالة وأخذ يُقشرها على مهل. انتزع القشور عن البرتقالة إلى أن أصبحت شفافة في ضوء الشمس، قسّم البرتقالة ووزعها بينهما. تناول جيك قطعتين في وقتٍ واحد وبصوتٍ عالٍ بصق البذور نحو النار. تناول سينغر حصته ببطء، ووضع البذور بكل ترتيب في باطن يده، ثمّ فتحا علبتي جعة.

ما عدد الذين يشبهوننا في هذا البلد؟ ربما عشرة آلاف شخص، ربما

عشرون ألف شخص. ربما أكثر من هذا. لقد زرت أماكن عديدة، ولكن لم ألتقِ سوى بعدد قليل ممن يشبهوننا، ولكن أقول لك أنّ الإنسان يعرف. ينظر إلى العالم كما كان، ويعود بتفكيره آلاف السنين ليفهم كيف وصل إلى الوضع الحالي. يراقب التجمع البطيء لرأس المال والسلطة والذي يشهد ذروته في اللحظة الراهنة. يرى أمريكا كمنزل مجانين، ويراقب كيف يقوم الرجال بالسرقة من إخوتهم لكي يعيشوا. يرى الأطفال وهم يتضورون جوعاً والنساء يعملن لستين ساعة من أجل لقمة العيش. يرى الجيش الكبير من العاطلين عن العمل ومليارات الدولارات وآلاف الأميال من الأراضي البور. يرى الحرب في الأفق، وكيف يعاني الناس كثيراً إلى درجة يصبحون معها خسيسين وقبيحين، ويموت شيء ما في داخلهم. ولكن أهمّ شيء يراه كيف أنّ منظومة العالم بأكملها مبنية على كذبة. وعلى الرغم من أنّ الكذبة واضحة كالشمس، يعيش غير العارفين مع هذه الكذبة طويلاً دون أن يروها.

انتفخ الوريد في جبهة جيك بشدة. أمسك دلو الفحم عند المدفأة، وأفرغه في النار. شعر بخدرٍ في قدمه، وأخذ يطأ عليها بصعوبة جعلت الأرضية تهتز.

«زرت كل الأماكن هنا. تجولت، وتحدثت، وحاولت أن أشرح لهم. ولكن أيّ نفع قد يأتي من هذا؟ الله وحده يعرف!»

حدّق في النار، وجعلت حرارة اللهب والمشروب لون وجهه أغمق. انتشر الخدر في كامل رجله. غفا قليلاً، ورأى ألوان النار في تدرجات من الأخضر والأزرق والأصفر الملتهب.

«أنت الشخص الوحيد»، قال جيك بشكلٍ حالم. «الشخص الوحيد».

لم يعد جيك غريباً فهو الآن يعرف كل شارع وكل زقاق وكل سياج على امتداد الأحياء الفقيرة في البلدة، وما زال يعمل في ساني ديكسي. انتقل المعرض في الخريف من ساحة إلى ساحة، ولكنه بقي دوماً على أطراف حدود المدينة إلى أن غطى كل أجزاء المدينة في النهاية. تغيرت

الأماكن ولكن التجهيزات ظلّت على حالها. أقيم في مناطق كشريط الأراضي البور عند صفوف الأكواخ المُتفسخة أو قرب مطحنة أو محلج قطن أو معمل تعليب. لم يتغير زوار المعرض فمعظمهم كان من عمال المصانع والزنوج. كان المعرض مزداناً بأضواء ملونة ليلاً حيث تدور الأحصنة الخشبية في دائرة على صوت الموسيقى الميكانيكية، وترتفع المراجيح، وتكتظ صفوف الانتظار عند لعبة رمي البِنس. هناك كُشكان يبيعان المشروبات والهامبرغر ذي اللحم البني الضارب للأحمر وحلوى غزل البنات.

عُين جيك كميكانيكي، ولكن نطاق مهامه ازداد بالتدريج. كان يصيح بصوته المُجعجع وسط الضجيج، وينتقل بشكل مستمر من مكان إلى آخر في المعرض والعرق ينضح من جبينه بينما يقف ثابتاً في مكانه. كان شارباه رطبين من الجعة معظم الأحيان. إنّ مهمته أيام السبت الحفاظ على النظام بين الناس. يندفع بجسده القصير والقوي عبر الحشد بقوة ووحشية، ولكن عيناه فقط لم تُشاركا جسده هذا العنف. كان لعينيه تحت جبينه العريض المُقطب ذات النظرة الواسعة التي توحي بالانعزال والتشتت.

عاد إلى المنزل بين الساعة الثانية عشرة والواحدة صباحاً. إنّ المنزل الذي يقطنه مؤلف من أربع غرف والإيجار دولار ونصف على كل شخص. كان المرحاض في الخلف وصنبور الماء على شرفة المنزل. فاحت من جدران وأرضية غرفته رائحة رطبة وحامضية. هناك ستائر مخرمة قاتمة من السخام على النافذة. ترك بذلته الفاخرة في الحقيبة، وعلق رداءه السروالي على مسمار. لم يكن في الغرفة تدفئة أو كهرباء، ولكن ألقت الأضواء القادمة من الشارع عبر النافذة بظلال خضراء في الداخل. لم يُشعل المصباح الزيتي قرب سريره ما لم يكن يريد المطالعة، وأثارت الرائحة الحادة للزيت المحروق في الغرفة الباردة غثيانه.

إن اضطر للبقاء في المنزل تمشى في الغرفة بلا هوادة، وجلس على

حافة السرير غير المرتب، وقضم أظافر أصابعه المكسورة والقذرة بعنف، وبقي طعم القذارة الحاد في فمه. كان شعور الوحدة في داخله شديداً جداً إلى درجة أصيب معه بالرهاب. واعتاد احتساء ما يعادل نصف لتر من الويسكي المُقطر منزلياً وبشكل غير قانوني.

شرب كحولاً صرفاً خلال النهار ليشعر بالدفء والاسترخاء. وفي تمام الساعة الخامسة صباحاً تصدح صفارات المعامل التي تدعو العمال إلى المناوبة الأولى، ويُخلّف صوتها أصداءً مشتتة وغريبة، ولا يعود قادراً على النوم بعد هذا.

ولكنه عادة لا يبقَ في المنزل بل يخرج إلى الشوارع الفارغة والضيقة. تكون السماء في الساعات الأولى المظلمة من الصباح سوداء، والنجوم كثيرة ومشعة، وأحياناً تكون المعامل مفتوحة، وتتعالى من الأبنية المضاءة بمصابيح صفراء ضجة الآلات. ينتظر العمال عند البوابات من أجل نوبة العمل الأولى، وتتدفق الفتيات في سترات وأثواب بطبعاتٍ من الشارع المُظلم، ويخرج الرجال حاملين عُلب عشائهم. يذهب بعض منهم دوماً إلى المقهى لشراء الكوكا كولا أو القهوة قبل العودة إلى المنزل. كان جيك يذهب بصحبتهم. يُمكن للرجال داخل المعمل الصاخب سماع كل كلمة تُقال بوضوح، ولكنهم يُصابون بالصمم طوال الساعة الأولى على مغادرتهم المعمل. يشرب جيك الكوكا كولا المخلوطة بالويسكي في القطار ويتحدث. كان الفجر الشتائي أبيض اللون وضبابياً وبارداً. ينظر جيك بإلحاح ثمل إلى الوجوه الصفراء والمسلولة للرجال. ضحكوا عليه غالباً، وعندما يحدث هذا يشدّ جيك على جسده، ويتحدث بمفردات ذات مقاطع عديدة بكل احتقار، ثمّ يرفع إصبعه الصغير بعيداً عن الكأس ويلوي شاربه باختيال. وإن استمر الضحك عليه انخرط في مشاجرة معهم ملوحاً بقبضتيه السمراوين الكبيرتين بعنفٍ جنوني، ونشج بصوتٍ عالٍ.

بعد هذه الصباحات يعود إلى المعرض وهو يشعر بالراحة، ويصبح

التدافع بين حشود الناس هيناً. خففت الضجة وروائح الحلبة النتنة والتلامس بالأكتاف مع اللحم البشري من توتره المشحون.

وبسبب القوانين المحلية الخاصة بإيقاف الأعمال التجارية أيام العطل يُغلق المعرض يوم السبت لذلك ينهض باكراً صباح الأحد، ويُخرج بذلته الصوفية من الحقيبة، ويتوجه إلى الشارع الرئيس. يتوقف أولاً في مطعم كافيه نيويورك، ويشتري الجعة، ومن ثمّ يتوجه إلى غرفة سينغر. رغم معرفته بالعديد من الناس - بالاسم والشكل - كان الأبكم صديقه الوحيد في البلدة. كانا يقضيان الوقت في الغرفة الهادئة، ويشربان الجعة. يتحدث جيك، وتخلق الكلمات نفسها بنفسها من الصباحات المظلمة التي قضاها في الشوارع، أو عندما يكون وحده في غرفته حيث تتشكل الكلمات، وتُقال بكل أريحية.

بدأت النار تخمد، وتظاهر سينغر من مكانه وراء الطاولة بعدم الانتباه، بينما غطّ جيك في النوم ثمّ استفاق على ارتعاشة عصبية، ثمّ رفع رأسه، واستدار نحو سينغر. «أجل»، قال هذا وكأنّه يجيب على سؤال مُفاجئ. «بعضنا شيوعيون، ولكننا لسنا جميعاً كذلك. أنا شخصياً لست عضواً في الحزب الشيوعي لأنني لم ألتق سوى بشيوعي واحد في حياتي. يمكنك أن تتجول في أنحاء البلد ولسنوات دون الالتقاء بشيوعي واحد. لا يوجد مكتب في هذه الأنحاء يمكنك أن تتوجه إليه، وتنضم إلى الحزب، وإن كان هناك مكتب فأنا لم أسمع به. لا يستطيع المرء ببساطة أن يتوجه إلى نيويورك لينضم إلى الحزب، وكما قلت فأنا لم ألتقِ سوى بشيوعي واحد، وكان يمتنع تماماً عن تناول الكحول وله رائحة أنفاس كريهة. الحقيقة الأهم أنني لا أفكر كثيراً بستالين أو روسيا، فأنا أكره كل البلدان والحكومات. ولكن رغم هذا ربما يتوجب عليّ أولاً أن أنضم إلى الشيوعيين. أنا لست واثقاً، ما رأيك؟»

قطّب سينغر جبينه، وفكر. أمسك بالقلم الفضي، وكتب على الدفتر الصغير أنّه لا يعلم.

«ولكن إليك الأمر. فكما ترى لا يمكننا أن نستكين بعد أن نعلم، علينا أن نتصرف. وقد يُصاب بعضٌ منا بالجنون. هناك الكثير لنقوم به، ولا نعلم من أين نبدأ. إنّ الأمر يدفع إلى الجنون. حتى أنا قمت بأمور عندما أعود بذاكرتي إليها لا تبدو أموراً منطقية. في إحدى المرات أطلقت منظمة بنفسي، واخترت عشرة عمال من عمال أحد محالج القطن، وتحدثت إليهم إلى أن اعتقدت أنهم باتوا يعرفون الحقيقة. كان شعارنا كلمة واحدة: العمل، وكنا ننوي البدء بالعصيانات، ونتحول إلى تهديد حقيقي. كان هدفنا الأسمى الحرية، ولكن الحرية الحقيقية. إنّ الحرية العظيمة ممكنة فقط من خلال لمس حس العدالة داخل كل روح بشرية، ووجه شعارنا الاتهام إلى الرأسمالية المُدمرة. تعاملنا في الدستور الذي وضعته مع بعض المواقف من خلال إبدال شعار «العمل» بشعار «الحرية» والتي ستكون لاحقة لحالة العمل».

أخذ جيك يبري نهاية عود الثقاب، وينكش تجويفاً مزعجاً في سنه، ثمّ تابع كلامه بعد برهة:

«عندما انتهينا من وضع الدستور، وتمّ تنظيم أول المتابعين، قمت برحلة منتقلاً من سيارة إلى أخرى على الطريق لأنظم الوحدات التي ستشكل المجتمع، وعدت بعد ثلاثة أشهر، ما الذي تعتقد أنني وصلت إليه؟ ما هو أول عمل بطولي؟ هل تغلب غضبهم الشرعي على العمل المُخطط وانطلقوا للعمل من دوني؟ هل كان الدمار أم الجريمة أم الثورة؟»

انحنى جيك إلى الأمام من على كرسيه. وبعد أن توقف عن الكلام لبعض الوقت تابع حديثه بتجهم:

«سرقوا يا صديقي خمساً وسبعين دولاراً من الخزينة لشراء قبعات موحدة ووجبات العشاء المجانية أيام السبت. أمسكت بهم حول طاولة مؤتمرات وقبعاتهم على رؤوسهم يلوكون العظام واللحم المقدد وما يعادل ثلاثة ليترات من الجن في متناول أيديهم».

انخرط جيك بالضحك، وعلت وجه سينغر ابتسامة ساخرة. بعد

برهة غدت الابتسامة على وجه سينغر متوترة وذاوية. ما زال جيك يضحك، وانتفخ الوريد في جبهته. كان وجهه شديد الحمرة، وضحك لوقتٍ طويلٍ.

نظر سينغر إلى الساعة، وأشار إلى أنّ الوقت الآن الثانية عشرة ونصف. أخذ ساعته وقلمه الفضي ودفتره وسجائره وأعواد الثقاب من على رف المستوقد ووزعها في جيبيه. كان قد حان وقت الغداء.

ولكن جيك ما يزال يضحك. هناك شيء ميكانيكي في صوت ضحكه. مشى في أرجاء الغرفة يخشخش بالعملات المعدنية في جيوبه، وأرجح ذراعيه الطويلتين والقويتين على نحو متوتر وأخرق. بدأ بتسمية تفاصيل وجبته التالية. عندما يتحدث جيك عن الطعام يغدو وجهه ضارياً من شدة الحيوية، وتصعد كل كلمة على شفته العليا كحيوانٍ جائع.

«لحم مشوي مع مرق وأرز وملفوف وخبزٌ خفيف وقطعة كبيرة من فطيرة التفاح. أنا جائع جداً. آه يا رجل يمكنني أن أسمع صوت أقدام اليانكي[1]. وبالحديث عن الوجبات هل حدثتك عن صديقي السيد كلارك باترسون، الرجل الذي يملك معرض ساني ديكسي؟ إنّه سمينٌ جداً، ولم يرَ أعضاءه التناسلية منذ عشرين عاماً. يقضي كل وقته في مقطورته يلعب الورق ويُدخن الحشيش. يطلب وجباته من فرنٍ يصنع الوجبات السريعة بالقرب من المعرض، ويفطر كل يوم...».

تراجع جيك إلى الخلف حتى يتمكن سينغر من مغادرة الغرفة. لطالما انتظر جيك عند الباب في كل مرة زار فيها الأبكم، ولطالما لحقه تاركاً له زمام القيادة. وبينما كانا يهبطان الدرج استمر جيك في حديثه بطلاقة متوترة، وتابع بعينيه البنيتين الواسعتين وجه سينغر.

كان الجو بعد الظهر لطيفاً ومعتدلاً، ولكنهما بقيا في الغرفة، كان

1- سكان القسم الشمالي من الولايات المتحدة وخاصة ولاية نيوإنغلاند، وغالباً ما تستخدم الكلمة كنوع من التهكم على الأمريكيين ممن يسكنون تلك المنطقة. (المترجمة)

جيك قد أحضر معه لتراً من الويسكي. جلس يُفكر بصمتٍ عند أسفل السرير، ويتحرك بين الفينة والأخرى ليملأ كأسه من الزجاجة على الأرض. جلس سينغر على طاولته بالقرب من النافذة يلعب الشطرنج. كان جيك قد استرخى قليلاً، وأخذ يراقب صديقه يلعب، وشعر بأنّ فترة بعد الظهيرة اللطيفة والهادئة بدأت تمتزج مع حلكة المساء القريب. رسمت النار تموجات داكنة وساكنة على جدران الغرفة.

ولكن التوتر عاد إليه مجدداً. كان سينغر قد ترك قطع الشطرنج، وجلسا بمواجهة بعضهما. أخذت شفتا جيك ترتجفان وكأنّه يُتأتئ بسبب التوتر، وشرب ليهدئ نفسه. غلبته موجة من القلق والرغبة. تجرّع الويسكي وبدأ يتحدث مجدداً إلى سينغر. تورمت الكلمات داخله وتكومت في فمه. توجه من النافذة إلى السرير وكرر الحركة مراراً. وأخيراً انفجر طوفان الكلمات المتورمة وقالها للأبكم بتشديدٍ ثمل:

«بعد كل ما فعلوه بنا! قلبوا كل الحقائق إلى أكاذيب، وغدروا بكل المثل العليا وأحطوا من قدرها. خُذ المسيح على سبيل المثال، إنّه واحد منا. كان يعلم الحقيقة عندما قال إنّه من السهل على الجمل أن يعبر خرم الإبرة على أن يدخل رجل غني جنّة الرّب. كان يعني ما قاله حقاً. ولكن انظر إلى ما فعلته الكنيسة بالمسيح على مدار ألفي عام. انظر إلى ما حولوه إليه، وكيف حرفوا كل كلمة قالها خدمة لغاياتهم الدنيئة. كانوا ليلبسوا المسيح تهمة، وليرموه في السجن لو كان حيّاً في الوقت الراهن. إنّ المسيح من العارفين الحقيقيين. كنت لأجلس معه على طاولة، ولأنظر نحوه، وينظر نحوي وكان كلانا ليعرف ما يعرفه الآخر. سنجلس أنا والمسيح وكارل ماركس على الطاولة...».

«انظر إلى ما حدث بحريتنا. إنّ الرجال الذين قاتلوا في الحرب الأمريكية لم يكونوا أشبه بنسوة جمعية بنات الثورة[1] إن كنت أنا أشبه كلباً صينياً سميناً مُضمَّخاً بالعطر. كانوا يعنون ما قالوه عن الحرية، وقاموا

1- D.A.R (Daughters of the American Revolution)

بثورة حقيقية. حاربوا حتى يكون هذا البلد مكاناً للحرية والمساواة لكل رجل. وهذا يعني أن الرجال جميعاً متساوون في الطبيعة وفي الفرص. هذا لا يعني أنّ العشرين بالمئة أحرار في سلب الثمانين بالمئة من الناس سُبل عيشهم، ولا يعني أن يقوم رجل غني بامتصاص دم عشرة آلاف فقير حتى يزداد غنى. هذا لا يعني أن يكون الطغاة أحراراً في الوصول بالبلد إلى حالة تدفع الملايين من الناس للقيام بأيّ شيء، وأن يلجؤوا إلى الغش والكذب، أو يستمنوا حتى الموت من أجل غرفة صغيرة أو وسنة نوم. حولوا كلمة الحرية إلى تجديف. هل تسمعني؟ جعلوا كلمة الحرية كرائحة الظربان».

انتفض الوريد في جبهة جيك بقوة، وتحرّك فمه بتشنج. جلس سينغر، وحاول جيك أن يتحدث مجدداً، واختنقت الكلمات في فمه. سرت رعدة في جسده، وجلس على الكرسي، وضغط على شفتيه المرتجفتين بإصبعيه ثمّ قال بصوتٍ أجش:

«هذا هو الوضع يا سينغر، أن تكون مجنوناً فهذا ليس بالأمر الجيّد. ليس هناك ما يمكننا القيام به، فهكذا تبدو الأمور بالنسبة لي. كل ما يمكننا فعله نشر الحقيقة هنا وهناك. وعندما يُصبح عدد العارفين كافياً لن يكون هناك من داعٍ للصراع. إن الشيء الوحيد الذي يتوجب علينا القيام به إخبارهم بالحقيقة. هذا هو المطلوب ولكن كيف؟»

تراقصت الظلال النارية على الجدران، وارتفعت التموجات الحالكة والظليلة عالياً، وبدت الغرفة حيّة. بدت الغرفة، وكأنّها تتحرك للأعلى والأسفل، وتفقد توازنها. شعر جيك وكأنّه يغرق نحو الأسفل وببطء في حركة متموجة تشده للأسفل نحو محيطٍ مظلم. وبكل يأس ورعب فتح عينيه، ولكنّه لم ير شيئاً سوى التموجات الحالكة والقرمزية التي تزأر بجوعٍ فوقه. في النهاية فهم جيك ما كان يبحث عنه. بدا وجه الأبكم مُتعباً وبعيداً، وأغلق جيك عينيه.

استفاق جيك صباح اليوم التالي، وكان سينغر قد غادر منذ ساعات.

هناك خبز وجبنة وبرتقالة وإبريق من القهوة على الطاولة. عندما انتهى من تناول فطوره كان الوقت قد حان ليذهب إلى العمل. مشى باتزان ورأسه مُطأطئ، وعبر البلدة متوجهاً إلى غرفته. عندما وصل إلى الحي الذي يقطن فيه عبرَ شارعاً ضيقاً يرتفع من أحد جوانبه جدار مستودع سودّه الدخان. كان هناك شيء على جدار هذا المبنى شتت انتباهه بشكلٍ مبهم. حدّق في الجدار وثبت انتباهه فجأة. هناك على الجدار رسالة مكتوبة بطباشير أحمر زاهٍ. كانت الحروف مرسومة بشكلٍ عريض وغريب.

«ستأكل لحم العظماء، وتشرب دم أمراء الأرض».

قرأ الرسالة مرتين، وعاين الشارع بقلق، ولكن لم يكن هناك أحد في الأرجاء. بعد بضع دقائق من التفكير الحائر تناول من جيبه قلم رصاص عريض وأحمر، وكتب تحت هذه الرسالة بكل عناية:

«لِيَلقَني كاتب هذه الرسالة غداً ظهراً من يوم الأربعاء الواقع في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أو في اليوم الذي يليه».

انتظر في اليوم التالي أمام الجدار، وبين الفينة والأخرى تمشى إلى زاوية الشارع بنفاذ صبر ليتفقد الشوارع. لم يأتِ أحد، وكان عليه أن يتوجه إلى المعرض بعد ساعة.

انتظر أيضاً في اليوم التالي.

هطل مطرٌ شتائي خفيف لوقتٍ طويل يوم الجمعة. غدا الجدار رطباً، واختلطت الرسالتان عليه، ولم تعد الكلمات مقروءة. استمر هطول المطر الغزير والبارد والمثير للكآبة.

مكتبة
t.me/t_pdf

-5-

«ميك»، قال بابر. «أعتقد أننا سنغرق جميعاً».

بدا أنّ المطر لن يتوقف. أقلتهما السيدة والس من وإلى المدرسة في سيارتها، وفي ظهيرة كل يوم اضطرا للوقوف على الشرفة أو البقاء في المنزل. لعبت مع بابر لعبتي بارتشيسي وأولد ميد[1] ورمي الكرات الزجاجية على سجادة غرفة الجلوس. كان الوقت قريباً من عيد الميلاد، وبدأ بابر يتحدث عن المسيح الطفل والدراجة الحمراء الصغيرة التي طلبها من سانتا كلوز. غدا لون المطر فضياً على زجاج النافذة، وبدت السماء رطبة ورمادية. ارتفع منسوب النهر، واضطر بعض عمال المعمل إلى الانتقال من منازلهم. عندما بدا وكأنّ المطر سيستمر إلى ما لانهاية توقف فجأة، واستيقظ الناس في صباح أحد الأيام على شمسٍ مشرقة. غادرت ميك المنزل متأخرة في طريقها إلى المدرسة. وقف بابر ورالف وسبيرريبس في الممر الأمامي للمنزل. بدا الأطفال لزجين وكأنهم يشعرون بالحر، وفاحت من ثيابهم الشتوية رائحة حامضة. حمل بابر مقلاعه، وملأ جيوبه بالحجارة. جلس رالف في عربته، وقد مالت قبعته على رأسه، وكان مزاجه سيئاً. كان سبيرريبس قد جلب بندقيته معه. بدت السماء بلونٍ أزرق رائع.

«نحن ننتظر منذ وقتٍ طويل يا ميك»، قال بابر. «أين كُنتِ؟»

قفزت على العتبات الأمامية، واجتازت ثلاث عتبات في كل قفزة. علّقت سترتها على حمّالة القبعات.

1- لعبتان من ألعاب الورق الشائعة جداً بين الأطفال. (المترجمة)

«كنت أتدرب على العزف على البيانو في قاعة الرياضة».

اعتادت ميك البقاء في المدرسة لساعة بعد ظهر كل يوم من أجل العزف على البيانو. كانت قاعة الرياضة مكتظة وصاخبة بسبب مباريات فريق الفتيات لكرة السلّة. تلقت اليوم ضربتين على الرأس بالكرة، ولكن فرصة العزف على البيانو تستحق كل هذه الضربات والعناء. جربت مجموعة من النغمات إلى أن خرجت النغمة التي أرادتها. كان الأمر أسهل مما توقعته، فبعد أول ثلاث أو أربع ساعات عرفت مجموعة الأوتار الجهيرية المناسبة للنغمة الرئيسة التي عزفتها بيدها اليمنى. أصبح بإمكانها الآن أن تعزف أية نغمة تسمعها بل وتؤلف موسيقى جديدة أيضاً. كان هذا أفضل من تقليد النغمات. عندما اكتشفت يداها هذه النغمات الجديدة والجميلة انتابها أجمل شعور عرفته.

أرادت أن تتعلم كيف تقرأ النوتة الموسيقية المكتوبة أمامها. تلقت دولوريس براون دروساً موسيقية لخمس سنوات. دفعت ميك لدولوريس خمسة سنتات كل أسبوع، وهو المبلغ الذي كانت تتلقاه أسبوعياً، من أجل الغداء لتعطيها دروساً. وبسبب هذا بقيت جائعة طوال اليوم في المدرسة. عزفت دولوريس العديد من القطع الموسيقية السلسة والسريعة، ولكن دولوريس لم تكن قادرة على الإجابة عن كل الأسئلة التي طرحتها ميك عليها. لم تعلمها دولوريس سوى المبادئ الأولية كقراءة السلالم المختلفة والميجر والماينر والقيم الموسيقية للنغمات.

أغلقت ميك باب فرن المطبخ بقوة.

«هل هذا كل ما لدينا من طعام؟»

«هذا أفضل ما يمكنني أن أقدمه لكم يا عزيزتي»، أجابت بورشيا.

لم يكن هناك سوى خبز الذرة والزبدة. أكلت ميك وشربت كأساً من الماء لتستطيع بلع الطعام.

«توقفي عن التصرف بجشع، لن يأخذ أحد الطعام من يدك».

مازال الأطفال أمام المنزل يلعبون. وضع بابر المقلاع في جيبه، وهو الآن يلعب بالبندقية. كان سبيرريبس بعمر العاشرة، وقد توفي والده منذ شهر وهذه البندقية تعود له. أحبّ كل الأطفال الأصغر عُمراً اللعب بتلك البندقية. كان بابر يرفع البندقية على كتفه كل دقيقة، ويصوب ويصدر صوتاً كصوت الطلقة.

«لا تلعب بالزناد»، قال سبيرريبس. «البندقية محشوة».

انتهت ميك من تناول خبز الذرة، ونظرت حولها تبحث عن شيء تقوم به. كان هاري مينويتز جالساً على درابزين الشرفة الأمامية وبيده صحيفة. أسعدتها رؤيته هناك. وعلى سبيل المزاح رفعت ذراعها وصرخت «يحيا!».

ولكن هاري لم يتلقَ هذا الأمر بروح مرحة، ودخل إلى الردهة الأمامية مُغلقاً الباب خلفه. كان من السهل إيذاء مشاعره. شعرت ميك بالأسف لقيامها بهذا لأنّ صداقتهما قد توطدت جيداً في الآونة الأخيرة. لطالما لعبا في العصابة نفسها عندما كانا صغيرين، ولكن في السنوات الثلاث الأخيرة دخل هاري إلى مدرسة فوكيشنال بينما بقيت ميك في المدرسة الإعدادية. كان هاري يعمل في وظائف بنصف دوام، وكبر سريعاً وفجأة، وتوقف عن اللعب مع الأولاد في حدائق البيوت الأمامية والخلفية. كانت تراه أحياناً يقرأ الجريدة في غرفة نومه، أو يخلع ثيابه ليلاً. كان أذكى طالب في مدرسة فوكيشنال في مادتي الرياضيات والتاريخ. وبما أنّها أصبحت في المدرسة الثانوية الآن التقيا في طريق العودة إلى المنزل وتمشيا معاً. كانا أيضاً في صف الأعمال اليدوية ذاته، وفي إحدى المرات جمعهما المُعلم معاً كشريكين للعمل على تجميع مُحرك. قرأ هاري الكتب، وواظب على قراءة الصحف يومياً، فقد شغلت السياسة العالمية عقله طوال الوقت. تحدث ببطء، وعندما يكون جاداً في حديثه يتعرّق جبينه. وها هي أثارت غضبه الآن.

«أتساءل إن كان هاري ما زال يحتفظ بقطعته الذهبية»، قال سبيرريبس.

«أية قطعة ذهبية؟»

«عندما يولد الولد اليهودي يودعون باسمه قطعة ذهبية في البنك. هذا ما يفعله اليهود».

«هراء! أنت تخلط الأمور، وتقصد بكلامك المسيحيين الكاثوليك. فهم يشترون لكل مولود حديث مسدساً. يوماً من الأيام سيبدأ الكاثوليك بحربٍ، ويقتلون كل من يختلف عنهم»، قالت ميك.

«تثير الراهبات لدي شعوراً غريباً»، قال سبيرريبس. «أشعر بالخوف عندما أصادف إحداهن في الشارع».

جلست ميك على الدرج، وأسندت رأسها على ركبتيها، ودخلت إلى غرفتها الداخلية. بالنسبة لها هناك مكانان؛ الغرفة الداخلية والغرفة الخارجية. كانت المدرسة وعائلتها والأمور التي تحدث معها يومياً في الغرفة الخارجية، أمّا البلدان الأجنبية والمخططات والموسيقى فتقع في الغرفة الداخلية مع كل الأغاني التي فكرت بها وسيمفونية بيتهوفن أيضاً. كان السيد سينغر في كلا الغرفتين. وكلما كانت بمفردها في هذه الغرفة الداخلية عادت إليها تلك الموسيقى التي سمعتها تلك الليلة بعد الحفلة. كبرت هذه السيمفونية في عقلها كزهرة كبيرة. في بعض الأوقات نهاراً أو عندما تستيقظ في الصباح تتذكر فجأة جزءاً جديداً من تلك السيمفونية، وتضطر وقتها للعودة إلى الغرفة الداخلية والإصغاء إليها مرّاتٍ عديدة محاولة دمجها مع بقية أجزاء السيمفونية التي تتذكرها. كانت الغرفة الداخلية مكاناً خاصاً، ويمكنها الدخول إليها حتى وإن كانت وسط منزل مليء بالناس.

صوب سبيرريبس يده القذرة نحو عينيها لأنّها كانت ساهمة في الفراغ فقامت بصفعه.

«ما هي الراهبة؟» سأل بابر.

«سيدة كاثوليكية»، قال سبيرريبس. «سيدة كاثوليكية ترتدي فستاناً أسود طويل يصل إلى رأسها».

سئمت ميك من التسكع مع الأولاد، ورغبت بالتوجه إلى المكتبة، ومطالعة الصور في مجلة ناشونال جيوغرافيك، صوراً لأماكن أجنبية حول العالم: باريس في فرنسا والأنهار الجليدية الكبيرة والغابات البرية في إفريقيا.

«فلتحرصوا يا أولاد ألا ينزل رالف إلى الشارع»، قالت لهم.

أراح بابر البندقية الكبيرة على كتفه وقال لها: «أحضري لي قصّةً معك».

بدا هذا الولد وكأنّه ولد وهو يعرف القراءة. ما يزال في الصف الثاني، ولكنه أحبّ قراءة القصص لوحده، ولم يطلب من أحدٍ أن يقرأ له.

«ما نوعها هذه المرة؟»

«أحضري لي قصة عن أشياء تؤكل. أحببت تلك القصة التي تتحدث عن الطفلين الألمانيين الذين يذهبان إلى الغابة، ويصلان إلى منزلٍ تسكنه ساحرة ومصنوع من كافة أنواع الحلوى. أحبّ القصص التي تتحدث عن الأكل».

«سأبحث لك عن واحدة»، قالت ميك.

«ولكنني سئمت من الحلوى»، قال بابر. «حاولي أن تجدي لي قصة تتحدث عن شطيرة لحمٍ مشوي. إن لم تجدي واحدة أحضري لي قصة عن رعاة البقر».

استعدت للانطلاق عندما وقفت فجأة، وأخذت تحدق، وحدّق الأولاد معها. وقفوا جميعاً بلا حراك ونظروا نحو بيبي ويلسون تهبط درج منزلها في الشارع المقابل.

«كم هي جميلة بيبي!» قال بابر بوداعة.

ربما كان السبب هذا اليوم المشمس والحار بعد كل تلك الأسابيع الماطرة أو ربما لأنهم اعتبروا الثياب الشتوية الغامقة بشعة في مثل هذه اليوم. بدت بيبي كجنيّة أو ككائن في كتابٍ مصور. ارتدت زي السهرة

من العام الماضي، والذي كان عبارة عن فستانٍ بتنورة وردية رقيقة قصيرة وقاسية وصدّار وردي أيضاً. وانتعلت حذاء رقص وردي، وحملت معها دفتراً صغيراً وردياً أيضاً. ومع شعرها الأشقر بدت وردية وبيضاء وذهبية جداً. كانت صغيرة ونظيفة جداً إلى درجة تجعل من مراقبتها أمراً مؤلماً. عبرت الشارع بطريقة ظريفة، ولكنها لم تدر رأسها نحوهم.

«تعالي إلى هنا. دعيني أنظر إلى دفترك الوردي الصغير...» قال بابر.

تجاوزتهم عند حافة الشارع، وقد أمالت رأسها باتجاه واحد، وقررت ألا تتحدث معهم.

كان هناك شريطٌ من العشب بين الرصيف والشارع، وعندما وصل بابر إليه وقفت بيبي بثبات لثانية وقامت بشقلبة على يديها.

«لا تهتم بها»، قال سبيرريبس. «إنّها تحاول التفاخر على الدوام، وهي ذاهبة إلى مطعم السيد برانن لتأخذ الحلوى. إنّه عمّها وهو يعطيها الحلوى مجاناً».

وضع بابر عقب البندقية على الأرض فقد كانت ثقيلة عليه. وبينما راقب بيبي وهي تتوجه نحو نهاية الشارع استمر بشدّ شعر غرته المشعث.

«إنّه دفتر جيب وردي جميل حقاً»، قال بابر.

«تتحدث أمّها على الدوام عن أنّها موهوبة»، قال سبيرريبس. «وهي تعتقد أنّها ستُدخل بيبي إلى عالم السينما».

تأخر الوقت على الذهاب لمطالعة الصور في مجلة الناشونال جيوغرافيك فالعشاء قد جهز تقريباً. بدأ رالف يبكي فأخذته ميك من العربة، ووضعته على الأرض. إنّه شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وبالنسبة لطفلٍ بعمر بابر فإن الصيف قد مضى منذ وقتٍ طويل. اعتادت بيبي الخروج بذلك الرداء الوردي، والرقص في منتصف الشارع طوال الصيف الماضي. اعتاد الأطفال في البداية التحلق حولها ومراقبتها، ولكن سرعان ما ضجروا منها. كان بابر الوحيد الذي راقبها في كل

مرة خرجت فيها لترقص. كان يجلس على الرصيف ويحذرها في كل مرة يرى فيها سيارة قادمة في الشارع. راقبها وهي تقوم برقصتها مئات المرّات، ولكن الصيف انتهى منذ ثلاثة أشهر، وبدت له رقصتها جديدة مجدداً.

«أتمنى حقاً لو كان لدي زيّ»، قال بابر.

«ما الزيّ الذي تريده؟»

«زياً جميلاً حقاً، زياً مصنوعاً من مُختلف الألوان، زياً كالفراشة، هذا ما أريده هدية في عيد الميلاد. هذا الزي ودراجة!»

«أنت مخنث!» قال سبيرريبس.

رفع بابر البندقية مرة أخرى، ووضعها على كتفه، وصوّب باتجاه منزل في الجهة المقابلة من الشارع.

«سأرقص في زيي لو كان لدي واحد، وكنت لأذهب به إلى المدرسة كل يوم».

جلست ميك على الدرج الأمامي، وأبقت عينها على رالف. لم يكن بابر مُخنثاً كما قال سبيرريبس. كان فقط يُحبّ الأشياء الجميلة. من الأفضل ألا تترك سبيرريبس ينجو بفعلته.

«يجب أن يُحارب المرء من أجل كل شيء لديه»، قالت ميك على مهل. «ولاحظت أنّ أصغر أفراد العائلة هم الأفضل حقاً، فالأولاد الأصغر عمراً هم الأقوى. أنا قوية جداً لأنّ هناك أفراداً في عائلتي أكبر مني. قد يبدو بابر مريضاً، ويُحبّ الأشياء الجميلة، ولكن تحت كل هذا هو شجاع. إن كان هذا الكلام صحيحاً فسيكون رالف الفرد الأقوى عندما يُصبح في عمرٍ يسمح له بالتجوال هنا وهناك. رغم أنّه في شهره السابع عشر يمكنني أن أقرأ بعض الشدة والقساوة على وجهه».

نظر رالف حوله فقد علم أنّه محور الحديث. جلس سبيرريبس على الأرض، ونزع قبعة رالف وهزها في وجهه ليزعجه.

«حسناً!» قالت ميك. «أنت تعلم ما الذي سأفعله بك إن جعلته يبكي. من الأفضل أن تكون حذراً».

كان كل شيء هادئاً. سطعت الشمس من وراء أسطح المنازل، وأضاءت السماء بألوان أرجوانية ووردية، وعلا من الشارع التالي صوت فتية يتزلجون. اتكأ بابر على شجرة، وبدا وكأنّه يحلم بشيء ما. تصاعدت رائحة العشاء القادمة من المنزل. سيحين قريباً وقت تناول الطعام.

«انظروا»، قال بابر فجأة. «ها هي بيبي مجدداً، إنّها جميلة حقاً في ثوبها الوردي».

مشت بيبي باتجاههم على مهل. حصلت على علبة من الفشار المحلى وبداخلها جائزة. كانت تبحث عن الجائزة في العلبة، ومشت بالطريقة ذاتها المتبخترة والجميلة. ومن الواضح أنّها كانت تعلم أنّ الجميع ينظرون إليها.

«من فضلك يا بيبي...» قال بابر عندما أصبحت بمحاذاتهم. «دعيني أرَ دفترك الوردي وألمس ثوبك الوردي».

أخذت بيبي تُهمهم بأغنية لنفسها ولم تُصغِ. عبرت دون أن تسمح لبابر باللعب معها. أحنت رأسها، وعبست قليلاً في وجهه.

ما زال بابر يحمل البندقية على كتفه، وأصدر صوتاً كالطلقة، وتظاهر أنّه أصيب، ومن ثمّ نادى بيبي مجدداً بصوتٍ ناعم وحزين وكأنّه ينادي قطة صغيرة.

«من فضلك تعالي إلى هنا يا بيبي».

كان بابر سريعاً جداً ولم تتمكن ميك من إيقافه. رأت إصبعه على الزناد وانطلق صوت إطلاق الرصاصة من البندقية. تكومت بيبي على الرصيف، وبدت وكأنّها مُسمّرة على الأرض؛ لم تتحرك أو تصرخ. وضع سبيرريبس ذراعيه على رأسه.

كان بابر الوحيد الذي لم يستوعب ما حصل.

«انهضي يا بيبي»، صرخ نحوها. «أنا لستُ غاضباً منك».

حدث الأمر في ثوانٍ. اندفع ثلاثتهم نحو بيبي المتكومة على الرصيف القذر، وقد ارتفعت تنورة فستانها حتى رأسها، وكشفت عن ثيابها الداخلية الوردية وساقيها الصغيرتين البيضاوين. كانت يداها مفتوحتين، وفي إحداهما الجائزة التي انتشلتها من علبة الحلوى، وفي اليد الأخرى الدفتر الوردي. كان هناك دماء على شريط شعرها وعلى خصلات شعرها الأشقر. أصابتها الرصاصة، في رأسها، ووقعت أرضاً على وجهها.

حدث الكثير خلال ثانية واحدة. صرخ بابر، ورمى البندقية ثمّ ركض. وقفت ميك ويداها على وجهها وصرخت، ثمّ أتى الكثير من الناس. كان والدها أول الواصلين إلى المكان، وحمل بيبي إلى المنزل.

«ماتت»، قال سبيرريبس. «لقد أصيبت بطلق ناري بين عينيها. رأيت وجهها».

ذرعت ميك على الرصيف جيئة وذهاباً، وأحست بلسانها عالقاً في فمها عندما حاولت أن تسأل إن كانت بيبي قد قُتلت. هرعت السيدة ويلسون راكضة عبر الشارع من صالون الحلاقة حيث تعمل. ذرعت الرصيف جيئة وذهاباً تبكي وتخلع الخاتم من إصبعها وتعيد وضعه. وصلت سيارة الإسعاف، ودخل الطبيب ليعاين بيبي، ولحقت ميك به. كانت بيبي مسجاة على السرير في الغرفة الأمامية، والمنزل هادئ ككنيسة.

بدت بيبي كدمية صغيرة جميلة على السرير. وباستثناء الدم لم تبدُ وكأنّها تعرضت للأذى. انحنى الطبيب وعاين رأسها. بعد أن انتهى حملوا بيبي على نقالة. صعدت السيدة ويلسون ووالد ميك في سيارة الإسعاف.

خيّم هدوء مطبق في المنزل، ونسي الجميع أمر بابر الذي كان مُختفياً. مرّت ساعة. انتظرت والدة ميك وهيزل وإيتا وكل المستأجرين في الغرفة الأمامية، ووقف السيد سينغر في مدخل المنزل.

بعد مرور وقت طويل عاد والدها إلى المنزل. قال إنّ بيبي لن تموت وأنّ جمجمتها مكسورة فقط. سأل عن بابر ولم يعرف أحد مكانه. كان الظلام قد حلّ في الخارج. نادوا على بابر في الحديقة الخلفية وفي الشارع. أرسلوا سبيرريبس، وبعض الصبية للبحث عنه. بدا وكأنّ بابر اختفى تماماً من المنطقة. هرع هاري إلى أحد المنازل حيث اعتقدوا أنّه قد يكون هناك.

ذرع والد ميك الشرفة الأمامية جيئة وذهاباً.

«لم أجلد أيّاً من أبنائي أبداً»، استمر بالقول. «لم أؤمن بهذا، ولكنني واثق من أنني سأجلد ذلك الولد حالما أضع يدي عليه».

جلست ميك على الدرابزين، وراقبت الشارع المظلم.

«يمكنني التعامل مع بابر. عندما يعود إلى المنزل سأعتني به كما يجب».

«اذهبي وابحثي عنه. أنت أفضل من يمكنه العثور عليه».

عندما نطق والدها بهذا أدركت على الفور أين قد يكون بابر. في الحديقة الخلفية هناك شجرة بلوط كبيرة وقد بنوا منزل شجرة عليها صيفاً. كان بيت الشجرة عبارة عن صندوق كبير وضعوه أعلى شجرة البلوط، وقد أحبّه بابر واعتاد الجلوس فيه وحده. تركت ميك العائلة والمستأجرين على الشرفة الأمامية وعبرت الزقاق إلى الحديقة الخلفية.

وقفت لدقيقة قرب جذع الشجرة.

«بابر»، قالت بهدوء. «أنا ميك».

لم يُجب، ولكنها علمت أنّه هناك وكأنّها شمّت رائحته. تعلقت بأقرب غصن وتسلقت على مهل. كانت غاضبة حقاً من ذلك الفتى، وقررت أن تلقنه درساً. عندما وصلت إلى منزل الشجرة تحدثت إليه مجدداً، ولكن لم يُجب هذه المرة أيضاً. تسلقت نحو الصندوق الكبير الذي يقوم مقام البيت وتحسست أطرافه، وأخيراً لمسته. وجدت بابر متكوراً على نفسه

في الزاوية، ورجلاه ترتجفان. كان قد حبس أنفاسه، وعندما لمسته بدأ ينشج، وخرج كل ذلك النفس الذي حبسه دفعة واحدة.

«لم أقصد أن أصيب بيبي وأجعلها تسقط. بدت صغيرة وجميلة جداً. خُيل لي أنّه علي مهاجمتها».

جلست ميك على أرضية منزل الشجرة.

«لقد ماتت بيبي»، قالت ميك. «وهناك أناسٌ كثر يبحثون عنك».

توقف بابر عن البكاء وبدا هادئاً جداً.

«هل تعلم ما الذي يفعله أبي في المنزل؟»

بدا وكأنّها تستطيع سماع بابر يصغي.

«تعرف واردن لويز، لقد سمعت عنه في المذياع. وتعرف سجن سينغ سينغ. حسناً، أبي يكتب رسالة إلى واردن لويز ليكون لطيفاً معك بعض الشيء عندما يُمسكون بك، ويرسلونك إلى سينغ سينغ».

كان للكلمات وقعٌ مريع في الظلام إلى درجة أنّ رعدة سرت في أوصالها. كان بإمكانها أن تشعر بارتجاف بابر.

«لديهم كرسي إعدام بالكهرباء صغير يناسب حجمك تماماً. وعندما يشغلونه ستُحرق كقطعة من اللحم المقدد، ومن ثمّ ستذهب إلى الجحيم».

عصر بابر نفسه في الزاوية، ولم يخرج منه أيّ صوت. توجهت إلى حافة الصندوق لتنزل.

«من الأفضل أن تبقى هنا فلقد حضر رجال الشرطة لحراسة الحديقة. قد أحضر لك بعد بضعة أيام شيئاً لتأكله».

تعلقت ميك بجذع شجرة البلوط. إنّ ما قالته كفيل بتلقين بابر درساً جيداً. لطالما كانت قادرة على التعامل معه، وعلمت الكثير عن ذلك الولد أكثر من أيّ شخصٍ آخر. منذ عام أو عامين اعتاد التوقف خلف الشجيرات والتبول ثمّ اللعب بعضوه لبعض الوقت. كانت تمسك به بسرعة، وتصفعه في كل مرة حدث فيها هذا، وشفي خلال ثلاثة أيام.

بعد هذا لم يعد أبداً قادراً على التبول بشكل طبيعي كبقية الأولاد، وكان يضع يديه وراء ظهره. كان عليها دوماً العناية ببابر، ولطالما تمكنت من التعامل معه. بعد قليل ستعود إلى منزل الشجرة، وتعيده إلى المنزل. فبعد كل ما قالته له لن يضع يده على سلاحٍ أبداً طول حياته.

استمر ذلك الشعور المميت الذي خيّم على المنزل. جلس المستأجرون على الشرفة الأمامية، ولكن لم يتحدثوا أو يهزوا كراسيهم، وبقي والدها ووالدتها في الغرفة الأمامية. شرب والدها الجعة بشكل مباشر من الزجاجة بينما ذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ستكون بيبي على ما يرام، ولهذا لم يكن قلقاً حيالها. وبدا الجميع قلقاً، ولكن ليس على بابر بل على شيءٍ آخر.

«ذلك اللعين بابر»، قالت إيتا.

«أشعر بالحرج من مغادرة المنزل بعد الذي حصل»، قالت هيزل.

توجهت إيتا وهيزل إلى الغرفة الوسطى، وأغلقتا الباب. كان بيل في غرفته في الخلف. لم ترغب ميك بالحديث معهم، ووقفت في الردهة الأمامية، وفكرت لوحدها.

توقف والدها عن المشي.

«كان الأمر مقصوداً. لا يبدو الأمر وكأن الفتى كان يعبث بالبندقية، وانطلقت الرصاصة بالصدفة. كل من رأى ما حدث قالوا إنّه وجه البندقية بشكل مقصود».

«أتساءل متى ستأتي السيدة ويلسون لتواجهنا»، قالت أمها.

«أعتقد أننا سنسمع الكثير منها!».

«أعتقد هذا أيضاً».

كانت الشمس قد غربت الآن، وعاد الليل بارداً مجدداً كما هي ليالي شهر تشرين الثاني (نوفمبر). ترك الناس الشرفة الأمامية، وجلسوا في غرفة الجلوس، ولكن لم يُشعل أحد المدفأة. كانت سترة ميك مُعلقة على حمّالة القبعات، ارتدها ووقفت، وقد أحنت كتفيها لتبقى دافئة.

فكرت ببابر الذي كان يجلس في منزل الشجرة البارد والمظلم. لقد صدق كل كلمة قالتها، ولكنّه يستحق أن يقلق حقاً فقد كاد يقتل بيبي.

«ميك ألا تعرفين أين يمكن أن يكون بابر؟» سألها والدها.

«أعتقد أنّه في الجوار»، أجابت ميك.

ذرع والدها المكان جيئة وذهاباً حاملاً زجاجة الجعة في يده. مشى كرجلٍ أعمى، وتعرّق وجهه.

«إن الطفل المسكين خائف من العودة إلى المنزل. إن عثرنا عليه سيكون شعوري أفضل. لن أمدّ يدي على بابر، وهو لا يجب أن يكون خائفاً مني».

انتظرت ساعة ونصف وبحلول هذا الوقت سيكون آسفاً جداً على ما فعل. لطالما عرفت كيف تتعامل مع بابر، ولطالما لقنته الدروس.

بعد فترة كان هناك هرج ومرج في المنزل، فلقد اتصل والدها بالمستشفى ليطمئن على بيبي، وخلال بضع دقائق أعادت السيدة ويلسون الاتصال بهم. كانت تريد أن تأتي إلى المنزل، وتتحدث معهم.

استمر والدها بذرع الغرفة الأمامية جيئة وذهاباً كرجلٍ أعمى، وشرب ثلاث زجاجات من الجعة.

«بالنظر إلى الطريقة التي حدثت فيها الأمور يمكنها أن تقاضيني حتى آخر قرش. وسيكون المنزل المرهون كل ما ستحصل عليه. لن نستطيع الدفاع عن أنفسنا».

وفجأة أخذت ميك تفكر بشيء ما. ربما سيخضع بابر إلى المحاكمة، ويضعونه في سجن الأطفال، وقد ترسله السيدة ويلسون إلى مدرسة إصلاحية وهناك قد يفعلون أشياء مريعة لبابر. أرادت التوجه إلى منزل الشجرة على الفور، وتخبره بألا يقلق. لطالما كان بابر نحيلاً وضئيلاً وذكياً. أرادت أن تقبله وتعضه من شدة الحب.

لا يجب أن تفوت شيئاً فالسيدة ويلسون ستكون هنا خلال دقائق،

وستعرف ما الذي سيجري، وعندها يمكنها أن تجري وتخبر بابر أنّ كل الأمور التي قالتها مجرّد كذبة، وسيكون قد تعلم الدرس حقاً، ويعود إلى المنزل.

وقفت أمام الرصيف سيارة أجرة من ذلك النوع الذي يتقاضى عشر سنتات مقابل أيّ توصيلة. انتظر الجميع على الشرفة الأمامية بهدوء وخوفٍ شديد. ترجلت السيدة ويلسون من سيارة الأجرة مع السيد برانن. كان بإمكان ميك أن تسمع والدها يصرّ على أسنانه بطريقة عصبية بينما كانا يصعدان الدرج. دخلوا إلى الغرفة الأمامية ولحقتهم ووقفت عند مدخل الباب. خرجت إيتا وهيزل وبيل، وكل المستأجرين من المكان.

«أتيت لأتحدث بالأمر معكم»، قالت السيدة ويلسون.

بدت الغرفة الأمامية مبتذلة وقذرة، وانتبهت إلى أنّ السيد برانن يعاين كل شيء. كانت اللعب البلاستيكية المُحطمة والخرز والخردة التي لعب بها رالف مبعثرة على الأرض. هناك جعة على طاولة عمل والدها، وبدت الوسائد على السرير حيث ينام والدها ووالدتها رمادية جداً.

استمرت السيدة ويلسون في خلع وارتداء خاتم الزواج في إصبعها. جلس السيد برانن بجانبها بهدوء شديد وقد قاطع ساقيه. كان فكاه بلون أسود مزرق وبدا كفردٍ في عصابة كما في الأفلام. لطالما شعرت بأنه يكنّ الضغينة لها، فقد كان يتحدث معها بصوتٍ خشنٍ وبطريقة مختلفة عن الطريقة التي يتحدث بها مع بقية الناس. تساءلت إن كان السبب قيامها هي وبابر بسرقة علبة من العلكة من على المنضدة. كرهته حقاً.

«إليكم خلاصة الموضوع»، قالت السيدة ويلسون. «أطلق ابنكم النار على رأس بيبي عمداً».

اندفعت ميك إلى وسط الغرفة وقالت: «لا، لم يفعل. كنت هناك. كان بابر يوجه فوهة البندقية نحوي ونحو رالف وكل شيء في المكان. وحدث أن صوبها نحو بيبي، وانزلقت إصبعه على الزناد. كنت هناك عندما وقع الحادث».

حكّ السيد برانن أنفه، ونظر نحوها بطريقة حزينة. كانت تكرهه حقاً.

«أعلم ما هو شعوركم جميعاً، ولهذا أريد أن أختصر في كلامي».

خشخشت والدة ميك بمجموعة من المفاتيح، وجلس والدها بهدوء شديد وقد وضع يديه الكبيرتين على ركبتيه.

«لم يخطط بابر للأمر مُسبقاً»، قالت ميك «إنّه فقط...»

استمرت السيدة ويلسون باللعب بخاتم زفافها.

«على رسلكم، أعلم كيف جرى كل شيء. يمكنني أن أوصل الأمر إلى المحكمة، وأقاضيكم حتى آخر سنتٍ لديكم».

لم يكن هناك أيّ تعبير على وجه والدها.

«سأخبرك بأمرٍ واحد»، قال لها. «ليس لدينا الكثير لتقاضينا عليه. كل ما لدينا هو...»

«أصغِ إلي وحسب»، قالت السيدة ويلسون. «لم آتِ إلى هنا مع محامٍ لمقاضاتكم. تحدثت أنا وبارثميليو - السيد برانن - بالأمر، واتفقنا على النقاط الرئيسة ذاتها. أريد في المقام الأول أن أقوم بما هو عادل ونزيه، وفي المقام الثاني، لا أريد أن يظهر اسم بيبي في أيّة قضية قانونية وهي في هذا العمر».

لم يكن هناك أي صوت في الغرفة، وجلس الجميع بثبات على كراسيهم، باستثناء السيد برانن الذي ابتسم لميك نصف ابتسامة، ولكنها نظرت نحوه شزراً وبقسوة.

كانت السيدة ويلسون متوترة جداً، وارتجفت يدها عندما أشعلت سيجارة.

«لا أريد أن أقاضيكم، أو أفعل أيّ شيء من هذا القبيل. كل ما أريده هو أن أكون عادلة. لن أطلب منكم أن تدفعوا مقابل كل المعاناة والبكاء الذي مرت به بيبي في المستشفى إلى أن جعلوها تنام، فليس هناك ما يعوض عن هذا. لا أطلب منكم دفع بدل الأضرار التي ألحقها الحادث بمسارها المهني والخطط التي كُنا قد وضعناها لها. ستضطر إلى وضع

ضمادة لعدة أشهر، ولن تتمكن من الرقص في الحفل الساهر، وقد ينتهي بها الأمر ببقعة صلعاء على رأسها».

نظر والدها والسيدة ويلسون إلى بعضهما وكأنهما منومان مغناطيسياً. ثمّ وضعت السيدة ويلسون يدها في جيبها، وأخرجت قطعة من الورق.

«ما ستدفعونه حقاً هو ما دفعناه من نقود. هذه فاتورة بغرفة وممرضة خاصة لبيبي لحين عودتها إلى المنزل مع كلفة غرفة العمليات وأجرة الطبيب. وأرجو أن تدفعوا للطبيب على الفور. لقد حلقوا أيضاً شعر بيبي، وعليكم أن تدفعوا ثمن الخصلات الدائمة التي كنت سأضعها لها في أتلاتنا إلى حين أن يعاود شعر بيبي النمو. وهذا ثمن ردائها وفواتير أخرى إضافية. سأكتب كل الأغراض حالما أنتهي من عدها. أحاول أن أكون عادلة ونزيهة قدر الإمكان، وعليكم أن تدفعوا كامل المبلغ عندما أحضر لكم الفواتير».

عدّلت والدتها ثوبها عند الركبتين، وأخذت نفساً سريعاً وعميقاً.

«يبدو لي أن وضع بيبي في غرفة الأطفال في المستشفى أفضل بكثير من الغرفة الخاصة. عندما كانت بيبي مصابة بذات الرئة...».

«تقولين غرفة خاصة».

رفع السيد برانن يديه البيضاوين والسمينتين ووازنتهما وكأنّه يضعهما على ميزان وقال:

«يُمكن لبيبي أن تنتقل بعد يوم أو يومين إلى غرفة مزدوجة مع أطفال آخرين».

تكلمت السيدة ويلسون بجدية.

«لقد سمعتم ما قلته. بما أنّ ابنكم أطلق النار على ابنتي بيبي فهي حتماً يجب أن تحظى بكل الميزات إلى أن تتعافى».

«أنتِ على حق»، قال والد ميك «ولكن الله يعلم أننا لا نملك أيّ شيء الآن، ولكن يمكنني أن أتدبر الأمور. أدرك أنك لا تستغليننا وأنا أقدّر لك هذا. سنقوم بكل ما بوسعنا».

أرادت ميك أن تبقى وتسمع كل ما سيقولونه، ولكن أمر بابر شغلها. انتابها شعور بالقلق عندما فكرت أنّه يجلس في منزل الشجرة المظلم والبارد مُفكراً بسجن سينغ سينغ. خرجت من الغرفة، وعبرت الردهة باتجاه الباب الخلفي. كانت الريح تعصف والحديقة مُظلمة جداً باستثناء مربعات صفراء ألقاها النور القادم من المطبخ. عندما نظرت إلى الوراء رأت بورشيا جالسة بهدوء شديد على الطاولة، وقد وضعت يديها الطويلتين والنحيلتين على وجهها. كانت الحديقة موحشة، وألقت الريح بظلال سريعة ومرعبة، وصفرت بصوتٍ جنائزي في العتمة.

وقفت تحت شجرة البلوط، وعندما حاولت أن تمسك بأول غصن انتابها شعور مريع. شعرت فجأة بأنّ بابر قد اختفى. نادته ولم يُجب عليها. تسلقت بسرعة وهدوء كقطة.

«بابر!»

ومن دون أن تبحث في الصندوق علمت أنّه لم يكن هناك أحد، إلّا أنّها دخلت لتتأكد، وتحسست كل الزوايا. لقد اختفى الولد، لا بدّ وأنّه نزل بعد ذهابها فوراً. لقد هرب حتماً، ولأنه طفل ذكي لن يعرف أحد إلى أين سيذهب.

نزلت عن الشجرة، وهرعت إلى الشرفة الأمامية. كانت السيدة ويلسون تهمّ بالمغادرة، وخرج الجميع معها إلى الشرفة الأمامية.

«أبي»، قالت ميك. «علينا أن نفعل شيئاً لقد هرب بابر. أنا واثقة من أنّه ابتعد عن الحي. يجب أن نخرج للبحث عنه».

لم يعرف أحد إلى أين يتوجهون وكيف يبدؤون. ذرع والدها الشارع جيئةً وذهاباً، وتفقد كل الأزقة. طلب السيد برانن سيارة أجرة للسيد برانن، وبقي لمساعدتهم في البحث. جلس السيد سينغر على درابزين الشرفة، وكان الشخص الوحيد الذي حافظ على هدوئه. انتظر الجميع ميك لتحصر كل الأماكن التي سيبحثون فيها عن بابر، ولكن البلدة كبيرة جداً والولد ذكي جداً، ولهذا لم تستطع أن تفكر بما يُمكن القيام به.

ربما توجه إلى منزل بورشيا في منطقة شوغر هيل. عادت ميك إلى المطبخ حيث جلست بورشيا عند الطاولة ويداها على وجهها.

«انتابني إحساس مفاجئ بأنّه ذهب إلى بيتك. فلتساعدينا على إيجاده».

«كيف لم أفكر بهذا! أراهن بخمسة سنتات أنّ بابر الصغير والخائف في منزلي طوال الوقت».

استعار السيد برانن سيارةً. صعدت ميك وبورشيا والسيد سينغر ووالد ميك إلى السيارة. لم يعلم أحد سواها بما كان يشعر به بابر. لم يعلم أحد أنّه هرب كمن فرّ لينجو بحياته.

كان منزل بورشيا مُعتماً باستثناء مربعات الضوء التي ألقاها ضوء القمر على الأرضية. وحالما دخلوا المنزل عرفوا على الفور أنّ ما من أحد في الغرفتين. أشعلت بورشيا المصباح الأمامي. كان للغرفتين رائحة الملونين، واكتظت الجدران بقصاصات الصور والأغطية المخرمة على الطاولة والوسائد المخرمة على السرير. لم يكن بابر هناك.

«كان هنا»، قالت بورشيا فجأة. «أعرف أنّ أحداً ما كان هنا».

عثر السيد سينغر على قلم الرصاص وقطعة الورق على طاولة المطبخ. قرأها سريعاً، ومررها ليراها الآخـرون. كان الخط كبيراً وغير متناسق، ولم يُخطئ الفتى الصغير الذكي سوى في تهجئة كلمة «فلوريدا»، وجاء في الرسالة:

عزيزتي بورشيا،

غادرت إلى فلورادا فلتخبري الجميع.

المخلص

بابر كيلي

وقفوا مدهوشين وحائرين. نظر والد ميك إلى مدخل البيت، ونقر

بإبهامه على أنفه قلقاً. استعد الجميع لصعود السيارة والتوجه إلى الطريق السريع الذاهب باتجاه الجنوب.

«انتظروا قليلاً»، قالت ميك. «حتى وإن كان بابر بعمر السابعة إلّا أنّه أذكى من أن يخبرنا إلى أين سيهرب. قصة هروبه إلى فلوريدا مجرّد حيلة».

«أجل، هناك مكانان يعرف بابر الكثير عنهما. الأول هو فلوريدا والآخر أتلانتا. طرقت أنا وبابر ورالف الطريق المتجه إلى أتلانتا مرّاتٍ كثيرة. يعرف بابر كيف ينطلق من هناك ولقد ذهب في تلك الوجهة. لطالما تحدث عن المكان الذي سيذهب إليه عندما تسنح له فرصة الذهاب إلى أتلانتا».

صعدوا إلى السيارة مجدداً. كانت ميك جاهزة لتركب في المقعد الخلفي للسيارة عندما قرصتها بورشيا في مرفقها. «أتعلمين ما الذي فعله بابر؟» قالت بصوتٍ هادئ. «لا تخبري أحداً ولكن العزيز بابر أخذ قرطيّ الذهبيين من على منضدة الزينة. لم يخطر لي أبداً أن عزيزي بابر سيفعل بي مثل هذا الشيء».

أدار السيد برانن السيارة. تحركت السيارة على مهل، وعاينوا الطريق بحثاً عن بابر على الطريق المتوجه إلى أتلانتا.

صحيح أنّ بابر صعب ومزعج وتصرف اليوم بشكلٍ مختلف عن الطريقة التي تصرف بها قبلاً. قبل الآن كان طفلاً صغيراً هادئاً، ولم يقم بأيّ شيء مزعج. وإن آذى مشاعر أحد شعر بالحرج والتوتر. إذاً كيف حدث وقام بكل هذه الأمور اليوم؟

تحركت السيارة ببطء على طريق أتلانتا، وتجاوزوا آخر البيوت المأهولة، ووصلوا إلى حقولٍ وغابات مظلمة. توقفوا على طول الطريق ليسألوا الناس إن رأوا بابر.

«هل رأيتم طفلاً حافي القدمين في سروالٍ قصير يمشي على هذا

الطريق؟» ولكن وحتى بعد أن قطعوا عشرة أميال فما من أحد أجابهم بأن رأى مثل هذا الولد. دخلت الريح القوية والباردة من نوافذ السيارة المفتوحة، وكان الوقت ليلاً ومتأخراً.

تابعوا إلى مسافة أبعد بقليل ثمّ عادوا إلى البلدة. أراد والدها والسيد برانن أن يقابلوا كل أطفال الصف الثاني، ولكن ميك أقنعتهم بالعودة إلى طريق أتلانتا مجدداً. تذكرت طوال الوقت الكلمات التي قالتها لبابر حول موت بيبي وسجن سينغ سينغ وواردن لوي وكراسي الإعدام الصغيرة التي تناسب حجمه والجحيم. بدت الكلمات في العتمة مريعةً جداً.

تحركت السيارة ببطء لنصف ميل خارج البلدة، وفجأة رأوا بابر. كشفت أضواء السيارة وجوده أمامهم بوضوح. بدا وضعه غريباً، فقد كان يمشي على حافة الطريق، وقد رفع إبهام يده لتتوقف له السيارات. كان قد وضع سكين بورشيا في حزام بنطاله، وعلى الطريق العريض والمعتم بدا صغيراً جداً وأشبه بطفلٍ في الخامسة وليس في السابعة.

أوقفوا السيارة وركض بابر ليستقلها. لم يميزهم فقد كان ينظر بعينين نصف مغمضتين كما يفعل دوماً عندما يصوب الكرات الزجاجية. أمسكه والدها من ياقته، وضربه بقبضته وركله، تناول بابر السكين إلّا أن والده رماها بعيداً في الوقت المناسب. قاتل بابر كنمرٍ في فخ، ولكنهم تمكنوا أخيراً من إدخاله إلى السيارة. ثبته والده في حضنه طوال طريق العودة إلى المنزل، وبقي بابر ثابتاً جداً دون أن يميل أبداً.

جروه إلى المنزل، وخرج كل الجيران والمستأجرين ليروا ما سبب كل هذه الضجة. جروه إلى الغرفة الأمامية، وعندما أفلتوه التجأ إلى زاوية، وشدّ عل قبضتيه، ونظر شزراً إلى كل الحاضرين. بدا مستعداً لمحاربة كل هذا الحشد.

لم يتفوه بكلمة واحدة منذ دخل المنزل إلى أن بدأ يصرخ:

«إنّها فعلة ميك! لم أفعل شيئاً. ميك من فعلتها!»

لم يكن هناك صراخ يشبه صراخ بابر. برزت عروق رقبته وتصلبت قبضتاه كحجرين صغيرين.

«لا يمكنكم أن تقبضوا علي! لا أحد يمكنه القبض علي!» تابع الصراخ.

هزته ميك من كتفيه، وأخبرته أنّ الأمور التي قالتها له مجرّد أكاذيب. فهم أخيراً ما الذي كانت تقوله، ولكنه لم يصمت. بدا وكأنّ ما من شيء قادر على إيقاف صراخه.

«أكره الجميع! أكره الجميع!»

وقفوا جميعاً حوله. أخذ السيد برانن يحكّ أنفه، وينظر نحو الأرض إلى أن غادر المنزل أخيراً بكل بهدوء. كان السيد سينغر الوحيد الذي علم ما الذي يجري، ربما لأنّه لم يسمع تلك الضجة المريعة. كان وجهه هادئاً، وكلما أمعن بابر في النظر إليه غدا أكثر هدوءاً. كان السيد سينغر مختلفاً عن أيّ رجلٍ آخر، وفي أوقات عصيبة كهذه سيكون من الأفضل لو يتركه الناس ليتكفّل بالموضوع. كان أكثر منطقية منهم، ويعرف أموراً لا يعرفها الناس العاديون. نظر إلى بابر وبعد قليل هدأ الولد بما يكفي ليأخذه والده إلى السرير.

نام بابر في السرير على وجهه، وأخذ ينحب. بكى بشهقات طويلة وكبيرة جعلته يرتجف. بكى لساعة، ولم يستطع أحد في الغرف الثلاث النوم بسبب هذا. انتقل بيل للنوم على أريكة غرفة الجلوس، ونامت ميك مع بابر في السرير. لم يسمح لها بأن تلمسه أو تحضنه. وبعد ساعة أخرى من البكاء والشهيق نام.

بقيت ميك صاحية لوقتٍ أطول، وفي العتمة لفته بذراعها وشدته قريباً منها. تلمسته وقبلته في كل مكان. كان ضعيفاً جداً وصغيراً، وفاحت منه رائحة صبيانية مالحة. كان الحب الذي شعرت به نحوه قوياً جداً، وعصرته بين ذراعيها إلى أن آلمتها. فكرت ببابر وبالموسيقا معاً، وشعرت أنها لا تعرف ما الأمر الجيد الذي يمكنها أن تقوم به من أجله.

قررت ألا تضربه بعد الآن أو حتى تزعجه. وفي الصباح التالي عندما استيقظت كان قد اختفى.

بعد تلك الليلة لم تتوفر لميك أو لأيّ أحدٍ آخر أيّة فرصة لإزعاجه بعد الآن. بعد أن أطلق بابر النار على بيبي لم يعد ذلك الصغير بابر، بل كان صامتاً على الدوام. ولم يلعب مع أحد. جلس معظم الوقت في الحديقة الخلفية في مستودع الفحم وحده. كان عيد الميلاد يقترب أكثر وأكثر وأرادت ميك حقاً الحصول على بيانو، ولكن بشكل طبيعي لم تُعبر عن رغبتها. أخبرت الجميع أنّها تريد ساعة ميكي ماوس. عندما سألوا بابر ما الهدية التي يريد أن يحضرها سانتا كلوز له، وأجاب أنّه لا يريد شيئاً. أخفى كراته الزجاجية الصغيرة وسكين الجيب، ولم يسمح لأحد بلمس كتبه المصورة.

بعد تلك الليلة لم يعد أحد يناديه بابر بل بيبي كيلر[1] كيلي. لم يتحدث كثيراً مع أحد، ولم يكن يزعجه أيّ شيء، وأخذت العائلة تناديه باسمه الحقيقي – جورج. في البداية لم تتوقف ميك عن مناداته باسم بابر، ولم ترغب بالتوقف عن مناداته بهذا الاسم. ولكن من الغريب كيف أنّها بعد أسبوع بدأت بمناداته جورج بشكل طبيعي كما فعل البقية. أصبح جورج فتى مختلفاً، يتجول لوحده دوماً كشخصٍ أكبر من عمره ومن دون أن يصحب أحداً معه بما في ذلك ميك، من دون أن يعرف أحد ما يجول في رأسه.

نامت في ليلة عيد الميلاد، ونام جورج في العتمة دون أن يتكلم.

«توقف عن التصرف بغرابة شديدة»، قالت له. «دعنا نتكلم عن الحُكماء وكيف يُعلّق الأطفال في الأراضي المقدسة أحذيتهم بدلاً من تعليق جواربهم».

لم يُجب جورج، وخلد إلى النوم.

1- قاتل بيبي (المترجمة)

نهضت في الساعة الرابعة، وأيقظت جميع العائلة. أشعل والدها النار في الغرفة الأمامية، وسمح لهم بالتوجه إلى شجرة الميلاد، والحصول على هداياهم. حصل جورج على زيّ هندي، ورالف على لعبة مطاطية. أمّا هدايا بقية العائلة فكانت من الثياب. بحثت ميك في جوربها عن ساعة ميكي ماوس، ولم تعثر عليها. كانت هديتها عبارة عن حذاء بأربطة وعلبة من حلوى الكرز.

كان الوقت مبكراً والظلام شديداً عندما خرج جورج إلى الرصيف وفجر إصبعين من المفرقعات تدعى نيغرتوز، وأطلق أسهماً نارية، وتناول كامل علبة حلوى الكرز المكونة من الطبقتين. وبحلول الصباح شعروا بالغثيان والتعب. استلقوا على الأريكة، وأغلقت ميك عينيها، وانسحبت إلى غرفتها الداخلية.

-6-

في الساعة الثامنة جلس الطبيب كوبلاند إلى مكتبه يطالع مجموعة من الأوراق في ضوء الصباح الكئيب الذي دخل من النافذة. بقربه شجرة شجرة أرز بلون أخضر قاتم وأغصان كثيفة تصل إلى السقف. اعتاد منذ مزاولته الطب إقامة حفلة سنوية في عيد الميلاد، والآن كل شيء جاهز للحفلة. هناك صفوف من المقاعد والكراسي التي رُتبت عند جدران الغرف الأمامية. تصاعدت في أنحاء المنزل رائحة نكِهة وحلوة لكعكة مخبوزة حديثاً وقهوة طازجة. جلست بورشيا في المكتب على المقعد مقابل الجدار، وطوت يديها تحت ذقنها، وبدا جسدها منحنياً بشكل مضاعف تقريباً.

«تعمل فوق مكتبك منذ الخامسة صباحاً يا أبي. أليس لديك جولات لتقوم بها؟ كان يجب أن تبقى في السرير إلى أن يحين وقت الجولات».

بلل الطبيب كوبلاند شفتيه الغليظتين بلسانه، فعقله مشغول بأمورٍ كثيرة. ولم يلقِ بالاً لما قالته بورشيا، وأزعجه وجودها.

في النهاية التفت إليها مُحتداً وقال لها:

«لمَ تجلسين هنا وتنوحين؟»

«أنا قلقة فقط»، أجابت. «أنا قلقة على ويلي».

«ويليام؟»

«واظب وليام على الكتابة كل أحد، ووصلت رسائله أيام الإثنين والثُلاثاء، ولكنه لم يُرسل أيّة رسالة في الأسبوع الماضي. بالطبع أنا لست

قلقة جداً، ولكن ويلي ذو طبيعة طيبة ولطيفة، وأعلم أنّه سيكون على ما يرام. تمّ نقله من السجن، وأصبح سجيناً عاملاً في مكان ما من شمال آتلانتا. كتب لي هذه الرسالة منذ أسبوعين ليقول لي أنّه سيحضر القداس في الكنيسة اليوم، وطلب مني أن أرسل له بذلته وربطة عنقه الحمراء».

«هل هذا كل ما قاله ويليام؟»

«كتب أنّ هذا السّيد المدعو بي. إف. مايسون في السجن أيضاً، وأنّه التقى بفتى يعرفه يدعى باستر جونسون. طلب مني أيضاً أن أرسل له قيثارته لأنّه لا يُمكن أن يكون سعيداً من دون العزف على قيثارته. أرسلت له كل شيء بالإضافة إلى رقعة شطرنج وكعكة مغلفة بعجينة السُكر، ولكنني آمل حقاً أن يصلني خبر منه في الأيام القادمة».

التمعت عينا الطبيب كوبلاند غضباً، ولم يستطع أن يوقف يديه عن الارتعاش.

«كان يجب أن نناقش هذا في وقتٍ لاحق يا ابنتي. تأخر الوقت ويجب أن أنهي عملي هنا. فلتعودي إلى المطبخ، ولتتأكدي من أنّ كل شيء جاهز».

وقفت بورشيا، وحاولت أن يبدو وجهها مشرقاً وسعيداً.

«ما الذي قررته بشأن جائزة الخمسة دولارات؟»

«ما زلت غير قادر على معرفة الطريقة الأفضل للاختيار»، قال بحذر.

كان لدى الطبيب كوبلاند صديق زنجي يعمل صيدلانياً، وهو يمنح جائزة قدرها خمسة دولارات لأي طالب في المدرسة يكتب أفضل مقالة عن موضوع معين. كان الصيدلاني يطلب دوماً من الطبيب كوبلاند أن يكون الحكم الوحيد على المقالات، ويُعلن عن الفائز في حفلة عيد الميلاد. إن موضوع المقالة هذا العام (طموحي: كيف يُمكنني أن أحسّن من وضع العرق الزنجي في المجتمع). من بين جميع المقالات لم تكن هناك سوى مقالة واحدة تستحق الاعتبار، ولكن رغم هذا كانت الكتابة طفولية وغبية، وبالكاد تستحق النظر في استحقاقها للجائزة.

وضع الطبيب نظاراته، وأعاد قراءة المقالة بتركيز عميق:

«سأتحدث عن طموحي. أرغب في البداية بارتياد جامعة توسكيجي، ولكنني لا أتمنى أن أصبح رجلاً كواشنطن أمين المكتبة أو الطبيب كارفر. عندما أنتهي من دراستي أتمنى أن أصبح محامياً جيداً كأحد المحامين الذين تولوا قضية الصبية سكوتسبرو[1]. سأتولى قضايا الناس الملونين التي سيرفعونها على البيض. لا يمر يوم لا يشعر فيه شعبنا بالدونية بكل الطرق والوسائل، وهذا ليس صحيحاً فنحن العرق الناهض. لا يمكننا أن نكدح تحت نير الإنسان الأبيض لوقتٍ طويل، لا يمكننا أن نظل المزارعين، بينما غيرنا يحصد ثمار زرعنا.

أريد أن أكون كموسى الذي أخرج أطفال إسرائيل من أراضي المستغلين. أريد أن أنشئ منظمة سرية للقادة والدارسين الملونين. سيتم تنظيم كل الملونين وسيعملون بتوجيهات من هؤلاء القادة المختارين، وسنمهد للثورة. ستأتي كل أمم العالم المهتمة بفاجعة عرقنا وانقسام الولايات المتحدة إلى مساعدتنا. سيُنظم كل الناس الملونين، وسيكون هناك ثورة، وعاجلاً سيضعون يدهم على كل المنطقة الواقعة شرق المسيسبي وجنوب بوتوماك. سأؤسس بلداً عظيماً تحت حُكم منظمة القادة والدارسين الملونين. لن يُعطى أي أبيض جواز سفر لدخول هذا البلد، وإن دخلوا البلد فلن يكون لديهم حقوق قانونية.

أكره العرق الأبيض كله، وسأعمل دوماً على أن يحصل العرق الملون على انتقامه من كل العذابات التي لحقت به. هذا هو طموحي».

شعر الطبيب كوبلاند بحرارة محمومة في عروقه. كانت تكتكة الساعة على مكتبه عالية، وأثار صوتها أعصابه. كيف يمكنه أن يمنح الجائزة إلى فتى لديه هذه الفكرة عن أمّة جنونية كهذه؟ ماذا عليه أن يقرر؟

كان محتوى المقالات الأخرى ضعيفاً تماماً. إنّ الشباب لا يفكرون،

1- وهي قضية تسعة فتية أفارقة تتراوح أعمارهم بين 13 و20 اتهموا ظلماً باغتصاب امرأتين بيضاويتين على قطار في عام 1931. (المترجمة)

فلقد كتبوا عن طموحاتهم، وأغفلوا القسم الثاني من العنوان المطلوب. هناك فكرة واحدة مهمة وهي أنّ تسعة مقالات من أصل خمس وعشرين مقالة تبدأ بجملة «لا أريد أن أكون عبداً». بعد هذه الجملة عبروا عن رغباتهم بقيادة الطائرات أو أن يكونوا ملاكمين محترفين أو واعظين أو راقصين. وهناك فتاة قالت إنّ حلمها الوحيد أن تعطف على الفقراء.

إنّ كاتب المقالة التي شغلته لانسي ديفيز، وعرف الطبيب كوبلاند كاتبها قبل أن يقلب الورقة ويرى توقيعه، وهو لديه مشكلة مع ذلك الولد أصلاً. عملت أخت لانسي كخادمة عندما كانت في الحادية عشرة من العمر. اغتصبها ربّ عملها وهو رجلٌ أبيض في منتصف العمر، وبعد عام على حدوث هذا استدعوه من أجل حالة صحية طارئة وقعت للانسي.

توجه الطبيب كوبلاند إلى غرفة نومه، وعاد بالملف المرضي الخاص بلانسي حيث كتب ملاحظات عن كل مرضاه، وأخرج البطاقة المعنونة «السيدة دان ديفيز وعائلتها»، وراجع الملاحظات إلى أن وصل إلى اسم لانسي. يعود تاريخ هذه الملاحظة إلى أربع سنين. كان الطبيب كوبلاند قد كتب تفاصيل حالته بالحبر وبعناية أكبر مقارنة بكتابته لتفاصيل ملفات الآخر.

«العمر ثلاثة عشر عاماً - تجاوز مرحلة البلوغ - لديه محاولات غير ناجحة لإخصاء نفسه. يشغل الجنس تفكيره ومصاب بفرط نشاط غدته الدرقية. بكى خلال الزيارتين اللتين قمت بهما بصوتٍ عالٍ دون أن يكون هناك ألمٌ كبير. يتكلم بفصاحة ويسعده التحدث بارتياب. إن بيئته المنزلية جيدة مع استثناء واحد وهو أنّ أمّه تعمل كغاسلة ثياب. فتى ذكي ويستحق المراقبة وكل المساعدة الممكنة. استمر بالتواصل معه. أجر الزيارة دولار واحد (؟)».

«سيكون القرار صعباً هذا العام»، قال الطبيب كوبلاند لبورشيا. «ولكن أعتقد أنه علي أنّ أمنح الجائزة إلى لانسي ديفيس».

«إن انتهيت من التحكيم فلتأتِ إلى هنا، وتخبرني عن هذه الهدايا».

وضعوا الهدايا التي ستوزع خلال الحفلة في المطبخ. هناك أكياس بقالة ورقية وثياب مع بطاقة معايدة حمراء على كل قطعة. فمن كان مُهتماً بالحضور كان مدعواً إلى الحفلة، ولكن من أرادوا الحضور حقاً مروا بالمنزل وكتبوا - أو طلبوا من صديق أن يكتب لهم - أسماءهم في دفتر الحضور على الطاولة في الردهة من أجل الحصول على هدية. وضعت الأكياس في كومة على الأرض كان هناك حوالي أربعين هدية، ويعتمد حجم كل هدية على حاجة متلقيها. كانت بعض الهدايا عبارة عن صرر صغيرة من المكسرات أو الزبيب، وأخرى عُلباً ثقيلة حقاً حتى على رجل ليحملها، واكتظ المطبخ بالأطايب. وقف الطبيب كوبلاند في الممر وتنشق من منخريه بكل فخر.

«أعتقد أنكَ أبليت حسناً هذا العام، وكان الناس كرماء أيضاً».

«تباً، هذا أقل بكثير مما هو مطلوب». قال الطبيب كوبلاند.

«أبي، أعلم جيداً أنك راضٍ عن هذا، ولكنك لا تريد إظهار رضاك. عليك أن تجد شيئاً آخر لتشتكي منه. لدينا أربع أحمال من البازلاء وعشرون كيساً من الدقيق وخمسة عشر باوند من دقيق من نوعٍ آخر وسمك البوري واثنتان وسبعون بيضة والكثير من جريش الذرة ومرطبانات من الطماطم والدراق. لدينا أيضاً تفاح وأربع وعشرون برتقالة. يوجد ملابس وفراشين وأربع بطانيات. أرى أنّ هذا شيء حقيقي!»

«نقطة في ماء البحر».

أشارت بورشيا إلى صندوق كبير في الزاوية.

«ها هي - ما الذي تنوي أن تفعله بها؟»

لم يكن في الصندوق أي شيء سوى الخردة، دمية بلا رأس وبعض المخرمات القذرة وجلد أرنب. تفحص الطبيب كوبلاند كل قطعة وقال لبورشيا: «لا ترمي شيئاً لأنّه يمكننا أن نستفيد من كل قطعة. هذه هي

الهدايا من ضيوفنا ممن لا يملكون أكثر من هذا ليقدموه. سأحاول أن أستفيد منها بطريقة ما».

«إذاً انظر في أمر هذه الصناديق والأكياس حتى أبدأ بربطها، فلن يكون هناك متسع لها في المطبخ عندما يجتمع الناس لتناول المرطبات. سأضع هذه الهدايا على الدرج الخلفي وفي الحديقة».

سطعت شمس الصباح وبدا أنّ اليوم سيكون مُشرقاً وبارداً. فاحت من المطبخ روائح عديدة زكية. كانت مصفاة القهوة على الموقد مع كعكة بعجينة السكر، وقد شغلتا رف الخزانة.

«ألم يصلنا شيءٌ من البيض؟ فقط من السود؟»

«لا»، قال الطبيب كوبلاند. «هذا ليس صحيحاً تماماً. قدّم السيد سينغر شيكاً باثني عشر دولاراً من أجل الفحم، ولقد دعوته الليلة إلى الحفلة».

«يا إلهي!» قالت بورشيا. «عشرون دولاراً».

«شعرت أنّه من اللائق أن أدعوه، فهو لا يشبه أي أحد من العرق القوقازي».

«أنتَ على حق»، قالت بورشيا. «ولكن بالي مشغول على ويلي. أنا متأكدة أنّه كان ليُسعد بوجوده في الحفلة اليوم. أتمنى حقاً لو وصلتني رسالة منه، أصلي في داخلي لأنّ يحدث هذا. ولكن فلنتوقف عن التحدث ولنستعد فلقد اقترب موعد الحفلة».

كان الوقت المتبقي كافياً. اغتسل الطبيب كوبلاند، وارتدى ثيابه لوحده وبعناية. حاول أن يتدرب لبعض الوقت على ما سيقوله عندما يحضر جميع الضيوف. ولكن التوقع والتوتر لم يسمحا له بالتركيز. وبحلول الساعة العاشرة وصل الضيف الأول وخلال ساعة ونصف حضر الجميع.

«ميلاد سعيد عليك»، قال ساعي البريد جون روبرتس. تنقل الطبيب

كوبلاند في أرجاء الغرفة المكتظة، وأحد أكتافه أعلى من الآخر، ومسح وجهه بمنديل حريري.

«عيد سعيد عليكم».

اكتظ المنزل بالناس، وقد سدّوا الباب وتحلقوا في مجموعات على الشرفة الأمامية وفي الحديقة. لم يحصل أي تدافع أو إساءة تصرف، فقد كان الحشد مُنظماً. التقى الأصدقاء وتعارف الغرباء وتصافحوا بالأيدي. اجتمع البالغون والصغار معاً، وانتقلوا إلى المطبخ.

«هدايا عيد الميلاد!»

وقف الطبيب كوبلاند وسط الغرفة بقرب الشجرة. شعر بالدوار، وصافح الناس، وردّ على الكثير من التحيات باضطراب. ووضعت في يديه هدايا شخصية منها ما كان ملفوفاً بالشرائط بكل عناية، وأخرى ملفوفة بأوراق الجرائد، ولكنه لم يجد مكاناً لوضعها. أصبح الجو عابقاً، وعلت الأصوات، وبدت الوجوه أمامه وكأنه تدور في دوامة، ولم يتمكن من تمييز وجه أحد، ولكن شيئاً فشيئاً عادت إليه رباطة جأشه. عثر على مكان يضع فيه الهدايا التي كانت على ذراعه. تراجع دواره، وأخذت الغرفة تبدو أوضح. وضع نظاراته، ونظر حوله.

«ميلاد مجيد! ميلاد مجيد!»

حضر الصيدلاني مارشال نيكولز في معطفٍ بذيلٍ طويل، وتحدث مع زوج ابنته الذي يعمل على سيارة قمامة. أتى الواعظ من كنيسة الصعود المقدس وشمّاسان من كنائس أخرى. ارتدى هايبوي بذلة بمربعات عريضة، وتفاعل بودٍ مع الحشد. هناك شخصان شديدا التأنق انحنيا نحو امرأة شابة في ثوبٍ طويل ملوّن وبرّاق. وهناك أمهات مع أطفالهن ورجال عجائز وقورون يبصقون في مناديل صارخة اللون. كانت الغرفة دافئة وصاخبة.

وقف السيد سينغر في الردهة، وحدّق العديد من الناس به. لم يتذكر

الطبيب كوبلاند إن كان قد رحب به. وقف الأبكم وحده، وبدا وجهه وجهاً يهودياً جداً وشبيهاً بوجه اسبينوزا. من الجيد حقاً أن يراه هنا.

فُتحت الأبواب والنوافذ، ودخلت التيارات الهوائية إلى الغرفة، واستعرت النار في الموقد. هدأت الضجة، ولم يعد هناك أي كرسي شاغر، وجلس الشباب في صفوف على الأرض. اكتظت الردهة والشرفة بما في ذلك الحديقة بالضيوف الصامتين. حان الوقت ليتحدث فماذا سيقول؟ وتركّز خوفه في حنجرته. كان الحاضرون بانتظاره، وبإشارة من جون روبرتس صمت الجميع.

«يا أهلي»، بدأ الطبيب كوبلاند كلامه دون مقدمات، ولحق هذا صمت قصير ثمّ اندفعت الكلمات منه:

هذا العام التاسع عشر الذي نجتمع فيه سوياً في هذه الغرفة للاحتفال بعيد الميلاد. عندما سمع أهلنا عن مولد المسيح كان ذلك الوقت وقتاً عصيباً. لقد بيع أهلنا كعبيدٍ في ساحة محكمة هذه البلدة، ومنذئذ سمعنا وروينا قصة حياته مرّاتٍ كثيرة لا تعد ولا تحصى. ولهذا قصتنا اليوم ستكون قصة مختلفة.

منذ مئة وعشرين عاماً ولد رجلٌ آخر في ذلك البلد المعروف باسم ألمانيا، وهو بلد يقع على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. كان هذا الرجل رجلاً عارفاً كالمسيح، ولكن أفكاره لم تتمحور حول الجنة ومستقبل الموتى. ارتكزت مهمته على الحياة وعلى الجماهير البشرية الكبيرة التي تعاني وتكدح حتى الموت، على الناس الذي يعملون في الغسيل والطبخ وقطف القطن وفي أحواض الدباغة الحارة. نحن نمثل المُهمة التي عمل عليها هذا الرجل والذي يدعى كارل ماركس.

كان كارل ماركس رجلاً حكيماً. درس وعمل وفهم العالم من حوله. قال إنّ العالم مُقسّم إلى طبقتين: الفقراء والأغنياء. ومقابل كل رجلٍ غني هناك آلاف الفقراء الذين يعملون من أجل زيادة ثرائه. لم يُقسم ماركس العالم إلى زنوج أو بيض أو صينيين. بالنسبة لكارل ماركس أن

تكون واحداً من بين ملايين الفقراء أو أحد الأثرياء القلائل أهم بكثير من الفرق في لون البشرة. كانت المهمة التي تبناها كارل ماركس طوال حياته أن يحقق المساواة بين كل البشر، وتقسيم الثروة الكبيرة في العالم حتى لا يعود هناك غني وفقير وليحصل كل إنسان على حصته. إليكم إحدى التعاليم التي تركها لنا كارل ماركس:

«للجميع بحسب قدراتهم، للجميع بحسب حاجاتهم».

لوح كفٌ أصفر متغضن بهدوء في الغرفة.

«هل كانت العلامة التي ذكرها الإنجيل؟»

شرح الطبيب كوبلاند، وهجّأ الاسمين وذكر التواريخ وتابع:

«هل من أسئلة أخرى؟ أتمنى أن يشعر الجميع بالراحة في طرح الأسئلة والدخول في أي نقاش».

«هل كان السيد ماركس مسيحياً؟» سأل الواعظ.

«آمن بقداسة الروح الإنسانية».

«هل كان رجلاً أبيض؟»

«أجل، ولكن لم ينظر إلى نفسه كرجلٍ أبيض. وقال: «لا أرى نفسي مُختلفاً عن أي إنسان آخر». كان يعتبر نفسه أخاً لكل الناس».

توقف الطبيب كوبلاند عن الحديث لدقيقة أخرى، وانتظرته الوجوه حوله.

«ما هي قيمة أيّة ملكية أو أيّة سلعة نشتريها من المتجر؟ تعتمد القيمة على شيء واحد فقط وهو العمل الذي تطلّبه إنتاجها أو صنعها. لم يُكلّف منزلٌ مصنوع من القرميد أكثر من زراعة ملفوفة واحدة؟ لأنّ عمل العديد من الرجال مرتكز على بناء منزلٍ قرميدي واحد. هناك من يصنع القرميد والملاط، وهناك من يقطع الأشجار من أجل الألواح الخشبية التي تُستخدم لبناء الأرضية. إنهم الرجال الذين جعلوا بناء منزلٍ قرميدي أمراً ممكناً. هناك من حمل المواد إلى موقع البناء، ومن صنع عربات

النقل والشاحنات التي نقلت مواد البناء إلى الموقع. وأخيراً هناك العمال الذين عملوا على بناء المنزل. يتطلب بناء منزل قرميدي جهد العديد والعديد من الناس بينما جميعنا قادرون على زراعة الملفوف في حدائقنا الخلفية. إنّ تكلفة المنزل القرميدي أكبر من تكلفة زراعة الملفوف لأنّه يتطلب عملاً أكثر. ولهذا عندما يشتري رجلٌ هذا المنزل القرميدي فهو يدفع ثمن العمل الذي تطلبه بناؤه. ولكن من يحصل على المال، على الفائدة؟ ليس الرجال الكثر الذين قاموا بالأعمال بل المُدراء الذين يتحكمون بهم. إن تعمقنا في الموضوع سنكتشف أنّ هؤلاء المُدراء لديهم مُدراء يعملون تحت إمرتهم، ولهؤلاء المُدراء مُدراء أيضاً أعلى منهم. والناس الحقيقيون الذين يتحكمون بكل هذا العمل الذي يُعطي كل سلعة قيمة مالية قليلون جداً. هل كل ما قلته إلى الآن مفهوم؟»

«مفهوم!»

ولكن هل فهموا؟ نظر حوله وأعاد ما قاله قبلاً، ولكن هذه المرة كان هناك أسئلة.

«ولكن ألا يكلف الملاط اللازم لتثبيت هذه الحجارة المال؟ ألا يُكلف استئجار الأرض وزراعة المحاصيل المال؟»

«هذه نقطة جيدة»، قال الطبيب كوبلاند. «الأرض والملاط والخشب. كل هذه الأشياء تدعى موارد أوليّة، والإنسان لا يصنع الموارد الطبيعية هو فقط يقوم بتطويرها ويستخدمها للعمل. وبالتالي نصل إلى السؤال التالي: هل يجب أن يقوم أيّ شخص أو مجموعة بامتلاك هذه الأشياء؟ كيف يُمكن للإنسان أن يمتلك الأرض والمساحة وضوء الشمس والمطر من أجل المحاصيل؟ كيف يُمكن للإنسان أن يقول عن أيّ شيء «هذا لي» ويرفض أن يسمح للآخرين بالمشاركة فيه؟ وبناءً على هذا يقول ماركس أن هذه الموارد الطبيعية يجب أن تكون ملك الجميع وغير موزعة على أقسام صغيرة بل أن تُستخدم كلها من قبل كل الناس وفق قدرتهم على العمل. هذا هو الأمر. فلنقل أنّ رجلاً مات وترك حماره لأبنائه الأربعة.

لا يُمكن للأبناء الأربعة أن يقسموا الحمار إلى أربعة أجزاء ويأخذ كل ابن حصته منه. سيكون الحمار ملكهم جميعاً، وسيعملون عليه معاً. هذه الطريقة التي يعبر فيها ماركس عن كيفية امتلاك الموارد الأولية وهي ألا تملكها مجموعة واحدة من الأغنياء بل أن يملكها عمال العالم أجمعه».

«لا يملك الحاضرون هنا أيّة ممتلكات شخصية. ربما هناك واحد أو اثنان هنا يملكان المنزل الذي يسكنان فيه أو يملكان دولاراً أو دولارين جانباً. ولكننا لا نملك أيّ شيء غير الذي يُساهم في إبقائنا أحياء بشكل مباشر. كل ما نملكه أجسادنا ونحن نبيعها مع كل يومٍ نعيش فيه. نبيعها كل صباح نخرج فيه إلى أعمالنا، ونكدح طوال اليوم. نحن مجبرون على بيعها بأيّ سعر وفي أيّ وقتٍ ومن أجل أيّ غرض. إننا مجبرون على بيع أجسادنا حتى نأكل ونعيش، والثمن الذي نحصل عليه مقابل هذا بالكاد يكفي حتى يكون لدينا القوة على العمل لوقتٍ أطول من أجل منفعة الآخرين. لا نقف حالياً على منصّات، ولا نُباع في ساحة المحكمة، ولكننا مُجبرون على بيع قوتنا ووقتنا وأرواحنا كل ساعة تقريباً من حياتنا. حُررنا من نوع معين من الرّق فقط لنصبح عبيداً بطريقة أخرى. هل هذه الحريّة؟ هل نحن رجال أحرار؟»

أتى صوت عميق من الحديقة الأمامية.

«هذه هي الحقيقة الخالصة!»

«إنّها الطريقة التي تسير عليها الأمور!»

«ونحن لسنا لوحدنا في هذه العبودية. هناك الملايين غيرنا في العالم من كل الألوان والأعراق والعقائد. علينا ألا ننسى هذا. هناك الكثير من شعبنا الذين يكرهون فقراء العرق الأبيض وهم يكرهوننا أيضاً. إنّ الناس الذين يعيشون بالقرب من النهر في هذه البلدة ومن يعملون في المصانع أناس معوزون مثلنا تماماً. هذا الكره شرٌ عظيم، ولا يُمكن أن يأتي منه أيّ نفع. يجب أن نتذكر كلمات كارل ماركس ونرى الحقيقة وفق تعاليمه. يجب أن يجمعنا الظلم الناجم عن الحاجة وألا يُفرقنا. علينا ألا

نسى أن كدحنا ما يُعطي هذه الموارد الطبيعية قيمة. هذه هي الحقائق الأساسية التي أتى بها ماركس، وعلينا أن نحفظها في قلوبنا على الدوام وألا ننساها».

«ولكن يا أهلي! أنتم هنا في هذه الغرفة، نحن الزنوج أمامنا مهمة واحدة وهي مهمة خاصة بنا وحدنا. لدينا غاية قوية وحقيقية، وإن فشلنا في الوصول إليها سنضيع إلى الأبد. لنرَ إذاً ما هي طبيعة هذه المهمة الخاصة».

حرر الطبيب كوبلاند ياقة قميصه فقد انتابه في حلقه شعور بالاختناق. كان شعور الحب المأساوي الذي اجتاحه عظيماً جداً. نظر حوله إلى الضيوف الصامتين والمنتظرين لما سيقوله. كان لمجموعات الناس في الحديقة وعلى الشرفة ذات الاهتمام الهادئ لما سيقوله ككل من كان في الغرفة. انحنى رجل عجوز أصمّ إلى الأمام ويده على أذنه، وهناك امرأة تحاول إسكات طفلٍ نكد بمصاصة. وقف السيد سينغر في الردهة متحفزاً، وجلس معظم الشباب على الأرض. كان لانسي ديفيز من بينهم. كانت شفتا الولد متوترتين وشاحبتين، وقد حضن ركبتيه بذراعيه بقوة ووجهه الفتي مُكفهر. بدت كل العيون في الغرفة مترقبة بجوعٍ إلى الحقيقة.

«سنمنح جائزة خمسة دولارات الليلة إلى طالب في المدرسة الثانوية كتب أفضل مقال في موضوع المسابقة وهو «طموحي: كيف يمكنني أن أحسّن وضع العرق الزنجي في مجتمعي». وتذهب الجائزة هذه العام إلى لانسي ديفيز». تناول الطبيب كوبلاند مظروفاً من جيبه. «ما من داعٍ لأخبركم أن قيمة هذه الجائزة ليست في المبلغ المالي بل في الثقة والإيمان المقدس الذي تقدمه».

نهض لانسي على قدميه بحرج، وارتعشت شفتاه الكالحتان. انحنى وقبّل الجائزة.

«هل تريد أن أقرأ المقالة التي كتبتها؟»

«لا»، قال الطبيب كوبلاند. «أريدك أن تزورني لنتحدث في وقتٍ ما من هذا الأسبوع».

«أجل يا سيدي». وغرقت الغرفة في الصمت مجدداً.

«لا أريد أن أكون خادماً!» هذه هي الرغبة التي تكررت في كل المقالات. «خادم؟ فقط واحد من الألف بيننا يُسمح له بأن يكون خادماً. نحن لا نعمل! نحن لا نخدم!»

وعمّ الغرفة ضحك مرتبك.

«أصغوا! واحد من بين خمسة منا يعمل في بناء الطرقات أو العناية بنظافة هذه المدينة، أو يعمل في منشرة خشب أو في مزرعة، وواحد من بين خمسةٍ منا غير قادر على إيجاد عمل أبداً. ولكن ماذا عن الثلاثة الباقية من الخمسة - العدد الأكبر من شعبنا؟ الكثير منا يطبخون لمن هم غير قادرين على تحضير الطعام الذي يأكلونه، ويعمل الكثير منا طوال حياته في الاهتمام بالزهور في الحدائق من أجل أن يتمتع بهذا شخصٌ أو شخصان. يمسح العديد منا ويلمع بالشمع أرضيات البيوت الراقية، أو يقود سيارات الأغنياء الكسولين جداً على القيادة بأنفسهم. نقضي حياتنا ونحن نقوم بآلاف الأعمال غير المفيدة حقاً. نعمل ونعمل وكل مجهودنا يذهب سدى. هل هذه خدمة؟ لا هذه عبودية».

«إننا نعمل ولكنّ عملنا يذهب سدى. لا يُسمح لنا بالخدمة. أنتم أيّها الطلاب الحاضرون هنا الآن تمثلون القلة المحظوظة من عِرقنا. لا يُسمح لمعظم أهلنا بارتياد المدرسة أبداً، ومقابل كل واحد منكم هناك الكثير من الشباب الذين بالكاد يستطيعون كتابة أسمائهم. إننا محرمون من كرامة الدراسة والحكمة».

«كُلٌّ حسب قدرته، وكلٌّ حسب حاجاته». جميعنا هنا يعلم معنى المعاناة الناجمة عن حاجة حقيقية. إنّه ضيمٌ عظيم، ولكن هناك ظلمٌ أكبر من هذا، وهو أن نُحرم الحق بالعمل حسب قدراتنا، وأن نكدح طوال حياتنا دون طائل، وأن نُحرم من فرصة الخدمة. إنّه لمن الأفضل بكثير أن نخسر أموالنا على أن نخسر كنوز عقولنا وأرواحنا.

«أيها الشباب قد يشعر بعضٌ منكم في هذا الصباح بالحاجة إلى

العمل كمُدّرس أو ممرضة أو قائد لشعبنا، ولكن معظمنا سيُحرمون من هذا، وسيكون عليكم أن تبيعوا أنفسكم مقابل غايات أقل قيمة لتبقوا على قيد الحياة، سيتم إقصائكم وستُهزمون، فالكيميائي الشاب سيقطف القطن والكاتب الصاعد لن يستطيع تعلم القراءة، وسيقع المُعلّم في عبودية عبثية خلف لوح كي الملابس. ليس لدينا ممثلون في الحكومة، ولا نملك أي صوت. ونحن أكثر المُضطهدين من بين جميع سكان هذا البلد، فلا يمكننا أن نرفع أصواتنا، وألسنتنا تتعفن في أفواهنا من قلة الاستخدام، ويزداد خواء قلوبنا، ونفقد القوة التي يمنحها وجود غاية في حياتنا».

«أيّها العرق الزنجي! ولدنا بكل ثروات العقل والروح البشرية، ونحن نقدم أثمن العطايا التي تلقى الاحتقار والازدراء، ويُداس عليها في الوحل لتذهب سدىً. نحن مجبرون على الكدح دون طائل أكثر من مما تكدح البهائم. أيّها الزنوج! علينا أن ننهض ونتحد! علينا أن نتحرر!»

سرت في الغرفة همهمة، وازدادت الهيستيريا. اختنق الطبيب كوبلاند، وأطبق قبضتيه، وشعر وكأنّه يتضخم بحجم عملاق. إنّ الحب الذي في داخله جعل صدره أشبه بالمولد، وأراد أن يصرخ ويصل صوته إلى كل أنحاء البلدة. أراد أن يسقط على الأرض، ويصرخ بصوته العملاق. امتلأت الغرفة بالتنهدات والصرخات.

«أنقذنا!»

«أيّها الربّ العظيم! أخرجنا من براري هذا الموت!»

«هللويا! أنقذنا أيّها الرّب!»

كافح الطبيب كوبلاند ليتحكم بنفسه، كافح كثيراً حتى استعاد سيطرته على نفسه. كبح كل الصرخات فيه، وبحث عن صوته القوي والحقيقي.

«انتبهوا!» صاح. «سننقذ أنفسنا ولكن ليس بصلوات الابتهال ولا في راحة المشروب القوي ولا بمتعِ الجسد أو بالجهل، ولا بالخضوع

والتواضع، بل بالكبرياء والكرامة وبالصلابة والقوة. يجب أن نتحلى القوة من أجل غاية حقيقية وصادقة».

توقف فجأة ووقف باستقامة، «في كل عام وفي مثل هذا الوقت نعيد بطريقتنا الصغيرة رسم الوصية الأولى لكارل ماركس، وكل شخص في هذا التجمع قدم بعض الهدايا مسبقاً. وحرم الكثير منكم نفسه من راحة شيء ما من أجل أن يقلل حاجة شخصٍ آخر. كل واحد منكم قدّم على قدر استطاعته، ومن دون التفكير بقيمة الهدية التي سيتلقاها بالمقابل، فمن الطبيعي أن نشارك بعضنا. نعلم منذ زمن أنّ العطاء مبارك أكثر من الأخذ، ولطالما كانت كلمات كارل ماركس في قلوبنا».

«كُلٌ حسب قدرته، كُلٌ حسب حاجاته».

صمت الطبيب كوبلاند لوقتٍ طويل، وكأنّ كلماته اكتملت ثمّ تابع حديثه:

«إنّ مهمتنا أن نتجاوز بقوة وبكرامة أيام الذل الذي تعرضنا له. يجب أن يكون كبرياؤنا متيناً لأننا نعلم قيمة العقل والروح البشرية، علينا أن نُعلّم أطفالنا، وأن نضحي حتى يتمكنوا من اكتساب كرامة العلم والحكمة، لأنّ الوقت سيأتي، سيأتي الوقت الذي لن يُنظر فيه إلى الثروات الكامنة فينا باحتقار وازدراء. سيأتي الوقت الذي سيُسمح لنا بأن نكون ذوي فائدة، وسيحدث هذا عندما نكدح، ولا يذهب كدحنا سدىً. إن مهمتنا أن ننتظر هذا الوقت بقوة وبإيمان».

انتهى الطبيب كوبلاند من حديثه، وصفق الحاضرون، وخبطوا بأقدامهم على الأرضية وعلى الأرض الشتائية القاسية خارجاً. أتت رائحة القهوة حارة وقوية من المطبخ. تولى جون روبرتس مهمة توزيع الهدايا، ونادى على الحاضرين وفق الأسماء المكتوبة على البطاقات. صبّت بورشيا القهوة من الإبريق على الموقد، ووزع مارشل نيكولز قطع الكعك. تنقل الطبيب كوبلاند بين الضيوف، وأحاط به حشدٌ صغير من الناس طوال الوقت.

أمسكه أحدهم من مرفقه وألح بالسؤال: «هل هو الرجل الذي أسميت ابنك على اسمه؟» أجاب بنعم. لاحقه لانسي ديفيز بالأسئلة، وأجاب بنعم على كل شيء. منحته السعادة شعوراً مُسكراً وشعر وكأنّه رجل ثمل، أن يعلّم ويعظ، ويشرح لأهله، وأن يجعلهم يفهمون. كان هذا أفضل من أيّ شيءٍ آخر. أن يتكلم بالحقيقة ويلقى أذاناً صاغية.

«لقد حظينا بوقتٍ رائع في هذه الحفلة».

وقف في الردهة مودعاً ومصافحاً الكثير من الأيدي. استند بتثاقل على الجدار، ولم يتحرك فيه شيء سوى عينيه فقد كان مُتعباً جداً.

«أقدّر هذا حقاً».

كان السيد سينغر آخر المغادرين، وهو رجل طيب حقاً. كان رجلاً أبيض مثقفاً وصاحب معرفة أصيلة، ولم يكن في داخله أي من تلك الوقاحة البيضاء اللئيمة. عندما غادر الجميع كان سينغر آخر من بقوا. انتظر وبدا وكأنّه يتوقع كلمة أخيرة.

أمسك الطبيب كوبلاند بيده ووضعها على حنجرته التي كانت ملتهبة.

«المعلمون»، قال بصوتٍ خشن. «هم أعظم حاجاتنا... القادة... شخص ما يوحدنا ويقودنا».

بعد انتهاء الاحتفالية بدت الغرفة خاوية ومُحطمة والمنزل باردٌ. كانت بورشيا تغسل الفناجين في المطبخ وقد ذاب الثلج الفضي على شجرة الميلاد وماؤه يقطر على الأرض، هناك قطعتا زينة قد كُسرتا.

كان الطبيب كوبلاند مُتعباً، ولكن الفرح والحمى لم يسمحا له بالراحة. وبدأ من غرفة النوم بالعمل على إعادة ترتيب المنزل. في أعلى صندوق الملفات ظهرت بطاقة، إنّها بطاقة لانسي ديفيز. وبدأت تتشكل في عقله الكلمات التي سيقولها له، وشعر بالاضطراب لأنّه لا يستطيع قولها له الآن. كان وجه الفتى المتجهم ممُتلئاً بالحب، ولم يستطع أن يزيح هذه الصورة من أفكاره. فتح درج الملفات العلوي ليعيد البطاقة

حسب الترتيب - أ، ب، ت - وتنقل بإبهامه بين الأحرف متوتراً ثمّ ثبت عينيه على اسمه: كوبلاند، بينديكت مادي.

في ملفه العديد من صور الأشعة وتاريخاً مرضياً مختزلاً. رفع صور الأشعة نحو الضوء، وعلى الجانب العلوي من الرئة اليسرى هناك فراغ لامع كنجم مُتكلس، وفي الأسفل لطخة غامقة، وأخرى مثلها في الرئة اليمنى أعلى قليلاً. أعاد الطبيب كوبلاند صورة الأشعة بسرعة إلى الملف، ولم يبق في يديه سوى الملاحظات التي كتبها عن حالته. كانت الكلمات كبيرة وشبيهة بالخربشات، وبالكاد تمكن من قراءتها.

1920: تكلّس الغدد اللمفاوية - تسمك واضح في جدران الأوعية - توقف امتداد التآكل - متابعة العمل.

1937: التآكل ينتشر مجدداً- وتظهر صور الأشعة...

لم يتمكن من قراءة الملاحظات، فهو لم يفهم الكلمات، وعندما تمكن من قراءتها بوضوح بدت غير منطقية. هناك في النهاية ثلاث كلمات: «التشخيص: لا أعلم».

ومجدداً عاد إليه ذلك الشعور العنيف الأسود والقديم، انحنى وفتح درجاً أسفل الخزانة حيث توجد كومة غير مرتبة من الرسائل، رسائل من جمعية تقدم الملونين ورسالة صفراء من ديزي ورسالة من هاملتون يطلب فيها دولاراً ونصف. ما الذي كان يبحث عنه؟ نبش بيديه في الدرج ووقف أخيراً باستقامة.

ضاع الوقت، ومرّت الساعة الماضية.

قشّرت بورشيا البطاطا على طاولة المطبخ، وقد انحنت فوقها منهكة وبوجهٍ حزين.

«ارفعي كتفيك للأعلى»، قال لها بغضب. «وتوقفي عن العبوس. أنت تعبسين وتتأثرين بكل شيء لدرجة لا يعود بإمكاني تحمل النظر إليك».

«كنت فقط أفكر بويلي»، قالت. «تأخرت الرسالة ثلاثة أيام فقط، ولكن ما من داعٍ للقلق عليه لهذه الدرجة. إنّه ليس من هذا النوع، ولكن ينتابني شعور غريب».

«فلتتحلي بالصبر يا بنيتي».

«أعتقد أنّه عليّ فعل هذا».

«يجب أن أقوم ببضع زيارات ولكن سأعود قريباً».

«حسناً».

«سأكون على ما يرام»، قال لها.

غادره كل الفرح مع ضوء شمس الظهر الساطع واللطيف، واختلطت أمراض مرضاه في عقله؛ كلية متورمة... التهاب سحايا... سل. أخذ ذراع تشغيل محرك السيارة من المقعد الخلفي. عادة ما كان يطلب من أحد الزنوج المارين في الطريق أن يدير الذراع له، ولطالما شعر أهله بالسعادة في تقديم العون والخدمة، إلّا أنّه قرر اليوم أن يضع الذراع بنفسه وأداره بهمة. مسح العرق عن وجهه بكُم معطفه، وهرع وراء المقود لينطلق في طريقه.

كم من الكلام الذي قاله وصل إلى الناس؟ وماذا ستكون قيمته؟ استحضر الكلمات التي قالها، وبدت وكأنّها بهتت وفقدت قوتها الآن، أمّا الكلمات التي لم تُقل فربضت ثقيلة على قلبه، وتكورت على شفتيه وأثارتهما. تحركت الوجوه المعذبة لأهله ككتلة ضخمة أمام عينيه، وبينما قاد السيارة ببطء في الشارع اشتعل قلبه بذلك الحب الغاضب والقلق.

-7-

لم تشهد البلدة شتاءً قارساً كشتاء هذا العام. تشكل الصقيع على زجاج النوافذ، وكسا أسطح المنازل بطبقة بيضاء، وتوهجت الظهيرة الشتوية بضوء ليموني كامد وظلال زرقاء خفيفة. غطّت طبقة رقيقة من الثلج البرك الصغيرة في الشارع، وقيل إنّه في اليوم التالي من عيد الميلاد وعلى بعد عشرة أميال شمالاً هطل ثلجٌ خفيف.

طرأ تغيير على سينغر الذي اعتاد التنزه لمسافات طويلة طوال الأشهر اللاحقة لغياب أنتونوبوليس. امتدت هذه النزهات لأميال، وفي كل الاتجاهات، وغطت البلدة بأكملها. تجول في الأحياء المكتظة على طول النهر التي كانت أكثر بؤساً مما كانت عليه قبلاً ومنذ خفّ نشاط المعامل هذا الشتاء. كان هناك في عيون الكثيرين نظرة تشي بالوحدة الرصينة، وبما أنّ الناس مجبرون الآن على العطالة ساد الأجواء شعور بالقلق، وتفشّت أفكار حماسية جديدة. ادعى شاب يعمل في أحواض الدباغة أنّ القوة الإلهية نزلت عليه فجأة، وقال إنّ من واجبه أن يوصل مجموعة جديدة من الوصايا التي أرسلها الرب. اتخذ الشاب خيمةً كهيكل عبادة وأتى الناس بالمئات، وتلووا على الأرض كل ليلة، وآمنوا أنهم في حضرة شيء أبعد مما هو إنساني. وقعت جريمة قامت بها امرأة لم تكن تجني ما يكفي لسد رمقها بحق رئيس العمال الذي اعتقدت أنّه يسرق أجرها فقامت بطعنه في حلقه. انتقلت عائلة زنجية إلى المنزل الأخير في أكثر الشوارع بؤساً مما أثار الكثير من النقمة، وانتهى الأمر

باحتراق المنزل، وتعرّض الرجل للضرب من قبل جيرانه. ولكن هذه كانت مجرّد حوادث فما من شيء حقيقي تغير، والإضراب الذي تحدثوا عنه لم يحدث أبداً لأنّ الناس لم ينجحوا في جمع صفهم. كان كل شيء على حاله، حتى في أبرد الليالي وعندما كان معرض ساني ديكسي مفتوحاً. حلم الناس وأكلوا وناموا كما فعلوا قبلاً، وبدفع من العادة حصروا أفكارهم حتى لا يضيعوا في ظلام التفكير بما يحمله المستقبل.

تجول سينغر في الأجزاء الهامشية من البلدة حيث تفوح الروائح ويعيش الزنوج معاً، حيث الفرح والعنف أكبر، وغالباً ما علقت رائحة الجِن الحادة والجميلة في الأزقة، وتلونت النوافذ بلون ناري دافئ وناعس. أقيمت الاجتماعات في الكنائس كل ليلة تقريباً. كانت المنازل الصغيرة المريحة مبنية على أراضٍ يغطيها العشب الميت. تمشى سينغر أيضاً في هذه الأنحاء التي كان أطفالها أضخم وألطف مع الغرباء. تجول أيضاً في أحياء الأغنياء التي تحوي على بيوتٍ فخمة وعتيقة بأعمدة بيضاء وأسيجة متشابكة جداً من الحديد المرن، ومرّ ببيوت حجرية كبيرة حيث زعقت أبواق سياراتها في الممر المخصص لها، وتصاعد الدخان الكثيف من مداخنها. تجول بعيداً على أطراف الطرقات التي وصلت البلدة بالمحلات الرئيسة وحيث يجتمع المزارعون ليالي السبت، ويجلسون حول الموقد. ولكنه غالباً ما يبدأ التنزه في الشوارع الرئيسة والحيوية الأربعة والمضاءة جيداً، ومن ثمّ ينتهي في الأزقة المعتمة والمهجورة خلفها. لم يكن هناك جزء من البلدة لم يعرفه سينغر، ورأى مربعات الضوء الصفراء التي عكستها آلاف النوافذ. كانت الليالي الشتوية جميلة، والسماء بلون اللازورد الشاحب والنجوم مشعة جداً.

وغالباً ما يُخاطبه أحدهم أو يتم إيقافه خلال هذه النزهات، وبات شخصية معروفة عند كل الناس، وإن خاطبه غريب قدم له سينغر بطاقته حتى يفهم سبب صمته. باتت كل البلدة تعرفه. اعتاد المشي

بكتفين مشدودين جداً، ويداه في جيبيه على الدوام. بدت عيناه البنيتان مأخوذتين بكل شيء حوله، ولم تغادر وجهه تلك السمة المسالمة التي نراها على وجوه الحكماء أو الحزانى جداً. لطالما أسعده إيقاف أحد يرغب بصحبته، فهو في النهاية يتجول من دون غاية.

انتشرت العديد من الإشاعات في البلدة عن الأبكم. في السنوات السابقة التي عاش فيها مع أنتونيوبوليس لم يتمشيا سوى من البيت إلى العمل وبالعكس، وباستثناء هذا بقيا معاً في بيتهما، ولم يُزعجهما أحد آنذاك، وإن حدث ولاحظهما أيّ أحد فكان الاهتمام ينصب على اليوناني الضخم، ولم يلحظ أحد سينغر في تلك الفترة.

كانت الإشاعات التي طالت الأبكم غزيرة ومتنوعة. قال اليهود إنّه يهودي، وادعى الباعة على طول الشارع الرئيس أنّه حصل على إرثٍ كبير وأنّه رجلٌ غني. وانتشرت في إحدى وحدات صناعة النسيج المرعبة أنّ الأبكم ضابط في المخابرات. وادعى أحد الأتراك الذي وصل إلى البلدة منذ سنوات، وكافح مع عائلته في متجرٍ صغير باعوا فيه ثياباً كتانية، أمام زوجته أنّ الأبكم تركي، وأخبرها أنّه عندما حدّث الأبكم بالتركية فهم ما قاله له. وعندما قال هذا الكلام لزوجته غدا صوته أكثر دفئاً، ونسى أمر التشاجر مع أولاده، وبدأ يفكر بخططٍ ونشاطات. وقال رجل عجوز ريفي إن الأبكم أتى من مكان قريب من موطنه، وأنّ والد الأبكم زرع أفضل تبغٍ في كل البلد. قيل عن سينغر كل هذا وأكثر.

لم تغب ذكرى أنتونيوبوليس من ذاكرة صديقه سينغر. ليلاً عندما يُغمض سينغر عينيه يحضره في العتمة وجه اليوناني المدور والزيتي مع ابتسامته الحكيمة واللطيفة، وكانا معاً في أحلامه.

مرّ أكثر من عام الآن على رحيل صديقه، ولم يبدُ هذا العام طويلاً أو قصيراً بل بعيداً عن أي حس عادي بالزمن، وكأنّه مخمور أو نصف نائم. رافقه صديقه في كل ساعة، وهذه الحياة اللصيقة بأنتونيوبوليس تغيرت وتطورت مع تغير مجريات الحياة من حوله. ففي الأشهر الأولى

فكر معظم الوقت بالأسابيع المريعة السابقة لمغادرة أنتونيوبوليس، والمشكلة التي نجمت عن مرضه، وبمذكرات الاعتقال، وبالبؤس الذي أصابه جراء محاولته السيطرة على نزوات صديقه. فكر بالأوقات الماضية عندما لم يكونا سعيدين، واستمرت ذكرى معينة في الماضي البعيد بالعودة إليه مراراً.

لم يكن لديهما أصدقاء، ولكن أحياناً يلتقيان ببكماء آخرين. تعرفا على ثلاثة بكماء على مدار السنوات العشر الماضية، ولكن لم تسر الأمور كما يجب، فأحدهم انتقل إلى ولاية أخرى بعد أسبوع من التعرف عليهما، وتزوج آخر وأنجب ستة أولاد، ولم يتحدث بيديه. ولكن حتى بعد رحيل أنتونيوبوليس لم ينسَ سينغر قصة الأبكم الثالث.

كان اسم الأبكم الآخر كارل، وهو شاب شاحب الوجه يعمل في أحد المعامل. كانت عيناه بلونٍ أصفر شاحب وأسنانه هشّة وشفافة، وبدت شاحبة وصفراء أيضاً. وفي ردائه السروالي الأزرق على جسده الضئيل والنحيل بدا أشبه بلعبة من الخُرق الزرقاء والصفراء.

دعوه إلى العشاء ورتبوا أمر اللقاء به قبل العشاء في المتجر حيث يعمل أنتونوبوليس. كان اليوناني ما يزال مشغولاً عندما وصل سينغر وكارل. كان أنتونوبوليس ينتهي من إعداد دفعة من الفدج بالكراميل في المطبخ الذي يقع في نهاية المتجر. بدا الفدج ذهبياً ولامعاً على الطاولة الرخامية الطويلة، والهواء دافئ وعابق بالروائح الزكية. بدا أنتونوبوليس سعيداً بمراقبة كارل له، بينما مرر سكينه على الحلوى الحارة وقطّعها إلى مربعات. قدّم أنتونوبوليس لصديقهما الجديد قطعة من الفدج بطرف سكينه اللامعة من الدسم، وقام بالخدعة التي يقوم بها دوماً أمام أي شخص يريد لفت نظره. أشار إلى قدرٍ من الشراب الحلو يغلي على الموقد، وحرّك وجهه كمروحة، وزرّ عينيه ليظُهر للزائر مقدار سخونة القدر، ثمّ بلل يده في قدرٍ من الماء البارد ثمّ وضعها في الشراب المغلي، وأعادها إلى الماء البارد مجدداً. نتأت عيناه وأخرج لسانه وكأنّه يتألم

بشدة، حتى أنّه هزّ يده بقوة وقفز على رجلٍ واحدة ليُظهر عظمة الصدمة التي تعرّض لها، ثمّ ابتسم فجأة ورفع يده ليكشف للضيف أنّ الأمر مجرّد مزحة، ثم ضرب كارل على كتفه.

كانت أمسية شتائية شاحبة، مشوا متشابكي الأذرع على الرصيف، وعلت أنفاسهم كغمام في الهواء البارد. كان سينغر في الوسط، وقد تركهما على الرصيف لوحدهما مرتين بينما دخل إلى المتاجر لشراء الحاجيات. حمل كارل وأنتونوبوليس أكياس البقالة بينما أمسك سينغر ذراعيهما بقوة وابتسم طوال طريق العودة إلى المنزل. كان بيتهما دافئاً وعابقاً، وتحرّك سينغر فيه بسعادة وهو يحاور كارل. بعد العشاء تابع سينغر وكارل حديثهما بينما راقبهما أنتونوبوليس مع ابتسامة هادئة. بين الفينة والأخرى مشى اليوناني الضخم بتثاقل نحو الخزانة وملأ كأسه بالجِن. جلس كارل بقرب النافذة يشرب بجرعات صغيرة عندما دفع أنتونوبوليس بالكأس في وجهه. ولم يتذكر سينغر متى كان صديقه بهذا اللطف قبلاً، وبكل متعة ذهب بتفكيره إلى المرّات القادمة التي سيزورهم فيها كارل.

وعند منتصف الليل وقع ذلك الحدث الذي أفسد هذا التجمع الاحتفالي. كان أنتونوبوليس قد عاد من إحدى رحلاته إلى الخزانة وعلى وجهه نظرة متجهمة. وجلس على سريره، وبدأ يحدق باستمرار نحو ضيفهما الجديد وتعابير وجهه توحي بالاستياء والقرف. حاول سينغر أن يفتح أحاديث شيقة للتغطية على السلوك الغريب لصديقه، ولكن اليوناني استمر على سلوكه. جلس كارل على كرسيه ممسكاً بركبتيه الناتئتين مذهولاً ومرعوباً من تكشيرات اليوناني الضخم. اندفع الدم إلى وجهه، وأخذ يبتلع شرابه بهدوء. لم يعد بإمكان سينغر تجاهل الموقف، ولهذا سأل أنتونوبوليس إن كانت معدته تؤلمه، أو إن كان يشعر بخطب ما ويريد الذهاب للنوم. هزّ أنتونوبوليس رأسه، وأشار إلى كارل وبدأ يقوم بكل تلك الإيحاءات المشينة التي تعلمها. إن مظهر القرف على وجهه مريع جداً، وانكمش كارل على نفسه من الخوف. في

النهاية بدأ اليوناني الضخم يصرّ على أسنانه، وقام عن كرسيه. هرع كارل راكضاً، والتقط وشاحه، وغادر البيت. لحقه سينغر إلى الدرج دون أدنى فكرة عن كيفية تبرير سلوك رفيقه أمام هذا الغريب. وقف كارل بظهرٍ محني عند نهاية الدرج، وبدا ضعيفاً وقد رفع وشاحه فوق وجهه. وفي النهاية تصافحا، وغادر كارل.

وأخبره أنتونوبوليس بطريقة ما أنّ الضيف توجه إلى الخزانة وشرب كل الجن من دون علمهما. ومهما حاول سينغر أن يقنعه بعكس هذا الشيء إلّا أنّ ما من شيء يُقنع أنتونوبوليس أنه من شرب كل الزجاجة. جلس اليوناني الضخم على السرير بوجه يعلوه الأسى واللوم، وترقرقت الدموع على مهلٍ حتى ياقة قميصه الداخلي، ولم يكن هناك من شيء قد يروح عنه. أخيراً خلد أنتونوبوليس إلى النوم، ولكن سينغر بقي صاحياً في الظلمة لوقتٍ طويل. لم يريا كارل بعد هذا أبداً.

بعد سنوات على هذا مرّ وقت سرق فيه أنتونوبوليس مال الإيجار من المزهرية التي على المدفأة، وصرفه على آلات السلوت. وفي ظهيرة أحد الأيام الصيفية نزل أنتونوبوليس إلى الأسفل عارياً ليحضر الجريدة، فقد كان يعاني جداً من حرّ الصيف. اشتريا ثلاجة كهربائية بالتقسيط، وكان أنتونوبوليس يُحبّ مصّ مكعبات الثلج على الدوام بل ويترك بعضاً منها تذوب معه في السرير بينما يغط في النوم. وهناك أيضاً تلك المرّة التي ثمل فيها أنتونوبوليس كثيراً، ورمى صحن المعكرونة في وجه سينغر.

تشابكت هذه الذكريات البشعة في ذاكرته طوال الأشهر الأولى كخيوط سيئة في سجادة ثمّ اختفت. لقد نسى كل تلك الأوقات التي كانا فيها غير سعيدين. ومع مرور السنوات عصفت أفكاره عن صديقه بشكلٍ أعمق إلى أن عاش فقط على صورة أنتونوبوليس التي يعرفها وحده.

كان أنتونوبوليس الصديق الذي أخبره بكل ما في قلبه، والصديق الذي لم يعلم أحد غيره كم كان حكيماً. ومع مرور العام بدا له أن صديقه يكبر أكثر وأكثر في عقله، وأخذ وجهه يبدو أكثر حزناً وأكثر رقة في ظلام

الليالي. تغيرت ذكرياته عن صديقه في عقله، ولم يعد يتذكر العيوب أو الحماقات التي قام بها، بل كل الأشياء الطيبة والحكيمة التي صدرت عنه.

كان يرى أنتونوبوليس جالساً أمامه على الكرسي هادئاً وبلا حراك وتعابير وجهه مبهمة، وبدا فمه ذكياً وقد علته ابتسامة. كانت عيناه رائعتين في مراقبة الأشياء التي تُقال له، وبمعية الحكمة الكامنة فيه فهم كل ما قيل.

هذا هو أنتونيوبوليس الذي عرفه دوماً في أفكاره. هذا هو الصديق الذي أراد أن يخبره بالأمور التي حصلت لأنّ أمراً ما قد حصل هذا العام. لقد هُجر في أرضٍ غريبة لوحده، فتح عينيه ورأى حوله أموراً لا يفهمها. كان يشعر بالحيرة.

راقب الكلمات تتشكل على شفاه الناس.

«نحن الزنوج نريد فرصة لنتحرر نهائياً، والحرية هي الحق بالمساهمة. نريد أن نخدم ونشارك، أن نعمل ونستهلك ما نستحقه بالمقابل. ولكنك الرجل الأبيض الوحيد الذي قابلته ويدرك حاجة شعبي الشديدة».

«كما ترى يا سيد سينغر، هناك موسيقى في داخلي طوال الوقت. يجب أن أصبح موسيقية حقيقية. ربما لا أرغب بشيء الآن، ولكن سأفعل عندما أبلغ العشرين. كما ترى يا سيد سينغر أريد أن أسافر إلى بلد أجنبي يسقط فيه الثلج».

«لننهِ الزجاجة. أحلم بحلم صغير، وكلانا تشغله الحرية. هذه الكلمة أشبه بدودة في رأسي. أجل؟ لا؟ كثيراً؟ قليلاً؟ هذه الكلمة أشبه بإشارة للقرصنة والسرقة والخداع. سنتحرر وسيتمكن وقتها الأذكى من استعباد الآخرين. ولكن! ولكن هناك معنى آخر للكلمة. فمن بين جميع الكلمات هذه الكلمة الأخطر. نحن الذين نعرف اليقظة والحذر تثير فينا هذه الكلمة شعوراً جيداً. في الحقيقة هذه الكلمة أمثولة عظيمة، ولكنهم بهذه الأمثولة ينصبون لنا أبشع فخاخهم العنكبوتية».

أما آخر القادمين فكان يحك أنفه، لم يأتِ كثيراً ولم يقل الكثير أيضاً. كان يطرح الأسئلة فقط.

يأتي هؤلاء الأربعة إلى غرفته منذ أكثر من سبعة شهور. لم يأتوا معاً أبداً، كُلٌ لوحده. كان يلقاهم على الباب بالابتسامة الودودة ذاتها، ولطالما انتابه الحنين إلى أنتونوبوليس في هذه الأوقات، كما كان في الشهور الأولى بعد رحيل صديقه. وكان الوجود مع أحد ما أفضل من البقاء وحده وقتاً طويلاً. كان الأمر أشبه بما قام به منذ سنوات عندما قدم التماساً إلى أنتونوبوليس (وقد كتبه أيضاً على قطعة ورق، وعلّقها على الحائط فوق سريره) وطلب فيه أن يُقلع أنتونوبوليس عن التدخين وشرب الجعة وتناول اللحم لشهرٍ. مرّت الأيام الأولى بشكلٍ سَيِّئ جداً، لم يتمكن سينغر من أخذ قسط من الراحة أو الاستقرار، وزار أنتونوبوليس كثيراً في متجر الفواكه، ولم يكن تشارلز باركر لطيفاً معه. عندما كان ينتهي من أعمال النقش التي بين يديه يتسكع أمام المتجر مع صانع الساعات والبائعة، أو يتوجه إلى متجر المشروبات الفوارة ليتناول الكوكا كولا. في تلك الأيام كان وجوده بقرب أيّ غريب أفضل من التفكير وحيداً بالسجائر والجعة واللحم الذي يشتهيه.

لم يفهم في البداية هؤلاء الأربعة، فقد تحدثوا وتحدثوا، ومع مرور الأشهر تحدثوا أكثر وأكثر. اعتاد على حركة شفاههم، وفهم كل كلمة نطقوا بها. وبعد فترة عرف ما الذي سيقوله كل واحد منهم قبل أن يبدأ حديثه لأنّ معنى أحاديثهم لم يتغير.

كانت يداه مصدر معاناته لأنّهما لا تتوقفان عن الحركة، وترتعشان خلال نومه. يستيقظ أحياناً، ويجد نفسه يشكل الكلمات بيديه في أحلامه قبل أن يُشكلها على وجهه. لم يُحب النظر إلى يديه أو التفكير بهما. كانت يدان نحيلتين وسمراوين وقويتين جداً. اعتاد لسنوات الاهتمام بهما، وفي الشتاء يستخدم زيتاً لحمايتهما من القشب، ويتخلص من الجلد الصلب حول الأظافر التي أبقاها قصيرة ومتناسبة مع شكل أطراف

الأصابع. أحبّ الاهتمام بيديه وغسلهما، ولكنه يكتفي الآن بغسلهما سريعاً باستخدام فرشاة مرتين يومياً، ووضعهما في جيبيه طوال الوقت.

وعندما كان يذرع غرفته جيئة وذهاباً كان يفرقع أصابعه ويشدها إلى أن تؤلمه، أو يضرب راحة يده بقبضة اليد الأخرى. وأحياناً عندما يكون لوحده وأفكاره مع صديقه تبدأ يداه بتشكيل الكلمات قبل أن ينتبه إلى ما يقوم به. وعندما أدرك أنّه أصبح رجلاً يتحدث بصوتٍ عالٍ مع نفسه أحس أنه يقترف خطيئة أخلاقية. امتزج إحساسه بالعار وحزنه معاً فكان يضع يديه وراء ظهره، ولكنهما لم تدعانه وشأنه.

وقف سينغر في الشارع أمام المنزل الذي قطنه مع أنتونوبوليس. كانت سماء أواخر الظهر ضبابية ورمادية، وظهرت من الغرب خطوط من الأصفر الهادئ والوردي. حلّق طيرٌ شتائي أشعث بتشكيلات مختلفة في السماء الضبابية، وحط أخيراً على جملون البيت، وأقفر الشارع من المارة.

ركز سينغر عينيه على النافذة من الجهة اليمنى للطابق الثاني. كان هذه نافذة غرفتهما، وخلفها يقع مطبخ كبير حيث طبخ أنتونوبوليس كل وجبات طعامهم. ومن خلال هذه النافذة المضاءة راقب امرأة تتحرك جيئة وذهاباً عبر الغرفة. كانت امرأة ضخمة ترتدي مئزراً، ولكن شكلها غير واضح في الضوء. هناك أيضاً رجلٌ جالسٌ يُمسك بصحيفة المساء في يده، وتقدم طفلٌ يحمل قطعة خبز إلى النافذة وضغط أنفه على زجاجها. رأى سينغر الغرفة كما تركها مع سرير أنتونوبوليس الكبير والسرير النقال خاصته والكنبة الضخمة والكرسي القابل للطي، وزبدية السكر التي استخدمها اليوناني كمنفضة سجائر، والبقعة الرطبة على السقف جراء التسرب من السطح، وصندوق الغسيل في الزاوية. وفي وقتٍ كهذا لم يكن هناك ضوء في المطبخ باستثناء وهج المصابيح فوق الموقد الكبير. اعتاد أنتونوبوليس أن يُشعل المصابيح ذات اللهب الأزرق الذهبي الصغير. لطالما كانت الغرفة دافئة تضوع منها روائح

العشاء الزكية. تذوق أنتونوبوليس كل طبق بملعقته الخشبية، وشربا النبيذ الأحمر. وألقى لهب المصابيح انعكاسات برّاقة أشبه بمصابيح ذهبية صغيرة على السجادة الصغيرة المصنوعة من الخيش أمام الموقد. ازداد الغسق الحليبي حُلكةً، واشتد ضوء المصابيح الصغيرة إلى أن حلّ الليل، واحترقت الشعلات في المصابيح بنقاء نابض. بحلول هذا الوقت كان العشاء جاهزاً وعندها يُشعلان الضوء، ويسحبان كرسيين نحو الطاولة.

حدّق سينغر إلى الباب الأمامي الذي غلّفته العتمة، وأخذ يفكر كيف انطلقا هو وأنتونوبوليس في الصباح إلى العمل، ويعودان إلى المنزل مساءً. تذكر ذلك الجزء المكسور من الرصيف حيث تعثّر أنتونوبوليس في إحدى المرات وآذى مرفقه. هناك صندوق بريد حيث تصلهم فاتورة من شركة الكهرباء كل شهر. كان سينغر يشعر باللمسة الدافئة لذراع صديقه على أصابعه.

غدت الشوارع حالكة بحلول الآن. نظر سينغر إلى النافذة مرة أخيرة، ورأى المرأة الغريبة والرجل والطفل، واجتاحه شعورٌ بالفراغ. لقد انتهى كل شيء، وأنتونوبوليس بعيدٌ الآن، لم يعد هنا. كانت أفكاره عن صديقه في مكان آخر. أغلق سينغر عينيه وحاول أن يُفكر بالمصحّ وبغرفة أنتونوبوليس فيها الليلة. تذكر الأسرة البيضاء الضيقة، والعجائز الذين لعبوا لعبة سلابجاك في الزاوية. أغمض عينيه بشدة، ولكنه لم يرَ تلك الغرفة بوضوح في عقله. كان الخواء في داخله عميقاً جداً، وبعد مرور بعض الوقت نظر إلى النافذة مرة أخرى، ثمّ انطلق على الرصيف الذي اعتاد التمشي عليه مع صديقه كثيراً.

كانت ليلة السبت، والشوارع مكتظة بالمارة والزنوج المرتجفين في أرديتهم السروالية أمام واجهات المتاجر التي تبيع أيّ شيء بعشرة سنتات. اصطفت العائلات بالدور أمام شباك قطع التذاكر للدخول إلى السينما بينما حدّق الفتيان والفتيات بالملصقات في الخارج. كان

ازدحام السيارات خطيراً جداً إلى درجة أنّه اضطر للانتظار طويلاً قبل عبور الشارع.

مرّ بالقرب من متجر الفواكه، وبدت الثمار جميلة في نوافذ العرض، الموز، والبرتقال، والأفوكادو، وثمار حمضيات صغيرة ولامعة، بل وحتى بعض الأناناس. كان تشارلز باركر يهتم بزبون في الداخل، نظر إليه سينغر ووجد وجهه قبيحاً جداً. حدث كثيراً أثناء غياب تشارلز باركر أن دخل إلى المتجر، وتجول فيه بل وذهب إلى المطبخ في الخلف حيث صنع أنتونوبوليس الحلوى، إلّا أنّه لم يجرؤ على دخول المتجر عندما كان تشارلز باركر فيه، وقد حرص الرجلان على تجنب بعضهما منذ ذلك اليوم الذي صعد فيه أنتونوبوليس إلى الباص. عندما التقيا في الشارع أدارا وجهيهما ومن دون أيّة تحية. وفي كل مرة رغب فيها سينغر بإرسال عسل توبيلو المفضل لدى أنتونوبوليس كان يطلبه من تشارلز باركر عبر البريد حتى لا يضطر إلى مقابلته.

وقف سينغر أمام الواجهة وراقب نسيب صديقه يهتم بمجموعة من الزبائن. لطالما ازدهرت جميع الأعمال ليالي السبت، واضطر أنتونوبوليس أحياناً للعمل حتى الساعة العاشرة ليلاً من أيام السبت. كانت آلة صُنع الفشار الميكانيكية أمام الباب، والعامل يضع مكيالاً من حبوب الذرة التي تدور داخل الصندوق كندف الثلج. انبعثت من المتجر رائحة دافئة وأليفة، وتناثرت قشور الفول السوداني المحمّص على الأرضية.

عبر سينغر الشارع، واضطر إلى شقّ طريقه بحذر بين الجموع ليتجنب التدافع. زُينت الشوارع بأضواء كهربائية حمراء وخضراء، فالوقت وقت أعياد. وقف الناس في مجموعاتٍ يضحكون ويحتضنون بعضهم. هناك آباء شبان يحملون أطفالهم الباكين والذين يشعرون بالبرد على أكتافهم، وفتاة ترتدي زياً يشبه زي جنود جيش الخلاص مع قبعة حمراء وزرقاء تدلى من أحد زواياها جرسٌ. عندما نظرت الفتاة إلى سينغر شعر بأنّ عليه

أن يضع عملة معدنية في الوعاء الذي بجانبها. وهناك متسولون زنوج وبيض يستجدون برفع قبعاتهم أو أيديهم المتشققة، وألقت الإعلانات النيونية وهجاً برتقالياً على وجوه الحشد.

وصل سينغر إلى الزاوية حيث رأى مرة عندما كان مع أنتونوبوليس كلباً مسعوراً في ظهيرة يومٍ من أيام آب (أوغسطس)، ثمّ مرّ بالقرب من الغرفة التي تقع فوق متجرٍ المستلزمات العسكرية والبحرية حيث يأخذ أنتونوبوليس صورة لنفسه في يوم قبض الراتب. يحمل سينغر الكثير من الصور في جيبه، وقد توجه الآن غرباً باتجاه النهر. في إحدى المرات ذهب مع أنتونوبوليس في نزهة لتناول الغداء، وعبرا الجسر وتناولا طعامهما في حقلٍ على الضفة الأخرى.

تمشى سينغر على طول الشارع الرئيس لمدة ساعة، ومن بين جميع الموجودين في الشارع كان الوحيد الذي بدا وحيداً. وأخيراً أخرج ساعته، وتوجه إلى المنزل الذي يعيش فيه، وتمنى جداً أن يأتي أحدهم لزيارته في غرفته هذه الليلة.

أرسل سينغر إلى أنتونوبوليس علبة من الهدايا بمناسبة عيد الميلاد، وقدّم أيضاً هدايا إلى الأشخاص الأربعة الذين زاروا غرفته وإلى السيدة كيلي. اشترى لهم جميعاً مذياعاً، ووضعه على الطاولة بقرب النافذة. لم ينتبه الطبيب كوبلاند إلى المذياع، أمّا بيف برانن فقد لاحظه على الفور ورفع حاجبيه مُستغرباً، وأداره جيك بلاونت طوال وقت تواجده في الغرفة وعلى المحطة ذاتها، وعندما يتحدث كان يبدو وكأنّه يصرخ ليعلو صوته فوق صوت الموسيقى، وبدا هذا واضحاً من الأوردة التي انتفخت على جبهته. أمّا ميك كيلي فلم تفهم ماذا يحدث عندما رأت المذياع. بدا وجهها محتقناً جداً، وسألته مراراً وتكراراً إن كان المذياع له وإن كان باستطاعتها أن تُصغي إليه. أخذت تلعب بالمؤشر لعدة دقائق قبل أن تستقر على المحطة التي تناسبها. جلست على كرسيها وقد أحنت رأسها إلى الأمام، ووضعت يديها على ركبتيها وفغرت فمها، وشعرت بنبض

قلبها سريعاً جداً في صدغها. بدا وكأنّها تسمع كل ما سمعته قبلاً للمرة الأولى. اعتادت الجلوس هناك كل ظهيرة، وعبست في وجه سينغر كلما اغرورقت عيناها ثم فركتهما بقبضتي يديها. سألته إن كان بمقدورها أن تدخل وتصغي إلى المذياع عندما يكون في العمل، وأومئ لها برأسه موافقاً، ولهذا وعلى مدار الأيام التالية، وفي كل مرة يفتح فيها باب غرفته وجدها بقرب المذياع، وقد وضعت يدها على شعرها القصير المشعث، وعلى وجهها نظرة لم يرها قبلاً.

في إحدى الليالي القليلة اللاحقة لعيد الميلاد حدث أن زاره الأربعة معاً، وهذا لم يحدث قبلاً. تحرّك سينغر في الغرفة موزعاً الابتسامات والمرطبات، وحاول جهده أن يكون مهذباً حتى يشعر ضيوفه بالراحة، ولكن كان هناك خطبٌ ما.

رفض الطبيب كوبلاند الجلوس، ووقف عند الباب وقبعته في يده، وقد انحنى ببرود للضيوف. نظروا إليه وكأنهم يستغربون وجوده. فتح بيف زجاجات الجعة التي جلبها معه، وانسكبت الرغوة على قميصه. كانت ميك كيلي تُصغي إلى الموسيقى التي تصدح من المذياع، بينما جلس بيف برانن على السرير وقد قاطع قدميه. تفحص بيف بعينيه المجموعة التي أمامه ثمّ ضيقهما وثبتهما.

شعر سينغر بالقلق، لطالما كان لكل واحد منهم الكثير ليقوله. أمّا وهم معاً الآن فقد صمتوا. عندما رآهم قادمين توقع أن يحدث اضطراب من نوع ما، ولسببٍ مبهم توقع أن يكون هذا اللقاء نهايةً لشيءٍ ما. طغى على الغرفة جوٌ مشحونٌ، وأخذ سينغر يُحرك يديه بعصبية وكأنّه يحاول أن يسحب أشياءً غير مرئية من الهواء ويجمعها مع بعضها.

وقف جيك بلاونت قرب الطبيب كوبلاند.

«أتذكر وجهك. التقينا من قبل... على السُلم خارجاً».

حرّك الطبيب كوبلاند لسانه، وكأنّه يقصّ كلماته بمقصٍ.

«لم أنتبه إلى أننا التقينا قبلاً».

وبدا جسده المتصلب وكأنّه يتقلص، ورجع إلى الوراء إلى أن خرج من الغرفة.

دخّن بيف برانن سيجارته بهدوء، وعلا الدخان في طبقات رقيقة عبر الغرفة، ثمّ التفت إلى ميك وعندما حدق فيها اكتسى وجهه بحمرة خجولة، وأسبل جفنيه حتى منتصف العين وخلال دقيقة عاد اللون الطبيعي إلى وجهه مجدداً.

«كيف عملك الآن؟»

«أيّ عمل؟» سألت ميك بارتياب.

«عملك في الحياة»، قال لها. «المدرسة وإلى ما هناك».

«جيد على ما أعتقد»، أجابته.

نظروا جميعاً إلى سينغر وكأنهم يتوقعون شيئاً، إلّا أنّه كان حائراً، وقدم لهم المرطبات والابتسامات.

فرك جيك شفتيه بباطن يده، وحاول أن يفتح حديثاً مع الطبيب كوبلاند بعد أن جلس على السرير بجانب بيف.

«هل تعرف الشخص الذي كان يكتب تلك التحذيرات اللعينة بالطباشير الأحمر على الأسيجة وجدران المعامل؟»

«لا»، أجاب بيف. «أيّة تحذيرات لعينة؟»

«غالبيتها مقتبسة من العهد القديم. أثار الأمر فضولي منذ وقتٍ طويلٍ».

وجه الجميع كلماتهم إلى الأبكم، وبدا وكأنّ أفكارهم انصبّت عليه. كانت أفكارهم التي وجهوها نحوه أشبه بقضبان عجلات السيارة المرتبطة بمحور مركزي.

«البرد هذا العام غير طبيعي»، قال بيف في النهاية. «منذ أيام كنت أطالع بعض السجلات القديمة، واكتشفت أنّه في عام 1919 انخفضت درجة الحرارة إلى عشر درجات فهرنهايت. بلغت الحرارة

هذا الصباح ست عشرة درجة، وتعد هذه الدرجة الأبرد منذ التجمد العظيم ذلك العام».

«تشكلت ألسنة ثلجية على حافة سطح مخزن الفحم هذا الصباح»، قالت ميك.

«قبضنا الراتب الأسبوع الماضي، وهو لا يكفي حتى الأسبوع القادم»، قال جيك.

تداولوا أحوال الطقس، وبدا وكأنّ كل شخصٍ ينتظر الآخر ليهمّ بالمغادرة أولاً. ثمّ وبدافع ما قاموا جميعاً وهمّوا بالمغادرة معاً في الوقت ذاته. غادر الطبيب كوبلاند أولاً، ثمّ تبعه الآخرون على الفور. وقف سينغر لوحده في الغرفة بعد مغادرتهم، ولأنّه لم يفهم ما حدث أراد نسيان الموقف بأكمله، وقرر أن يكتب رسالة إلى أنتونوبوليس في تلك الليلة.

لم تمنع أميّة أنتونوبوليس سينغر من الكتابة له، ولطالما عرف أنّ صديقه عاجز عن فهم معنى الكلمات على الورق، ولكن مع مرور الأشهر بدأ يتخيل أنه كان على خطأ، وأنّ أنتونوبوليس أخفى الرسائل عن الجميع. علاوة على هذا لا بدّ وأنّ هناك بُكماء في المصح قادرين على قراءة الرسائل، وشرح ما فيها لصديقه. فكّر سينغر بالكثير من الاحتمالات فيما يتعلق برسائله، لأنّه شعر بحاجة شديدة ودائمة للكتابة إلى صديقه في كل مرّة شعر فيها بالحيرة أو الحزن. وعندما كان ينتهي من كتابتها لم يرسلها. وكل أحد من كل شهر يقصّ المقتطفات الكوميدية من الصحف الصباحية والمسائية، ويرسلها إلى صديقه مع مبلغ من المال. ولكن تبقى الرسائل الطويلة التي يكتبها إلى أنتونوبوليس مكدسة في جيوبه إلى أن يمزقها أخيراً.

عندما غادر الأشخاص الأربعة، ارتدى سينغر معطفه الرمادي وقبعته الضاربة إلى الرمادي أيضاً، وغادر غرفته. اعتاد كتابة رسائله في المتجر، علاوة على هذا فقد قطع وعداً بأن ينهي العمل على قطعة حلي معينة في

الصباح التالي، وأراد أن ينتهي منها الآن حتى لا يتأخر في تسليمها. كان الليل قارساً وصقيعياً، والقمر بدر بحواف ذهبية. كانت أسطح المنزل سوداء على أرضية السماء المضاءة بالنجوم، وفكر بينما كان يمشي بالطريقة التي سيبدأ بها رسالته، ولكنه كان قد وصل إلى المتجر قبل أن ينتهي من صياغة الجملة الأولى في عقله. استخدم مفتاحه للدخول إلى المتجر المُعتم، وأشعل الأضواء.

اعتاد العمل في نهاية المتجر، وكان هناك ستارة تفصل مكان عمله عن بقية المتجر، وبدا مكانه كغرفة خاصة صغيرة. وبالإضافة إلى طاولة وكرسي العمل هناك خزنة ثقيلة في الزاوية ومرحاض مع مرآة خضراء ورفوف مليئة بالعُلب والساعات القديمة. رفع سينغر غطاء طاولته، وأخذ منها الطبق الفضي الذي وعد بتسليمه غداً. ورغم برودة المتجر إلّا أن سينغر خلع معطفه ورفع كُمي قميصه الأزرق المخطط حتى لا يعيقانه في العمل.

عمل سينغر لوقتٍ طويل على صورة شخصٍ في منتصف الطبق، وبضربات دقيقة ومركزة حرّك الإزميل على الطبق الفضي. وبينما كان يعمل علت وجهه نظرة جوعٍ ثاقبة، وفكّر بالرسالة التي سيكتبها إلى صديقه أنتونوبوليس. كاد الوقت يُقارب منتصف الليلة ولم ينته بعد من العمل، وعندما أزاح الطبق بعيداً كان جبينه يقطر عرقاً من الجهد الذي بذله. نظّف الطاولة وبدأ يكتب. أحبّ شكل الكلمات التي رسمها القلم على الورقة، وأخذ يرسم الحروف بعناية شديدة وكأنّ الورقة طبقٌ من الفضة.

صديقي الوحيد،

قرأت في مجلتنا أن الجمعية ستعقد مؤتمراً هذا العام في ماكون. وسيكون هناك خُطباء ووليمة من أربعة أطباق رئيسة. أتخيل هذا المؤتمر فقد كنا نخطط على الدوام لحضور أحد هذه المؤتمرات، ولكن لم نفعل هذا أبداً. أتمنى الآن لو أننا ذهبنا إلى إحداها. لطالما تخيلت ما الذي سيجري وقتئذ، ولكن بالطبع لا يمكنني الذهاب من دونك. سيحضرون

من كل الولايات، وسيكون هناك كلمات كثيرة وأحلام عريضة ونابعة من القلب. ستقام مراسم خاصة في إحدى الكنائس ومسابقة والجائزة ميدالية ذهبية. أتخيل أنني أفعل هذا وذاك. كانت يداي ساكنتين لوقتٍ طويل، ولهذا من الصعب أن أعرف كيف سيكون الأمر. عندما أتخيل المؤتمر أفكر بكل الضيوف الذين يشبهونك يا صديقي.

منذ أيام وقفت أمام منزلنا الذي يعيش فيه الآن أناس آخرون. هل تتذكر شجرة البلوط الكبيرة في المدخل؟ لقد قطعوا الأغصان حتى لا تتشابك مع أسلاك الهاتف وماتت الشجرة. لقد تعفنت الفروع وهناك فجوة في الجذع. وأكل القط الذي كان في المتجر (ذلك القط الذي اعتدت أن تربت عليه وتلاعبه) شيئاً مسموماً ومات. كان الحادث مُحزناً حقاً.

توقف سينغر عن الكتابة، وبقي القلم بيده فوق الورقة. جلس متحفزاً ومتوتراً لوقتٍ أطول دون أن يتابع كتابة الرسالة، ثمّ وقف وأشعل سيجارة. كانت الغرفة باردة، وتفوح منها رائحة واخزة وعفنة ناجمة عن اختلاط روائح الكيروسين وورنيش الفضة والتبغ. ارتدى معطفه وشاله، وعاد إلى الكتابة بعزمٍ هادئ.

هل تتذكر الأشخاص الأربعة الذين حدثتك عنهم عندما كنت هناك. رسمت صوراً لهم لتراها؛ الرجل الأسود، والفتاة الصغيرة، والرجل ذو الشارب، والرجل الذي يدين بالمال لمطعم نيويورك كافيه. أريد أن أخبرك أموراً عنهم، ولكنني لست واثقاً إن كنت أستطيع التعبير عنها بالكلمات.

جميعهم أناسٌ مشغولون. في الحقيقة إنهم مشغولون جداً، وسيكون من الصعب عليك أن تتخيلهم. لا أعني أنهم يقضون كل نهارهم وليلهم في العمل ولكن هناك الكثير من الأمور التي تدور في عقولهم وتقلق راحتهم. يأتون إلى غرفتي ويتحدثون معي إلى أن لا أعود قادراً على فهم السبب الذي يدعو شخصاً ما إلى فتح وإغلاق فمه كثيراً دون أن يصاب بالسأم. إن صاحب مطعم نيويورك كافيه مختلف ولا يشبه الآخرين، إنه

يملك لحية سوداء جداً، ويضطر لحلاقتها مرتين يومياً، ولديه آلة حلاقة كهربائية، وهو من النوع الذي يراقب. لدى البقية أمور يكرهونها، وأمور يحبونها أكثر من الطعام أو النوم أو النبيذ أو صحبة الأصدقاء، ولهذا هم مشغولون جداً على الدوام.

أعتقد أن الرجل ذا الشارب مجنون، وينطق أحياناً بالكلمات بطريقة تشبه الطريقة التي تحدّث بها معلمي في المدرسة منذ وقتٍ طويل. وفي أحيانٍ أخرى يتحدث بطريقة لا يمكنني أن أفهمها. يرتدي في بعض الأوقات بذلة عادية، وفي أوقات أخرى يأتي بحلة قذرة ومعفرة بالتراب، وتفوح من ردائه السروالي الذي يرتديه للعمل رائحة بشعة. يقوم بهز قبضتيه، ويتفوه بكلمات بشعة وكأنّه مخمور، كلمات لا أرغب بسماعها. وهو يعتقد أننا، أنا وهو، نتشارك سراً، ولكن لا أعرف ما هو هذا السر. سأقول لك أمراً من الصعب تصديقه. يستطيع هذا الرجل شُرب ثلاثة ليترات من ويسكي هابي ديز، والاستفاضة في الحديث بينما يذرع المكان على قدميه دون أن يجلس على السرير. لن تصدق هذا ولكنّه حقيقي.

استأجرت غرفتي التي أقطن فيها حالياً من والدة الفتاة لقاء ستة عشر دولاراً شهرياً. عادة ما ترتدي الفتاة سراويل قصيرة كالتي يرتديها الفتيان، ولكنها الآن ترتدي تنورة زرقاء وبلوزة. لم تصبح الفتاة سيدة شابة بعد، ولكني أحبّ زياراتها إلى غرفتي. بعد أن اشتريت المذياع لهم أصبحت تزورني باستمرار. إنّها تحب الموسيقى، أرغب بأن أعرف ما الذي تسمعه. إنّها تعلم أنني أصمّ، ولكنها تعتقد أنني أفهم الموسيقى.

أمّا الرجل الأسود فهو مصاب بالسل، ولا يوجد مستشفى جيد يمكنه الذهاب إليه لأنّه أسود. إنّه طبيب، وهو يعمل بجدٍ أكثر من أي أحد أعرفه. لا يتحدث كرجلٍ أسود أبداً. أواجه صعوبة في فهم كلام بقية الزنوج فلسانهم لا يتحركً كثيراً لأفهم الكلمات. يخيفني هذا الرجل الأسود أحياناً عندما تبرق عيناه وتتقدان. دعاني لحضور حفلة وذهبت.

يملك الكثير من الكتب، إلّا أنّه لا يملك كتب ألغاز، وهو لا يشرب ولا يتناول اللحم ولا يذهب إلى السينما.

يصرخ الرجل البشع صاحب الشارب: «الحرية والقرصنة! رأس المال والديموقراطيون». إلّا أنّه يُناقض نفسه، ويقول إنّ الحرية الأمثولة الأعظم. بينما تقول الفتاة الصغيرة: «يجب أن أجد فرصة لكتابة هذه الموسيقى التي تصدح في داخلي، وأصبح موسيقية. يجب أن أحظى بالفرصة». ويقول الطبيب الأسود: «لا يُسمح لنا بأن نخدم، والخدمة حاجة إلهية لشعبي». يقول صاحب مطعم نيويورك كافيه إنّه رجلٌ يفكر كثيراً.

هذه هي الطريقة التي يتحدثون بها عندما يزورونني في غرفتي، وهذه الكلمات الرابضة في قلوبهم تجعلهم قلقين، ولهذا هم مشغولون على الدوام. إنهم لا يشبهون الناس أمثالنا عند التقائهم في المؤتمر الذي يُعقد في ماكون هذا الأسبوع، إنهم ليسوا كذلك أبداً. أتوا اليوم جميعاً إلى غرفتي في الوقت ذاته، وجلسوا مع بعضهم وكأنهم من مدنٍ مختلفة، بل وكانوا وقحين. أنت تعرف أنني كنت أقول على الدوام إنّ الوقاحة وعدم مراعاة مشاعر الآخرين أمرٌ خاطئ. جرت الأمور على هذا النحو، ولم أفهم ما جرى، ولهذا أكتبه لك لأنني أعتقد أنك ستفهم. تنتابني مشاعر غريبة. لقد كتبت ما يكفي عن هذا الأمر. أعلم أنّ الأمر يقلقك. إنّه يُقلقني أيضاً.

مرّت خمسة شهور وواحد وعشرون يوماً، وأنا وحيد من دونك طوال هذه الفترة. الأمر الوحيد الذي أفكر فيه هو متى سنكون سويةً مجدداً. إن لم أتمكن من زيارتك قريباً لا أعلم ما الذي سيحدث.

وضع سينغر رأسه على الطاولة واسترخى. ذكّره ملمس ورائحة الخشب الأملس المواجه لرأسه بأيام الدراسة. أغلق عينيه وشعر بالإعياء. لم يكن في عقله سوى صورة أنتونوبوليس، وكان شوقه إلى صديقه مؤلماً جداً إلى درجة حبس معها أنفاسه عندما استحضر صورته. بعد مرور بعض الوقت عدّل سينغر جلسته وأمسك قلمه.

«لم تصل هدية عيد الميلاد التي أوصيت عليها من أجلك في الموعد. أتوقع أن تصل قريباً، وأعتقد أنك ستحبها وستفرح بها. أفكر بنا دوماً وأتذكر كل شيء، أتوق إلى الطعام الذي كُنا نعده. أصبح الطعام في مطعم نيويورك كافيه أسوأ من قبل. ومنذ فترة ليست بعيدة وجدت ذبابة مطهوة في حسائي، وقد اختلطت مع الخضار والشعيرية، ولكن هذا ليس مُهماً لأنّ حاجتي إليك تصيبني بوحدة لا يمكنني تحملها. سأزورك مجدداً قريباً. إجازتي بعد ستة أشهر، ولكن سأرتب أمر زيارتك قبل هذا الموعد. أعتقد أنّ عليّ فعل هذا. لا يجب أن أبقى وحدي ومن دونك، فأنت من يفهمني».

المخلص لك،
جون سينغر

كانت الساعة الثانية صباحاً عندما توجه سينغر إلى المنزل. غرق البيت الكبير والمزدحم في العتمة، ولكنّ سينغر تحسس طريقه بعناية على سلالم الطوابق الثلاثة ولم يتعثر. أخرج من جيوبه الأوراق التي اعتاد أن يحملها معه حيثما ذهب وساعته وقلم الحبر، ثمّ طوى ثيابه بشكلٍ مرتب على ظهر الكرسي. كانت منامته الرمادية دافئة وناعمة. وبالكاد سحب الأغطية إلى مستوى ذقنه حتى غطّ في النوم.

ومن قلب ظلمة النوم بدأ حلمٌ ما بالتشكل. كان هناك مصابيح صفراء كامدة تضيء سلماً بدرجاتٍ حجرية. ركع أنتونوبوليس أعلى هذه الدرجات الحجرية عارياً، وكان يعبث بشيء فوق رأسه ويحدق نحوه وكأنّه يصلي. رأى سينغر نفسه راكعاً على الدرج عارياً، ويرتجف من البرد دون أن يشيح نظره عن أنتونوبوليس وذلك الشيء فوق رأسه. ركع وراءه الرجل ذو الشارب والفتاة الصغيرة والطبيب وجميعهم كانوا عراة وشعر بنظراتهم على ظهره، وخلفهم كان هناك حشد من الناس الراكعين في العتمة. بدت يداه أشبه بمطحنتين كبيرتين، وحدّق سينغر مذهولاً بالشيء الذي كان يمسكه أنتونوبوليس فوق رأسه. تأرجحت المصابيح

الصفراء إلى الأمام والخلف في الظلمة. ما عدا هذا كان كل شيء ساكناً. ثمّ حدثت بلبلة، وبدأت درجات السلم بالتداعي، وشعر بنفسه يسقط إلى الأسفل، واستفاق سينغر مرتجفاً وخائفاً. كان ضوء الصباح الباكر قد صبغ النوافذ بلونٍ أبيض.

مر وقتٌ طويل ولا بدّ من أنّ أمـراً ما قد وقع لصديقه. ولأنّ أنتونوبوليس لم يرد على رسائله لم يعلم إن كان هناك خطب ما. ربما وقع صديقه وآذى نفسه، وشعر سينغر بالحاجة إلى أن يكون بجانب صديقه مجدداً إلى درجة أنّه قرر ترتيب أمر زيارته فوراً وأياً يكن الثمن.

ذلك الصباح عندما توجه سينغر إلى مكتب البريد عثر في صندوقه البريدي على رسالة تُخطره بوصول الطرد الذي طلبه. كانت هدية عيد الميلاد التي طلبها ولم تصل في موعدها. إن الهدية جميلة جداً، وقد اشتراها بالتقسيط لمدة سنتين، وهي عبارة عن آلة عرض رسوم متحركة للاستخدام الشخصي مع ستة شرائط ميكي ماوس وباباي اللذين أحبهما أنتونوبوليس كثيراً.

كان سينغر آخر الواصلين إلى المتجر ذلك الصباح. سلّم طبق الفضة الذي كان يعمل عليه، وقدّم طلباً بخط اليد من أجل إجازة يومي الجمعة والسبت. وافق الصائغ على طلبه رغم أنّ لديهم أربع حفلات زفاف ذلك الأسبوع.

لم يُخطر أحداً برحلته، ولكن قبل أن يغادر ترك ملاحظة على الباب يقول فيها إنّه سيغيب لبضعة أيامٍ في عملٍ. سافر سينغر ليلاً، ومع بزوغ أشعة شمس الفجر الشتائي الأحمر وصل سينغر إلى وجهته.

عصراً وقبل بداية موعد الزيارة بقليل توجه سينغر إلى المصح. حمل أجزاء آلة عرض الأفلام على ذراعيه سلة مع الفواكه كان قد أحضرها لصديقه. توجه مباشرة إلى المهجع الذي زار فيه أنتونوبوليس سابقاً.

كانت الردهة والباب وصفوف الأسرة على حالها وكما يتذكرها من زيارته السابقة. وقف سينغر عند العتبة، ونظر بإمعان في أرجاء الغرفة

بحثاً عن صديقه، ولكنه لاحظ على الفور رغم عدم وجود كرسي شاغر أن أنتونوبوليس لم يكن هناك.

وضع سينغر الأغراض التي كان يحملها على الأرض، وكتب أسفل إحدى بطاقاته: «أين سبيروس أنتونوبوليس؟» تقدمت منه ممرضة من الغرفة، وسلّمها سينغر البطاقة. لم تفهم الممرضة عليه، وهزّت رأسها، ورفعت كتفيها. توجه سينغر إلى الردهة، وقدّم البطاقة إلى كل شخص قابله فيها. لم يعرف أحد شيئاً عن أنتونوبوليس. انتابه رعبٌ، وبدأ يُحرّك يديه. أخيراً صادف متدرباً بمعطفٍ أبيض. أمسكه سينغر من مرفقه، وقدّم له البطاقة. قرأ الطبيب المتدرب البطاقة بعناية، وقاده عبر قاعات عديدة، وأخيراً وصلا إلى غرفة صغيرة جلست فيها امرأة شابة وراء مكتب وأمامها بعض الأوراق. قرأت المرأة البطاقة، ثمّ أخذت تفتش بين بعض الملفات في الدرج.

غرغرت دموع التوتر والخوف في عيني سينغر. أخذت المرأة تكتب بدأب شيئاً ما على دفتر صغير. لم يتمكن سينغر من كبح نفسه فالتفت وراقب ما تكتبه بخصوص صديقه.

«تمّ نقل السيد أنتونوبوليس إلى مأوى العجزة، وهو مصاب بالتهاب الكلى. سأطلب من أحدهم أن يرشدك إلى الطريق».

أثناء عبور الردهات توقف سينغر لأخذ أغراضه التي تركها عند باب المهجع. اكتشف أنّ سلة الفواكه قد سرقت، ولكن بقية الصناديق موجودة. لحق سينغر بالمتدرب، وخرجا من المبنى ثمّ عبرا مرجاً من العشب الأخضر يقود إلى مأوى العجزة.

أنتونوبوليس! رآه من النظرة الأولى عندما وصلا إلى المهجع الصحيح. كان سرير أنتونوبوليس وسط الغرفة، وقد جلس مع وسائد خلف ظهره. كان في رداء ليلي قرمزي ومنامة حريرية خضراء بشريط تركوازي. كانت بشرته صفراء شاحبة، وعيناه حالمتين وحالكتي اللون، وشعر سوالفه ضارباً إلى اللون الفضي. كان أنتونوبوليس يحيك، ويحرّك

ببطء بين أصابعه السمينة صنانير عاجية اللون. في البداية لم ير صديقه، ولكن عندما وقف سينغر أمامه ابتسم له أنتونوبوليس بطمأنينة دون أن يبدو متفاجئاً بوجود صديقه، ومدّ له يداً مزدانة بالخواتم.

انتاب سينغر شعور بالحياء والقيد كما لم يشعر بهما قبلاً في حياته. جلس سينغر قرب السرير ويداه على حافة عوارضه. لم تفارق عيناه وجه صديقه الشاحب حتى الموت، وأذهلته الملابس التي ارتداها أنتونوبوليس. كان سينغر قد أرسل هذه الثياب قبلاً، ولكن كل قطعة على حِدة. لم يتخيل أبداً كيف ستبدو معاً. بدا أنتونوبوليس أضخم حجماً مما يتذكر، وظهرت طيات بطنه اللحمية من تحت منامته الحريرية، وبدا رأسه كبيراً جداً على الوسادة البيضاء. كم كانت معالم وجه صديقه المسالمة عظيمة، ولكنه بالكاد انتبه إلى وجود سينغر قربه.

رفع سينغر يديه بهدوء، وبدأ يتحدث. شكّلت أصابعه القوية والماهرة الإشارات بدقة حنونة. تحدث عن البرد والشهور الطويلة التي قضاها وحيداً، وعاد إلى الذكريات القديمة والقط الذي مات والمتجر والمكان الذي عاش فيه. وفي كل مرة يتوقف فيها عن الحديث لبرهة هزّ أنتونوبوليس رأسه بلطفٍ. تحدث عن الأشخاص الأربعة وزياراتهم الطويلة إلى غرفته. بدت عينا صديقه نديتين وحالكتي اللون، ورأى سينغر فيهما صوراً صغيرةً ومستطيلة الشكل له كان قد رآها قبلاً آلاف المرات. تدفق الدم الدافئ إلى وجهه، وتسارعت حركة يديه. تحدث مطولاً عن الرجل الأسود وعن صاحب الشارب والفتاة. كانت يداه تُشكلان الكلمات بشكلٍ أسرع وأسرع. هزّ أنتونوبوليس رأسه برزانة هادئة. اقترب سينغر منه بحنوٍ، أخذ أنفاساً طويلة، ولمعت في عينيه دموع برّاقة.

وفجأة أخذ أنتونوبوليس يرسم بسبابته السمينة دوائراً في الهواء بكل هدوء، ويلف إصبعه باتجاه سينغر، وأخيراً وكز صديقه في معدته. اتسعت ابتسامة اليوناني السمين، وأخرج لسانه السمين الوردي الضخم.

ضحك سينغر، وأخذ يُشكل كلماتٍ بيديه بسرعة جنونية. اهتز كتفاه من الضحك، وأرجع رأسه إلى الوراء. لم يعرف ما الذي دفعه إلى الضحك. دوّر أنتونوبوليس عينيه، وتابع سينغر الضحك بارتباك إلى أن ضاقت أنفاسه وارتعشت أصابعه. أمسك ذراع صديقه حتى يتمالك نفسه، وبدأ يضحك بصوتٍ خافت ومؤلم وكأنّه مصاب بالفواق.

كان أنتونوبوليس أول من تمالك نفسه، ورفع غطاء السرير بقدميه الصغيرتين والسمينتين عنه. تراجعت ابتسامته وركل البطانية بازدراء. سارع سينغر ليرتب الأغطية، ولكن أنتونوبوليس عبس، ورفع إصبعه بأنفة نحو الممرضة التي تتمشى في المهجع. وعندما أنهت الممرضة ترتيب السرير كما يحب اليوناني الضخم أحنى رأسه في إيماءة تشبه إيماءة أحد يمنح بركته لأحد أكثر مما هي إيماءة شكر، ثمّ استدار برصانة نحو صديقه مجدداً.

وبينما تحدث سينغر لم يدرك مقدار الوقت الذي مر، فقط عندما أحضرت الممرضة عشاء أنتونوبوليس على صينية أدرك أنّ الوقت قد تأخر. أشعلوا الأضواء في المهجع ومن النوافذ بدا وكأنّ الظلام قد حلّ. كان أمام بقية المرضى صواني العشاء أيضاً، وقد وضعوا الأعمال التي كانوا يعملون عليها جانباً، وأخذوا يأكلون بلا مبالاة؛ بعضهم كان ينسج السلال وآخرون يعملون على الجلد أو يحيكون الصوف. باستثناء أنتونوبوليس بدوا مرضى وألوان وجوههم مخطوفة، واحتاج معظمهم إلى قصّة شعرٍ، وارتدوا جميعاً ثياب نومٍ رمادية مع فتحة من الخلف. حدّق الجميع نحو الأبكمين بدهشة.

رفع أنتونوبوليس الأغطية عن طبقه، وتفقد الطعام بعناية. كان هناك سمكٌ وبعض الخضار. التقط أنتونوبوليس السمكة ورفعها على راحة يده باتجاه الضوء ليتحقق منها بشكل أفضل، ثمّ أكلها بسعادة. وخلال العشاء أخذ يشير إلى العديد من الناس في الغرفة. أشار إلى رجل في الزاوية، وقام بحركات ازدراء على وجهه، مما دفع الرجل إلى الدمدمة

بغضب نحوه. أشار أنتونوبوليس إلى فتى صغير، وابتسم له ثمّ هزّ رأسه ولوح بيده السمينة نحوه. كان سينغر سعيداً جداً، ولم يشعر بالإحراج، ثمّ رفع العلب عن الأرض ووضعها على السرير لإلهاء صديقه. نزع أنتونوبوليس التغليف عن العُلب. لم تُثر الآلة اهتمامه أبداً، وعاد إلى تناول عشائه.

قدّم سينغر ملاحظة مكتوبة إلى الممرضة يشرح فيها عن الآلة. استدعت الممرضة متدرباً ثمّ أحضرا طبيباً. وبينما تداول ثلاثتهم نظروا نحو سينغر بفضولٍ. وصلت الأخبار إلى المرضى، وجلسوا جميعاً وأسندوا أنفسهم على مرافقهم من الحماس. كان أنتونوبوليس الوحيد الذي أثار الأمر اهتمامه.

تدرب سينغر على تشغيل الآلة قبلاً، ووضع الشاشة في مكان يُمكن لجميع المرضى مشاهدة الرسوم المتحركة، ثمّ قام بتشغيل المسلاط والفيلم. جمعت الممرضة صواني العشاء، وأطفأت الأنوار في المهجع، وظهر على الشاشة فيلم لميكي ماوس.

راقب سينغر صديقه. في البداية كان أنتونوبوليس مدهوشاً، وقد رفع نفسه ليحظى برؤية أفضل، وكان سينهض من السرير لو لم تمنعه الممرضة. ثمّ شاهد سينغر ابتسامة مشرقة على وجه أنتونوبوليس. لم ينتبه سينغر إلى بقية المرضى وهم يحدثون بعضهم ويضحكون. دخلت الممرضات والعاملين في المأوى إلى القاعة، وغصّ المهجع بالحاضرين. عندما انتهى فيلم ميكي ماوس وضع سينغر فيلم باباي، وعند نهاية الفيلم شعر أن المتعة قد دامت لوقتٍ طويلٍ بالنسبة لأول عرض. قام سينغر بتشغيل الأضواء، واستقر الوضع في المهجع مجدداً. وبينما وضع المتدرب الآلة تحت سرير صديقه رآه سينغر ينظر في أرجاء المهجع بمكرٍ، وكأنّه يريد أن يحرص على أن يعرف كل شخص أنّ الآلة ملكه.

بدأ سينغر يتحدث بيديه مجدداً، وعلم أنّهم سيطلبون منه المغادرة

قريباً، ولكن الأفكار التي خزنها في عقله كثيرة جداً على قولها في وقتٍ قصير لذلك تحدث بسرعة جنونية. هناك في المهجع رجلٌ عجوزٌ يعاني من الشلل وينتف حاجبيه بوهنٍ. حسده سينغر لأنّه يعيش مع أنتونوبوليس كل يوم، وشعر أنّه مستعد لأخذ مكانه بكل سعادة.

عبث صديقه بشيءٍ ما في صدره، إنّه الصليب النحاسي الذي اعتاد ارتداءه، ولكن الخيط القذر استبدل بشريطٍ أحمر. فكرّ سينغر بالحلم، وأخبر صديقه عنه أيضاً. ومن عجلته في تحريك يديه بدت بعض الإشارات غير مفهومة أحياناً، وعندها يهزّ يديه ويبدأ من جديد. راقبه أنتونوبوليس بعينين حالكتي اللون وناعستين، وبدا في جلسته الثابتة وثيابه الفاتحة والفارهة كملكٍ حكيم في أسطورة ما.

سمح المتدرب المسؤول عن المهجع لسينغر بالبقاء لساعة أخرى بعد نهاية وقت الزيارة، إلّا أنّه بعد ساعة رفع معصمه النحيل والمُشعر وأشار إلى ساعته. كان المرضى يستعدون للنوم، وأخذت يد سينغر تتلعثم، وأمسك صديقه من ذراعه، ونظر بإمعان في عينيه كما اعتاد أن يفعل كل صباح عندما يفترقان في طريقهما إلى العمل. وأخيراً غادر سينغر الغرفة، وعند الباب رسمت يداه إشارة وداعية حزينة ثمّ ضمهما على شكل قبضتين.

استمر سينغر بالتجوال في شوارع البلدة تحت ضوء قمر كانون الثاني (يناير) كل ليلة لم يكن فيها مشغولاً بشيء ما. ازدادت الشائعات التي طالته جرأة، وقالت امرأة زنجية لمئات الناس أنّ سينغر يُخاطب أرواح الموتى، وادعى أحد العمال أنه عمل مع الأبكم في مصنع آخر في مكانٍ ما من الولاية، وكانت الحكايات التي سردها غريبة. واعتقد الأثرياء أنّه ثري والفقراء أنّه فقير مثلهم. وبما أنّه لم يكن هناك من طريقة للتحقق من صحة هذه الإشاعات فقد تضخمت وغدت واقعية جداً، ووصف الجميع الأبكم كما أرادوه أن يكون.

مكتبة
t.me/t_pdf

-8-

لماذا؟ لطالما شغل هذا السؤال بيف دون أن يشعر بهذا تماماً كما لا يشعر بجريان الدم في عروقه. فكَّرَ بالناس والأشياء والأفكار، وشغل السؤال تفكيره في منتصف الليل، وفي الصباح الباكر جداً، وفي الظهر، فكر بهتلر وبإشاعة عن اندلاع حربٍ، وبسعر لحم خاصرة الخنزير والضريبة على الجعة، إلا أنه أمعن التفكير بلغزِ الأبكم تحديداً. على سبيل المثال لماذا ذهب سينغر في القطار، وعندما سُئل عن المكان الذي ذهب إليه تظاهر بأنّه لم يفهم السؤال؟ لماذا يصرّ الجميع على التفكير بالأبكم كما يريدون في الوقت الذي قد تكون فيه كل افتراضاتهم خاطئة؟ جلس سينغر على الطاولة وسط المطعم ثلاث مرّاتٍ يومياً، كان يأكل كل ما يوضع أمامه باستثناء الملفوف والمحار، وكان الزبون الوحيد الصامت وسط جعجعة الأصوات العالية. كان يُحب البازلاء الخضراء الصغيرة الطريّة والمطبوخة بالزبدة حيث يجمعها في كومة مرتبة على أسنان شوكته ثمّ يغمّسها في المرقة مع قطعة خبز.

وفكر بيف بالموت أيضاً فلقد وقع حدثٌ غريبٌ منذ فترة. في أحد الأيام وبينما كان يبحث عن شيءٍ في خزانة الحمام عثر على زجاجة عطر «أغوا فلوريدا» كان قد نسي أن يرسلها إلى لوسيل مع بقية أدوات تبرج أليس. أمسك زجاجة العطر بيده وتأملها. لقد مرّت أربعة أشهر تقريباً على موتها، ومع مرور كل شهر شعر بطول المدة وكأنّها توفيت منذ عام، إلّا أنّه نادراً ما فكر بها.

فتح بيف الزجاجة، ووقف عاري الصدر أمام المرآة، ثمّ وضع بعضاً من العطر تحت إبطيه المُشعرين جداً. أصابته الرائحة بالتيبس، وألقى نظرة خاطفة غير عادية على نفسه في المرآة بينما وقف بلا حراك. صُعق بالذكريات التي أثارها العطر فيه، والسبب ليس وضوح تلك الذكريات بل لأنّها تجمعت معاً بما في ذلك ذكريات سنواتٍ طويلةٍ. فرك بيف أنفه، ونظر جانباً إلى نفسه، وفكر بحد الموت! شعر أنّه عاش مع أليس في كل لحظة من حياته، وبدت حياتهما الآن كاملةً ككل ماضٍ كامل، وفجأة ابتعد بيف عن المرآة.

جدد بيف غرفة النوم التي أصبحت له بالكامل الآن. كانت الغرفة قبلاً مُبتذلة وقذرة وتعمّها الفوضى، وهناك على الدوام جوارب وثياب داخلية حريرية مثقوبة معلقة على حبلٍ في الغرفة لتجفّ، وتقشر طلاء السرير المعدني، وغزاه الصدأ وعليه بدت الوسائد المخرمة قذرة، وكان طشت الماء المخصص لغسل الوجه قذراً جداً إلى درجة أنّ أي فأر هزيل من الطابق السفلي لن يحكّ ظهره به.

كل هذا تغير فقد استبدل السرير المعدني بأريكة تُقلب إلى سرير. كان هناك سجادة حمراء سميكة على الأرض، وقد اشترى قطعة قماشية جميلة بلون أزرق كلون البورسلان الصيني، وعلّقها على الجدار حيث تظهر أسوأ التصدعات. أزال الغطاء عن المستوقد وملأه بقطعٍ من خشب الصنوبر. هناك صورة لبيبي وصورة ملونة لفتى صغير بثيابٍ مخملية يحمل كرة بين يديه على رف المستوقد، وهناك خزانة زجاجية في الزاوية تحوي على التحف التي جمعها؛ عينات فراشات ورأس سهم نادر وحجر غريب يشبه وجهاً بشرياً جانبياً. وضع وسائد زرقاء على الأريكة، وقد استعار ماكينة الخياطة الخاصة بلوسيل ليصنع ستائر للنوافذ بلونٍ أحمر غامق. أحبّ الغرفة، فقد بدت فارهة وأنيقة، وعلى الطاولة هناك هيكل ياباني صغير مع مِشكاة زجاجية تُصدر أصواتاً موسيقية عند هبوب الرياح.

لم يبقَ شيءٌ في هذه الغرفة يذكره بأليس، ولكنه أحياناً يفتح زجاجة عطر أغوا فلوريدا، ويضع غطاءها على شحمة أذنيه ومعصميه، وتمتزج رائحة العطر بالاسترجاع البطيء للذكريات. كبر فيه الإحساس بالماضي، ونظمت الذكريات ذاتها وفق ترتيب هندسي. وفي علبة حيث احتفظ بالتذكارات رأى صوراً قديمة له قبل الزواج. وفي إحداها كانت أليس في حقل أقحوان، وفي أخرى جلس مع أليس في قارب تجديف وسط النهر. ومن بين التذكارات هناك أيضاً مشبك شعر عظمي يعود إلى والدته. عندما كان صغيراً أحبّ مشاهدة أمّه تمشط وتربط شعرها الأسود الطويل. لطالما اعتقد أن المشابك المحدبة الشكل قد صُنعت تقليداً لشكل سيدة ما، واعتاد اللعب بها أحياناً وكأنّها دمى. كان لديه في ذلك الوقت علبة سيجار مليئة بالقصاصات القماشية. أحبّ ملمس وألوان الأقمشة الزاهية حيث جلس إلى طاولة المطبخ لساعات مع هذه القصاصات، ولكن عندما بلغ السادسة من عمره أخذت والدته القصاصات. كانت امرأة طويلة وقوية، ولديها حسٌ عالٍ بالواجب كأيّ رجل، وكان بيف المفضل لديها من بين بقية أولادها. يحلم بها أحياناً وبخاتم زفافها الذهبي العتيق الذي يرتديه في إصبعه على الدوام.

عثر في الخزانة أيضاً بالإضافة إلى زجاجة عطر أغوا فلوريدا على علبة رذاذ بخلاصة الليمون اعتادت أليس رشّ شعرها به، وقد جربه في أحد الأيام على شعره، ويبدو أنّ خلاصة الليمون جعلت شعره الأسود والموشح بالأبيض منفوشاً وكثيفاً. أحبّ هذا الرذاذ، وتوقف عن استخدام الزيت الذي يقي من الصلع. استخدم خلاصة الليمون بشكل منتظم، وأصبحت بعض العادات التي اعتاد أن ينتقد أليس عليها عاداته الآن. لماذا؟

في كل صباح كان يُحضر له الفتى الأسود لويس كوباً من القهوة ليشربه في السرير، وغالباً ما يجلس في السرير والوسائد خلف ظهره لساعة قبل أن ينهض ويُبدل ثيابه، ويُدخن سيجاراً، ويراقب الأشكال

التي ترسمها أشعة الشمس على الجدار. وبينما يغرق في التأمل يأخذ بتمرير سبابته بين أصابع قدميه الطويلة والمعقوفة ويتذكر.

ومن الظهيرة وحتى الخامسة صباحاً يعمل في الطابق السفلي طوال اليوم خلال أيام الآحاد. كان المقهى قد بدأ يخسر المال، وتمر ساعات كثيرة دون عمل، ولكنّه يزدحم في ساعات تقديم الوجبات، ورأى برانن مئات المعارف يومياً من مكانه خلف آلة النقود.

«ما الذي تفكر به وأنت واقف طوال الوقت؟» سأله جيك بلاونت. «تبدو كيهودي في ألمانيا».

«جُزءٌ مني يهودي»، قال بيف. «إنّ والدة أمي يهودية من أمستردام، أمّا بقية أهلي فهم اسكتلنديون إيرلنديون».

إنّه صباح الأحد والزبائن مسترخون حول طاولاتهم، وفي الأجواء رائحة تبغ وحفيف أوراق الجرائد. رمى بضعة رجالٍ جلسوا في كابينة في الزاوية أحجار نرد، ولكنهم لعبوا بهدوء.

«أين سينغر؟» سأل بيف. «ألم تزره في غرفته هذا الصباح؟»

امتقع وجه بلاونت وعبس، ثمّ هزّ رأسه إلى الأمام. «هل تجادلتما؟» ولكن كيف يُمكن لأبكم أن يُجادل؟ لا، لقد حصل هذا قبلاً. اعتاد بلاونت التسكع في الأنحاء، والتصرف وكأنّه يتجادل مع نفسه، ولكنّه عاجلاً ما يُغادر - هذا ما يفعله دوماً- ثم يعود إلى برانن ويتحدث بلاونت معه.

«تعيش حياةً جميلة، فأنت تقف وراء آلة النقود وحسب. تقف هكذا ويداك مفتوحتان».

تجاهل بيف الإهانة، واستند بكامل وزنه على مرفقيه وزرّ عينيه.

«فلنتحدث حديثاً جدياً. ما الذي تريده؟»

ضرب بلاونت المنضدة بيديه. كانت يداه دافئتين وسمينتين وقاسيتين.

«جعة وكيساً صغيراً من رقائق الجبن المحشوة بزبدة الفستق».

«هذا ليس ما عنيته»، قال بيف. «ولكننا سنعود إليه لاحقاً».

كان الرجل حائراً ومتقلباً على الدوام. ما زال يشرب كسمكة مجنونة، ولكن الكحول لا يؤثر به كما يفعل ببعض الرجال، وغالباً ما يبدو جفناه مُحمرين، وكان لديه عادة عصابية وهي التلفت من فوق كتفيه إلى الخلف بذهول. كان رأسه ثقيلاً وضخماً فوق رقبته النحيلة. إنّه من ذلك النوع الذي يضحك عليه الأطفال، وهذا يزعجه جداً ويجعله يتصرف بخشونة ويصرخ بصوتٍ عالٍ كمهرجٍ. كان يشك دوماً بأنّ أحدهم يضحك عليه.

هزّ بيف رأسه بهدوء.

«تعال، ما الذي يضايقك في المعرض؟ يمكنك أن تعثر على عملٍ أفضل منه. يمكنني أن أعطيك عملاً بدوام جزئي هنا».

«يا إلهي! لا يمكنني أن أقف وراء آلة النقود حتى لو منحتني كل المطعم مع الأقفال والبضائع وبرميل الجعة».

هذا هو بلاونت، إنّه مزعج، ولا يستطيع عقد صداقات أو الانسجام مع الناس.

«فلتتحدث بعقلانية، ولتكن جاداً». قال بيف.

توجه أحد الزبائن إلى المنضدة مع حسابه وطلب فكّة.

ما زال المكان هادئاً وبلاونت قلقاً. شعر به بيف ينسحب بعيداً، وأراد أن يحضنه. مدّ يده إلى الرّف خلف النضد، وتناول سيجارين ثمّ عرض على بلاونت أحدهما وهو يطرد سؤالاً تلو الآخر في رأسه إلى أن سأل أخيراً:

«إن كان بإمكانك اختيار حقبة تاريخية تستطيع العيش فيها، فماذا ستختار؟»

لعق بلاونت شاربه بلسانه العريض والرطب.

«إن كان بإمكانك أن تختار بين التزمت وعدم طرح المزيد من الأسئلة، فأيهما ستختار؟»

«أأنت واثق من هذا؟ فكر بالأمر مجدداً». قال بيف.

أحنى بلاونت رأسه إلى جانب واحد، ونظر على امتداد أنفه. لطالما أحبّ سماع الآخرين يتحدثون بهذه الطريقة. إنّ الحقبة المفضلة هي الحقبة اليونانية القديمة حيث يمكنه أن يمشي بصندلٍ على ساحل بحر إيجه الأزرق مع الأربطة الرخوة حول ردائه عند الخصر، وفكر بالأطفال وبالحمامات الرخامية والتأمل في المعابد.

«ربما حقبة الإنكا في البيرو».

تفحصه بيف بعينه، وعرّاه من ثيابه. رأى بلاونت ببشرة سمراء دهنية ومحمرّة من الشمس، وبوجهٍ ناعم وخالٍ من الشعر، وقد ارتدى أسواراً من الذهب والمعادن الثمينة على ساعده. عندما أغلق برانن عينيه متأملاً رأى بلاونت كأحد سكان الإنكا المقتدرين، ولكن عندما نظر إليه مجدداً تداعت الصورة. كان الشارب الذي يتحرك بعصبية وهذا أفسد الأمر، فهو لا يُناسب وجهه بالإضافة إلى الطريقة التي يهزّ بها كتفيه، وحركة تفاحة آدم في عنقه النحيل وسرواله الفضفاض. ولكن الأمر أكبر من هذا.

«أو ربما في زمنٍ قريب من عام 1775».

«كان زمناً جيداً ليحيا فيه المرء»، وافقه بيف.

وبتوتر بدّل بلاونت بين قدميه، وبدا وجهه قاسياً وحزيناً. أخذ يستعد للمغادرة، وحرص بيف على منعه.

«أخبرني، لماذا أتيت إلى هذه البلدة؟»

علم بيف على الفور أنّ السؤال لم يكن سؤالاً ذكياً، وشعر بالخيبة من نفسه. ولكنه لأمرٌ غريب أن ينتهي المطاف برجلٍ مثله في مثل هذا المكان.

«إنّها الحقيقة الإلهية التي لم أعرفها».

وقف الرجلان متكئين على المنضدة بهدوء لدقيقة. كانت لعبة النرد في الزاوية قد انتهت، وقُدم طبق العشاء الأول المؤلف من لحم بط لونغ آيلاند الخاص إلى الرجل الذي يدير متجر البقالة، وتغير تردد المذياع بين محطتين إحداهما تذيع عظة كنسية وأخرى تقدم موسيقى السوينغ.

قرَب بلاونت وجهه فجأة، واشتم رائحة وجه بيف.

«عطر؟»

«كولونيا ما بعد الحلاقة». قال بيف متمالكاً نفسه.

لم يعد باستطاعته أن يبقي بلاونت أطول، فالرجل كان مستعداً للذهاب، وهو سيعود لاحقاً مع سينغر، فهذا ما يحصل على الدوام. أراد أن يتحدث مع بلاونت ليتمكن من فهم بعض الأمور التي تخصه، ولكن بلاونت لم يتكلم مع أحد باستثناء الأبكم. كان الأمر غريباً حقاً.

«شكراً على السيجار. أراك لاحقاً». قال بلاونت.

«إلى اللقاء».

راقبه بيف وهو يمشي نحو الباب بمشيته المتأرجحة وكأنّه بحار، ثمّ التفت إلى المهام التي كانت بانتظاره. نظر إلى واجهة العرض في نافذة المطعم حيث أُلصقت قائمة طعام اليوم على الزجاج، ووضعت عينة من طبق العشاء الخاص مع كل الإضافات لجذب الزبائن. بدا الملصق سيئاً حقاً، وفي العينة امتزج مرق البط مع صلصة التوت، وعلقت ذبابة في الحلوى.

«لويس، أخرج الأطباق من النافذة. وأحضر لي ذلك الطبق الفخاري الأحمر وبعض الفواكه». نادى بيف.

رتب بيف الفواكه وفق اللون والشكل، وفي النهاية بدا راضياً عن هذا الترتيب. ثمّ توجه إلى المطبخ، وتحدث مع الطباخ، ورفع أغطية القدور واشتمّ رائحة الطعام فيها، ولكن دون أن يكون جدياً فيما يقوم به. لطالما تكفلت أليس بهذا الجزء الذي يكرهه جداً. حضّر أنفه للروائح التي سيشمها عندما رأى حوض الجلي المبقع بالدهون مع كل بقايا الطعام في أسفله. أعدّ قائمة الطعام والطلبات للغد، وشعر بالسعادة لمغادرة المطبخ والعودة إلى موقعه وراء آلة النقود مجدداً.

حضرت لوسيل وبيبي لتناول عشاء يوم الأحد. لم تكن الفتاة الصغيرة في وضعٍ جيد، فرأسها ما زال مُضمداً، وقد قال الطبيب إن الضماد سيبقى

حتى الشهر القادم. كانت الضمادات ملفوفة حول خصلها الشقراء وهذا جعلها تبدو صلعاء.

«قولي مرحباً للعم بيف يا حبيبتي»، شجعتها لوسيل.

كبحت بيبي نفسها غاضبةً، وقالت بوقاحة: «مرحباً للعم بيف يا حبيبتي».

تعاركت لوسيل معها عندما حاولت أن تنزع معطف أيام الأحد عنها.

«فلتحسني التصرف»، استمرت لوسيل بقول هذا. «عليك أن تخلعي المعطف أو ستصابين بذات الرئة عندما تخرجين إلى الخارج. فلتحسني التصرف».

تسلم بيف زمام الموقف، ولاطف بيبي بأن قدم لها علكة محلاة، وأخذ المعطف عن كتفيها. كان ثوبها قد تجعد أثناء نزاعها مع لوسيل، فرتب لها بيف القسم الأعلى من فستانها الذي عاد مرتباً على صدرها، وربط وشاحها في عقدة فراشية متناسبة مع حجم أصابعه، ثمّ ربّت على مؤخرة بيبي وقال لها:

«لدينا مثلجات الفراولة اليوم».

«بارثيميلو، أنتَ تصلح لأن تكون أماً جيدة جداً».

«شكراً»، قال بيف. «هذه مجاملة».

«عدنا للتو من مدرسة الأحد والكنيسة. بيبي فلتتلي الآيات التي تعلمتها اليوم أمام العم بيف».

تراجعت الفتاة إلى الوراء وزمّت شفتيها. «بكى المسيح»، قالت أخيراً.

إن حجم الازدراء الذي خرج مع نطقها لهاتين الكلمتين جعلاهما تبدوان كأمرٍ رهيب.

«هل تريدين أن تري لويس؟» سألها بيف. «إنه في المطبخ».

«أريد أن أرى ويلي. أريد أن أسمعه يعزف على الهارمونيكا».

«بيبي، أنت ترهقين نفسك». قالت لوسيل بنفاذ صبرٍ. «أنت تعلمين أن ويلي ليس هنا، لقد أُرسل إلى السجن».

«ولكن لويس»، قال بيف. «يستطيع العزف على الهارمونيكا أيضاً. اذهبي إليه وأخبريه أن يُجهز المثلجات ويعزف لك».

توجهت بيبي إلى المطبخ ببطء، ووضعت لوسيل قبعتها على النضد والدموع في عينيها.

«كنت أقول دوماً إن الطفل الجميل الذي يُعنى بنظافته ويلقى الرعاية سيكون طفلاً لطيفاً وذكياً. وإن كان قذراً وبشعاً لا يمكنك أن تتوقع الكثير منه. ما أريد قوله أنّ بيبي تشعر بالحرج الشديد بسبب خسارتها لشعرها، ويبدو أنّ ذلك الضماد على رأسها يصيبها بالكسل طوال اليوم، وترفض التدرب على الخطابة، ولا تفعل شيئاً. إنّها في وضعٍ مزرٍ، وأعجز عن التعامل معها».

«إن توقفتِ عن افتعال المشكلات معها فستكون على ما يرام».

وأخيراً جهز بيف لهم مكاناً في الكابينة قرب النافذة. طلبت لوسيل الطبق الخاص المكون من صدر دجاجة مقطع بشكل جيّد، وطلبت هريس القمح وجزراً لبيبي. لعبت بيبي بطعامها، وسكبت الحليب على ثوبها الصغير. جلس بيف معها إلى أن بدأت ساعة الازدحام في المطعم، وكان عليه أن يغادر ليشرف على سير الأمور بسلاسة.

يأكل الناس ويدفعون بالطعام إلى أفواههم المفتوحة على اتساعها، ما هذا؟ هذا ما قرأه منذ وقتٍ ليس بالطويل. كانت الحياة عبارة عن طعام وتغذية وإعادة إنتاج. ازدحم المكان، ومن المذياع صدحت موسيقى إحدى فرق السوينغ.

أتى الرجلان اللذان كان بيف ينتظرهما. دخل سينغر من الباب أولاً في بذلة الأحد المكوية والأنيقة، وظهر بلاونت من خلف مرفقه. هناك شيء أذهله في الطريقة التي مشيا بها. جلسا إلى طاولتهما، تحدث بلاونت

وتناول طعامه باستمتاع بينما راقبه سينغر بتهذيب. عندما انتهت الوجبة توقفا عند آلة النقود لبضع دقائق، ثم خرجا بالطريقة ذاتها وبيف يراقبهما. هناك شيء في طريقة مشيتهما معاً جعلته يتوقف ويتساءل في نفسه. ما هذا الشيء؟ كانت العودة المباغتة إلى الماضي صادمة. تذكر بيف ذلك الأبكم الأحمق الذي اعتاد سينغر مرافقته في طريقه إلى العمل. إنّه ذلك اليوناني القذر الذي يُعدّ الحلوى في متجر تشارلز باركر. لطالما مشى اليوناني في الأمام وتبعه سينغر. لم يراقبهما بيف كثيراً قبلاً لأنهما لم يدخلا إلى المكان، ولكنّه استغرب تذكره لهذا الأمر. لقد شغله التفكير بالأبكم في جميع الأوقات، ولكنه أهمل التفكير بهذه النقطة. بدا الأمر وكأنه يشاهد عرضاً لثلاثة فيلة ترقص الفالس حيث لاحظ كل شيء في العرض عدا الفيلة نفسها. ولكن هل كان الأمر مهماً على أيّ حال؟

زرّ بيف عينيه، فهو لم يهتم بوضع سينغر السابق، لأنّ المهم الآن هو الطريقة التي جعله بلاونت وميك فيها يبدو كإله مصنوع منزلياً. ولأنّه كان أبكم منحاه كل السمات التي أراداها. أجل، ولكن كيف يُمكن أن يحدث مثل هذا الأمر الغريب؟ ولماذا؟

دخل رجلٌ بيدٍ مقطوعة، وقدّم له بيف كأساً من الويسكي على حسابه، ولكنه لم يكن يرغب بالحديث مع أيّ أحد. كان الغداء الذي يُقدم أيام الأحد غداءً عائلياً، والرجال الذين كانوا يشربون الجعة أيام الأسبوع أحضروا زوجاتهم وأطفالهم الصغار معهم أيام الأحد. وغالباً ما كانوا يستعينون بكرسي الأطفال العالي الموجود خلف المقهى. أشارت الساعة إلى الثانية والنصف، ورغم أن جميع الطاولات مزدحمة إلّا أنّ الوجبة قد انتهت. وقف بيف على قدميه طوال الساعات الأربع الماضية ولذلك شعر بالتعب. اعتاد أن يقف لأربع عشرة أو ست عشرة ساعة دون أن يشعر بالتعب، ولكنّه الآن أكبر عمراً بكثير إلا أنّه لم يصبح كهلاً بعد. تضخمت وخفتت أصوات المكان في أذنه. إنّه بالغ. غدت عيناه نشيطتين وكأنّه مصاب بحمى، وجعله هذا يرى كل شيء زاهياً وواضحاً جداً.

نادى على إحدى النادلات.

«فلتستلمي زمام الأمور عني من فضلك لأنني سأخرج».

كانت الشوارع مقفرة من المارة لأنّ اليوم عطلة. توهجت الشمس جداً وبوضوح، ولكن دون أن تمنح أي دفء. رفع بيف ياقة معطفه حتى رقبته، ووحيداً في الشارع أخذ يتحسس جيوبه. هبّت رياحٌ باردة من جهة النهر، وفكر بأنّه كان عليه أن يعود، ويبقى في المطعم حيث ينتمي. لم يكن لديه أيّ عمل في المكان الذي يتوجه إليه، ولكنّه كان يفعل هذا طوال أربعة آحاد ماضية. وصل إلى الحيّ الذي يمكنه أن يرى فيه ميك. وشعر أنّ هناك شيءٌ غير صائب حقاً فيما يفعله. أجل، لقد شعر بخطبٌ ما.

مشى ببطء على الرصيف المقابل للمنزل الذي تقطنه ميك. رآها في الأسبوع الماضي تقرأ المجلات الفكاهية على درجات المدخل الأمامي، ولكن هذه المرة ألقى بيف نظرة سريعة إلى المنزل، واكتشف أنّها لم تكن هناك. أمال بيف طرف قبعته إلى الأسفل فوق عينيه. ربما ستأتي إلى المطعم لاحقاً، فغالباً ما كانت تذهب إلى هناك أيام الأحد بعد العشاء من أجل تناول الشوكولا الساخنة، وتتوقف قليلاً عند الطاولة التي يجلس عليها سينغر وهي في ثياب الأحد المختلفة عن التنورة الزرقاء والسترة الصوفية التي ترتديها خلال أيام الأسبوع. ارتدت أيام الأحد ثوباً حريرياً بلون النبيذ مع ياقة مُخرمة رثّة، وفي إحدى المرات ارتدت جوارب مخططة. ولطالما أراد أن يقدّم لها شيئاً حقيقياً لتأكله، شيئاً غير الحلوى أو المُثلجات، فهذا كل ما أراد أن يُقدمه لها. كانت تتصلب شفتا بيف عندما يفكر بهذا، ورغم عدم إقدامه على فعل أي شيء مشين إلّا أنّه شعر بذنبٍ غريب. لماذا؟ إنّه ذلك الشعور الدفين بالذنب في كل الرجال، شعورٌ غير مفهوم ولا اسم له.

في طريق العودة عثر برانن على بنسٍ وقد برز نصفه من القمامة في المجرور. التقط البنس ونظفه بمنديله، ووضعه في جيب محفظته

السوداء التي يحملها معه. أشارت الساعة الآن إلى الرابعة عندما وصل إلى المطعم. كان العمل راكداً، وما من زبون واحد في المكان.

نشط المكان في الخامسة، وأتى الفتى الذي وظفه مؤخراً باكراً. كان اسم الفتى هاري مينويتز، ويعيش في الحي الذي تقطن فيه ميك وبيبي. استجاب لإعلانه عن حاجته إلى عامل في الجريدة أحد عشر شخصاً، ولكنه اعتبر هاري رهانه الأفضل. كان بالغاً جداً بالنسبة لعمره ومُرتباً. انتبه بيف إلى أسنان الولد عندما تحدث إليه خلال المقابلة. إنّ الأسنان دليل جيد. كان فتىً كبيراً ونظيفاً وأبيض. ارتدى هاري نظارات، ولكن هذا لم يكن مُهماً في عمله. تجني والدته عشرة دولارات أسبوعياً من الخياطة في متجرٍ عند نهاية الشارع، وهاري ولدها الوحيد.

«حسناً»، قال بيف. «مرّ أسبوع على وجودك معي يا هاري. هل أحببت العمل؟»

«بالتأكيد يا سيدي. بالتأكيد أحببته».

لعب بيف بخاتم إصبعه، وأخذ يلفه.

«لنرَ، متى تعود من المدرسة؟»

«الساعة الثالثة يا سيدي».

«حسناً، سيمنحنا هذا ساعتين للدراسة وللترفيه قبل أن تأتي إلى هنا من السادسة إلى العاشرة. هل ستنام كفاية؟»

«كفاية جداً، فأنا لا أحتاج إلى ساعات نومٍ كثيرة».

«تحتاج إلى ما يقارب عشر ساعات من النوم في عمرك يا بني. تحتاج إلى نومٍ عميق صحي».

شعر بيف بالإحراج فجأة. ربما سيعتقد هاري أنّه يتدخل فيما ما لا يعنيه، وهذا ليس ما قصده. نظر جانباً وأخذ يُفكر بشيٍ ما.

«هل ترتاد مدرسة فوكيشنال؟»

هزّ هاري رأسه بالإيجاب، ونظّف نظاراته بكمّ قميصه.

«لنرَ، أعرف الكثير من الفتية والفتيات ممن يرتادون تلك المدرسة،

هناك ألفا ريتشاردز التي أعرف أباها، وماغي هنري، وفتاة تدعى ميك كيلي». شعر بيف وكأنّ أذنيه تشتعلان. عرف أنّه تصرف بحماقة، وأراد أن يغادر مكانه، ولكنه بقي واقفاً وابتسم بينما حكّ أنفه بإبهامه.

«هل تعرفها؟» سأل بصوتٍ ضعيف.

«بالتأكيد، أعيش بجوار منزلها، أنا في الصف الثاني الثانوي وهي في الصف الأول الثانوي».

خزّن بيف هذه المعلومة القيّمة في عقله ليفكر بها لاحقاً عندما يكون وحده.

«سيخف العمل هنا قليلاً»، قال بيف على عجل. «ولذلك سأترك زمام سير العمل بين يديك. أصبحت تعرف كيف تدير الأمور. راقب الزبائن الذين يشربون الجعة، وتذكر عدد الكؤوس التي يشربونها حتى لا تسألهم وتعتمد على ما يقولونه. خذ وقتك في عد النقود، وتابع كل ما يجري».

أغلق بيف على نفسه الباب في غرفته في الطابق السفلي حيث يحتفظ بملفاته. كان للغرفة نافذة واحدة مطلة على الزقاق الجانبي، وكان الهواء فيها عفناً وبارداً. ارتفعت أكوام من الصحف إلى السقف، وغطت أحد الجدران خزانة ملفات مصنوعة منزلياً، وبالقرب من الباب هناك كرسي هزاز قديم وطاولة صغيرة عليها مقص ومُعجم وماندولين. وبسبب أكوام الصحف كان من المستحيل على أي أحد المشي لأكثر من خطوتين في أيّ اتجاه. جلس بيف على الكرسي الهزاز، وأخذ يهزّ نفسه بخمول، ويعزف بالريشة على أوتار الماندولين. أغمض عينيه وبدأ يغني بصوتٍ حزينٍ:

ذهبت إلى معرض الحيوانات.
هناك الطيور والوحوش،
ويُمشط البابون العجوز شعره الكستنائي
تحت ضوء القمر.

نقر على الوتر الأخير، واهتزت النغمات الأخيرة إلى أن سكنت في الهواء البارد للغرفة.

فكر أن يتبنى ولدين، صبي وفتاة بحدود الثالثة أو الرابعة حتى يشعرا به كوالدٍ حقيقي لهما، ويشعر بهما كوالدهما. ستشبه الفتاة الصغيرة ميك (أو بيبي) بخدين مدورين وعيونٍ رمادية وشعرٍ أشقر فاتح. سيُلبسها أثواباً من قماش الكريب الوردي مع أكمامٍ وياقات عالية فضفاضة وأنيقة، وسترتدي جوارب حريرية وحذاءً من جلد الغزال مع معطفٍ مخملي أحمر صغير وقلنسوة وموفة للشتاء. سيكون الفتى أسمراً وبشعرٍ أسود، وسيمشي وراءه ويُقلّد حركاته. وسيذهب ثلاثتهم صيفاً إلى كوخ مطلّ على الخليج حيث سيُلبس الطفلين ثياب سباحة، وسيدلهما بعنايةٍ إلى الأمواج التركوازية الخفيفة، وسيشبّان بينما يشيخ. سيقولان هذا والدنا، وسيأتيان إليه بالأسئلة وسيجيبهما.

لم لا؟

أخذ بيف الماندولين مرة أخرى.

«ترااا تتتا، ترررا تتا، حفل زفاف الدمية». حاكى الماندولين اللازمة، وغنى بيف بينما هزّ قدمه مع الإيقاع. عزف أغنية «كيتي» و«أغنية الحب القديمة». كانت هذه الأغاني كعطر أغوا فلوريدا في الطريقة التي أثارت فيها الذكريات بداخله، ذكريات السنة الأولى عندما كان سعيداً، وحتى عندما كانت أليس سعيدة أيضاً. وعندما لم يعودا يمارسان الجنس سوى مرتين كل ثلاثة أشهر لم يعلم أنّ عقلها مشغول بتوفير النقود وبكيفية الحصول على المزيد، وهناك أيضاً مسألة الفتاة ريو وكل تلك الفتيات - غيب ومادلين ولو - اللواتي زرنها في المنزل. في النهاية فقد أعصابه، ولم يعد قادراً على النوم مع امرأة. يا إلهي! وضاع كل شيء منذ البداية.

لطالما فهمت لوسيل كل هذا، وعرفت أيّ نوع من النساء كانت أليس، وربما فهمت شخصيته أيضاً. حثّتهما لوسيل على الطلاق، وحاولت قدر المستطاع ترتيب فوضاهما.

رجف بيف فجأة، وأبعد يديه عن أوتار الماندولين وبتر الأغنية من منتصفها. جلس على كرسيه متوتراً، ثمّ ضحك بهدوء على حين غرة: ما الذي أوصلني إلى هذا؟ يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! حدث الأمر في يوم عيد ميلاده التاسع والعشرين، طلبت منه لوسيل وقتها أن يمر بشقتها حالما ينتهي من موعده مع طبيب الأسنان. توقع من هذا الطلب الصغير أن يحظى بكعكة كرز أو قميصٍ جيد. استقبلته عند الباب، وعصبت عينيه قبل أن يدخل، وأخبرته أنّها ستعود خلال دقيقة. أصغى إلى وقع خطواتها في الغرفة الهادئة، وعندما وصلت إلى المطبخ ضرط. وقف وسط الغرفة وعيناه معصوبتان، ويشعر بالانتفاخ. ثمّ انتابه الرعب لإحساسه بأنّه ليس لوحده في الغرفة. علت ضحكات مكبوتة، وعاجلاً تحولت إلى موجات ضحكٍ أصابته بالصمم. في تلك اللحظة عادت لوسيل، وفكت العصابة عن عينيه. كانت تحمل كعكة كراميل على صحنٍ، والغرفة مليئة بالناس من بينهم ليروي وتلك المجموعة من الفتيات وأليس بالطبع. أراد أن يتكور على نفسه عند الجدار. وقف بوجهه العاري ينتظر والخجل يأكله. مازحوه، وبعد مرور ساعة أحسّ أنّ الأمر بالسوء نفسه الذي شعر به عندما توفيت والدته. لاحقاً في تلك الليلة شرب ربع غالون من الويسكي، وكرر الأمر لأسابيع لاحقة. يا للهول!

ضحك بيف ببرود، ونزع أوتار الماندولين، وأخذ يُدندن بأغنية رعاة بقر. كان صوته بطبقة جهورية رخيمة، وأغلق عينيه بينما غنى. كانت الغرفة مظلمة تقريباً، ونفذت الرطوبة الباردة إلى عظامه، وشعر بالألم في رجليه بسبب الروماتيزم.

وضع الماندولين أخيراً، وهزّ كرسيه على مهل في العتمة. الموت! شعر بوجوده في الغرفة معه، وهزّ كرسيه إلى الخلف والأمام. ما الذي فهمه؟ لا شيء. إلى أين هو متوجه؟ لا مكان. ما الذي أراده؟ أن يعرف. ماذا؟ المعنى. لماذا؟ هذه أحجية.

هناك صورٌ محطمة ومتناثرة كقطع الأحاجي في رأسه؛ أليس تنوح

في حوض الاستحمام، ووجه موسوليني، وميك تجر عربة الطفل، وديك رومي مشوي في واجهة العرض، وفم بلاونت، ووجه سينغر. شعر بأنّه ينتظر شيئاً ما. كانت الغرفة غارقة في الظلام، وتناهى إلى سمعه غناء لويس.

وقف بيف، ولمس ذراع كرسيه حتى لا يتوقف عن الهز. عندما فتح الباب كان الجو في الردهة بارداً ودافئاً ومضيئاً جداً. تذكر أنّ ميك قد تمر بالمطعم، ولهذا رتب ثيابه وشعره، وعاد إليه الدفء والحيوية. كان المطعم يضج صخباً، وقد بدأ تقديم عشاء يوم الأحد والجعة. ابتسم بحرارة للفتى هاري، واستقر في مكانه وراء آلة النقود. ألقى نظرة سريعة على المكان كمن يحمل وهقاً في يده ويضرب به الهواء. كان المكان مزدحماً وصاخباً، وبدا صحن الفواكه في الواجهة مميزاً وأنيقاً. راقب بيف الباب، وتابع تفحص المكان بعينٍ خبيرة. كان صاحياً، وينتظر بتيقظ. وصل سينغر، وكتب بقلمه الفضي أنّه يريد حساءً وويسكي فقط لأنّه يعاني من الزكام، ولكن ميك لم تأتِ.

-9-

لم يعد مع ميك حتى قرشٌ واحد لتصرفه على نفسها. لهذه الدرجة كان أهلها فقراء، وأصبح المال مشكلة حقيقية بالنسبة لهم، فهم بالكاد كانوا قادرين على دفع نفقات غرفة خاصة لبيبي وأجر ممرضتها. وكلما انتهوا من دفع المال لشيءٍ ما طرأ شيء آخر. وصلت ديونهم إلى مئتي دولار، وكان عليهم دفع هذا المبلغ على الفور. خسروا المنزل، وحصل والدها على مئتي دولار من هذه الصفقة، وسمح للبنك بأن يأخذ الرهن، واستدان خمسين دولاراً من السيد سينغر أيضاً. بعد ذلك أصبح جمع الإيجار مصدر قلقٍ أكثر من دفع الضرائب. كانوا فقراء كفقراء المصانع تقريباً ولكن ما من أحد ليرعاهم.

حصل بيل على عمل في معمل تعبئة الزجاجات، وكسب عشرة دولارات أسبوعياً. عملت هيزل كمساعدة في صالون تجميل مقابل ثمانية دولارات أسبوعياً، وباعت إيتا البطاقات في صالة السينما بأجرٍ وصل إلى خمسة دولارات. دفع كل واحد منهم نصف ما جناه لقاء المعيشة في المنزل. هناك ستة مستأجرين في البيت، وكل واحد منهم يدفع خمسة دولارات. دفع السيد سينغر الإيجار بانتظام. ومع ما جناه والدها وصل المبلغ إلى مئتي دولار شهرياً، ومن هذا المبلغ كان عليهم أن يطعموا المستأجرين جيداً والعائلة ودفع إيجار المنزل وأقساط الأثاث.

لم تعد ميك وجورج يحصلان على مال من أجل الغداء في المدرسة، واضطرت إلى إيقاف دروس الموسيقى. خبأت بورشيا بقايا الطعام من

أجل عشائها وعشاء جورج بعد عودتهما من المدرسة، واضطرا إلى تناول وجباتهما في المطبخ، بينما تناول بيل وهيزل وإيتا وجباتهم مع المستأجرين أو في المطبخ أحياناً، وهذا يعتمد على كمية الطعام المتوفرة وقتها. تناولوا في المطبخ هريس ذرة مطحونة ولحماً وقهوة على الفطور والعشاء بالإضافة إلى ما تبقى من الطعام الذي قُدّم إلى المستأجرين. اشتكى الأولاد في كل مرّة اضطروا فيها إلى تناول الطعام في المطبخ، ولطالما بقيت ميك وجورج جائعين ليومين أو ثلاثة.

حصل هذا في غرفة ميك الخارجية، فلم يطرأ أيّ تغيير على الموسيقى والبلدان الأجنبية والخطط التي رسمتها. كان الشتاء بارداً وتشكل الصقيع على زجاج النوافذ، ولكن ليلاً كانت غرفة الجلوس دافئة جداً حيث اجتمعت العائلة مع المستأجرين حول الموقد، وبهذا أصبحت الغرفة الوسطى تحت تصرفها. ارتدت سترتين وسروالين قصيرين وكبيرين يعودان إلى بيل، وحافظت الحماسة على دفء جسدها. كانت تجلب صندوقها الخاص من تحت السرير، وتجلس على الأرض لتعمل.

في الصندوق الكبير هناك صور رسمتها في صف الرسم الحكومي المجاني، وقد أخذتها من غرفة بيل، وثلاثة كتب مغامرات اشتراها والدها لها، وعلبة مكياج صغيرة، وعلبة من أجزاء ساعة يد، وطوق بأحجار صناعية، ومطرقة وبعض الدفاتر. كانت قد كتبت على أحد الدفاتر في أعلى الصفحة بقلم ألوانٍ أحمر *خاص... ممنوع اللمس... خاص*، وربطت الدفتر بخيطٍ.

عملت على الموسيقى في هذا الدفتر طوال الشتاء. توقفت عن دراسة دروسها في المدرسة ليلاً حتى يكون لديها وقتٌ أكثر للعمل على الموسيقى. ألفت أغاني قصيرة دون كلمات ونوتات موسيقية في معظم الأحيان. لم تتجاوز هذه الأغاني الصغيرة نصف الصفحة، وأعطتها أسماءً وكتبت حروف اسمها الأولى تحت كل عنوان. ما من شيءٍ كُتب في هذا الدفتر يشبه قطعة موسيقية أو أغنية حقيقة. إنّها مجرّد أغانٍ صدحت في

عقلها، وأرادت ألّا تنساها، ومنحتها أسماءً بالطريقة التي تذكرها بها: «أفريقيا»، و«القتال الكبير» و«العاصفة الثلجية».

لم تنجح في كتابة موسيقى تشبه الموسيقى التي تصدح في رأسها، وكان عليها أن تختصرها إلى بضع نغماتٍ موسيقية لأنّها لو تابعت الكتابة فستختلط عليها النغمات. كان هناك الكثير مما لا تعلمه عن كتابة الموسيقى، ولكن ربما بعد تعلمها كتابة هذه النغمات البسيطة بسرعة قد تتمكن من كتابة كل الموسيقى التي تسمعها في رأسها.

بدأت في كانون الثاني (يناير) بكتابة أغنية رائعة جداً بعنوان «ما أريده لا أعرفه». كانت أغنية جميلة وبديعة، أغنية هادئة ولطيفة. في البداية كتبت الأغنية مع النوتة، ولكن لم تعد قادرة على خلق المزيد من الأفكار المناسبة الموسيقى. وعلاوة على هذا شعرت بصعوبة في إيجاد كلمة في نهاية السطر الثالث وعلى قافية «أعرفه». منحتها الأغنية الجديدة شعوراً بالحزن والحماس والسعادة دفعة واحدة. إنّ العمل على موسيقى جميلة كهذه أمرٌ صعبٌ جداً، وكتابة الأغاني ليست سهلة. فأيّ شيء تُدندن به لدقيقتين يعني أسبوعاً كاملاً من العمل والكتابة على الدفتر ووضع الوزن والإيقاع لكل نوتة موسيقية.

تطلب منها الأمر تركيزاً أكبر، وأن تعيد الأغنية مراتٍ كثيرة، أمّا صوتها فكان أجشاً طوال الوقت. أخبرها والدها أنّ صوتها أجش لأنّها بكت وصرخت كثيراً عندما كانت طفلة، وأنّه كان يضطر للاستيقاظ وهزها وهو يمشي بها طوال الليل عندما كانت في عمر رالف، والشيء الوحيد الكفيل بإسكاتها أن يضربَ على دلو الفحم بعصا ويغني لها أغنية «ديكسي».

استلقت على بطنها على الأرضية الباردة وفكرت بأنّها عندما تبلغ العشرين ستكون مؤلفة موسيقية مشهورة عالمياً، وسيكون لديها أوركسترا كاملة، وستقود مسار الموسيقى بنفسها، وأنّها ستقف على المنصّة أمام جماهير كبيرة من الناس. وفي دورها كقائدة للأوركسترا سترتدي بذلة رجالية رسمية أو فستاناً أحمر مرصعاً بأحجار الزينة. ستكون ستائر المسرح

من المخمل الأحمر وقد طُرزت بأحرف اسمها الأولى باللون الذهبي. سيكون السيد سينغر حاضراً، وبعد انتهاء العرض سيخرجان لتناول الدجاج المشوي. سيُقدم لها جورج باقةً كبيرة من الزهور على المسرح. سيكون العرض في نيويورك أو في بلدٍ أجنبي، سيشير إليها المشاهير بأصابعهم من بينهم كارول لومبارد وأرتورو توسكانيني والأدميرال بايرد.

ستتمكن من عزف سيمفونية بيتهوفن متى شاءت. هناك شيء غريب في موسيقاه أحسّت به عندما سمعتها الخريف الفائت. استقرت السيمفونية في داخلها وبقيت تكبر وتكبر شيئاً فشيئاً، وذلك لأنّ السيمفونية بأكملها بقيت في عقلها. كان يجب أن تبقى في عقلها، فلقد أصغت جيداً إلى كل نغمة، وفي مكان ما في عقلها ما زالت السيمفونية موجودة كما سمعتها، ولكنها لا تستطيع فعل شيءٍ لإحيائها من جديد باستثناء الانتظار وأن تكون على أهبة الاستعداد من أجل تلك اللحظة التي ستتذكر فيها جزءاً جديداً. انتظرت ميك أن تكبر الموسيقى ببطء كأوراق الشجر على أغصان شجرة بلوطٍ فتية.

كان السيد سينغر حاضراً في غرفتها الداخلية وفي الموسيقى. وعصر كل يوم بعد أن تنتهي من العزف على البيانو في صالة الرياضة، تتمشى في الشارع الرئيس بالقرب من المتجر الذي يعمل فيه، ولكنها لم تتمكن من رؤية السيد سينغر من النافذة الأمامية، فهو يعمل في الخلف وراء ستارة. ولكنها نظرت إلى المتجر حيث يعمل كل يوم ويرى الناس الذين يعرفهم، ثمّ تنتظره كل ليلة على الشرفة الأمامية للمنزل. كان تلحق به أحياناً إلى الطابق العلوي، وتجلس على السرير تراقبه وهو يضع قبعته، ويفك أزرار ياقته ويُسرّح شعره. ولسبب ما بدا وكأنهما يتشاركان سراً، أو كأنهما ينتظران بعضهما ليبوحا بأمورٍ لم يُفصحا عنها قبلاً.

كان السيد سينغر الشخص الوحيد في غرفتها الداخلية، فمنذ وقتٍ طويل لم يدخل أحد إليها. عادت بذاكرتها إلى الوراء وتذكرت كيف كانت الغرفة قبلاً. تذكرت فتاةً في الصف السادس وتدعى سيلست ذات الشعر

الأشقر المسترسل، والأنف المرفوع والمليء بالنمش. ارتدت سيلست سترة صوفية حمراء وبلوزة بيضاء ومشت كالحمامة. اعتادت شراء برتقالة كل يوم لتتناولها خلال الفسحة القصيرة في المدرسة، ومن أجل الفسحة الطويلة حملت علبة غداء معدنية زرقاء. يتناول بقية الأولاد كل طعامهم في الفسحة القصيرة، ويجوعون لاحقاً، أمّا سيلست فلا تفعل هذا. اعتادت على نزع القشرة الخارجية لقطعة الخبز، وتناول جزئها الطري فقط. تأخذ بيدها أيضاً بيضة مسلوقة ثمّ تسحق الجزء الأصفر منها بإبهامها تاركة بصمتها عليه.

لم تُحادثها سيلست أبداً، وهي بدورها لم تتكلم معها. ورغم أنّ ميك كانت تعرف ما تريده أكثر من أي أحد، إلّا أنّها كانت تستلقي ليلاً صاحية تفكر بسيلست. تصورت بأنهما أعزّ صديقتين، وأنّ سيلست تأتي إلى منزلها، وتتناولان العشاء معاً، وتنام عندها. ولكن كل هذا لم يحدث، والطريقة التي شعرت بها نحو سيلست لم تسمح لها بعقد صداقات مع أشخاصٍ مثلها أو غيرها. بعد عام انتقلت سيلست إلى جزء آخر من البلدة، وارتادت مدرسة مختلفة.

هناك فتى يدعى باك، وكان فتىً كبيراً ووجهه مليء بالبثور. عندما وقفت بقربه في صف التجمع الصباحي قبل الدخول إلى الصفوف، فاحت منه رائحة سيئة وكأنّ سرواله يحتاج إلى تهوية. في إحدى المرات أوقع نفسه بشكلٍ مفاجئ أمام المدير، وتعرّض للفصل المؤقت من المدرسة. عندما كان يضحك ارتفعت شفته العليا واهتزّ جسده بالكامل. فكرت به كما فكرت بسيلست، وفكرت أيضاً بالسيدة التي تعمل لدى بائع يانصيب تركي، وبالآنسة أنجلين التي تُعلّم الصف السابع، وبكارول لومبارد في الأفلام. فكرت بهؤلاء جميعاً.

ولكن الأمر مختلف مع السيد سينغر، فإحساسها تجاهه اجتاحها على مهل، ولم تكن قادرة على العودة بذاكرتها لتعرف متى بدأ الأمر. كان البقية عاديون، ولكن السيد سينغر لم يكن عادياً. فمنذ أول يوم قرع فيه الجرس

ليسأل عن غرفة يستأجرها نظرت ميك إلى وجهه مطولاً. فتحت له الباب، وقرأت البطاقة التي قدمها لها، ثمّ نادت على أمّها، وعادت إلى المطبخ لتخبر بورشيا وبابر عنه. لحقت ميك السيد سينغر وأمّها على الدرج، وراقبته وهو يضغط على حشية السرير، ويسحب الستائر ليتأكد من أنّها متينة. وفي اليوم الذي انتقل فيه جلست على درابزين الشرفة الأمامية، وراقبته وهو يخرج من سيارة الأجرة مع حقيبته ولوح الشطرنج، ثمّ أصغت إلى صوت خطوات رجليه في الغرفة وتخيلته. أمّا ما تبقى فقد أتى تباعاً، ويبدوان الآن وكأن شعوراً سريّاً يربطهما. تحدثت معه أكثر مما تحدثت مع أيّ شخصٍ آخر، ولو كان بوسعه أن يتحدث لكانت أخبرته بأمورٍ عديدة. كان السيد سينغر أشبه بمعلمٍ عظيم، ولأنّه كان أبكماً لم يُعلّم. وفي الليل كانت تتخيل أنّها يتيمة وتعيشٍ مع السيد سينغر وحدهما في بيت ببلدٍ أجنبي حيث تُثلج السماء شتاءً، ربما في بلدة تحيط بها الجبال الثلجية العالية في سويسرا، حيث الصخور تبرز من فوق المنازل ذات السطوح المنحدرة والمدببة جداً. أو في مكان ما في فرنسا حيث يحمل الناس معهم الخبز المنزلي من المتاجر من دون أيّ تغليف، أو في بلدٍ أجنبي في النرويج بالقرب من المحيط المتجمد الرمادي.

في الصباح كان أول شيء قامت به التفكير بالسيد سينغر والموسيقى أيضاً. عندما ترتدي ثيابها تتساءل بينها وبين نفسها أين ستراه اليوم، وتضع القليل من عطر إيتا أو بضع قطرات من الفانيلا حتى تفوح منها رائحة زكية عندما تلتقيه في الردهة. كانت تذهب متأخرة إلى المدرسة حتى تتسنى لها فرصة رؤيته ينزل على الدرج في طريقه إلى العمل، وتبقى في المنزل بعد الظهر أو ليلاً إن بقي في المنزل.

كان كل شيء جديد عرفته عنه مُهماً، فهو يضع فرشاة شعره وفرشاة أسنانه في كأسٍ زجاجي على طاولته. لذلك أخذت تضع فرشاة أسنانها في كأسٍ أيضاً بدلاً من وضعها على رف الحمام. لم يكن يُحب الملفوف، هذا ما أخبرها به هاري الذي كان عمل لدى السيد برانن. ولذلك لم تعد قادرة

على أكل الملفوف أيضاً. عندما كانت تعلم حقائق جديدة عنه أو عندما تقول له شيئاً ويكتب بضع كلماتٍ بقلمه الفضي، تختلي بنفسها لوقتٍ طويل لتفكر بما عرفته. وكلما كانت برفقته شغلتها فكرة أساسية وهي أن تُخزن كل ما يحدث حتى تعيشه وتتذكره لاحقاً.

ولكن لم تكن الموسيقى والسيد سينغر وكل ما يجري في غرفتها الداخلية الأمور الوحيدة التي شغلتها، حدثت أمور عديدة في الغرفة الخارجية أيضاً، فقد سقطت عن الدرج، وكسرت أحد أسنانها الأمامية، وأعطتها الآنسة مينر درجة سيئة في اختبارين في اللغة الإنكليزية. فقدت ربع سِنها في مكان فارغ من الأثاث، ورغم بحثها هي وجورج عن الجزء لثلاثة أيّام إلّا أنّها لم تعثر عليه.

وحصل التالي:

في ظهيرة أحد الأيام كانت تدرس لاختبار مادة اللغة الإنكليزية على الدرج الخلفي للمنزل، وعلى الجانب الآخر من السياج كان هاري يقطع الخشب فنادته. أتى هاري وشرح لها بضع جمل في اللغة الإنكليزية. كانت عيناه من وراء نظاراته ذات الإطار العظمي سريعتين. بعد أن شرح لها مادة اللغة الإنكليزية وقف ووضع يديه في جيبي سرواله الذي يشبه سراويل النجارين ثمّ أخرجهما. لطالما كان هاري نشيطاً جداً ومتوتراً، ولا يستطيع أن يتوقف للحظة عن الحديث أو القيام بأيّ شيء.

«هناك أمران مهمان هذه الأيام»، قال هاري.

كان يُحب أن يُفاجأ الناس بحديثه، وأحياناً تعجز ميك عن إجابته.

«إنّها الحقيقة. هناك أمران سيحصلان في الأيام المُقبلة».

«ما هما؟»

«الديمقراطية العسكرية أو الفاشية».

«ألا تُحبّ الجمهوريين؟»

«اللعنة، هذا ليس قصدي». قال هاري.

كان قد أخبرها في ظهيرة أحد الأيام عن الفاشية، وأخبرها كيف أنّ

النازيين أجبروا الأطفال اليهود الصغار على الركوع على ركبهم وأيديهم وأكل العشب عن الأرض، وأخبرها كيف أنّه خطط لاغتيال هتلر، وأنّه سيكون ناجحاً في ذلك. أخبرها عن انعدام العدالة والحرية في ظل الفاشية. تحدث عن الأكاذيب المدروسة في الجرائد، وأنّ الناس يجهلون ما يحصل في العالم. كان النازيون مريعين والجميع يعلم هذا. وخططت ميك معه لاغتيال هتلر، حيث سيكون من الأفضل أن يشترك معهما في المؤامرة أربعة أو خمسة أشخاص فإن نجا هتلر من أحدهم سيقتله الآخر. وإن ماتوا جميعاً سيكونون أبطالاً. أن يكون المرء بطلاً أشبه بأن يكون موسيقياً عظيماً.

«إمّا هذا الحل أو الآخر، ورغم أنني لا أؤمن بالحرب إلّا أنني جاهز للقتال من أجل ما أعتقد أنّه صائب»، قال هاري.

«وأنا أيضاً»، قالت ميك. «لا أحبّ محاربة الفاشيين. يمكنني أن أتنكر بزي فتى ولن يميزني أحد. فلتقص شعري كلّه».

كانت ظهيرة شتائية مشرقة، والسماء زرقاء ضاربة إلى الخضرة، وبدت أغصان أشجار البلوط في الحدائق الخلفية سوداء وجرداء على أرضية لون السماء، والشمس دافئة، ومنحها هذا اليوم شعوراً بالطاقة المطلقة. صدحت الموسيقى في رأسها. ولتشغل نفسها بشيء التقطت مسماراً صغيراً، وأخذت تدقّه على عتبة الدرج بضربات قوية جيدة. سمع والدها صوت المطرقة، وخرج بثوب الحمام ليتفقد الأمر. هناك تحت الشجرة حصانان خشبيان، ورالف مشغول بوضع صخرة على أحدهما، ونقلها إلى الحصان الثاني، ثمّ إعادتها إلى مكانها الأصلي وهكذا. مشى رالف فاتحاً ذراعيه ليوازن نفسه، وتقوست قدماه، وانزلق حفاضه حتى ركبتيه. أمّا جورج فكان يرمي بالكرات الزجاجية، وبالنظر إلى شعره المشعث بدا وجهه نحيلاً وشعره بحاجة إلى حلاقة. كانت أسنانه الدائمة قد خرجت، ولكنها بدت صغيرة وزرقاء وكأنّه تناول توتاً برياً. رسم جورج خطاً من أجل رمي الكرات الزجاجية، ونام على معدته ليصوب نحو الحفرة

الأولى. عندما عاد والدهما إلى عمله في إصلاح الساعات أخذ رالف معه، وبعد قليل توجه جورج إلى الزقاق وحده، فمنذ أطلق النار على بيبي لم يُصاحب أي أحد.

«يجب أن أذهب»، قال هاري. «عليّ الوصول إلى العمل قبل السادسة».

«هل تحب العمل في المطعم؟ أتحصل على طعام مجاني لذيذ؟»

«بالتأكيد، ويأتي إلى المكان كل أنواع الناس. أحبّه أكثر من أيّ عملٍ حصلت عليه قبلاً، ويدفعون لي أكثر».

«أكره السيد برانن»، قالت ميك. كان هذا صحيحاً، ورغم أنّه لم يعاملها أبداً بطريقة لئيمة إلّا أنّه لطالما تحدث معها بصوتٍ خشنٍ مضحك. لا بدّ وأنّه يعلم بأمر علبة العلكة التي سرقتها مع جورج في إحدى المرات. لو لم يكن يعلم لما سألها كيف تجري أمورها، كما فعل عندما كانا في غرفة السيد سينغر. ربما اعتقد أنّها وجورج يسرقان أشياء بشكلٍ دائم، ولكنهما لم يفعلا هذا، لم يفعلا هذا حقاً. ربما حصل هذا مرة أخرى في متجر «كل شيء بعشرة سنتات» عندما أخذا علبة ألوان مائية ومبراة وقلم رصاص.

«لا أطيق السيد برانن».

«لا بأس به»، قال هاري. «إنه يبدو أحياناً من ذلك النوع الغريب حقاً، ولكنه ليس سيئاً عندما تتعرفين عليه عن قرب».

«هناك أمر فكرت به، وهو أنّ للفتى أفضلية أكبر مقارنة بالفتاة. أعني أنّ الفتى قادر على الحصول على عمل بدوام جزئي لا يضطره لترك المدرسة، ويعطيه وقتاً للقيام بأمورٍ أخرى. ولكن لا توجد مثل هذه الأعمال للفتيات. عندما تريد فتاةٌ ما العمل يجب عليها أن تترك المدرسة وتعمل بدوام كامل. يمكنني بالتأكيد أن أجني بضعة دولارات أسبوعياً بالعمل مثلك، ولكن من المستحيل أن يحدث هذا».

جلس هاري على الدرج، وفكّ رباطي حذائه، وشدهما كثيراً إلى أن انقطع أحدهما.

«أتى رجل إلى المقهى يدعى السيد بلاونت، السيد جيك بلاونت.

أحبّ أن أصغي إليه، أتعلم الكثير من الأمور التي يقولها عندما يشرب الجعة، وقد أعطاني بعض الأفكار».

«أعرفه جيداً فهو يأتي إلى هنا كل أحد».

فكّ هاري رباطي حذائه، وسحب الرباط المقطوع ليتساوى مع الرباط الثاني، ويتمكن من ربطه ربطة فراشية مجدداً.

«اسمعي»، قال لها بينما مسح نظاراته بسرواله بطريقة متوترة. «لا تقولي له ما أخبرتك به. أعني أنني أشك أنّه يتذكرني أصلاً، فهو لا يتحدث إلي، بل إلى السيد سينغر. فلربما اعتقد أنّ الأمر غريب... تعلمين ما الذي أعنيه».

«حسناً».

فهمت من المعنى الضمني للكلمات أنّ هاري يُحبّ السيد بلاونت، وتفهمت ماهية هذا الشعور.

«لن آتي على ذكر الموضوع»، قالت له ميك.

حلّ الظلام، وظهر القمر الأبيض كالحليب في السماء الزرقاء، كان الهواء بارداً، ويمكنها سماع أصوات رالف وجورج وبورشيا في المطبخ، ومنحت النار في الموقد نافذة المطبخ لوناً برتقالياً دافئاً، وتصاعدت رائحة الدخان والعشاء.

«أنت تعلمين بأمرٍ لم أخبر به أحداً قبلاً، وأكره أن أفكر به وحدي». قال هاري.

«ما هو؟»

«أتتذكرين عندما بدأتِ بقراءة الجرائد والتفكير بالأمور التي تقرئينها؟»

«بالتأكيد».

«كنت فاشياً من قبل. أعتقد أني كنت كذلك. كان الأمر على هذا النحو. رأيت في الصور كل هؤلاء الأوروبيين ممن هم بعمرنا ويمشون بخطوات متناسقة ويغنون الأغاني. كنت أعتقد أنّ هذا رائع. كانوا جميعاً يدينون بولائهم لقائدٍ واحد، ولديهم الأهداف ذاتها العليا ويمشون بانسجام. لم

أكن أهتم بما يحصل للأقليات اليهودية لأنني لم أرد التفكير بأنني يهودي. فأنا لم أكن أعرف. كنت فقط أنظر إلى الصور، وأقرأ ما كُتب تحتها، ولكنني لم أفهم. لم أعلم أبداً هول الأمر. اعتقدت أنني كُنت فاشياً، ولكن لاحقاً اكتشفت أنني لم أكن كذلك».

تحدث ساخراً من نفسه، وتغير صوته بين صوت رجل بالغ وصوت فتى صغير.

«حسناً، لم تكن تعرف هذا آنذاك...». قالت له ميك.

«كان الأمر خطيئة مريعة، خطيئة أخلاقية».

كانت هذه طبيعته، فكل شيء يقع بين الخطأ والصواب، وما من حل وسط بينهما. اعتبر من الخطأ أن يشرب أحد الجعة أو النبيذ أو يدخن السجائر وهو دون العشرين من عمره، وكان الغش في الامتحان خطيئة مريعة، ولكن نسخ وظيفة منزلية لم تكن خطيئة. كان يعتبر وضع الفتيات لأحمر الشفاه أو ارتداء ثياب مفتوحة عند الظهر خطيئة أخلاقية، ونظر إلى شراء أي شيء من ماركة ألمانية أو يابانية مهما كان رخيصاً خطيئة أيضاً.

تذكرت هاري عندما كانا مجرّد طفلين. ففي أحد الأيام أصيب بالحول، وبقي أحول لعام، واعتاد الجلوس على الدرج الأمامي ووضع يديه بين ركبتيه ومراقبة كل شيء بهدوء. تجاوز صفين في المدرسة الابتدائية، وعندما بلغ الحادية عشرة دخل إلى مدرسة فوكيشنال الثانوية. عندما قرأ عن اليهود في رواية إيفنهو[1] في مدرسة فوكيشنال حدّق الأولاد به وعاد هاري إلى المنزل باكياً، ولذلك أخرجته والدته من المدرسة لعام كامل ازداد خلاله طوله ووزنه. وفي كل مرة تسلقت فيها ميك السياج كانت تراه يُعدّ شيئاً ليأكله في المطبخ. اعتادا اللعب في الحي، وكانا يتصارعان أحياناً. عندما كانت ميك طفلة أحبّت القتال مع الفتية، أن تقاتلهم بشكل حقيقي

1- رواية للكاتب الإنكليزي السير والتر سكوت والمنشورة عام 1819. تتناول الرواية قصة الفارس الإنكليزي الشجاع ايفنهو الذي يقوم بالكثير من المغامرات. (المترجمة)

وليس لعباً، واستخدمت مزيجاً من فنون الجتسو والملاكمة. تغلبت على هاري أحياناً وأحياناً أخرى تغلّب عليها. لم يكن هاري قاسياً مع أي أحد، وعندما يكسر أحد الأولاد الصغار لعبة يذهب إلى هاري ليصلحها له. كان بإمكانه إصلاح كل شيء، اعتادت سيدات الحي الطلب منه إصلاح الأضواء الكهربائية أو آلات الخياطة، وعندما بلغ الثالثة عشرة عاد إلى مدرسة فوكيشنال وأخذ يدرس بجد. عمل في توصيل الجرائد، وعمل أيام السبت وقرأ. ولوقتٍ طويل لم يلتقيا كثيراً. ولكن منذ الحفلة التي أقامتها ميك تغير هاري جداً.

«هذا ما كان عليه الأمر»، قال هاري. «كنت أملك طموحاً كبيراً طوال الوقت، أن أصبح مهندساً أو طبيباً عظيماً أو محامياً. ولكن لم يعد لدي هذا الطموح الآن، فكل ما أفكر به هو ما يحدث في العالم حالياً. أفكر بالفاشية والأمور المريعة التي تحدث في أوروبا، ومن جهة أخرى أفكر بالديموقراطية. أعني أنني لا أفكر ولا أعمل على ما سأكونه في الحياة لأنني أفكر بالآخر كثيراً. أحلم بقتل هتلر كل ليلة، وأستيقظ في الظلام عطشاً وخائفاً جداً من شيء ما، ولكني لا أعلم ما هو».

نظرت إلى وجه هاري وانتابها إحساس قوي أصابها بالحزن. انسدل شعره فوق جبينه، وبدت شفته العليا رقيقة ومشدودة، ولكن شفته السفلى غليظة وواجفة. لم يبدِ هاري كبيراً حقاً كفتى في الخامسة عشرة. ومع هبوط الليل غدا الطقس أكثر برودة، وعبثت الريح بأشجار البلوط في الحيّ، وضربت دُرفتي النافذة على حائط المنزل. في نهاية الشارع نادت السيدة ويليز على ساكر ليعود إلى المنزل. جعلتها فترة أواخر الظهيرة المُعتمة تشعر بالحزن ثقيلاً في داخلها.

«أريد بيانو، أريد أن أتلقى دروساً في الموسيقى». قالت في نفسها.

نظرت إلى هاري الذي شبك أصابعه النحيلة ببعضها في تشكيلات مختلفة، وفاحت منه رائحة صبيانية دافئة.

ما الذي دفعها إلى القيام بهذا الفعل المفاجئ؟ ربما لأنّها تذكرت

الأوقات التي كانا فيها أصغر عمراً، أو ربما لأنّ الحزن أثار فيها شعوراً غريباً. قامت على حين غرة بدفع هاري دفعةً كادت تطيح به عن الدرج.

«يا حفيد العاهرة»، صرخت به ثم ركضت. هذا ما اعتاد الأولاد قوله في الحي عندما ينشب قتال بينهم. وقف هاري، وبدا مدهوشاً جداً، وعدّل وضع نظاراته على أنفه، وراقبها وهي تركض لثانية ثمّ ركض عائداً إلى الزقاق.

جعلها الهواء البارد تشعر بالقوة وكأنّها شمشون، وعندما ضحكت تردد صدى ضحكتها قصيراً وسريعاً. ضربته بكتفها وأمسك هاري بها، وتعاركا بقوة وضحكا. كانت ميك أطول منه، ولكن كانت يداه قويتين. لم يكن ماهراً في العراك، وبطحته أرضاً. توقف هاري عن العراك فجأة، وتوقفت هي بدورها. غدا تنفسه دافئاً على رقبتها، وبقي ثابتاً في مكانه. شعرت بأضلاعه على ركبتيها وبتنفسه الصعب وهي فوقه. نهضا معاً، وتوقفا عن الضحك، وعاد الزقاق إلى هدوئه الشديد. وفي الحديقة الخلفية المظلمة شعرت ميك - لسبب غير معلوم - بشعورٍ غريب. لم يكن هناك أي شيء غريب يستدعي هذا الشعور، ولكن حدث ما حدث بشكل مفاجئ. أعطته دفعة أخرى ودفعها بدوره، ثمّ ضحكا مجدداً وشعرت أنها بخير.

«إلى اللقاء»، قال هاري.

كان قد أصبح كبيراً جداً على تسلق السياج، ولذلك ركض عبر الزقاق الجانبي إلى البوابة الأمامية لمنزله.

«يا إلهي، الجو حار!» قالت ميك. «الجو خانق هنا».

كانت بورشيا تُسخن لها عشاءها على الموقد، ورالف يضرب بملعقته على صينية كرسيه العالي، وجورج يدفع جريش الذرة بقطعة خبز وقد زرّ عينيه وكأنّه ينظر إلى البعيد. أكلت خليط اللحم الأبيض والمرق وجريش الذرة المخلوط بالزبيب في صحنٍ واحد. تناولت طعامها في ثلاث لقمات ولكنها لم تشبع.

فكرت بالسيد سينغر طوال الوقت، وعندما انتهت من تناول العشاء

توجهت إلى الطابق العلوي، ولكن عندما وصلت إلى الطابق الثالث اكتشفت أنّ باب غرفته مفتوح وغرفته مظلمة، وأثار فيها هذا شعوراً بالخواء.

في الطابق السفلي لم تتمكن من الجلوس ساكنة لدراسة اختبار اللغة الإنكليزية. شعرت أنّها قوية جداً، ولا يمكنها الجلوس على كرسي في الغرفة كما فعل الآخرون. شعرت أنّها قادرة على تحطيم جميع جدران المنزل، والمشي في الشوارع كعملاق.

أخرجت أخيراً صندوقها الخاص من تحت السرير. استلقت على بطنها، وقلّبت دفترها. كانت قد كتبت حتى الآن عشرين أغنية، ولكنها لم تكن راضية عنها. لو كان باستطاعتها أن تكتب سيمفونية فقط! سيمفونية لأوركسترا كاملة. كيف يُمكن للمرء أن يكتبها؟ ففي بعض الأحيان تعزف آلاتٌ مختلفة النغمة الموسيقية ذاتها لهذا يجب أن يكون الطاقم كبيراً جداً. رسمت خمسة خطوط على ورقة امتحانية كبيرة مع تباعد إنشٍ واحد بين الأسطر. كلما كتبت نغمة للكمنجة أو للتشيلو أو للفلوت كتبت اسم الآلة، وعندما تؤدي جميع الآلات النغمة ذاتها ترسم دائرة حولها. في أعلى الورقة كتبت «سيمفونية» بحروفٍ كبيرة، وتحتها كتبت «ميك كيلي»، إلّا أنّها لم تتمكن من المتابعة أكثر من هذا.

لو كان بإمكانها تلقي دروس في الموسيقى فقط!

لو أنّها تملك بيانو حقيقياً!

مرّ وقت طويل قبل أن تبدأ في كتابة الموسيقى. صدحت النغمات في رأسها، ولكنها لم تعرف كيف تكتبها. بدا وكأنّ هذا أصعب عزفٍ في العالم، إلّا أنّها استمرت بالتفكير إلى أن دخلت إيتا وهيزل إلى الغرفة، وصعدتا إلى السرير، وطلبتا منها أن تطفئ الضوء لأنّ الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً.

-10-

ها قد مرّت ستة أسابيع على انتظار بورشيا لأية أخبارٍ عن ويليام. زارت بيت الطبيب كوبلاند كل مساء وسألته السؤال ذاته: «هل استلم أحد رسالةً من ويلي؟» وفي كل ليلة يضطر الطبيب إلى إخبارها بعدم وصول أية أخبار عن ويليام.

توقفت عن طرح السؤال أخيراً، وبدأت تدخل من الردهة وتنظر إليه دون أن تقول كلمة واحدة. شربت وبلوزتها مفتوحة عند الصدر حتى المنتصف تقريباً وأربطة حذائها شبه مفكوكة.

حلّ شهر شباط (فبراير)، وأصبح الطقس أكثر لطفاً ثمّ ازدادت درجات الحرارة، وتوهجت الشمس بقوة. غرّدت الطيور على الأشجار العارية، ولعب الأطفال في الشوارع حفاة وعراة حتى الخصر. كانت الليالي حارة وكأنّ الوقت منتصف الصيف، وبعد عدة أيام عاد الشتاء إلى البلدة مجدداً. إربدّ وجه السماء اللطيفة، وسقط المطر البارد، وهبت رياحٌ رطبة وقارسة البرد. عانى الزنوج في البلدة كثيراً فقد استنزفوا مخزون الوقود لديهم، وكان هناك صراع في كل مكان من أجل الدفء، واجتاح وباء ذات الرئة الأحياء الرطبة والضيقة، ولم ينم الطبيب كوبلاند سوى لساعاتٍ معدودة في الأسبوع وهو بكامل ثيابه. ورغم هذا لم تصل أية رسائل من ويلي، كتبت بورشيا أربع رسائل، وكتب الطبيب كوبلاند اثنتين.

لم يتسنَ وقت للطبيب كوبلاند ليفكر لا في الليل ولا في النهار، ولكن أحياناً كانت الفرصة تسنح له ليرتاح لبعض الوقت في المنزل،

فيشرب إبريقاً من القهوة عند الموقد في المطبخ، ويجتاحه قلق عميق. لقد توفي خمسة من مرضاه، ومن بينهم كان الأبكم أوغسطس بينيديكت مادي لويس. طلبوا من الطبيب أن يتحدث في مراسم جنازته، ولأنه يكره الجنائز رفض الدعوة. أمّا بقية الخمسة الذي توفوا فلم يكن السبب إهماله بل سنوات العوز التي عاشوا فيها. كان السبب الطعام المؤلف من خبز الذرة وشحم الخنزير والشراب المحلى واكتظاظ المنازل المكونة من غرفة واحدة بأربعة أو خمسة أشخاص. فكر بـ«موت الفقر» عندما كان يشرب القهوة ليبقى صاحياً. أمسك ذقنه بيده فقد عانى مؤخراً من ارتعاشات عصبية في رقبته جعلت رأسه يهتّز في كل مرة يتعب فيها.

وخلال الأسبوع الرابع من شهر شباط (فبراير) أتت بورشيا إلى المنزل. كانت الساعة السادسة صباحاً، وكان الطبيب يجلس بقرب النار يُسخن قدراً من الحليب من أجل الفطور. كانت بورشيا مخمورة جداً، عندما وصلته رائحة الجِن القوية والحلوة توسع منخرا أنف الطبيب في قرف. لم ينظر إليها بل شغل نفسه بفطوره. قام بتفتيت بعض الخبز في وعاء وصب فوقه الحليب الحار. حضّر القهوة وجهز الطاولة.

وعندما جلس أمام فطوره نظر إلى بورشيا عابساً.

«هل تناولتِ فطورك؟»

«لا أريد تناول الفطور»، قالت له.

«ستحتاجين إليه إن أردت الذهاب إلى العمل اليوم».

«لن أذهب إلى العمل».

سرت في جسده رعدة، لم يرغب باستجوابها أكثر، واستقرت عيناه على صحن الحليب، وتناول الخبز المنقوع بالملعقة التي ارتعشت في يده. عندما انتهى نظر إلى الجدار فوق رأسها.

«هل أصبت بالبكم؟»

«سأخبرك، وستسمع ولكن عندما أكون قـادرة على التحدث وإخبارك».

جلست بورشيا ساكنة، وتحركت عيناها ببطء من زاوية جدار إلى أخرى، وقد أرخت ساعديها ولفت ساقيها حول بعضهما. عندما أشاح بنظره بعيداً عنها انتابه لوهلة إحساس خطير بالراحة والحرية، إحساس حاد جداً يعلم أنّه سيُحطم بعد قليل. غذّى النار في الموقد وأدفأ يديه، ثمّ لفّ سيجارة لنفسه. كان المطبخ نظيفاً ومرتباً جداً، وقد انعكس ضوء نار الموقد على صحون فناجين الشاي على الجدار، وارتسم وراء كل صحن ظلٌ أسود.

«الأمر متعلق بويلي». قالت بورشيا.

«أعلم». لفّ السيجارة بين راحتي يديه بحذر. تحركت عيناه بلا هدى في المكان وبشيء من جشعِ الحصول على آخر المتع الجميلة.

«ذكرت لك قبلاً أن ذلك المدعو باستر جونسون مع ويلي في السجن، ونحن نعرفه أصلاً. لقد أفرجوا عنه البارحة».

«إذاً؟»

«أصبح باستر معاقاً».

ارتعش رأسه، وضغط بيده على ذقنه ليوقف الارتعاش، ولكن كان من الصعب السيطرة على هذا الارتعاش العنيد.

«أتى بعض الأصدقاء إلى منزلي الليلة الماضية، وأخبروني أنّ باستر عاد إلى منزله ولديه شيء ليخبرني به بخصوص ويلي. ركضت إلى منزله وإليك ما أخبرني به».

«أجل».

«كانوا ثلاثة، ويلي وباستر وفتىً آخر. جمعتهم الصداقة، ثمّ حلّت المصيبة». توقفت بورشيا، وبللت إصبعها بلسانها.

«بدأ الأمر عندما أخذ الحارس الأبيض بمضايقتهم في السجن طوال

الوقت. وفي أحد الأيام كانوا في طريقهم إلى موقع العمل فتجاسر باستر على الحارس، وحاول الفتى الآخر الهروب إلى الغابة. أخذوهم ثلاثتهم إلى المعسكر، ووضعوهم في غرفة باردة كالثلج».

«حسناً»، كرر الطبيب كوبلاند، ولكن استمر رأسه بالارتعاش، ولهذا خرجت الكلمة من حلقه كحشرجة.

«حدث الأمر منذ ستة أسابيع»، قالت بورشيا. «وكان في وقتها موجة برد كما تعلم. وضعوا ويلي والرجلين الآخرين في غرفة باردة كالثلج».

تحدثت بورشيا بصوتٍ خفيض، ولم تتوقف بين الكلمات، ولم يتراجع الخوف الذي علا وجهها. كان حديثها أشبه بأغنية بطيئة. تحدثت ولم يفهم عليها رغم أنّ الأصوات وصلت بوضوحٍ إلى أذنه، ولكن دون شكل أو مضمون. كان رأسه أشبه بمقدمة قارب، والكلمات أشبه بالماء الذي يخترقه ويتجاوزه. شعر بأنّ عليه أن ينظر إلى الوراء، ويبحث عن الكلمات التي قيلت للتو.

«... وتورمت أرجلهم. قاوموا وصرخوا، ولكن لم يأتِ أحد. صرخوا لثلاثة أيام وليالٍ ولم يأتِ أحد».

«لا أفهم ما تقولين». قال الطبيب كوبلاند.

«وضعوا ويلي والرجلين الآخرين في غرفة باردة كالثلج وبحبلٍ يتدلى من السقف. نزعوا عنهم أحذيتهم، وربطوا أقدامهم العارية بالحبل عالياً. استلقى ويلي والبقية بظهورهم على الأرضية وأقدامهم في الهواء. تورمت أقدامهم، وتلووا، وصرخوا. كانت الغرفة باردة كالثلج، وتجمدت أقدامهم التي تورمت. صرخوا لثلاثة أيامٍ وليالٍ، ولم يأتِ أحد».

ضغط الطبيب كوبلاند رأسه بيده، ولكن الارتعاش لم يتوقف.

«لا أستطيع سماع كلامك».

«وأخيراً عادوا إليهم، وهرعوا بويلي والرجلين إلى العيادة. كانت أقدامهم متورمة ومتجمدة ومصابة بالغرغرينا. بتروا قدمي ويلي، وفقد

باستر جونسون قدماً واحدة، أمّا الفتى الآخر فقد نجا. أصبح ويلي معاقاً بعد أن بتروا قدميه».

انتهت الكلمات، وانحنت بورشيا وضربت رأسها بالطاولة. لم تبكِ أو تنوح، بل ضربت رأسها مراراً على سطح الطاولة النظيفة جداً. صدر عن الملعقة صوت خشخشة عندما وضعها الطبيب كوبلاند في الصحن. بعد أن انتهى من وجبته أخذ الصحن والملعقة ووضعهما في حوض المغسلة. تبعثرت الكلمات في رأسه، ولكن لم يحاول تجميعها. غسل الطبق والملعقة بالماء الحار، وغسل منشفة الصحون. التقط شيئاً عن الأرض، ووضعه في مكانٍ ما.

«معاق؟ ويليام؟» سأل الطبيب كوبلاند.

ضربت بورشيا رأسها على الطاولة، وكان لضرباتها إيقاع بطيء كإيقاع الطبل، والتقط قلبه هذا الإيقاع أيضاً. وبهدوء خرجت الكلمات حيّة وذات معنى وفهم ما حدث.

«متى سيرسلونه إلى المنزل؟»

أسندت بورشيا رأسها على ساعدها.

«لا يعرف باستر متى سيعيدونه إلى المنزل، ربما قريباً بعد أن يرسلوهم إلى أماكن مختلفة. أرسلوا باستر إلى معسكر آخر، وبما أنّه بقي من فترة سجن ويلي بضعة أشهر، أعتقد أنهم سيرسلونه الآن».

شربا القهوة، وجلسا لوقتٍ طويل ينظران في أعين بعضهما. خشخش معدن الكأسين على أسنانها. سكبت بورشيا قهوتها في صحن القهوة، وسال بعضاً منه على حضنها.

«ويليام...». قال الطبيب كوبلاند. عضّ على لسانه بقوة بينما لفظ اسمه، وحرّك فكّه متألماً. جلسا لوقتٍ أطول بينما أمسكت بورشيا بيده، وكسا ضوء الصباح الكئيب النوافذ بلونٍ رمادي، واستمر المطر بالهطول.

«من الأفضل أن أذهب إلى العمل الآن»، قالت بورشيا.

تبعها عبر الردهة، وتوقف عند حمّالة القبعات ليرتدي معطفه ووشاحه. هبّت من الباب المفتوح ريحٌ باردة ورطبة. جلس هايبوي على رصيف الشارع، وقد رفع جريدة رطبة ليحمي رأسه. هناك سياج على طول الرصيف اتكأت بورشيا عليه بينما مشت، وتبعها الطبيب كوبلاند قليلاً ويداه على السياج أيضاً ليمشي بثبات، وهايبوي في إثرهما.

انتظر الطبيب كوبلاند زيارة هجوم الغضب الأسود المريع، ولكنّه لم يأتِ، وشعر بأمعائه مثقلة بالرصاص. مشى ببطء واتكأ على السياج وعلى جدران الأبنية الباردة والرطبة على طول الطريق. انحدر إلى الأعماق، إلى نهاية الهوة، ولمس القعر الصلب لليأس وارتاح هناك.

أحسّ مع هذا الشعور بشيء من السعادة الشديدة والروحية. ضحك المضطهدون وغنى العبد الأسود لروحه الغاضبة تحت السوط. تصدح في داخله الآن أغنية، رغم أنّها لم تأتِ مع موسيقى إلا أنّ لها وقع الأغنية. وفجأة أثقلت وطأة السلام أطرافه، ولم يعد قادراً على الحركة سوى بدفعٍ من المسعى القوي والحقيقي الذي آمن به في حياته. لماذا كان يمشي إلى الأمام؟ لمَ لا ترضيه الراحة قليلاً في قعر الإذلال التام؟

ولكنّه تابع المشي إلى الأمام.

«أيهّا العم»، قالت ميك. «هل ستشعر بالتحسن إن شربت بعض القهوة الحارة؟»

نظر الطبيب كوبلاند إلى وجهها، ولكن لم يُبدِ أية إشارة على أنّه سمع شيئاً مما قالته. عبرا شوارع البلدة، ووصلا أخيراً إلى الزقاق خلف منزل عائلة كيلي. دخلت بورشيا أولاً ولحقها، وبقي هايبوي على الدرج خارجاً. كانت ميك وأخواها في المطبخ. أخبرتهم بورشيا بأمر ويليام. لم يُصغِ الطبيب كوبلاند إلى كلماتها رغم أنّ لصوتها إيقاع في البداية والمنتصف والنهاية. وعندما انتهت عادت إلى البداية، وأتى آخرون إلى الغرفة ليستمعوا إلى ما يُقال.

جلس الطبيب كوبلاند على كرسي عالٍ في الزاوية، وتدلى معطفه

وشاله فوق ظهر الكرسي بالقرب من الموقد، ووضع قبعته على ركبتيه، وحرّك يديه الطويلتين السوداوين بعصبية على حواف القبعة المهترئة. كان باطن يديه الأصفر رطباً، وبين الفينة والأخرى مسحهما بمنديله. اهتزّ رأسه، وتصلبت كل عضلاته بسبب الجهد الذي بذله ليبقى ساكناً.

أتى السيد سينغر إلى الغرفة. رفع الطبيب كوبلاند وجهه نحوه.

«هل سمعت بما حدث؟» سأله.

هزّ السيد سينغر رأسه، ولم يظهر في عينيه أي خوف أو شفقة أو كره. فمن بين جميع من يعرفهم الطبيب كوبلاند كان السيد سينغر الوحيد الذي لم يُظهر مثل هذه المشاعر، وهو الوحيد الذي فهم حقاً ما جرى.

همست ميك في أذن بورشيا. «ما اسم والدك؟»

«اسمه بينديكت مادي كوبلاند».

اقتربت ميك من الطبيب كوبلاند وصرخت في وجهه وكأنّه أصمّ.

«بينديكت، هل ستشعر بالتحسن إن شربت بعض القهوة الساخنة؟»

جفل الطبيب كوبلاند.

«توقفي عن الصراخ»، قالت بورشيا. «يمكنه سماعك».

«أوه»، قالت ميك ثمّ جهزت الموقد، ووضعت القهوة لتغلي من جديد.

ما زال الأبكم عند مدخل الباب واقفاً، وتابع الطبيب كوبلاند النظر إلى وجهه.

«هل سمعت؟»

«ما الذي سيفعلونه بحراس السجن؟» سألت ميك.

«لا أعرف يا عزيزتي»، قالت بورشيا. «لا أعلم حقاً».

«كنت لأفعل شيئاً ما، كنت حتماً سأقوم بشيءٍ ما حيال الأمر».

«ليس هناك ما يمكننا فعله وإحداث فرق، ولذلك من الأفضل أن نبقي أفواهنا مُغلقة».

«يجب أن يتلقوا المعاملة ذاتها التي تلقاها ويلي وصديقاه، بل وأسوأ. أتمنى لو كان باستطاعتي حشد بعض الناس، وقتل هؤلاء الحراس بنفسي».

«المسيحيون لا يتكلمون بهذه الطريقة»، قالت بورشيا. «يمكننا أن نرتاح لأنّ الشيطان سيقطعهم بالمناجل ويقليهم إلى الأبد».

«ما زال ويلي قادراً على عزف الهارمونيكا بأيّ حال».

«هذا كل ما يمكنه القيام به بعد أن بتروا رجليه».

عمّ المنزل الضجيج والبلبلة. كان أحدهم في الغرفة التي تقع فوق المطبخ يحرّك الأثاث فيها. اكتظت غرفة تناول الطعام بالمستأجرين، وانتقل السيد كيلي بين طاولة الفطور والمطبخ. كان السيد كيلي في سروالٍ فضفاضٍ ورداء الحمام. أكل أطفال عائلة كيلي الصغار بشراهة في المطبخ، وخُبطت الأبواب، وسُمعت الأصوات من كافة أرجاء المنزل.

قدّمت ميك للطبيب كوبلاند فنجاناً من القهوة الممزوجة مع القليل من الحليب مما أكسب القهوة لمعاناً رمادياً مُزرقاً. لطخت القهوة صحن الفنجان، ولهذا قام الطبيب كوبلاند أولاً بتنظيف الصحن وطرف الفنجان بمنديله. لم يكن يرغب بتناول القهوة أبداً.

«أتمنى لو كان بإمكاني قتلهم»، قالت ميك.

عمّ الهدوء المنزل، وخرج الناس الذين كانوا في غرفة تناول الطعام إلى أعمالهم. توجهت ميك وجورج إلى المدرسة، ووضع رالف في إحدى الغرف الأمامية. لفّت السيدة كيلي منشفةً حول رأسها، وتوجهت إلى الطابق العلوي حاملة مكنسةً معها.

ما زال الأبكم واقفاً في الردهة. حدّق الطبيب كوبلاند في وجهه.

«هل علمت بما حصل؟» سأله مجدداً.

لم يخرج عن الكلمات صوت فقد اختنق في حلقه، ولكن تكفلت

عيناه بطرح السؤال. غادر الأبكم بعد هذا، وبقي الطبيب كوبلاند وبورشيا وحدهما. جلس الطبيب على الكرسي العالي في الزاوية لبعض الوقت، ونهض في النهاية مُغادراً.

«اجلس يا أبي، سنبقى معاً هذا الصباح. سأقلي بعض السمك، وسأعد الخبز بالبيض والبطاطا من أجل العشاء. فلتبقَ هنا وسأقدّم لك وجبة لذيذة ساخنة».

«تعلمين أنني يجب أن أقوم بجولاتي».

«من فضلك يا أبي فلنجلس معاً اليوم فقط. أشعر أنني سأنفجر حقاً، ولا أريد أن تتجول في الشوارع لوحدك أيضاً».

شعر بالتردد، وتحسس ياقة معطفه التي كانت رطبة جداً.

«أنا آسف يا بنيتي. أنت تعلمين أنّه لدي جولات لأقوم بها».

قرّبت بورشيا شاله من الموقد إلى أن أصبح دافئاً، وزررت معطفه ورفعت الياقة حول رقبته. تنحنح الطبيب كوبلاند، ونظّف حنجرته ثمّ بصق في قطعة ورقية مربعة يحملها معه على الدوام ثمّ أحرقها في الموقد. في طريقه للخروج توقف قليلاً وتحدث إلى هايبوي الجالس على الدرج. اقترح على هايبوي أن يبقى مع بورشيا إن كان باستطاعته أخذ إذن غياب عن العمل.

كان الهواء بارداً وواخزاً، واستمر انهمار المطر الخفيف من الغيوم المنخفضة والداكنة. تسرّب ماء المطر إلى صفائح النفايات، وفاحت رائحة نتنة من المخلفات السائلة. حاول أن يوازن نفسه على السياج أثناء المشي، وأبقى عينيه السوداوين على الأرض.

قام بكل الزيارات الضرورية جداً، ثمّ توجه إلى العيادة، وبقي هناك من الظهر وحتى الساعة الثانية. بعد ذلك جلس إلى مكتبه وأطبق قبضتي يده بشدة، ولكن التفكير في الأمر كان بلا طائل.

تمنى ألا يرى وجهاً بشرياً أبداً، ولكن في الوقت نفسه لم يكن قادراً على الجلوس وحده في غرفة فارغة. وضع معطفه، وخرج مجدداً إلى

الشارع الرطب البارد، وفي جيبه بضع وصفات عليه أن يوصلها إلى الصيدلية، ولكنه لم يكن يرغب بالتحدث إلى مارشال نيكولز. توجه إلى الصيدلية، ووضع الوصفات على النضد. تحول اهتمام الصيدلاني من البودرة التي كان يزنها في يديه إلى الطبيب كوبلاند، وتحركت شفتاه دون إصدار صوت لدقيقة قبل أن يمتلك رباطة جأشه.

«أيّها الطبيب»، قال بصيغة رسمية. «يجب أن تعي أنني مع زملائي جميعاً وأفراد عائلتي وكنيستي نشاركك مصابك الكبير، ونقدم لك خالص تعاطفنا».

التفت الطبيب كوبلاند إلى الوراء فوراً، وغادر دون أن يتفوه بكلمة.

ما قدّمه كلام الصيدلاني شحيح فالمطلوب أكثر من هذا بكثير. إن المطلوب هو وجود مسعى حقيقي وإرادة العدالة. مشى باستقامة وساعداه ملتصقان بجانبيه نحو الشارع الرئيس. أخذ يُفكر ويفكر ولكن دون أن ينجح في الوصول إلى شيء. هناك رجلان أبيضان في البلدة يملكان السُلطة والشجاعة وحس العدالة. فكر أيضاً بكل محامٍ وقاضٍ وموظف حكومي يعرفه، ولكن التفكير بكل واحد من هؤلاءً الرجالَ البيض أشعل المرارة في قلبه. واستقر في تفكيره أخيراً على قاضي المحكمة العليا. عندما وصل إلى المحكمة لم يتردد ودخلها بسرعة مصمماً على مقابلة القاضي عصر ذلك اليوم.

كانت القاعة الأمامية الواسعة فارغة باستثناء وجود بعض المتبطلين المتسكعين في الردهات المُفضية إلى المكاتب على كلا الجانبين. لم يكن يعرف مكان مكتب القاضي، ولهذا تجول بحيرة في المبنى متفقداً اللافتات على الأبواب. وصل في النهاية إلى ممرٍ ضيق وقف في وسطه ثلاثة رجالٍ بيض يتحدثون. مشى بالقرب من جدار الردهة ليمر، ولكن أحد الثلاثة التفت نحوه ليوقفه.

«ما الذي تريده؟»

«هلّا أخبرتني أين يقع مكتب القاضي؟»

وجه الرجل الأبيض إبهامه نحو نهاية الممر. عرف الطبيب كوبلاند الرجل فقد كان مفوض نقيب الشرطة، والتقيا مراتٍ كثيرة، ولكن المفوض لم يتذكره. بالنسبة للزنوج كل الرجال البيض متشابهين، ولكنهم كانوا مهتمين بالتمييز بينهم. ومن جهة أخرى كان الزنوج متشابهين بالنسبة للرجال البيض، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء حفظ وجه زنجي في عقولهم. ولهذا قال الرجل الأبيض، «ما الذي تريده أيها الموقر؟»

تذكر نكتة معروفة وقال: «أنا لست كاهناً. أنا طبيب، وأدعى الطبيب بينديكت مادي كوبلاند، وأريد أن أقابل القاضي فوراً في قضية عاجلة».

كان المفوض كبقية الرجال البيض ممن يُزعجهم الحديث الواضح.

«هل هذا صحيح؟» قال ساخراً، وغمز أصدقائه ساخراً. «أنا مفوض نقيب الشرطة، وأدعى السيد ويلسون وأقول لك إن القاضي مشغول. عُد في يومٍ آخر».

«يجب أن أقابل القاضي بشكلٍ ملح. سأنتظره»، قال الطبيب كوبلاند.

هناك مقعد عند مدخل الردهة توجه نحوه الطبيب كوبلاند وجلس عليه. تابع الرجال الثلاثة الحديث، ولكنه انتبه إلى أنّ المفوض يراقبه، وعزم على المغادرة. مرّت نصف ساعة، ومرّ العديد من الرجال البيض عبر الردهة بكل أريحية. علم أنّ المفوض يراقبه ولهذا جلس بثبات وضغط يديه على ركبتيه. أملى عليه حذره بالمغادرة والعودة بعد الظهر عندما يُغادر المفوض. كان شخصاً حذراً طوال حياته في تعامله مع أناسٍ كالمفوض، ولكن هناك شيء ما في داخله الآن لم يسمح له بالانسحاب.

«تعال إلى هنا»، قال المفوض أخيراً.

ارتعشت يدا الطبيب، وعندما نهض لم يكن قادراً على المشي بثبات.

«ما هي القضية التي قلت إنّك تريد أن تقابل القاضي من أجلها؟»

«لم أقل ما هي القضية. قلت إنّني يجب أن أقابل القاضي في قضية عاجلة، قال الطبيب كوبلاند».

«لمَ لا تستطيع الوقوف بثبات؟ كنت تشرب الكحول، أليس هذا صحيحاً؟ أستطيع شمّ رائحته في فمك».

«هذه كذبة، أنا لم...». قال الطبيب كوبلاند على مهل.

ضربه المفوض على وجهه فسقط بمواجهة الحائط، ثمّ أمسك به رجلان أبيضان من ذراعه، وجرّاه على الدرج إلى الطابق الأول، ولكنه لم يقاومهم.

«إنّ مشكلة هذا البلد وجود أمثاله من الزنوج المتعالين»، قال المفوض.

لم ينطق بكلمة واحدة، وتركهم يفعلون ما يشاؤون. انتظر أن يعود إليه غضبه الكبير، وشعر به يصعد في داخله. جعله الغضب ضعيفاً، ولهذا أخذ يتعثر في مشيته. وضعوه في عربة مع رجلين كحارسين. أخذوه إلى المركز ثمّ إلى السجن. ولكن فقط عندما دخل السجن عادت إلى القوة التي تأتي مع غضبه. تحرر من قبضتهم فجأة، ولكنهم حاصروه في الزاوية. ضربوه على رأسه وكتفيه بالعصيّ. كانت تعتمل في داخله قوة عظيمة، وسمع نفسه يضحك عالياً بينما صارعهم. ناح وضحك في الوقت ذاته، وركلهم بقدميه بقوة. قاتلهم بقبضتيه بل وضربهم على رؤوسهم أيضاً، ولكن سرعان ما أحكموا قبضتهم عليه، ولم يعد قادراً على التحرك. جروه على قدميه عبر الردهة المفضية إلى الزنزانة. كان باب الزنزانة مفتوحاً، ومن الخلف ركله أحدهم على عضوه ثمّ سقط أرضاً على ركبتيه.

في المهجع المكتظ هناك خمسة مساجين آخرين، ثلاثة زنوج ورجلان أبيضان. جلس أحد الرجلين الأبيضين الذي كان عجوزاً ثملاً جداً على الأرض يحكّ نفسه. أمّا السجين الأبيض الآخر فكان فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. أما الزنوج الثلاثة فكانوا شُباناً. وعندما جلس الطبيب كوبلاند على السرير ذو الطابقين يتفحص وجوههم تعرّف على أحدهم.

«لمَ أنت هنا؟» سأله الشاب. «ألست الطبيب كوبلاند؟»

أجابه الطبيب كوبلاند بنعم.

«أدعى داري وايت، لقد عالجت لوزتي أختي العام الماضي».

عبقت الزنزانة الباردة كالثلج برائحة عفنة. هناك دلو في الزاوية امتلأ بالبول حتى حوافه. زحفت الصراصير على الجدران. أغلق الطبيب كوبلاند عينيه ونام على الفور. عندما استيقظ نظر حوله مجدداً، ورأى أن الظلام قد حل خارج النافذة الصغيرة القضبان ذاتها، وهناك ضوء لامعٌ قادمٌ من الردهة. هناك ثلاثة أطباق فارغة على الأرض. كان عشاؤه مكوناً من الملفوف مع خبز الذرة.

جلس على السرير، وعطس بقوة عدة مرّات. عندما تنفس أحسّ بخرخرة البلغم في صدره. بعد قليل بدأ الشاب الأبيض يعطس أيضاً. كان قد نفدت قطع الورق المربعة التي يستخدمها ليتخلص من البلغم، ولذلك اضطر إلى استخدام ورق دفتر الملاحظات في جيبه. انحنى الفتى الأبيض فوق الدلو في الزاوية، وترك المخاط السائل يسيل على قميصه. بدا بؤبؤ عينيه متوسعاً، واحمرت وجنتاه. جلس على حافة السرير وأخذ يتأوه.

وأخيراً أخذوهم إلى الحمام، وعندما عادوا كانوا مستعدين للنوم. لم يكن هناك سوى أربعة أسرّة لستة رجال. استلقى الرجل العجوز على الأرض، وبدأ يشخر. وحشر داري نفسه مع فتى آخر على سرير واحد.

طالت الساعات، وآلم الضوء القادم من الردهة عينيه، وجعلت الرائحة التي تعبق في الزنزانة التقاط كل نفس مزعجاً. لم يستطع الحفاظ على دفء جسمه، واصطكت أسنانه، وأخذ يرتعش من البرد. جلس على البطانية المتسخة التي لفّها حول نفسه، وأخذ يهزّ نفسه إلى الأمام والخلف. غطّى الفتى الأبيض الذي كان يتمتم في نومه وقد أفرد ساعديه مرتين. هزّ الطبيب كوبلاند نفسه بينما وضع رأسه في يديه، وخرج من حنجرته أنين أشبه بالغناء. لم يكن قادراً على التفكير بويليام ولا بالمسعى الحقيقي والتماس القوة منه. كان يشعر بالبؤس فقط.

ثمّ ارتفع مدّ الحمى التي أصابته، وانتشر الدفء في أوصاله. استلقى على ظهره وبدا وكأنّه يغرق في مكانٍ دافئ وأحمر ومريح جداً.

في صباح اليوم التالي دخلت أشعة الشمس الزنزانة، كان الشتاء الجنوبي في أواخره. أطلقوا سراح الطبيب كوبلاند. كان هناك مجموعة صغيرة من الناس بانتظاره أمام السجن ومن بينهم السيد سينغر وبورشيا وهايبوي ومارشل نيكولز. بدت وجوههم حائرة، ولم يكن قادراً على رؤيتهم بوضوح فأشعة الشمس حادة جداً.

«أبي، ألا تعرف أنّها ليست الطريقة المناسبة لمساعدة ويلي؟ لا يمكنك أن تساعده بإثارة الشغب في محكمة البيض. أفضل شيء نقوم به إبقاء أفواهنا مُغلقة والانتظار».

تردد صدى صوتها بشكلٍ مزعج في أذنيه. صعدوا إلى سيارة الأجرة، وعندما وصل إلى المنزل ألقى برأسه على الوسادة البيضاء النظيفة.

-11-

عجزت ميك عن النوم طوال الليلة. كانت إيتا مريضة، ولهذا اضطرت ميك إلى النوم في غرفة المعيشة. كانت الأريكة صغيرةً جداً، وراودتها كوابيس عن ويلي. مرّ شهر تقريباً مذ أخبرتها بورشيا عمّا فعلوه بويلي، ولكنّها لم تستطع نسيان الأمر. راودتها هذه الأحلام المزعجة مرتين خلال الليل، وعندما استيقظت وجدت نفسها على الأرض وقد شجّت جبهتها. عند الساعة السادسة سمعت صوت بيل يتوجه إلى المطبخ ليعد إفطاره. كان النهار قد طلع، ورغم أن الستائر مسدلة في غرفة الجلوس انزعجت من الضوء الذي تسلل منها. لفّت الأغطية التي كان نصفها على الأريكة ونصفها على الأرض حولها، ولم تعرف كيف وصلت الوسادة إلى منتصف الغرفة. نهضت، وفتحت الباب المفضي إلى الردهة. لم يكن هناك أحد على الدرج. ركضت في رداء النوم إلى الغرفة الخلفية.

«تحرّك يا جورج».

نام الولد وسط السرير، ورغم برودة الليل إلا أنّه نام عارياً كطائر زرياب منتوف، وقد شدّ قبضتيه وزرّ عينيه وكأنّه يفكر بأمرٍ من الصعب فهمه. كان فمه مفتوحاً وعلى الوسادة تحته بقعة رطبة. قامت ميك بدفعه.

«انتظري...». قال جورج وهو ما يزال نائماً.

«ابتعد قليلاً».

«انتظري، دعيني أنهي هذا الحلم... هذا».

قامت ميك بقلبه إلى جهته من السرير واستلقت بقربه. عندما فتحت

عينيها مجدداً كان الوقت متأخراً، وأشعة الشمس دخلت من النافذة الخلفية. لم تجد جورج إلى جانبها، ومن الحديقة سمعت أصوات الأولاد وصوت المياه الجارية. كانت إيتا وهيزل تتحدثان في الغرفة الوسطى. وبينما ارتدت ثيابها خطرت لها فكرة مُفاجئة. وضعت أذنها على الباب، ولكن كان من الصعب سماع ما تقولانه. فتحت الباب بسرعة لتفاجئهما.

كانتا تطالعان مجلة سينمائية، ما زلت إيتا في السرير وقد وضعت يدها على صورة ممثل.

«ألا يشبه من هنا وحتى الأعلى ذلك الفتى الذي كنت أواعده...».

«كيف تشعرين هذا الصباح يا إيتا؟» سألتها ميك، وبحثت تحت السرير عن صندوقها الخاص الذي ما زال في مكانه حيث تركته.

«وكأنك تهتمين»، قالت إيتا.

«ما من داعٍ لبدء شجار».

كان وجه إيتا شاحباً، وهي تعاني من آلامٍ رهيبة في معدتها ومبيضها ليس على ما يرام. قال الطبيب إنه يجب استئصاله على الفور، ولكن والدهم قال إنهم سينتظرون، فلم يكن هناك نقود لإجراء العملية.

«كيف تتوقعين مني أن أتصرف؟» قالت ميك. «سألتك سؤالاً مهذباً ولكنك أخذت تتذمرين مني. أشعر أنني يجب أن آسف على حالك لأنك مريضة، ولكنك لا تسمحين لي بالتصرف بتهذيب، ولهذا يجنّ جنوني». دفعت ميك بغرّتها ونظرت إلى المرآة. «يا إلهي، انظري إلى هذه الكدمة! أراهنك بأنّ رأسي مكسور. لقد سقطت مرتين خلال الليل لا بدّ وأنني اصطدمت بالطاولة قرب الأريكة. لا يمكنني النوم في غرفة المعيشة فالأريكة صغيرة جداً ولا يمكنني النوم بثبات عليها».

«فلتتوقفي عن الحديث بصوتٍ عالٍ»، قالت هيزل.

ركعت ميك على الأرضية، وسحبت الصندوق الكبير. نظرت بدقة إلى الخيط الذي ربط به الصندوق.

«هل لعبت إحداكما بالصندوق؟»

«هراء»، قالت إيتا. «لماذا سنبحث في قمامتك؟»

«من الأفضل ألا تفعلا. سأقتل أيّ شخص يحاول العبث بأشيائي الخاصة».

«اسمعي»، قالت هيزل. «ميك كيلي، أعتقد أنّك أكثر شخص أناني عرفته. فأنتِ لا يُهمك أحدٌ في العالم سوى نفسك».

«هراء!» قالت ميك وأغلقت الباب بقوة. كانت تكرههما. هذا أمر مريع ولكنه حقيقي.

كان والدها برداء الحمام في المطبخ مع بورشيا يشرب القهوة. بدا بياض عينيه أحمر، وفي كل مرة وضع فنجانه على الصحن يُصدر قعقعة. لم يكن جالساً بل تحرك حول طاولة المطبخ.

«ما الساعة؟ هل خرج السيد سينغر؟»

«لقد غادر يا عزيزتي»، قالت بورشيا. «قاربت الساعة العاشرة صباحاً».

«الساعة العاشرة! يا إلهي! لم أنم إلى مثل هذا الوقت المتأخر قبلاً».

«ما الذي تحملينه في صندوق القبعات الكبير الذي بيدك؟» سألت بورشيا.

توجهت ميك إلى جهة الموقد، وأخذت ست قطع من البسكويت.

«لا تسأليني أسئلة حتى لا أكذب عليك. ومن تدخل فيما ما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه».

«هل هناك بعض الحليب لأضعه فوق قطع الخبز؟» سأل والدها. «أو ربما بعض الحساء، فهذا كفيل بملء معدتي».

كسّرت ميك البسكويت إلى قطعتين، ووضعت شريحة من اللحم الأبيض المقلي في داخلها. جلست على الدرج الخلفي لتتناول فطورها. كان الصباح دافئاً ومشرقاً. لعب سبيرريبس وساكر وجورج في الحديقة الخلفية. ارتدى ساكر بذلة سباحة، أمّا الولدان الآخران فقد خلعا كل

ثيابهما باستثناء سراويلهما القصيرة. كانوا يرشون الماء على بعضهم بالخرطوم. لمعت المياه تحت الشمس، وذرّت الريح في طريقها بعض الرذاذ الذي عكس ألوان قزحية في ضوء الشمس. كان هناك حبل غسيل يرفرف بفعل الريح بكل ما عليه من بياضات وفستان رالف الأزرق وبلوزة حمراء وثياب نوم. ما زالت الثياب رطبة وتطايرت مع الريح في اتجاهات مختلفة. كان اليوم يشبه أيام الصيف، ويمكن سماع أزيز النحل الصغير غير المرئي حول زهور شهد العسل على سياج الزقاق.

«راقبني وأنا أرفعها فوق رأسي!» صرخ جورج. «انظر كيف يسيل الماء».

كانت ميك مليئة بالطاقة، ولم تكن قادرة على الجلوس بهدوء. كان جورج قد ملء كيس طحين الذرة الفارغ بالتراب وعلّقه على أحد أفرع الشجرة ككيس ملاكمة. أخذت تلكم الكيس، بانغ! بانغ! بانغ! ضربته على إيقاع أغنية تصدح في رأسها منذ استفاقت. آذت مفاصلها أثناء اللكم لأن جورج قد خلط التراب ببعض الحجارة في الكيس.

«آآآآه! لقد دخل الماء إلى أذني، وخرق غشاء الطبل، لم يعد بوسعي سماع شيء».

«أعطوني هذا، دعوني أرشّ بعض الماء»، قالت ميك.

وصل رذاذ الماء إلى وجهها، وعندما وجّه الأطفال الخرطوم نحو قدميها خافت على الصندوق من أن يتبلل لذلك حملته معها عبر الزقاق إلى الشرفة الأمامية. كان هاري جالساً على الدرج يطالع الصحيفة. فتحت صندوقها، وأخرجت دفتر الملاحظات، ولكنها وجدت صعوبة في تحديد الأغنية التي كانت ترغب بكتابتها. نظر هاري باتجاهها ولم تكن قادرة على التفكير.

تحدثت مع هاري بأمورٍ كثيرة في الآونة الأخيرة، وفي كل يوم تقريباً تمشيا معاً في طريق عودتهما إلى المنزل بعد المدرسة. تحدثا عن الله، وكانت ميك تستيقظ ليلاً في بعض الأحيان مرتجفةً بسبب ما تحدثا

به خلال النهار. آمن هاري بوحدة الوجود، وهذا دين مثل المعمدانية والكاثوليكية واليهودية، وآمن أن الإنسان بعد الموت والدفن يتحول إلى نباتات ونار وتراب وغيوم وماء، وأن الأمر يتطلب آلاف السنين حتى يتحول الإنسان في النهاية إلى جزء من العالم. قال لها إنَّ هذا أفضل من يكون المرء ملاكاً، على أيّ حال هذا أفضل من اللاشيء.

وضع هاري الجريدة في ردهة منزله، وتوجه نحوها.

«الجو صيفي حار مع أننا في شهر آذار (مارس)»، قال لها.

«أجل، أتمنى لو كان بإمكاني الذهاب للسباحة».

«كنا لنذهب لو كان هناك مكان نسبح فيه».

«لا يوجد مكان باستثناء مسبح النادي الريفي».

«أرغب حقاً بالقيام بشيء... أن أخرج وأذهب إلى مكان ما».

«وأنا أيضاً»، قالت له. «انتظر، أعرف مكاناً يقع في الريف على بعد خمسة عشر ميلاً. إنّه جدول عميق وواسع في الغابة. خيمت فيه مع فتيات الكشافة الصيف الماضي. أخذتنا السيدة ويلز أنا وجورج وبيت وساكر للسباحة هناك مرة في العام الماضي».

«إن أردت يمكنني أن أحضر دراجتين، ونذهب غداً. يمكنني أن آخذ إجازة ليوم أحد واحد في الشهر».

«حسناً سنذهب على الدراجات وسآخذ طعام النزهة معي»، قالت ميك.

«حسناً، سأستعير الدراجتين».

كان الوقت قد حان ليعود إلى العمل. راقبته وهو يبتعد حتى نهاية الشارع. كان يمشي ويلوح بذراعيه. في منتصف الشارع هناك شجرة غار بأغصان خفيضة، ركض هاري وقفز ممسكاً بغصنٍ ثمّ رفع ذقنه إلى الأعلى. انتابها شعور بالسعادة لأنهما صديقان حقيقيان، ولأنّه وسيم أيضاً. ستستعير غداً عقد هيزل الأزرق، وترتدي فستانها الحريري.

ستأخذ معها للغداء شطائر المربى ومشروباً غازياً مُنكهاً. قد يُحضر هاري معه شيئاً غريباً لأنّ عائلته تتناول طعاماً يهودياً تقليدياً. راقبته إلى أن انعطف عند الزاوية. أجل، لقد كبر هاري وأصبح رجلاً وسيماً حقاً.

كان هاري في الريف مُختلفاً عن هاري الذي يجلس على الدرج ويطالع الصحيفة ويفكر بهتلر. غادرا في الصباح الباكر، وكانت الدراجات التي استعارها مخصصة للفتيان مع قضيب معدني بين القدمين. وضبا طعام الغداء وثياب السباحة فوق العجلات الخلفية وانطلقا قبل التاسعة صباحاً. كان الجو حاراً وصحواً، وخلال ساعة وصلا إلى طريق طيني أحمر بعيد عن المدينة. كانت الحقول بلونٍ أخضر زاهٍ، وتضوع في الهواء الرائحة النفّاذة لأشجار الصنوبر. تحدث هاري بحماس، وعصفت الريح في وجهيهما. جفّ فمها وكانت جائعة.

«أترى المنزل في أعلى التلة هناك؟ لنذهب إليه ونأخذ بعض الماء».

«لا، من الأفضل أن ننتظر، فمياه الآبار موبوءة بالتيفوئيد».

«عانيت من التيفوئيد ومن ذات الرئة أيضاً. كسرت رجلي، ولدي قدم مصابة بالتهاب».

«أتذكرين؟»

«أجل»، قالت ميك. «بقيت أنا وبيل في الغرفة الأمامية عندما كنا نعاني من حمى التيفوئيد، وكان بيت ويلز يعبر شارعنا، وينظر إلى نافذتنا واضعاً يده على أنفه. شعر وقتها بيل بالخجل، أمّا أنا فقد سقط شعر رأسي، وأصبحت صلعاء».

«أراهنكِ أننا نبعد عن البلدة عشرة أميال، فنحن نقود الدراجات بسرعة منذ ساعة ونصف».

«أشعر بالعطش الشديد»، قالت ميك. «وأنا جائعة أيضاً. ماذا لديك في حقيبة طعام الغداء؟»

«هريس لحم الكبد البارد وشطائر سلطة الدجاج وفطيرة».

«هذا غذاء جيد»، قالت ميك وقد شعرت بالخجل من الطعام الذي أحضرته معها. «لدي بيضتان مسلوقتان محشوتان[1] وقد جلبت الملح والفلفل في علبتين منفصلتين، وشطائر مربى التوت والزبدة». كانت قد غلّفت كل شيء في مناديل ورقية وورق زبدة.

«لم أكن أنوي إحضار شيء»، قال هاري. «لكن أمي جهزت الغداء لكلينا. أنا فقط طلبت منك أن نخرج، سنصل إلى أحد المتاجر ونشتري مشروبات باردة».

قادا الدراجتين لساعة أخرى قبل أن يصلا إلى محطة وقود. ثبت هاري الدراجتين، ودخل إلى المتجر. بدا المتجر حالكاً من الداخل بسبب وهج الشمس، ولاحت شرائح اللحم الأبيض، وعلب الزيت، وأكياس الطحين المكدسة على الرفوف. كان الذباب يئزّ فوق مرطبان كبير ودبق مليء بالحلوى على النضد.

«ما نوع المشروبات التي لديك؟» سأل هاري.

بدأ البائع يعد أنواع المشروبات لديه. فتحت ميك البراد ونظرت داخله. أحست بشعور جيد عندما وضعت يدها في الماء البارد.

«أريد مشروباً غازياً مُنكهاً بالشوكولا. هل لديك منه؟»

«هذا هو»، قال هاري. «نريد اثنين منه».

«لا، انتظر قليلاً. توجد جعة باردة جداً. أريد زجاجة جعة إن كان بإمكانك شرائها».

طلب هاري واحدة لنفسه أيضاً. رغم أنّه يعتقد أنّها خطيئة أن يشرب الجعة وهو تحت العشرين، ولكنه أراد أن يجرب شيئاً جديداً على حين غرّة. بعد ارتشاف أول جرعة من الجعة ارتسمت مرارة الطعم على وجه

1- البيض المحشو وهو عبارة عن أنصاف من البيض المسلوق وقد أزيل منه المح. يُخلط المح مع المايونيز والخل والخردل والفلفل والملح ثمّ يوضع المزيج مكان المح في البيضة المقطعة. (المترجمة)

هاري. جلسا على الدرج عند مدخل المتجر. كانت قدما ميك مرهقتين، وشعرت بعضلاتهما تنبضان بشدة. مسحت عنق الزجاجة بيدها وأخذ جرعة طويلة. على الجانب الآخر من الطريق كان هناك حقل عشبي فارغ على أطرافه غابة صنوبرية. بدت الأشجار موشحة بكل تدرجات اللون الأخضر من الأخضر الزاهي الضارب إلى الأصفر وحتى الأخضر الغامق جداً إلى درجة السواد، أمّا السماء فكانت بلون أزرق نابض.

«أحبّ الجعة»، قالت ميك. «اعتدت على نقع الخبز ببقايا الجعة التي يتركها والدي. أحبّ لعق الملح عن يدي عندما أشربها. هذه الزجاجة الثانية التي أشربها في حياتي».

«كانت الجرعة الأولى مُرّة جداً، ولكن الجرعات التالية جيدة».

أخبرهما البائع أنهما يبعدان اثني عشر ميلاً عن البلدة، إذاً ما زال أمامهما أربعة أميال ليصلا. دفع له هاري المال، وانطلقا تحت الشمس الحارة مجدداً. تحدث هاري بصوتٍ عالٍ، واستمر بالضحك دون سبب.

«يا إلهي، إنّ تناول الجعة في هذا الجو الحار يسبب لي بالدوار، ولكنني أشعر بشعور جيد حتماً»، قال هاري.

«أتحرق شوقاً لنصل ونسبح».

كان الطريق رملياً، ولذلك اضطرا إلى الدوس بكل ثقلهما على الدواسات حتى لا تغور العجلات في الرمل. التصق قميص هاري بظهره بسبب العرق، ولكنّه تابع الكلام. تغير الطريق مجدداً، وعاد طريقاً طينياً أحمر وأصبح الرمل خلفهم. صدحت أغنية بطيئة وبهيجة في عقلها، كتلك الأغاني التي اعتاد شقيق بورشيا عزفها على القيثارة، وأخذت تضغط على الدواسات على إيقاعها.

وأخيراً وصلا إلى المكان الذي كانت تبحث عنه.

«هذا هو! أترى اللافتة التي تقول «خاص»؟ يجب أن نتسلق الأسلاك الشائكة ثمّ نأخذ ذلك الطريق - أتراه؟»

بدت الغابة هادئة جداً، وغطت أرضيتها إبر الصنوبر. وصلا إلى الجدول خلال بضع دقائق. بدا الماء بنياً وهائجاً وبارداً. لم يكن هناك أي صوت سوى صوت المياه والنسيم الذي يتخلل أشجار الصنوبر. وكأنّ الغابة الكثيفة والهادئة أسرتهما ولهذا أخذا يمشيان بهدوء على طول ضفة الجدول.

«تبدو جميلاً»، قالت ميك.

ضحك هاري. «لمَ تهمسين؟ اسمعي!» وضع يده فوق فمه وأطلق صرخة هندية طويلة عاد صداها إليهما.

«لنقفز إلى المياه ونُبرّد أنفسنا»، قال لها هاري.

«ألست جائعاً؟»

«حسناً سنأكل أولاً. سنأكل نصف الغداء الآن، ونصفه الآخر بعد أن نخرج من المياه».

أخرجت ميك شطائر المربى. عندما انتهيا من تناول الطعام غلّف هاري ما تبقى منه بعناية، ووضعه في جوف جذع شجرة، ثم خلع سرواله وتوجه إلى نهاية الطريق. خلعت ثيابها خلف أجمة، وصارعت أثناء ارتداء ثوب السباحة الخاص بهيزل. كان الثوب ضيقاً جداً خاصّة بين القدمين.

«هل أنت جاهزة؟» صاح هاري.

سمعت صوت طرطشة المياه، وعندما وصلت إلى الضفة كان هاري قد نزل للسباحة.

«لا تنزلي حتى أتأكد من عدم وجود أي جذوع أو مناطق ضحلة».

نظرت إلى رأسه يهتز في الماء. لم تكن تنوي القفز على أيّ حال فلم تكن تعرف السباحة. وإن سبحت فكانت ترتدي دولاباً مطاطياً، أو تبقى في الأماكن التي تصل فيها المياه إلى رقبتها. ولكن شعرت أنّها لو أخبرت هاري بهذا فستبدو جبانة. شعرت بالحرج، وفجأة أخذت تسرد قصة ما.

«لم أعد أغطس. كنت أغطس من أمكنة عالية طوال الوقت، ولكني

جرحت رأسي في إحدى المرّات، ولهذا لم أعد قادرة على الغطس». ثمّ أخذت تفكر لبعض الوقت. «كانت قفزة مزدوجة، وعندما خرجت كان هناك دم في الماء، ولكنني لم أهتم بهذا أبداً بل عدت للسباحة، وأخذ الناس يصيحون بي، ثمّ اكتشفت من أين أتى هذا الدم، وتوقفت عن السباحة منذ ذلك الوقت».

توجه هاري نحو الضفة خارجاً وقال لها: «يا إلهي! لم أسمع بهذا قبلاً».

أرادت أن تضيف شيئاً إلى الحكاية حتى تبدو منطقية أكثر، ولكن بدلاً من هذا أخذت تنظر إلى هاري. بدت بشرة هاري بلون أسمر فاتح أكسبها الماء لمعاناً. كان هناك شعر على صدره وقدميه، وبدا عارياً جداً في سروال السباحة. كان وجهه من دون نظارات أوسع وأجمل، وكانت عيناه رطبتين وزرقاوين. نظر إليها وفجأة شعرا بالحرج.

«إن عمق المياه لا يتجاوز عشرة أقدام باستثناء المنطقة عند الضفة الأخرى حيث المياه الضحلة».

«لنسبح، لا بدّ وأنّ المياه باردة».

لم تكن خائفة، وشعرت وكأنّها عالقة على قمة شجرة عالية، ولا بدّ من النزول بأية طريقة، كان شعوراً بالسكينة الشديدة. أمسكت بأحد الجذور إلى أن كسرته بيدها، ثمّ بدأت تسبح. وعندما نزلت إلى الماء استمرت في التقدم، ولم تفقد ماء وجهها. سبحت ووصلت إلى الجانب الآخر من الضفة حيث يمكنها أن تلمس القاع. انتابها شعور جيد، وأخذت تضرب الماء بقبضتيها، وأخذت تصرخ بكلمات جنونية ليتردد صداها.

تسلق هاري شجرة طويلة خفيفة، كان جذعها لدناً وعندما وصل إلى الأعلى أخذت تميل تحته ثمّ قفز في الماء.

«وأنا أيضاً! راقبني بينما أقوم بالقفزة».

«إنّها شجيرة».

كانت متسلقة ماهرة كبقية الأولاد في الحي، وقلّدت كل ما فعله هاري قبل قليل ثمّ غطست في الماء بقوة وسبحت. أصبحت الآن تعرف كيف تسبح.

لعبا لعبة تقليد حركات بعضهما، وسبحا عبر الضفتين، وقفزا في المياه البنية الباردة. صرخا وقفزا. لعبا لما يقارب الساعتين. وقفا على الضفة، ونظرا إلى بعضهما ولم يبدُ أنّ هناك أية ألعاب أخرى يمكنهما لعبها. وفجأة قالت ميك:

«هل سبحت عارياً قبلاً؟»

كانت الغابة هادئة ومرّ وقت قبل أن يجيب. شعر بالبرد، وقد تصلبت حلمتا صدره، وأصبح لونهما قرمزياً. كانت شفتاه قرمزيتين أيضاً، واصطكت أسنانه.

«أنا... لا أعتقد هذا».

انتابتها الحماسة، وقالت دون أن تعني ما تقوله.

«سأسبح عارية إن سبحت أيضاً. أنا أتحداك».

خلعا ثياب السباحة، ولكن هاري أدار ظهره إليها. تعثر في وقفته، واحمرّت أذناه، ثمّ التفتا وواجها بعضهما. ربما مرّت نصف ساعة أو دقيقة واحدة وهما واقفان على هذه الحالة.

قطف هاري ورقة شجرة، وأخذ يُقطعها إلى نتفٍ.

«من الأفضل أن نرتدي ثيابنا»، قال لها.

خلال الغداء لم يتحدثا إلى بعضهما. فرشا الطعام على الأرض، وقسّم هاري كل شيء بالتساوي. ساد ذلك الإحساس الحار والمثير للنعاس كالشعور في ظهيرة صيفية. في هذه الغابة الكثيفة لم يكن بإمكانهما سماع أيّة أصوات باستثناء التدفق البطيء للمياه وتغريد الطيور. أمسك هاري بالبيضة المحشوة، وهرس الحشوة الصفراء بإبهامه. بماذا ذكرها هذا؟ أصغت السمع إلى تنفسها.

نظر هاري من فوق كتفها.

«اسمعي! أعتقد أنك جميلة يا ميك. لم أفكر بهذا قبلاً، لا أعني أنني كنت أعتقد أنك بشعة - أعني...»

ألقت ميك بكوز صنوبر إلى المياه.

«ربما من الأفضل أن نبدأ بتوضيب أغراضنا إن أردنا الوصول إلى المنزل قبل أن يحلّ الظلام».

«لا»، قال هاري. «لنستلقِ لبعض الوقت».

جلب هاري أحمالاً من إبر وأوراق الصنوبر والطحالب الرمادية. أخذت ميك تمصّ ركبتها، وتراقبه وقبضتها مشدودة وكانت متوترة.

«والآن يمكننا النوم وتجديد طاقتنا من أجل رحلة العودة إلى المنزل».

استلقيا على هذا السرير الطري ونظرا إلى أغصان الصنوبر الخضراء الغامقة على أرضية السماء. غرّد طير تغريدة صافية وحزينة لم تسمعها قبلاً. بدأت التغريدة بنوتة عالية شبيهة بنوتة مزمار، ثمّ تراجعت خمس نوتات وارتفعت مجدداً. كانت الأغنية حزينة وكأنّها سؤال من دون جواب.

«أحبّ هذا الطائر»، قال هاري. «أعتقد أنه نوع من الطيور ذات الريش الرمادي أو الأزرق».

«أتمنى لو أننا كنا على شاطئ المحيط نشاهد السفن في المياه من بعيد. ذهبت إلى الشاطئ في الصيف - كيف كان؟»

خرج صوته خشناً ومنخفضاً.

«حسناً، كانت الأمواج زرقاء حيناً وخضراء في حينٍ آخر، وبدت زجاجية تحت أشعة الشمس الساطعة. والتقطنا من على الرمال أصدافاً صغيرة كالتي أحضرناها معنا في علبة السيجار. وطارت فوق سطح الماء النوارس البيضاء. كنا على شاطئ خليج المكسيك حيث هبّت أنسام الخليج الباردة طوال الوقت، ولم تكن الحرارة حارقة كما هي هنا، على أيّ حال...»

«الثلج»، قالت ميك. «هذا ما أريد أن أشاهده. أكوام باردة وبيضاء من الثلج كالتي نراها في الصور - عواصف ثلجية، ثلج أبيض بارد ينهمر باستمرار وبكل نعومة طوال الشتاء كالثلوج في ألاسكا».

التفتا معاً في الوقت عينه. كانا قريبين من بعضهما، وشعرت ميك أنّ هاري يرتجف وقبضتها تزداد إحكاماً وكأنّها ستتصدع.

«يا إلهي!» ردد هاري مراراً وتكراراً.

شعرت وكأنّ رأسها انفصل عن جسدها، وتدحرج بعيداً، ثمّ حدقت بشكل مباشر إلى الشمس التي تغشي البصر بينما كانت تعدّ شيئاً في رأسها، ثمّ حدث ما حدث.

وهكذا حدثت الأمور.

قادا الدراجتين ببطء على طول الطريق. أخفض هاري رأسه، وأحنى كتفيه. بدت ظلالهما طويلة وسوداء على الطريق المُغبر فقد كان الوقت أواخر الظهيرة.

«أصغي»، قال لها.

«أجل».

«يجب أن نفهم هذا، علينا هذا. هل -؟»

«لا أعلم، أعتقد هذا».

«اسمعي، علينا أن نفهم ما حصل. لنجلس».

وضعا الدارجتين جانباً، وجلسا بقرب خندق على جانب الطريق. جلسا بعيداً عن بعضهما. أحرقت شمس هذا الوقت المتأخر رأسيهما، وكان هناك كثيبات نمل بنية متهدمة حولهما.

«يجب أن نفهم ما حصل»، قال هاري.

بكى هاري، وجلس ساكناً والدموع تجري على وجهه الأبيض. لم تكن ميك قادرة على التفكير بسبب يدفعه إلى البكاء. قرصتها نملة في كاحلها فانتشلتها بأصابعها وتفحصتها عن كثب.

«الأمر أنني لم أقبّل فتاةً من قبل»، قال هاري.

«ولا أنا، لم أقبّل فتىً خارج عائلتي من قبل».

«هذا ما كنت أفكر به دوماً، كنت أفكر بتقبيل فتاةٍ معينة. كنت أخطط لهذا أثناء المدرسة، وأحلم به ليلاً. وعندما اتفقنا على موعد لنلتقي، لم أعرف إن كانت تريدني أن أقبلها. نظرت إليها في العتمة ولم أتمكن من تقبيلها. كان هذا كل ما فكرت به، أن أقبلها، وعندما سنحت الفرصة لم أنجح».

حفرت ميك حفرة في الأرض بإصبعها، ودفنت النملة الميتة.

«كان هذا خطئي. إنّ الزنى خطيئة رهيبة كيفما نظرتِ إليها، وكنت أصغر مني بسنتين، ومجرّد طفلة».

«لا، لم أكن طفلة، ولكنني أتمنى الآن لو أنني كنت طفلة».

«اسمعي. إن كنت تعتقدين أنّه علينا الزواج سراً أو بطريقة أخرى...»

هزّت ميك رأسها. «لا أعتقد هذا، لن أتزوج أيّ فتى».

«وأنا أيضاً لن أتزوج، أعلم هذا، وأنا أقول هذا لمجرّد القول – هذه الحقيقة».

ارتعبت من شكل وجهه، فأنفه كان يرتعش وشفته السفلى مُبقعة ومُدماة حيث عضها. كانت عيناه براقتين ورطبتين ومكفهرتين، ووجهه أكثر بياضاً من أيّ وجهٍ رأته قبلاً. أشاحت برأسها بعيداً عنه. كان من الأفضل لو بقي هاري صامتاً. تفحصت المكان بعينيها وبهدوء، تفحصت مزيج الطين الأبيض والأحمر عند الخندق، وزجاجة الويسكي المكسورة، واللافتة على شجرة البلوط قبالتهما، والتي تروج لانتخاب أحدهم كنقيب للشرطة. أرادت الجلوس بهدوء لوقتٍ طويل، وألّا تفكر أو تقول أيّة كلمة.

«سأغادر البلدة، أنا ميكانيكي بارع ويمكنني الحصول على عمل في مكان ما. إن بقيت في المنزل فستقرأ أميّ ما حدث في عينيّ».

«انظر إليّ، هل ترى أي اختلاف؟»

نظر هاري إلى وجهها لوقتٍ طويل، وهزّ رأسه بالإيجاب ثمّ قال: «هناك أمر آخر. فخلال شهر أو شهرين سأرسل لكِ عنواني، ولتكتبي لي ولتخبريني بأحوالك».

«ما الذي تعنيه؟» سألته على مهل.

«كل ما عليك كتابته كلمة «بخير» وأنا سأعرف»، شرح لها.

كانا في طريقهما إلى المنزل على الدراجات، وامتدت ظلالهما العملاقة على الطريق. أحنى هاري ظهره كمتشردٍ عجوز، واستمر بمسح أنفه بكمّه. لمع ضوء ذهبيّ برّاق في الأفق قبل أن تغيب الشمس وراء الأشجار، وتختفي ظلالهما على الطريق أمامهما. أحسّت أنها مسنّة جداً، وكأنّ شيئاً ما يُثقل صدرها. شعرت بنفسها بالغة الآن سواء أرادت هذا أو لم ترده.

قطعا مسافة الستة عشر ميلاً، ووصلا إلى الزقاق المظلم في حيهما. رأت الضوء الأصفر القادم من مطبخهم، ولكن منزل هاري كان مُعتماً، فأمّه لم تعد إلى المنزل بعد. كانت تعمل طوال الأسبوع في متجر خياطة في شارع فرعي وأحياناً أيام الأحد. إن نظر أحد من خلال نافذة المتجر لرآها منحنية فوق آلة الخياطة في الخلف، أو تغرز إبرتها في قطعة قماش ثقيلة. لم تكن لترفع نظرها عن عملها لو راقبها أحد. أمّا ليلاً فكانت تطبخ لهاري ولها أطباقاً تقليدية.

«اسمعي...» قال هاري.

انتظرت في العتمة أن يُنهي كلامه. صافحا بعضهما، وعبر هاري الزقاق المعتم الذي يفصل البيتين. عندما وصل إلى الرصيف التفت إلى الوراء، ونظر من فوق كتفه، وشعّ وجهه بضوءٍ، ضوءٍ أبيض وقوي، ثم اختفى.

***

«إليك هذه الأحجية»، قال جورج.

«أنا أسمعك».

«هناك هنديان يقتفيان أثراً. الهندي الذي في المقدمة ابن الذي في الخلف، ولكن الهندي في الخلف ليس والده. ما هي العلاقة التي تربطهما؟»

«دعني أفكر... زوج أمّه».

كشر جورج في وجه بورشيا، وكشف عن أسنانه الصغيرة الزرقاء والمربعة الشكل.

«عمّه، إذاً»، قالت بورشيا.

«أنت لست بارعة في الأحاجي. كانت أمّه. إن الفكرة هنا أنه لن يخطر ببالك أن هندياً قد يكون سيدة».

وقفت ميك خارج الغرفة تراقبهما. بدا المدخل كإطار يحيط بلوحة المطبخ. إن الجو في الداخل دافئ ونظيف، ولم يكن هناك ضوء سوى ضوء المصباح قرب حوض غسيل الصحون، وامتدت الظلال في الغرفة. لعب بيل وهيزل لعبة البلاك جاك على الطاولة، وبدل النقود استخدما أعواد الثقاب. تحسست هيزل ضفائر شعرها بأصابعها الوردية الممتلئة، بينما مصّ بيل خديه من الداخل، ووزع الأوراق بكثير من الجدية. عند حوض غسيل الأطباق كانت بورشيا تجفف الصحون بمنشفة نظيفة. بدت نحيلة وبشرتها بلونٍ أصفر ذهبي، وشعرها المدهون بالزيت مرتباً. جلس رالف بهدوء على الأرض، بينما حاول جورج وضع شيء فوقه مصنوع من شرائط زينة عيد الميلاد البراقة.

«إليك هذه الأحجية يا بورشيا. إن كان عقرب الساعة يشير إلى الثانية والنصف...».

دخلت ميك إلى الغرفة، وتوقعتهم أن يتحركوا، ويلتفوا حولها في حلقة، وينظروا إليها.

«ها قد عدتِ بعد انتهاء الجميع من تناول العشاء. يبدو لي أنّ عملي لن ينتهي أبداً».

لم يلاحظها أحد. تناولت صحناً كبيراً من الملفوف وسمك

السلمون، وأنهت عشاءها بالكسترد. كانت تفكر بأمّها، وفُتح الباب ودخلت أمّها لتخبر بورشيا أنّ غرفة الآنسة براون موبوءة ببق الفراش، وأنّه عليها إحضار البنزين.

«توقفي عن العبوس بهذه الطريقة يا ميك. أصبحتِ في عمرٍ يتوجب فيه عليك الاعتناء بنفسك، وأن تكوني بأفضل مظهر. انتظري، لا تقاطعيني عندما أتحدث إليك - حممي رالف قبل أن ينام، ونظفي أنفه وعينيه جيداً».

كان شعر رالف الناعم لزجاً بسبب عصيدة الشوفان. مسحت العصيدة عنه بمنشفة، وغسلت له وجهه ويديه في حوض غسيل الأطباق. أنهى بيل وهيزل لعبتهما، وأخذ بيل يخدش الطاولة بأظافره بينما التقط أعواد الثقاب. حمل جورج رالف إلى سريره، وبقيت ميك وبورشيا وحدهما في المطبخ.

«اسمعي! انظري إلي. هل تلاحظين أيّ اختلاف؟»

«بالتأكيد أرى اختلافاً يا عزيزتي».

وضعت بورشيا قبعتها الحمراء، وبدّلت حذاءها.

«حسناً-؟»

«فلتأخذي بعض الزيت ولتمسحي وجهك به. إن أنفك محروق بشدة وبدأ يقشر. يقولون إنّ الزيت أفضل دواء لحرق الشمس».

وقفت ميك وحيدة في الحديقة الخلفية للمنزل تقشّر بأظافرها قطعاً من جذع شجرة البلوط. كان الأمر أسوأ بكثير، ربما كانت لتشعر بشعورٍ أفضل لو أنهم نظروا إليها وعرفوا ما حدث. لو كانوا يعلمون فقط.

ناداها والدها الذي كان يقف أعلى الدرج الخلفي للمنزل.

«ميك، يا ميك!»

«أجل يا سيدي».

«هاتفٌ لك».

التصق بها جورج محاولاً الإصغاء إلى ما يقال على الهاتف، ولكنها دفعته بعيداً. كان المتصل السيدة مينويتز، وتحدثت بصوتٍ عالٍ ومتهدج.

«ابني هاري لم يعد إلى المنزل حتى الآن. هل تعرفين أين هو؟»

«لا يا سيدتي».

«قال بأنكما ستذهبان في رحلة على الدراجات. أين هو الآن؟ أتعلمين أين هو؟»

«لا يا سيدتي»، قالت ميك مجدداً.

مكتبة
t.me/t_pdf

-12-

عادت الأيام حارة مجدداً، واكتظ معرض ساني ديكسي طوال الوقت، وهدأت رياح آذار (مارس). بدت الأشجار كثيفة وأوراقها خضراء ضاربة إلى الصفرة، والسماء زرقاء صافية، وأشعة الشمس أقوى، أمّا الهواء فكان شديد الرطوبة. كره جيك بلاونت هذا الطقس، وأخذ يفكر بأشهر الصيف الطويلة والحارقة القادمة. لم يشعر بأنّه على ما يرام، ومؤخراً ابتلي بصداع أزعجه على الدوام، وازداد وزنه وأصبح بطنه أشبه بجرابٍ صغير، وتوجب عليه أن يحلّ الزر الأعلى لسرواله. كان يعلم أنّ هذه السّمنة ناجمة عن الكحول، ولكنّه استمر في الشرب. خفف الكحول من الألم في رأسه، وكان تناول كأسٍ صغير كفيل بجعل الألم أخف. في هذه الأيام أصبح كأس واحد من المشروب معادلاً للترِ. لم تكن المتعة في تلك اللحظة ناجمة عما شربه بل من مجموع الجرعات الكحولية الأولى التي تناولها قبلاً وتشبعت في دمه على مدار الشهور الأخيرة الماضية. كانت ملعقة صغيرة من الجعة كفيلة بتخفيف وجع رأسه، ولكن لتراً كاملاً من الويسكي لم يسكره.

توقف عن شرب الكحول تماماً، وعاش لعدة أيام على الماء ومشروب البرتقال الفوار. شعر بالألم كدودة تحفر رأسه. عمل بسأمٍ خلال فترات ما بعد الظهر وفي الأماسي الطويلة. لم يكن قادراً على النومِ، وأضنته كل محاولة قام بها لقراءة شيء ما، وأثارت حنقه الرائحة الرطبة والحامضة في الغرفة. يستلقي متوتراً على السرير، وعندما يغط في النوم أخيراً يكون ضوء النهار قد طلع.

طارده أحد الأحلام، وقد راوده للمرة الأولى منذ أربعة أشهر مضت. كان يستيقظ في رعب، ولكن الغريب في الأمر أنّه لم يتذكر مجريات هذا الحلم، ولم يبقَ منه سوى الشعور الذي أثاره في كل مرة فتح فيها عينيه. كانت مخاوفه عند الصحو متشابهة جداً، ولهذا لم يشك ولو للحظة أنّ الأحلام التي يراها متشابهة. اعتاد على هذه الأحلام، وعلى الكوابيس المريعة بعد الشرب، والتي كانت تقوده إلى حالة اضطراب مجنون، ولكنّ ضوء الصباح كان يتكفل بتبديد آثار هذه الأحلام الجنونية وينساها.

كان هذا الحلم الفارغ والعابر من طبيعة مختلفة، فعندما يستيقظ جيك لا يتذكر شيئاً منه، ولكنه يخلّف وراءه إحساساً بالخطر يستمر معه لوقتٍ طويل بعد أن يصحو. استيقظ في صباح أحد الأيام مع خوفٍ قديم وذاكرة بعيدة عن الظلمة التي عاش فيها مسبقاً. حلم أنّه يمشي بين حشدٍ من الناس، ويحمل شيئاً على ذراعه. كان هذا كل ما تذكره من الحلم. هل سرق شيئاً؟ هل كان يحاول حماية غرض ما؟ هل كان ملاحقاً من هؤلاء الناس حوله؟ لم تكن الأمور هكذا برأيه. فكلما درس هذا الحلم البسيط كلما فهمه بشكلٍ أقل، ولزمنٍ معين لم يعد يراوده هذا الحلم.

قابل جيك كاتب اللافتة الطباشيرية التي رآها في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي. ومنذ أول لقاء بينهما تعلّق به الرجل العجوز - المدعو سيمز - كداهية شرير. يلقي سيمز بالمواعظ على الأرصفة. يجبره البرد شتاءً على البقاء داخل المنزل، ولكنه يخرج في الربيع إلى الشوارع طوال اليوم. كان شعره الأبيض ناعماً ومبعثراً على رقبته، وحمل معه دفتر جيب نسائي الطراز بغلافٍ حريري وقد ملأه بالطباشير ومناشير عن المسيح. كانت عيناه لامعتين ومجنونتين. حاول سيمز أن يضمّ جيك إليه.

«يا أيها الطفل المكروب، أشمّ نتانة الجعة العاصية في أنفاسك، ودخان السجائر أيضاً. لو أرادنا الرب أن ندخن السجائر لكان ذكر هذا في كتابه. إن علامة الشيطان على جبينك، وأنا أراها، فلتتب. دعني أدلك إلى النور».

رفع جيك عينيه، ورسم إشارة ورعة بطيئة في الهواء، ثمّ فتح يده الملطخة بالزيت وقال في صوت مسرحي خفيض:

«سأكشف الأمر لك وحدك».

نظر سيمز إلى الندبة في باطن يد جيك. انحنى جيك قريباً منه وهمس: «وهذه هي العلامة الأخرى، العلامة التي تعرفها، فأنا ولدت مع هذه العلامات».

تراجع سيمز إلى السياج خلفه، وبحركة أنثوية أمسك بخصلة رمادية من غرته، وأرجعها إلى الخلف، وضحك جيك.

«مُجدّف»، صاح سيمز. «سينتقم الله منك ومن كل أتباعك. يتذكر الله الهازئين ويرعاني. الله يرعى الجميع، ولكنه يرعاني أكثر، كما رعى موسى. يخبرني الله بأمور في الليل وهو سينتقم منك».

أخذ جيك سيمز إلى المتجر عند زاوية الشارع ليبتاع له مشروباً غازياً ومقرمشات بزبدة الفستق. عاد سيمز إلى محاولة إقناعه مرة أخرى، وعندما غادر جيك متوجهاً إلى المعرض، لحقه سيمز راكضاً.

«تعال إلى هذه الزاوية ليلاً في الساعة السابعة، فالمسيح أرسل رسالة لك».

كان الوقت بداية شهر نيسان (أبريل) العاصف والدافئ مع غيوم بيضاء في السماء الزرقاء. ومع الريح انبعثت رائحة النهر ورائحة الحقول الغضة والقادمة من خارج البلدة. اكتظ المعرض كل يوم من الرابعة بعد الظهر وحتى منتصف الليل، وكان الحشد من النوع الصعب، ومع هذا الربيع الجديد شعر بقدوم متاعب في الأفق.

في إحدى الليالي وبينما عمل جيك على إحدى الأراجيح أيقظته من غفلته أصوات غاضبة، وبسرعة أخذ يتقدم بين الحشد إلى أن رأى فتاتين صغيرتين إحداهما بيضاء والأخرى سوداء عند كابينة قطع تذاكر لعبة الأحصنة الدوارة. فصل جيك بينهما، ولكنهما استمرتا في محاولتهما لاستئناف عراكهما. انحاز الحشد بين الفتاتين، وعمّ المكان هرجٌ ومرجٌ. كان ظهر الفتاة البيضاء محدودباً، وقد أحكمت على شيءٍ في يدها.

«لقد رأيتك»، صرخت الفتاة السوداء. «وسأضربك في ظهرك المحدودب أيضاً».

«فلتخرسي أيتها الزنجية!»

«يا فتاة المعامل المنحطة، لقد دفعت ثمن تذكرتي، وإنّه دوري لأركب. أيّها الرجل الأبيض أجبرها على إعادة تذكرتي».

«زنجية عاهرة!»

نقل جيك بصره بينهما، واقترب الحشد منهما أكثر، وعلت أصوات أناس يقدمون رأيهم فيما يحدث من الجانبين.

«رأيت التذكرة تقع من لوري، وتلتقطها هذه الفتاة البيضاء، هذه هي الحقيقة»، صاح أحد الفتيان السود.

«لن يضع زنجي يده على فتاةٍ بيضاء...»

«توقفي عن دفعي لأنني جاهزة لأضربك حتى لو كانت بشرتك بيضاء».

فرّق جيك الحشد الكثيف بصعوبة وصرخ:

«حسناً! تحركوا، تفرقوا، جميعاً».

هناك شيء ما في قبضتيه جعلت الناس يبتعدون على مهل. عاد جيك إلى الفتاتين.

«إليك ما حصل»، قالت الفتاة السوداء. «أراهنك على أنني الوحيدة من بين قلة من الناس ممن وفروا خمسين سنت حتى مساء يوم الجمعة. لقد قمت بكيّ ضعف ما أكويه هذا الأسبوع، ودفعت خمسة سنتات من أجل التذكرة التي تمسك بها في يدها، وأريد أن أركب الآن».

حلّ جيك الخلاف بسرعة بأن ترك الفتاة ذات الظهر المحدودب تحتفظ بالتذكرة، وقطع تذكرة أخرى للفتاة الملونة. لم يحدث أيّ شجار حتى نهاية الأمسية، ولكن جيك تنقل بين الحشود بحذر، كان يشعر بالاضطراب والضيق.

بالإضافة إلى جيك كان هناك خمسة موظفين آخرين في المعرض؛

رجلان يعملان على الأراجيح، واستلام التذاكر، وثلاث فتيات في كبائن قطع التذاكر، هذا من دون أن نذكر باترسون. قضى صاحب المعرض معظم الوقت في لعب الورق مع نفسه في مقطورته. كانت عيناه كامدتين وببؤبؤين ضيقين، تدلت رقبته في طيّاتٍ شحمية صفراء. وحصل جيك على زيادتين في الأجر خلال الشهور الأخيرة الماضية، ففي نهاية كل يوم عند منتصف الليل كانت مهمة جيك أن يقدم تقريراً إلى باترسون ويسلمه غلّة الأمسية. في بعض الأحيان لم يكن باترسون ينتبه إلى دخول جيك إلى مقطورته إلى أن تمر عدة دقائق على دخول الأخير، لأنّه غارق في حالة خدر، ويحدق في الأوراق أمامه. كان هواء المقطورة مُثقلاً بروائح الطعام وسجائر الحشيش النتنة. وضع باترسون يده على بطنه طوال الوقت، وكأنّه يحمي شيئاً ما بينما راجع الحسابات بشكل دقيق جداً.

وقع شجار بين جيك والعاملين الآخرين اللذين عملا في محلج القطن قبلاً. حاول جيك في البداية أن يتحدث إليهما، ويساعدهما على رؤية الحقيقة، ودعاهما مرة لتناول الشراب في صالة رقص، ولكنّهما كانا غبيين جداً، ولم يستطع مساعدتهما. بعد هذا بقليل سمعهما يتحدثان، وأدت هذه المحادثة إلى وقوع مشكلة. حدث الأمر في وقتٍ مبكر من صباح يوم الأحد عند الساعة الثانية عندما كان يراجع الحسابات مع باترسون، وعندما انتهيا خرج من المقطورة وبدا المكان خاوياً. كان ضوء القمر قوياً، وأخذ جيك يفكر بسينغر وبيوم العطلة القادم. وعندما اقترب من الأراجيح سمع أحدهم ينطق اسمه. كان العاملان قد انتهيا من عملهما ويدخنان معاً. أصغى جيك إلى حديثهما.

«إن كان هناك ما أكرهه أكثر من الزنجي فهو الشيوعي».

«إنّه يُضحكني، وهو لا يثير اهتمامي أبداً. والطريقة التي يتبختر فيها! لم أر قزماً مثله أبداً يمشي بهذه الطريقة. ما طوله برأيك؟»

«حوالي خمسة أقدام! لكنه يعتقد أنّ عليه إخبار الناس بأمورٍ كثيرة. يجب أن يوضع في السجن، فهناك مكان البلاشفة الحُمر».

«إنه يُضحكني، لا يمكنني النظر إليه دون أن أضحك».

«ليس هناك من داعٍ ليتصرف بتبجحٍ معي».

راقبهما جيك وهما يأخذان الطريقَ نحو زقاق النساجين.

كانت أول فكرة خطرت بباله هي اللحاق بهما، ومواجهتهما، ولكنه شعر بانقباض منعه من هذا. ولبضعة أيام أخذ يُدخن في صمت. وفي إحدى الليالي بعد انتهاء العمل لحق بالرجلين لبضعة شوارع، وعندما انعطفا عند إحدى الزوايا قطع عليهما الطريق.

«لقد سمعتكما»، قال بأنفاسٍ مبهورة. «سمعت كل كلمة قُلتماها ليلة السبت الماضي. بالتأكيد أنا شيوعي، أو أحسب نفسي شيوعياً على الأقل. ولكن من أنتما؟»

وقف الرجلان تحت ضوء مصباح الشارع، وابتعدا عنه. كان الحي خالياً من المارة.

«أيها الجرذان الجبانان ذوا الوجهين الشاحبين والشبيهين بأفراد عصابة الكريبس[1]! سأمسك بكما، وأخنقكما من رقبتكما النحيلتين بيديّ. وحتى إن ركضتما هرباً، سأمسك بكما، وألقي بكما على الرصيف وأضربكما إلى درجة سيضطرون فيها إلى رفعكما عن الأرض بالمجرفة».

نظر الرجلان إلى بعضهما مرتاعين، وحاولا أن يهربا، ولكن جيك لم يسمح لهما. كان يسبقهما بخطوة، وعندما حاولا متابعة المشي رجع خطوة إلى الوراء، وعلت وجهه نظرة ساخرة وغاضبة.

«كل ما أريد قوله لكما هذا: في المستقبل أقترح عليكما أن تأتيا إلي في كل مرّة تريدان فيها إبداء ملاحظات عن طولي ووزني ولهجتي وسلوكي وأيديولوجيتي. ولعلمكما أنا لا أستخف بالأخيرة. سنناقش الأمر معاً».

1- عصابة شوارع أمريكية بدأت في لوس أنجلس، كاليفورنيا عام 1969، وامتدت لاحقاً في أرجاء الولايات المتحدة. (المترجمة)

بعد هذا أخذ جيك يعامل الرجلين بازدراء غاضب، ومن وراء ظهره سخرا منه. وفي ظهيرة أحد الأيام اكتشف أنّ محرّك إحدى الأراجيح تمّ تخريبه عن عمد، واضطر إلى العمل ثلاث ساعات إضافية لإصلاحه. وشعر جيك على الدوام بأنّ أحداً ما يضحك عليه، وفي كل مرّة يسمع فيها حديث فتيات يتوقف، ويضحك بصوتٍ عالٍ دون اهتمام وكأنّه تذكر دعابة خاصة.

عبقت الرياح الجنوبية الغربية الدافئة والقادمة من خليج المكسيك بالروائح. أصبح النهار أطول، والشمس أكثر إشراقاً. أصابه هذا الدفء الذي يدعو إلى الخمول بالكآبة، وعاد إلى الشرب مجدداً. وعندما كان ينتهي من العمل يعود إلى المنزل، ويستلقي على سريره. كان أحياناً يبقى على سريره بكامل ثيابه دون أن يقوم بشيء لاثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة. ويدفعه القلق الذي يعتمل فيه إلى البكاء، وقضم أظافره، وهذا ما كان قد تجاوزه منذ عدة أشهر مضت.

ولكن تحت هذا الكسل شعر جيك بذلك القلق القديم. ومن بين كل الأماكن التي زارها كانت هذه البلدة الأكثر وحشةً على الإطلاق، إنّها كذلك حقاً لولا وجود سينغر الذي فهم الحقيقة. كان يعرف الحقيقة، ولكنّه لم يكن قادراً على دفع الجاهلين إلى رؤيتها. كان الأمر أشبه بمحاولة مقارعة الظلمة أو الحرارة أو النتانة في الهواء. كان يُحدق عابساً من النافذة، ولاحظ أنّ الشجرة القزمة التي سودها الدخان عند الزاوية طرحت أوراقاً جديدة بلونٍ أخضر ضارب إلى الأصفر، والسماء بلونٍ أزرق غامق وصافٍ، وغصّت الغرفة بالبعوض القادم من النهر النتن الذي يجري في هذا الجزء من البلدة.

أصيب بالحكة، ومسح جسمه كل صباح بمزيج الكبريت وشحم الخنزير. كان يحكّ بشدة، وبدا وكأنّ الحكة لن تهدأ. وفي إحدى الليالي أفلت العنان، فبعد أن شرب مزيجاً من الجن والويسكي، غدا ثملاً جداً. كان الوقت صباحاً تقريباً وأخرج رأسه من النافذة، وحدّق في

الشارع الهادئ والمظلم. فكر بكل الناس من حوله، بكل الناس النائمين والجاهلين بالحقيقة. وفجأة أخذ يصرخ بصوتٍ عالٍ:

«إليكم الحقيقة! أنتم لا تعرفون شيئاً أيّها اللقطاء. أنتم لا تعرفون، لا تعرفون».

استفاق الحي بغضب، وأضيئت المصابيح، ووصلته اللعنات الناعسة. وضرب الرجال الذين يعيشون معه في المنزل على بابه بعنف، وأخرجت عاهرات المبغى في الشارع المقابل رؤوسهنّ من النوافذ.

«لقطاء أغبيييييييييييياء. أغبييييييياء...»

«اخرس! اخرس!»

كان الرجال في الردهة يدفعون الباب.

«أيها الثور الثمل! سنجعلك أصمّ وأبكم عندما نضع يدنا عليك».

«ما عددكم؟» زأر جيك، وأخذ يضرب على زجاجة فارغة على عتبة النافذة. «تعالوا جميعاً. تعالوا جميعاً. سأقضي على ثلاثة منكم بضربة واحدة».

«أحسنت يا عزيزي»، صرخت إحدى العاهرات.

كان الباب قد بدأ يتهاوى، وقفز جيك من النافذة، وهرب من الزقاق الجانبي.

«مرحى! مرحى!» صرخ جيك ثملاً. ركض حافياً وعاري الصدر، وبعد ساعة وصل إلى غرفة سينغر. تمدد على الأرض، وضحك إلى أنّ غطّ في النوم.

في أحد صباحات شهر نيسان (أبريل) عثر على جثة شاب زنجي مقتول. وجده جيك في خندق على بعد ثلاثين ياردة من المعرض، وقد حُزّت رقبته، ومال الرأس في زاوية غريبة. التمع ضوء الشمس بحرارة في عينيه الكامدتين، وحام الذباب فوق دمه الجاف الذي غطى صدره. كان الرجل الميت يُمسك بعلبة حمراء وصفراء وذرة كالتي تُباع في كشك الهامبرغر في المعرض. حدق جيك بوجوم في الجثة لبعض الوقت، ثمّ استدعى الشرطة التي لم تعثر على أيّة أدلة. بعد مرور يومين استلمت عائلة القتيل جثته من المشرحة.

تكرر وقوع المشاجرات والمشادات في معرض ساني ديكسي. وفي بعض الأحيان يصل صديقان بذراعين متشابكين يضحكان ويشربان، وقبل أن يُغادرا المعرض يتشاجران في سعارٍ شديد. كان جيك متيقظاً على الدوام، فتحتَ البهرجة الصارخة للمعرض والأضواء الساطعة والضحك الهادئ شعر بشيء من التجهم والخطر في الأجواء.

خلال هذه الأسابيع المدوخة والمضطربة كان سيمز في أثره على الدوام. أحبّ الرجل العجوز القدوم إلى المعرض مع علبة صابون وإنجيل، والوقوف وسط الحشد ليعظ. تكلّم عن قيامة المسيح الثانية، وقال إنّ يوم القيامة سيكون في الثاني من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1951. أشار بالبنان إلى بضعة سكارى، وصرخ فيهم بصوتٍ خشن ومنهك. ملأت الحماسة فمه باللعاب، وخرجت كلماته رطبة ولها صوت الغرغرة. في إحدى المرات تسلل وأخذ موقعه، ولم يكن بالإمكان إزاحته من مكانه. قدّم إلى جيك هدية، وكانت عبارة عن إنجيل جدعون[1]، وطلب منه أن يركع ويصلي لساعة كل ليلة، ويلقي بكل كأس من الجعة أو سيجارة تُقدم له.

تجادلا بخصوص الجدران والأسيجة، وقد بدأ جيك بحمل الطباشير في جيوبه أيضاً. كتب جملاً قصيرة، وحاول أنّ يقولها بصوتٍ عالٍ حتى يتوقف عابرو الطريق، ويفكروا بمعناها، وحتى يتساءلوا ويفكروا. كتب منشوراتٍ أيضاً، ووزعها في الشوارع.

كان جيك يعلم أنّه لولا سينغر لما بقي في البلدة. ولم يشعر بالسلام سوى أيام الأحد عندما اجتمع بصديقيه. كانا يذهبان في نزهة على الأقدام أحياناً، أو يلعبان الشطرنج، ولكن في أغلب الأحيان يقضيان اليوم بهدوء في غرفة سينغر. وإن رغب بالتحدث أصغى إليه سينغر بانتباه. وفي حال

1- إنجيل يوضع في غرف الفنادق أو أماكن مشابهة لها من قبل منظمة مسيحية تدعى الجيدعونية وتشجع الناس على قراءة الإنجيل من خلال تقديم هذه النسخ. (المترجمة)

قرر جيك الجلوس متجهماً طوال اليوم لم يكن الأبكم ليستغرب بل يتفهم مشاعره. وبدا لجيك أنّ سينغر الوحيد القادر على مساعدته الآن.

وفي أحد أيام الأحد، صعد جيك الدرج، ورأى باب غرفة سينغر مفتوحاً. كانت الغرفة فارغة. جلس وحده لأكثر من ساعتين، وفي النهاية سمع صوت خطوات سينغر على الدرج.

«كنت أتساءل عن مكانك، أين كنت؟»

ابتسم سينغر، ونظّف قبعته بمنديل ثمّ وضعها جانباً، وأخرج القلم الفضي من جيبه، وانحنى فوق الموقد ليكتب ملاحظة.

«ما الذي تعنيه؟» سأل جيك عندما قرأ ما كتبه الأبكم. «من الذي قُطعت قدماه؟»

أخذ سينغر الملاحظة، وأضاف إليها جملاً إضافية.

«أها!» قال جيك. «هذا لا يُفاجئني».

أمسك قطعة الورقة وأخذ يُفكر ثمّ سحقها بيده.

اختفت حالة الخمول التي رافقته على مدار الشهر الماضي، وعاد إليه التوتر والقلق.

«أها!» كرر جيك.

وضع سينغر إبريق القهوة، وأخرج لوح الشطرنج. مزّق جيك الورقة إلى نتف، وكور بقاياها في باطن يديه المتعرقين.

«ولكن يمكن القيام بشيء حيال الأمر»، قال جيك بعد وهلة. «هل تعرف هذا؟»

هزّ سينغر رأسه بغير ثقة.

«أريد أن أرى الفتى، وأسمع كل قصته. متى يمكنك أن تأخذني إلى هناك؟»

أطرق سينغر مُفكراً، ثمّ كتب على دفترٍ. «الليلة».

رفع جيك يده إلى فمه، وأخذ يذرع المكان بقلق.

«يمكننا القيام بشيء».

-13-

انتظر جيك وسينغر على الشرفة الأمامية. عندما قرعا جرس الباب، لم يصدر للجرس صوت داخل المنزل المُظلم. طرق جيك الباب بنفاذ صبرٍ، ووضع أنفه على الباب الشبكي، بينما وقف سينغر بجانبه ثابتاً ومبتسماً، وقد علت وجنتيه بقعتان ملونتان، فقد شربا قبل قدومهما زجاجة من الجن. كانت الأمسية هادئة ومظلمة. راقب جيك المصباح الأصفر الخافت يتحرّكُ في الردهة. فتحت بورشيا لهم الباب.

«آمل أنكما لم تنتظرا طويلاً. يأتي الكثير من الزوار، اعتقدنا أنّه من الأفضل لو فصلنا جرس الباب. أيّها السيدان، سآخذ قبعاتكما. إن والدي مريض جداً».

مشى جيك بتثاقل على رؤوس أصابعه وراء سينغر عبر الردهة الفارغة والضيقة. وعند عتبة المطبخ توقفا لبرهة، فقد كانت الغرفة مكتظة وحارة. كان هناك موقد حطب صغير، وقد أغلقت النوافذ بإحكام. اختلط الدخان برائحة الزنوج المميزة. كان الوهج القادم من الموقد الذي كان مصدر النور الوحيد في الغرفة، وسكتت الأصوات الخفية التي سمعاها في الردهة قبل قليل.

«أتى رجلان أبيضان ليسألا عن صحة والدي»، قالت بورشيا. «أعتقد أنّه قادر على مقابلتكما، ولكن من الأفضل أن أذهب أولاً، وأحضره للقاء».

تلمس جيك شفته السفلى الغليظة بإصبعه، وفي نهاية أنفه هناك علامة شبكية بقيت على أنفه عندما وضعه على الباب الشبكي.

«هذا ليس السبب الذي أتينا من أجله»، قال جيك. «أتينا للتحدث مع أخيكِ».

وقف الزنوج في الغرفة، وأشار لهم سينغر بالجلوس مجدداً. جلس رجلان عجوزان أشيبان على المقعد بقرب الموقد. كان هناك خلاسي رخو الأطراف استلقى على الأريكة عند النافذة، وعلى سرير تخييم نقال في الزاوية هناك فتى من دون قدمين، وقد طويت أطراف سرواله السفلية، وثُبتت على فخذيه الممتلئين.

«مساء الخير»، قال جيك متلعثماً. «اسمك كوبلاند؟»

وضع الصبي يديه على نهاية قدميه المبتورتين، وانكمش على نفسه نحو الجدار.

«أدعى ويلي».

«لا تقلق يا عزيزي»، قالت بورشيا. «هذا السيد سينغر الذي سمعت أبي يتحدث عنه، وهذا الرجل الأبيض الآخر السيد بلاونت، وهو صديق مُقرّب من السيد سينغر. إنهما هنا للاطمئنان علينا بعد ما حدث». استدارت بورشيا نحو جيك، وأشارت إلى ثلاثة أشخاص في الغرفة.

«إنّ الفتى الآخر الذي يستند إلى الجدار أخي أيضاً، ويدعى بادي، أمّا الجالسان عند الموقد فهما صديقان مقربان من والدي، السيد مارشل نيكولز والسيد جون روبرتس. أعتقد أنّها فكرة حسنة أن يتعرف جميع من في الغرفة على بعضهم».

«شكراً»، قال جيك، ثمّ التفت إلى ويلي مجدداً. «أريد فقط أن تخبرني عمّا جرى حتى أفهم الأمر تماماً».

«هذا ما حدث»، قال ويلي. «أشعر أنّ قدماي تؤلماني حتى الآن. ينتابني وجعٌ مريع في أصابع قدمي، ولكن الألم في أسفل قدميّ حيث كانت قدماي لو أنّهما ما زالتا في رجلي، وليس حيث قدماي الآن. من الصعب فهم الأمر. قدماي تؤلمانني طوال الوقت، ولا أعرف أين هما،

فهم لم يعطوني إياهما بعد البتر. إنّهما بعيدتان، وفي مكان ما يبعد مئة ميل عن هنا».

«أعني فلتخبرني بما حدث»، قال جيك.

نظر ويلي إلى أخته بارتباك.

«لا أتذكر ما حدث بشكل جيد».

«بالتأكيد تتذكر يا عزيزي. لقد أخبرتنا للتو كل ما حدث».

«حسناً...» خرج صوت الفتى خفيضاً وحزيناً. «كنا ثلاثة نمشي على الطريق، ثمّ قال الفتى باستر شيئاً للحارس. قام الرجل الأبيض بضربه بالعصا، وحاول الفتى الآخر أن يهرب، ولحقت به. وحصل كل شيء بسرعة، ولا أتذكره جيداً. ثمّ أخذونا إلى القسم الخلفي من المعسكر و...»

«أعلم ماذا جرى بعد هذا»، قال جيك. «ولكن اعطني اسمَي وعنواني الرجلين الآخرين، واسمي الحارسين».

«اسمع أيّها الرجل الأبيض، يبدو لي أنك ستورطني في المتاعب».

«متاعب!» قال جيك بفظاظة. «ما الوضع الذي أنت فيه الآن بحق المسيح؟»

«فلنهدأ جميعاً»، قالت بورشيا بتوتر. «إليك الأمر يا سيد بلاونت. لقد أفرجوا عن ويلي قبل أن تنتهي مدة سجنه، ولكنهم ضغطوا عليه - أعتقد أنّك تفهم ما نعنيه. وبالتالي من الطبيعي أن يخاف ويلي، وأن نكون حذرين، لأنّ هذا أفضل شيء نقوم به. لقد نلنا ما يكفي من المتاعب حتى الآن».

«ما الذي حدث للحارسين؟»

«لقد طُرد الرجلان الأبيضان من عملهما، هذا ما أخبروني به».

«وأين صديقاك الآن؟»

«أيّ صديقين؟»

«الرجلين الآخرين».

«إنهما ليسا صديقي»، قال ويلي. «لقد تفرقنا».

«ما الذي تعنيه؟»

شدّت بورشيا قرطيها بقوة لدرجة أنّ شحمتي أذنيها تمددتا كالمطاط.

«ما يعنيه ويلي أنّه خلال الأيام الثلاثة التي قضوها في التعذيب نشب خلاف بينهم. لا يريد ويلي أن يلتقي بأي منهما مجدداً. تجادل أبي وويلي بخصوص هذا الموضوع، باستر...»

«لدى باستر قدم خشبية»، قال الفتى عند النافذة. «لقد رأيته في الشارع اليوم».

«لا يملك باستر عائلة، وقد كانت فكرة أبي أن ينتقل للعيش معنا. يريد أبي أن يجمعهما، ويلي وباستر. لا أعرف كيف سنتمكن من إطعامهما».

«هذه ليست بالفكرة الجيدة، علاوة على هذا، فهما لم يكونا صديقين قريبين جداً بأيّ حال». تحسس ويلي نهاية طرفه المقطوع بيديه السوداوين القويتين. «أريد فقط أن أعلم أين قدميّ. هذا الأمر الوحيد الذي يقلقني. لم يعدهما الأطباء إلي بعد البتر. أريد حقاً أن أعرف أين هما».

نظر جيك حوله بعينين دائختين من الجِن الذي احتساه. بدا كل شيء مشوشاً وغريباً. سببت له حرارة المطبخ الدوار، ولهذا أخذت الأصوات تتردد كصدى في أذنه. اختنق من الدخان، ورغم وجود مصباحٍ متدلٍ من السقف إلّا أنّه كان مُغلفاً بورق الجرائد لتخفيف حدة الإنارة، ولهذا أتت معظم الإنارة في الغرفة من شقوق الموقد. اكتست الوجوه حوله بوهجٍ أحمر، وشعر بالتوتر والوحدة. غادر سينغر الغرفة وذهب ليطمئن على والد بورشيا. مشى جيك بارتباك على الأرضية، وجلس على المقعد بين مارشال نيكولز وجون روبرتس.

«أين والد بورشيا؟» سأل جيك.

«إنّ الطبيب كوبلاند في الغرفة الأمامية يا سيدي»، قال روبرتس.

«هل هو طبيب؟»

«أجل يا سيدي، إنه طبيب بشري».

سُمعت أصوات أقدام على الدرج في الخارج، وفُتح الباب الخارجي. وخفف نسيم دافئ ومنعش من الخارج الهواء الثقيل في الداخل. دخل الغرفة أولاً فتىً طويل في بذلة كتانية، وحذاء ذهبي اللون يحمل كيساً على ذراعيه. لحق به شابٌ صغير بعمر السابعة عشرة تقريباً.

«أهلاً بكما يا هايبوي ولانسي»، قال ويلي. «ما الذي أحضرتماه لي؟»

انحنى هايبوي أمام جيك بحذر ووضع مرطبانين من النبيذ على الطاولة، ووضع لانسي طبقاً مغطى بمنديل ناصع البياض.

«هذا النبيذ هدية من الجمعية»، قال هايبوي. «وأرسلت والدة لانسي فطائر الدراق».

«كيف حال الطبيب آنسة بورشيا؟» سأل لانسي.

«كان مريضاً جداً في الأيام الماضية يا عزيزي. ما يقلقني أنّه قويّ جداً. عندما يغدو المريض قوياً فجأة فهذه إشارة سيئة». التفت بورشيا إلى جيك. «ألا تعتقد أنّها إشارة سيئة يا سيد بلاونت؟»

حدّق بها جيك مذهولاً وقال: «لا أعرف».

حدّق لانسي بعبوس نحو جيك، وأخذ يفك أزرار قميصه الداخلي وقال:

«أوصلي إلى الطبيب تحيات عائلتي».

«نقدر لكم هذا حتماً»، قالت بورشيا. «كان أبي يتحدث عنك منذ أيام. لديه كتاب يريد أن يعطيك إياه. انتظر قليلاً حتى أجلبه لك، وأغسل لك الطبق لتعيده إلى والدتك. لطفٌ منها أن ترسل هدية».

انحنى مارشال نيكولز نحو جيك، وبدا وكأنّه يتحدث معه. ارتدى الرجل العجوز سروالاً مُقلماً، ومعطفاً رسمياً مع زهرة في فتحة الزر. تنحنح وقال: «عفواً يا سيدي، لقد سمعنا جزءاً من حديثك مع ويليام بما يخص الورطة الذي هو فيها الآن، وقررنا المسار الذي يجب أن نأخذه».

«أأنت أحد أقرباءِه أو الواعظ في كنيسته؟»

«لا أنا صيدلاني، وجون روبرتس على يسارك موظف في دائرة البريد الحكومية».

«ساعي بريد»، قال جون روبرتس.

«من بعد إذنك...» أخذ مارشال نيكولز منديلاً حريرياً أصفر من جيبه، ونظّف أنفه بعناية. «لقد تباحثنا في الأمر، وكأحد أفراد العرق الأسود هنا في البلد الحر أمريكا، أقول لك أننا حريصون جداً حيال إقامة علاقات ودية».

«نأمل على الدوام بأنّ نقوم بالأمر الصائب»، قال جون روبرتس.

«نكافح بعناية ولا نريد تعريض هذه العلاقة الطيبة التي بنيت بعناية للخطر، وبالتالي وتدريجياً سيتحسن شرط هذه العلاقة».

نقل جيك بصره بينهما وقال، «يبدو أنني لا أفهمكما». خنقته الحرارة، وأراد أن يخرج، وشعر بغشاوة على عينيه بدت معها جميع الوجوه حوله مشوهة.

من الجهة المقابلة للغرفة عزف ويلي على الهارمونيكا، وأصغى إليه كل من بادي وهايبوي. كانت الموسيقى كئيبة وحزينة، وعندما انتهت الأغنية، قام ويلي بتلميع الهارمونيكا بطرف قميصه.

«أنا جائع وعطش فقد جفّ اللعاب في فمي بعد هذا العزف. سأُسر حقاً بتذوق إحدى فطائر الدراق، وأن أشرب شيئاً لذيذاً. هذا كفيل بأن يُنسيني البؤس. فقط لو أعرف مكان قدميّ الآن، ولن أمانع شرب كأس من الجِن كل ليلة».

«لا تقلق يا عزيزي، ستحصل على شيء لتأكله»، قالت بورشيا. «سيد بلاونت، هل تريد تناول فطيرة دراق وكأساً من النبيذ؟»

«شكراً»، قال جيك. «سيكون هذا أمراً جيداً».

وضعت بورشيا على عجل قطعة قماشٍ على الطاولة وجهزت طبقاً وشوكة، وملأت الكأس بالنبيذ.

«فلتأخذ راحتك هنا، سأذهب لأقدم الطعام والشراب للآخرين».

وتنقل مرطبان النبيذ من فمٍ إلى آخر، وقبل أن يصل إلى ويلي، استعار من بورشيا قلم حُمرة، ورسم خطاً أحمر ليحدد حد الشراب. علت أصوات قرقرة المشروب والضحك. أنهى جيك فطيرته وحمل كأس الشراب عائداً إلى كرسيه بين الرجلين العجوزين. كان النبيذ منزلي الصنع لذيذ وقوي. أخذ ويلي يعزف على قيثارته نغمة حزينة ومنخفضة، وفرقعت بورشيا أصابعها، وتنقلت في أرجاء الغرفة.

التفت جيك إلى مارشال نيكولز.

«هل والد بورشيا طبيب؟»

«أجل يا سيدي. إنّه كذلك حقاً. إنّه طبيب ماهر».

«ما خطبه؟»

حدّق الزنجيان ببعضهما بحذرٍ.

«لقد تعرض لحادث»، قال جون روبرتس.

«ما نوع هذا الحادث؟»

«حادث سَيِّئ ومريع».

طوى مارشال نيكولز منديله الحريري وأفرده.

«كما قلنا قبل قليل، من المهم بمكان ألاّ *نُفسد* هذه العلاقات الودية، بل علينا أن نشجع عليها بكل الطرق الممكنة حقاً. علينا، نحن أفراد العرق الأسود، أن نكافح بكل الوسائل لنُعلي شأن مواطنينا. إنّ الطبيب الذي نتحدث عنه كافح بكل الطرق المتاحة، ولكن يبدو لي أنّه نسي تماماً وجود عناصر معينة تجعل الأعراق والمواقف مختلفة».

تجرع جيك بنفاذ صبرٍ كل ما تبقى في كأسه.

«بحق المسيح فلتتكلم بشكل واضح يا رجل لأنني لم أفهم كلمةً مما قلت».

تبادل مارشل نيكولز وجون روبرتس نظرة مجروحة. كان ويلي ما يزال يعزف الموسيقى، وشفتاه تتحركان فوق الهارمونيكا كيراعات

كبيرة ومتغضنة. بدا كتفاه عريضين وقويين، وتحركت نهايات رجليه المبتورتين مع إيقاع الموسيقا. رقص هايبوي بينما صفق بادي وبورشيا مع الإيقاع.

وقف جيك، وأدرك أنّه ثمل حالما ثبت قدميه على الأرض. ترنح في مشيته، ثمّ حدّق بحقدٍ حوله، ولكن يبدو أنّ ما من أحد لاحظ هذا.

«أين سينغر؟» سأل جيك بورشيا بغلظةٍ.

توقفت الموسيقا.

«لمَ يا سيد بلاونت؟ اعتقدت أنك تعلم بأنه غادر. عندما كنت جالساً عند الطاولة تتناول فطيرة الدراق وقف السيد سينغر عند الباب، وأشار إلى ساعته وأنّ الوقت حان للمغادرة. نظرت نحوه، وهززت رأسك. اعتقدت أنك كنت تعلم».

«ربما كنت أفكر بشيءٍ آخر». ثمّ التفت إلى ويلي وقال له بغضب. «لم أخبرك بما أتيت لأقوله لك. لم آت لأطلب منك القيام بشيء. كل ما أردته - كل ما أردته أن تشهد أنت والرجلان بما حدث، وكنت سأشرح سبب طلبي هذا. إنّ الأمر الوحيد المهم هو سبب حدوث شيء وليس *الحدث* ذاته. كنت سآخذك في العربة إلى كل مكان لتخبر الجميع بقصتك، وبعدها كنت سأشرح لهم سبب حدوث ما حدث، وربما سيكون للأمر معنى ما. ربما...»

شعر جيك أنهم يضحكون عليه، وجعله الارتباك ينسى ما كان يريد قوله. امتلأت الغرفة بالوجوه السوداء الغريبة، وأصبح الهواء خانقاً أكثر وصار التنفس صعباً. رأى باباً، وتوجه نحوه مترنحاً. كان قد دخل إلى خزانة معتمة تفوح منها رائحة الأدوية، ثمّ وضع يده على مقبض باب آخر وأداره.

وقف جيك في مدخل غرفة صغيرة بيضاء فيها سرير معدني وخزانة وكرسيان فقط. استلقى على السرير ذلك الزنجي الرهيب الذي التقى

به على الدرج في منزل سينغر. بدا وجه الزنجي أسود جداً على الوسائد القاسية والبيضاء. اشتعلت عيناه السوداوان بالكره، ولكن بدت شفتاه الزرقاوان والغليظتان متماسكتين. كان وجهه خالياً من أيّ تعبير، وبدا كقناعٍ أسود باستثناء ارتعاش بطيء في منخريه الواسعين مع كل نفس أخذه.

«اخرج»، قال الزنجي.

«انتظر...» قال جيك بيأس. «لمَ تقول هذا؟»

«هذا منزلي».

لم يتمكن جيك من إبعاد عينيه عن وجه الزنجي الرهيب. «ولكن لماذا؟»

«أنت رجلٌ أبيض وغريب».

لم يُغادر جيك، ومشى بحذر شديد نحو أحد الكراسي البيضاء وجلس عليها. حرّك الزنجي يديه على اللحاف، والتمعت عيناه بتأثير الحمى. راقبه جيك وانتظر. طغى على الغرفة جو من التوتر وكأنّ مؤامرة تُحاك، أو كالهدوء القاتل قبل الانفجار.

***

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير، وحرّك النسيم الربيعي الليلي والدافئ طبقات الدخان في الغرفة في دوائر. تجمعت على الأرضية كراتٌ من الورق المجعد وزجاجات نصف فارغة من الجن، وتبعثرت ذرات الرماد على اللحاف. ضغط الطبيب كوبلاند رأسه بقوة على الوسادة. خلع رداءه الليلي، ورفع كُمي قميصه القطني الأبيض حتى مرفقيه. انحنى جيك في كرسيه إلى الأمام وحلّ ربطة عنقه وارتخت ياقة قميصه من العرق. خلال الساعات الماضية كانا قد انخرطا في حوارٍ طويل ومرهق، وقد حلّ الصمت الآن.

«إذاً لقد حان الوقت...» قال جيك.

ولكن الطبيب كوبلاند قاطعه.

«ربما أصبح من الضروري الآن أن...» ثمّ أخذ يتمتم بصوتٍ أجشّ. توقفا عن الحديث، ونظرا في عيون بعضهما وانتظرا. «عذراً»، قال الطبيب كوبلاند.

«آسف»، قال جيك. «فلتتابع».

«لا، تابع أنت».

«حسناً...» قال جيك. «لن أعيد ما قلته في البداية. بدلاً من هذا سيكون الحديث عن الجنوب آخر حديث بيننا، هذا الجنوب المخنُوق، الجنوب المقفر، الجنوب المستعبد».

«والشعب الزنجي».

وليثبت نفسه أخذ جيك جرعة طويلة وحارقة من الزجاجة بجانبه على الأرض، ثمّ توجه إلى الخزنة، وأمسك بكرة أرضية صغيرة من النوع الرخيص الذي يستخدم كثقالة ورق. وأدار الكرة بين يديه ببطء.

«كل ما يسعني قوله هو هذا: العالم موبوء بالحقارة والشر. أجل! ثلاثة أرباع هذا الكوكب في حالة حرب أو يرزح تحت القمع. اتحد الكاذبون والأشرار، وغدا الرجال الذين يعرفون الحقيقة في عزلة وعُزلاً من أيّ دفاع. ولكن لو طلبت مني أن أخبرك بأكثر البقاع همجية على وجه هذا الكوكب سأشير لك إلى هنا...»

«انتبه»، قال الطبيب كوبلاند. «فأنت تضع إصبعك على المحيط».

أدار جيك الكرة الأرضية مجدداً، وضغط إبهامه الغليظ والقذر على بقعة اختارها بعناية.

«هنا. ثلاث عشرة ولاية. أعلم ما الذي أتحدث عنه. أقرأ الكتب، وأطوف في الأرجاء. زرت جميع هذه الولايات اللعينة، وعملت في كل واحدة منها. أمّا السبب الذي يدفعني لاعتقاد ما قلته للتو فهو: إننا نعيش في أغنى بلد في العالم. هناك الكثير ويكفي كل محتاج، رجالاً ونساءً وأطفالاً. هذا دون أن نقول إن بلدنا تأسس على مبادئ حقيقية

وعظيمة وهو مبدأ الحرية والمساواة وضمان حقوق كل فرد. أجل! ولكن ما الذي تأتى عن هذا التأسيس؟ هناك فساد بمليارات الدولارات، ومئات الألوف من الجوعى، ولا يمكن أن تخطئ عينك الاستغلال في هذه الولايات الثلاث عشرة الكبيرة. رأيت على مدار حياتي أموراً كفيلة بإثارة جنون أيّ رجل. هناك ما لا يقل عن الثلث في الجنوب ممن يعيشون ويموتون كأحطّ فلاح في دولة أوربية فاشية. يصل متوسط الأجر للعامل في مزرعة مأجورة إلى ثلاثة وسبعين دولاراً في العام. هذا هو المعدل الوسطي! وتتراوح أجور الحصادين بين خمسة وثلاثين إلى تسعين دولاراً للشخص. وتعني خمسة وثلاثين دولاراً في العام عشرة سنتات لكل يوم عمل. وفي كل مكان تصاب الذرة بعدوى الحصاف والدودة الشصيّة التي تفتك بالأمعاء وتسبب فقر الدم، بالإضافة إلى المجاعة. ولكن! فرك جيك شفتيه بمفاصل يده القذرة، واستقرت حبات العرق على جبينه.

«ولكن!» أعاد ما قاله. «هذه الشرور الوحيدة التي تستطيع رؤيتها ولمسها، وما خفي أسوأ. أتحدث عن الطريقة التي أخفيت بها الحقيقة عن الناس، والأمور التي أخبروهم بها حتى لا يروا الحقيقة. تلك الأكاذيب السّامة حتى لا يعرفوا».

«والزنوج»، قال الطبيب كوبلاند. «حتى تفهم ما يحدث معنا عليك...»

قاطعه جيك بعنف.

«من يملك الجنوب؟ تملك الشركات في الشمال ثلاثة أرباع الجنوب. يقولون إنّ البقرة العجوز ترعى في كل مكان، في الجنوب والغرب والشمال والشرق، ولكنّها تُحلب في مكان واحد، وأنّ ضرعها العجوز يمتلئ في بقعة واحدة. إنها ترعى في كل مكان، ولكنها تُحلب في نيويورك. كل محالج القطن ومصانع الورق ومعامل الأدوات والمفارش بيد الشمال. وما الذي يحدث؟» ارتعش شارب جيك

بغضب. «سأعطيك مثالاً محلياً وهو منطقة المعامل التي تعمل وفق المنظومة الأبوية العظيمة للصناعة الأمريكية وملكية الأراضي أيضاً. يوجد في القرية معمل طوبٍ كبير وربما أربعمئة أو خمسمئة كوخ حقير، وهذه المنازل غير مناسبة لتحيا فيها الكائنات البشرية. علاوة على هذا بُنيت المنازل كبيوت فقراء بالدرجة الأولى، فهي لا تحوي أكثر من غرفتين أو ثلاث مع مرحاض، وقد بنيت على شاكلة حظائر الحيوانات. بنيت بأقل عناية وكأنّها حظائر خنازير. لا يمكنك أن تصنع شرائح لحم الخنزير والنقانق من أطفال المعامل النحيلين. لا يمكنك أن تبيع سوى نصف الناس هذه الأيام. ولكن...»

«انتظر!» قال الطبيب كوبلاند. «أنت تبتعد عن الموضوع الأساسي، وعلاوة على هذا أنت لا تولي اهتماماً لمسألة الزنوج المنفصلة عمّا تتكلم عنه. لا أفهم شيئاً من هذا الموضوع الجانبي. تحدثنا عن هذا الأمر مسبقاً، ومن المستحيل أن تتحدث عن الوضع بمجمله دون أن تكون قضية الزنوج جزءاً منه».

«بالعودة إلى قرية المعامل التي كنا نتحدث عنها»، قال جيك. «يبدأ العامل الشاب بالعمل بأجرٍ جيد يصل إلى ثمانية أو عشرة دولارات أسبوعياً، ويمكنه في هذا الوقت أن يحصل على عمل ويتزوج. ولكن بعد ولادة الطفل الأول، تضطر الزوجة إلى العمل في المصنع أيضاً. ويصل أجراهما معاً إلى ثمانية عشر دولاراً أسبوعياً. أجل! يدفعان ربع هذا الأجر كإيجار للكوخ التابع للمعمل، ويشتريان الطعام والثياب من متاجر تابعة للشركة أو من متاجر عامة، ويزيد المتجر من تسعيرة كل غرض. وبوجود ثلاثة أو أربعة أطفال لا يمكنهما أن يُحسّنا وضعهما وكأنهما مقيدان بالسلاسل. هذا هو مبدأ العبودية، ورغم هذا نقول عن أنفسنا هنا في أمريكا إننا أحرار. إنّ الغريب في الأمر أننا زرعنا في رؤوس الحصادين والعاملين في المحالج والجميع كل هذا، وهم يصدقون ما قيل لهم. ولكن تطلّب بقاءهم في حالة الجهل إخبارهم بالكثير من الأكاذيب».

«هناك مخرج واحد»، قال الطبيب كوبلاند.

«بل مخرجان، والمخرجان الوحيدان. بدأ هذا البلد بالتوسع في وقت ما، واعتقد كل رجل أنّه يملك فرصة. أجل! لكن هذه الفترة قد ولّت إلى الأبد. ابتلعت أقل من مئة شركة كل الفرص وتركت الفتات للبقية. امتصت الصناعات دم الناس وسحقت عظامهم وولت أيام التوسع. إن منظومة الديمقراطية الرأسمالية بأكملها عفنة وفاسدة، ولم يبق سوى طريقين، أولهما الفاشية، وثانيهما الإصلاح بأكثر أشكاله ثورية وديمومة».

«وماذا عن الزنوج؟ لا تنسَ الزنوج. وفيما يخصني ويخص شعبي أقول لك إن الجنوب فاشي الآن، وسيبقى كذلك».

«أجل».

«جرد النازيون اليهود من حقوقهم القانونية والاقتصادية والثقافية، ولطالما حُرم الزنوج من هذه الحياة أيضاً. وإن لم تقع سرقة كبيرة ومريعة للأموال والبضائع كما حدث في ألمانيا، فإنّ السبب يعود ببساطة إلى أنّ الزنوج حُرموا من امتلاك الثروة في المقام الأول».

«هذه هي المنظومة»، قال جيك.

«اليهود والزنوج»، قال الطبيب كوبلاند بمرارة. «تاريخ شعبي مُكافئ لتاريخ اليهود الطويل، ولكنّه أكثر دموية وعنفاً. هذا يشبه ما يحدث في نوع معين من النوارس. إن ربطت خيط قنب أحمر حول قدم أحد النوارس، فإن بقية السرب سينقره حتى الموت».

خلع الطبيب كوبلاند نظاراته، وأعاد وصل السلك المعدني حول الإطار المكسور، ثمّ نظّف العدسات بطرف ردائه الليلي. كانت يده تهتز من الانفعال.

«السيد سينغر يهودي».

«لا، إنك مخطئ».

«ولكنني متأكد من أنّه يهودي. اسمه يهودي، وعرفت أنّه يهودي مُذ

وقعت عيني عليه. الأمر واضح من عينيه. علاوة على هذا، لقد أخبرني أنه يهودي».

«لِمَ؟ لا يمكن أن يحدث هذا»، أصرّ جيك. «إنه أنغلوساكسوني حقيقي، إنّه إيرلندي أنغلوساكسوني».

«ولكن...»

«أنا واثق من هذا تماماً».

«حسناً»، قال الطبيب كوبلاند. «لن نتجادل في هذا الأمر».

أصبح الهواء في الغرفة أكثر برودة وقارب الوقت الفجر. كانت سماء الصباح بلونٍ أزرق غامق خفيف، وغدا لون القمر فضياً مائلاً إلى البياض. كان كل شيء هادئاً، باستثناء تغريدة صافية وحزينة لطائر ربيعي في العتمة خارجاً. ورغم النسيم الخفيف القادم من النافذة إلّا أنَّ الهواء في الغرفة نتن وثقيل، وساد جو من التوتر والتعب. انحنى الطبيب كوبلاند إلى الأمام بعيداً عن وسادته. احتقنت الدماء في عينيه، وأطبق قبضتيه على اللحاف، وانزلقت ياقة ردائه الليلي على كتفيه، وطوى يديه الضخمتين بين ركبتيه بطفولية وكأنّه ينتظر شيئاً. كان هناك دوائر سوداء تحت عينيه وشعره مشعث. نظرا إلى بعضهما وانتظرا. وكلما ازداد الصمت بينهما، اشتد التوتر في الأنحاء.

تنحنح الطبيب كوبلاند وقال:

«أنا واثق من أنك أتيت إلى هنا من أجل غاية ما، ومن أننا لم نناقش هذه المواضيع طوال الليل لمجرد النقاش بها. تحدثنا عن كل شيء باستثناء الموضوع الأهم، وهو المخرج وما علينا القيام به».

تابعا التحديق ببعضهما منتظرين، ولاح على وجه كل واحد منهما توقع شيئاً ما. جلس الطبيب كوبلاند باستقامة ووراءه الوسائد. أرجح جيك ذقنه على يده، وانحنى إلى الأمام. استمر الصمت، ثمّ وبتردد بدأا بالحديث في الوقت ذاته.

«عذراً»، قال جيك. «فلتتحدث».

«لا، تحدث أنت أولاً».

«فلتتحدث».

«اللعنة!» قال الطبيب كوبلاند. «تابع حديثك».

حدّق جيك نحو الطبيب كوبلاند بعينين غائمتين وغامضتين.

«هذا ما أرى عليه الوضع. إن الحل الوحيد أن يعرف الناس. عندما يعرفون الحقيقة لن يعودوا مُضطهدين. إن علم نصف الناس فقط بالحقيقة فسنربح المعركة».

«أجل، عندما يفهمون كيف يعمل مجتمعهم. ولكن كيف تقترح أن يعرفوا الحقيقة؟»

«اسمع»، قال جيك. «خطرت لي فكرة الرسائل المتسلسلة. إن أرسل كل شخص الرسالة إلى عشرة أشخاص، ثمّ كل واحد منهم أرسلها إلى عشرة أشخاص آخرين - هل فهمت؟» قال جيك بمداهنة. «هذا لا يعني أنني أكتب الرسائل، أقوم بما يشبه كتابة الرسائل. أتنقل في الأرجاء وأخبر الناس. وإن وصلت إلى بلدة، وأخبرت الحقيقة لعشرة أشخاصٍ جاهلين بها، عندها أشعر بشعور جيد. هل فهمت؟»

نظر الطبيب كوبلاند إلى جيك مدهوشاً، ثمّ أطلق صوتاً كالشخير وقال:

«لا تتصرف بطفولية! لا يمكنك أن تتجول هنا وهناك وتتحدث ببساطة. ماذا عن الرسائل المتسلسلة؟ هل أنت جاد؟ رسائل بين العارفين بالحقيقة والجاهلين بها!»

ارتعشت شفتا جيك، وبسبب غضبه المفاجئ بدا حاجباه منخفضين.

«حسناً، ما الذي تقترحه؟»

«أولاً، أقول لك إني مررت بما مررت به فيما يتعلق بهذه المسألة، ولكني تعلمت أن مثل هذا السلوك الذي تقترحه سلوك خاطئ، ولنصف قرنٍ اعتقدت أنّ الصبر حكمة».

«لم أقل لك أن تكون صبوراً».

«كنت شخصاً متعقلاً في وجه الوحشية، وحافظت على سلامي أمام الظلم، وضحيت بالكثير بين يدي من أجل الكُل المنافق. آمنت بالكلمة وليس بالعنف. وعلّمت أنّ الصبر والإيمان بالروح الإنسانية أفضل درع في وجه الاضطهاد. أدرك الآن كم كنت على خطأ، وأنا لم أكن خائناً بحق نفسي أو شعبي. هذا كله هراءً. حان وقت العمل والتصرف بسرعة. سنحارب المكر بالمكر، ونواجه القوة بالقوة».

«ولكن كيف؟» سأل جيك. «كيف؟»

«سننطلق، ونقوم بأمور. سنحشد الناس معاً، ونحثهم على التظاهر».

«أها! لقد فضحتك عبارتك الأخيرة - تحثّهم على التظاهر! ما فائدة حثّهم على التظاهر ضد شيء لا يعرفونه؟ هذا يشبه محاولتك حشو خنزير من مؤخرته».

«تزعجني مثل هذ التعابير السوقية»، قال الطبيب كوبلاند بتزمت.

«بحق المسيح! لا يهمني إن أزعجك التعبير أو لم يزعجك».

رفع الطبيب كوبلاند يده وقال:

«دعنا لا نحتد كثيراً، ولنحاول أن نتفق مع بعضنا».

«حسناً فأنا لا أريد التشاجر معك».

صمتا، ونظر الطبيب كوبلاند إلى السقف ناقلاً بصره من زاوية إلى أخرى. رطّب شفتيه بلعابه عدة مرات وكأنّه يريد أن يتحدث، ولكن في كل مرة لم تكتمل الكلمات في فمه، وقال أخيراً:

«إليك نصيحتي. لا تحاول أن تتصرف لوحدك».

«ولكن...»

«ولكن ماذا؟» قال الطبيب كوبلاند وكأنّه يعطي درساً. «أخطر شيء يُمكن أن يقوم به رجل هو أن يعمل وحده».

«أفهم ما الذي تحاول الوصول إليه».

رفع الطبيب كوبلاند ياقة قميص النوم فوق كتفيه النحيلين، وشدّها حول رقبته.

«هل تؤمن بصراع شعبي للحصول على حقوقهم البشرية؟»

إنّ انفعال الطبيب كوبلاند وسؤاله بصوتٍ لطيف وأجش جعلا عيني جيك تغرورقان بالدموع فجأة. ودفعته موجة حب مفاجئة إلى إمساك اليد السوداء النحيلة على اللحاف والإطباق عليها بسرعة.

«بالتأكيد»، قال جيك.

«وشدة عوزنا؟»

«أجل».

«وغياب العدالة؟ والظلم المرير؟»

سعل الطبيب كوبلاند، وبصق في قطعة ورقية مربعة أخذها من تحت وسادته.

«لدي برنامج مُركز ولكنه بسيط جداً، ويركز على هدف واحد. قررت أن أقود في آب (أغسطس) هذا العام أكثر من ألف زنجي في هذا البلدة في مسيرة إلى واشنطن. سنكون معاً كتلة واحدة متماسكة. إن بحثت في الخزانة ستعثر على مجموعة من الرسائل كتبتها هذا الأسبوع وسأسلمها شخصياً. نقل الطبيب كوبلاند يديه المرتعشتين أعلى وأسفل أطراف السرير الضيق».

«هل تتذكر ما قلته لك منذ برهة؟ هل تتذكر نصيحتي لك: لا تعمل لوحدك»

«فهمت»، قال جيك.

«وعندما تنخرط في الأمر يجب أن يكون أولويتك، القضية الأولى والأهم، وما ستفعله الآن وإلى الأبد. يجب أن تمنح نفسك من دون حدود، ودون أدنى أمل بأيّ مكسب شخصي ودون راحة أو حتى الأمل بالحصول عليها».

«من أجل حقوق الزنوج في الجنوب».

«في الجنوب وفي هذه الولاية بالتحديد. يجب أن يكون الهدف الحصول على شيء أو لا شيء على الإطلاق، إمّا أن نقول نعم أو لا».

أرجع الطبيب كوبلاند ظهره إلى الوراء على الوسادة. لم يبدُ حياً سوى في عينيه اللتين اشتعلتا في وجهه كقطعتي فحم مشتعلتين. وبسبب الحمى تورد خداه بلون أرجواني شديد. عبس جيك وعصر فمه الرقيق والعريض والمرتعش بمفاصل يده، وعاد لون وجهه الطبيعي. من الخارج بزغ أول شعاع خفيف لشمس الصباح، وتوهج المصباح الكهربائي المتدلي من السقف بحدة على خلفية السماء فجراً.

نهض جيك على قدميه، ووقف بثبات عند نهاية السرير، ثمّ قال بوهنٍ:

«لا هذه ليست الزاوية الصحيحة للأمر، وأنا واثق جداً أنّها ليست كذلك. فأولاً ستعجز عن الخروج من البلدة التي سيقضون عليها تحت ذريعة أنّها خطر على المصلحة العامة أو لأيّ سببٍ من الأسباب. سيعتقلونك ولن يعود للأمر فائدة، ولكن حتى وإنْ وقعت معجزة ووصلت إلى واشنطن فلن تحقق شيئاً، لماذا؟ لأنّ الفكرة بأكملها مجنونة».

خرج صوت خرخرة البلغم الحادة من حنجرة الطبيب كوبلاند، وكان صوته أجش:

«أنت تسخر وتستهجن بسرعة شديدة. ما البديل برأيك؟»

«لم أسخر»، قال جيك. «أشرت فقط إلى أنّ خطتك مجنونة. أتيت إلى هنا الليلة بفكرة أفضل من التي تقترحها. أريد ابنك ويلي والرجلين الآخرين حتى أضعهم في عربة، وأتنقل بهم في الأرجاء ليخبروا الجميع بما حدث لهم، وأنا بدوري سأخبر الناس عن سبب ما حدث. بعبارة أخرى، سأتحدث عن ديالكتيكيّة الرأسمالية، وأفضح كل أكاذيبها. سأشرح كل شيء حتى يفهم الجميع السبب وراء خسارة هؤلاء الرجال لأرجلهم حتى يدرك جميع من يراهم *الحقيقة*».

«هراء، هراء كبير!» قال الطبيب كوبلاند باهتياج.

«لا أعتقد أنك تملك حساً سليماً، ولم أسمع هراءً كهذا من قبل. لو كنت من هؤلاء الذين سيضحكون على ما أقوله لكنت ضحكت عليه حتماً».

حدّقا ببعضهما في خيبة أملٍ مريرة وغضب. تناهى من الشارع صوت طقطقة عربة، ابتلع جيك ريقه وعضّ على شفتيه.

«حقاً!» قال أخيراً. «أنت مجنون حقاً، وتفهم الأمور بالعكس. إن الطريقة الوحيدة لعلاج مشكلة الزنوج في ظل الرأسمالية هي بخصي جميع الزنوج الذين يبلغ عددهم خمسة عشر مليون زنجي في هذه الولايات».

«إذا هذه هي غايتك التي تخفيها تحت تشدقك بالعدالة».

«لم أقل إن هذا ما يجب فعله. قلت فقط إنك عاجز عن التمييز». تحدث جيك بعناية شديدة ومؤلمة. «يجب بدء العمل من الأسفل، وتحطيم التقاليد القديمة وتأسيس تقاليد جديدة، وبناء نموذج جديد للعالم يتحول فيه الإنسان لأول مرة إلى كائن اجتماعي يعيش في مجتمع منظم ومضبوط، حيث لا يضطر فيه إلى الظلم لينجو. علينا أن نبني تقليداً اجتماعياً...»

صفّق الطبيب كوبلاند بسخرية وقال:

«جيد جداً، ولكن قبل صنع الثياب يُقطف القطن. أنت ونظرياتك الغريبة غير المجدية...»

«اخرس! من يهتم إن كنت أنت وآلاف الزنوج معك ستحتشدون في ذلك المجرور الذي يدعى واشنطن؟ ما الفرق الذي سيحدثه هذا؟ ما أهمية بضعة أناسٍ- بضعة آلافٍ من السود والبيض، من الأخيار والأشرار عندما يكون مجتمعنا مبنياً على قاعدة من الأكاذيب السوداء».

«كل شيء»، لهث الطبيب كوبلاند. «كل شيء! كل شيء!»

«لا شيء!»

«لروح أكثرنا شرّاً وخسّةً على هذه الأرض قيمة أكبر في عين العدالة مما...»

«أوه! اللعنة عليها!» قال جيك. «هذا هراء!»

«أيّها المُجدّف!» صرخ الطبيب كوبلاند. «مُجدّف فاسد».

هزّ جيك قضبان السرير، وتضخم جداً الوريد في جبهته وكأنّه سينفجر، واربدّ وجهه غضباً.

«أيّها المتبجح قصير النظر».

«أيها الأبيض...» توقف الطبيب عن الكلام فقد خانه صوته. حاول أن يتحدث، ولكن لم يكن قادراً على إصدار صوت، وأخيراً خرج من فمه صوتٌ كهمسٍ مخنوق:

«شيطان».

دخل ضوء الصباح الأصفر من النافذة، وسقط رأس الطبيب كوبلاند على الوسادة، ورأسه منحنٍ في زاوية غريبة، وعلى شفتيه زبدٌ مع دم. نظر جيك إليه لآخر مرة، وبكى بعنفٍ ثمّ هرع خارجاً من الغرفة.

-14-

لم تعد ميك قادرة على البقاء في الغرفة الداخلية، فقد كان عليها أن تكون بصحبة أحدهم، وتقوم بشيءٍ ما طوال الوقت. وفي حال بقيت لوحدها كانت تقوم بالعدّ أو تفكر بالأرقام. تعدّ الأزهار على ورق الحائط في غرفة الجلوس، وحسبت المساحة المربعة لكل المنزل. وعدّت كل ورقة عشب في الحديقة الخلفية وكل ورقة شجيرة رأتها. وإن لم تكن تفكر بالأرقام اجتاحها خوفٌ رهيبٌ. وعندما تعود من المدرسة إلى المنزل في أيّة ظهيرة من شهر أيار (مايو) تشعر فجأة بضرورة التفكير بشيء ما بسرعة، أن تفكر بأمر جيد، جيد حقاً. كانت تفكر بمقطع من موسيقى الجاز السريعة، أو بصحن الهلام في البراد عندما تصل إلى المنزل، أو تخطط لتدخين سيجارة خلف مستودع الفحم، أو تحاول التفكير بالمستقبل البعيد، وبأنّها ستذهب شمالاً وترى الثلج أو تسافر إلى مكان ما في بلدٍ أجنبي، ولكن التفكير بأمور جيدة لم يدم طويلاً، فهي تلتهم الهلام خلال خمس دقائق والسيجارة لا تدوم طويلاً أيضاً. ولكن ماذا بعد؟ تختلط الأرقام في رأسها، ويرحل الثلج والبلد الأجنبي إلى مستقبل بعيد جداً. إذاً، ماذا هناك؟

«فقط السيد سينغر»، تقول ميك لنفسها.

اعتادت اللحاق به إلى كل مكان يذهب إليه. تراقبه صباحاً ينزل على الدرج الأمامي في طريقه إلى العمل، وتمشي خلفه مسافة نصف شارع. وعندما تنتهي من المدرسة بعد الظهر تتسكع عند الزاوية بالقرب من

المتجر الذي يعمل فيه. تخرج لتناول مشروب غازي في الساعة الرابعة، وتراقبه يعبر الشارع، ويدخل إلى الصيدلية ويخرج مجدداً، ثمّ تلحقه في طريق عودته إلى المنزل، وفي نزهاته أحياناً ولكن دون علمه بهذا.

في البداية وكلما صعدت إلى غرفته لتراه غسلت وجهها ويديها، ووضعت بعضاً من الفانيلا على القسم الأمامي من فستانها. لم تعد تزوره الآن سوى مرتين أسبوعياً، لأنّها لم ترده أن يملّ منها. وكلما فتحت باب غرفته رأته جالساً وأمامه لوح شطرنج غريب وجميل وتنضم إليه.

«سيد سينغر، هل عشت قبلاً في مكان تهطل فيه الثلوج شتاءً؟»

أرجع السيد سينغر كرسيه إلى الوراء، وهزّ رأسه.

«في بلدٍ مختلف عن هذا البلد - في بلدٍ أجنبي؟»

أومأ برأسِ إيجاباً، وكتب على دفتره بقلمه الفضي أنّه سافر إلى أونتاريو - كندا عبر النهر من ديترويت. تقع كندا في الشمال البعيد جداً حيث الثلج يكسو سقوف المنازل، وحيث يعيش التوأم الخماسي[1] ويجري نهر سانت لورنس، وحيث يمشي الناس في الشوارع ويتحدثون مع بعض بالإنكليزية والفرنسية، وفي أقصى شمال كندا توجد غابات كثيفة وبيوت من الجليد والأضواء القطبية الجميلة للمنطقة الشمالية.

«عندما كنت في كندا هل خرجت وأخذت بعض الثلج ثمّ تناولته مع الكريما والسكر؟ قرأت في مكان أنّ الثلج بهذه الطريقة لذيذ جداً».

التفت برأسه جانباً فهو لم يفهم ما عنته بسؤالها. لم تتمكن من طرح السؤال مرة أخرى لأنّها شعرت فجأة بأنّ سؤالها سخيف، واكتفت بالنظر إليه والانتظار. ارتسم ظلّ أسود وكبير لرأسه على الجدار خلفه. خففت المروحة الكهربائية من شدة الهواء الثقيل والحار، وعمّ الهدوء المكان، وكأنهما ينتظران بعضهما أن يبوحا بأمورٍ لم تُقل سابقاً. ما كانت تريد

1- أو توائم عائلة ديون، وهم أول حالة توأم خماسي (خمس فتيات) يتجاوز مرحلة الطفولة ويصل البلوغ بصحة جيدة. ولدت الفتيات الخمس في العاشر من أيار 1934 في كالاندر، أونتاريو. (المترجمة)

قوله له مريع ومخيف، وما كان سيقوله لها حقيقي جداً، وسيضع كل الأمور في نصابها. ربما مثل هذه الأمور لا تُقال بالكلمات، ربما عليه أن يدعها تفهم هذا بطريقة مختلفة. هذا ما شعرت به ميك معه.

«أسألك عن كندا فقط والأمر لا يتعدى هذا يا سيد سينغر».

تصاعد صوت جلبة كبيرة من الطابق السفلي. ما زلت إيتا مريضة جداً وعاجزة عن النوم مع ثلاثة في السرير. أسدلت الستائر في الغرفة وفاحت منها رائحة سيئة كرائحة المرض. تركت إيتا عملها، وهذا يعني أنّ مدخول البيت تراجع ثمانية دولارات أسبوعياً بالإضافة إلى أعباء أجور طبيبها. وفي أحد الأيام عندما كان رالف يمشي في المطبخ حرق نفسه بموقد المطبخ الحار، أصابته الضمادات بالحكة، ولهذا كان على أحدهم أن يراقبه طوال الوقت أو سيقوم بفقء البثور. اشتروا لجورج في عيد ميلاده دراجة حمراء مع جرس وسلة عند الموقد. ساهم الجميع في شراء هديته، ولكن عندما خسرت إيتا عملها لم يعودوا قادرين على الدفع، وبعد تخلفهم عن دفع آخر قسطين أرسل المتجر رجلاً إلى منزلهم ليستعيد الدراجة. راقب جورج الرجل وهو يجر الدراجة من على الشرفة، وعندما اقترب منه الرجل ركل جورج مصدّ الدراجة الخلفي، وذهب إلى مستودع الفحم وأغلق الباب.

كان الأمر متعلقاً بالمال على الدوام. تراكمت ديون البقالة، وتخلفوا عن دفع آخر قسط لبعض قطع الأثاث. وبما أنهم خسروا المنزل الآن فهم يعيشون فيه بالدين أيضاً. رغم أنّ الغرف الست في المنزل لم تشغر أبداً إلّا أنّ المستأجرين لم يدفعوا بانتظام.

اعتاد والدهم لفترة الخروج بحثاً عن عملٍ آخر، وهو لم يعد قادراً على القيام بأعمال النجارة لأنّ فكرة وقوفه على ارتفاع عشرة أقدام فوق الأرض تثير أعصابه. تقدّم لوظائف كثيرة، ولكن لم يوظفه أحد، ثمّ في النهاية خطرت له فكرة.

«الدعاية يا ميك»، قال لها. «وصلت إلى نتيجة أنّ كل ما يُهم في

العالم الآن عملي في تصليح الساعات. يجب أن أروج لعملي، يجب أن أخرج وأعلن عن نفسي ويعرف الناس أنني أصلح الساعات بشكل جيد ورخيص. راهني على كلامي هذا. سأبني هذا العمل، وسأكون قادراً على كسب ما يكفي هذه العائلة لتعيش حياةً جيدة لبقية حياتي. فقط من خلال الدعاية».

جلب والدها إلى المنزل مجموعة من رقائق القصدير وبعض الطلاء الأحمر، وكان مشغولاً جداً بشيءٍ ما طوال الأسبوع التالي معتقداً أنّ فكرته عظيمة جداً. امتلأت أرضية الغرفة الأمامية باللافتات، وركع على يديه ورجليه يكتب كل حرف بعناية شديدة. صفّر وحرّك رأسه بينما عمل، وهو لم يكن سعيداً ورائقاً كالآن منذ أشهر. وبين الفينة والأخرى يرتدي بذلته الجيدة، ويذهب لتناول كأس من الجعة ليهدئ نفسه. كتب على اللافتات الأولى:

ويلبر كيلي

تصليح ساعات

برخصٍ وخبرة كبيرة

«أريدها أن تكون مبهرة، وأن تلفت الأنظار في كل مكان يا ميك».

ساعدته ميك، وأعطاها خمسة عشر سنتاً لقاء العون الذي قدمته له. بدت اللافتات مقبولة في البداية، ولكنّ عندما بالغ بالعمل عليها بدت مشوهة، ورغب بإضافة الكثير من الأشياء في زواياها وأعلاها وأسفلها. وقبل أن ينتهي العمل عليها كان قد ملأها بعبارات «رخيص جداً» و«تعالوا على الفور» و«أعطوني أيّة ساعة وسأصلحها».

«بالغت في الكتابة على اللافتات، ولن يعود بوسع أحد قراءة شيء»، قالت له ميك.

اشترى المزيد من رقاق القصدير، وأوكلها مهمة تزيين اللافتات. كتبت ميك بخطٍ واضح وبأحرفٍ كبيرة جداً ورسمت صورة ساعة، وسرعان ما

أصبح أمام والدها كومة كبيرة من اللافتات. أقله أحد أصدقائه في سيارته في أنحاء المنطقة ليُعلّق اللافتات على الأشجار والأسيجة، وعند بداية ونهاية الشارع الذي يسكن وعلّق لافتتين رُسم عليهما يد سوداء تشير إلى المنزل، وكان هناك لافتة على الباب الأمامي للمنزل.

في اليوم التالي لوضع اللافتات انتظر في الغرفة الأمامية، وقد ارتدى قميصاً نظيفاً وربطة عنق. لم يحدث شيء. أرسل إليه الصائغ الذي اعتاد إرسال أعماله الإضافية بضع ساعات ليصلحها بنصف السعر، وكان هذا كل شيء. واجه الأمر بصعوبة، وتوقف عن الخروج بحثاً عن عمل، وشغل نفسه بأعمال منزلية طوال الوقت. فكّ الأبواب وقام بتشحيم المفاصل بغض النظر إن كانت بحاجة إلى تشحيم أو لا، وأعدّ السمنة لبورشيا، ومسح الطابق العلوي. واخترع آلة غريبة يمكن من خلالها تجفيف ماء البراد عبر نافذة المطبخ، وحفر على قطع خشبية أحرف الأبجدية من أجل رالف، واخترع آلة صغيرة لإدخال الخيط في الإبرة، وبذل قصارى جهده في إصلاح الساعات القليلة التي تصله.

لم تعد ميك راغبة بملاحقة السيد سينغر إلّا أنها استمرت بفعل هذا. أحسّت أنّ هناك خطباً ما في ملاحقتها له دون علمه بهذا. لعبت ميك الهوكي في المدرسة منذ يومين أو ثلاثة أيام، ومشت وراء السيد سينغر عند خروجه إلى العمل، وتسكعت عند الزاوية بالقرب من متجره طوال اليوم. عندما تناول غداءه في مطعم السيد برانن دخلت إلى المطعم وأنفقت خمسة سنتات على كيس من الفستق السوداني. لاحقته ليلاً في نزهاته الطويلة، وحرصت على ملاحقته من الجانب الآخر للشارع، وأبقت بينهما مسافة شارع. عندما كان يتوقف تتوقف أيضاً، وعندما يسارع خطاه تركض لتبقى في إثره. وما دامت قادرة على رؤيته والاقتراب منه كانت سعيدة، ولكن ينتابها أحياناً شعور غريب بأنّ ما تقوم به فعل خاطئ، ولهذا حاولت أن تشغل نفسها في المنزل.

إنّ ميك ووالدها متشابهان، وهما الآن مشغولان على الدوام بالعبث

هنا وهناك. تابعت ميك كل ما يحدث في المنزل وفي الحيّ. ربحت أخت سبيرريبس الكبيرة خمسين دولاراً في ليلة حزازير السينما، ونزعوا الضمادات عن رأس بيبي ويلسون ولكن بقي شعرها قصيراً كشعر الصبيان. لم تتمكن من الرقص في الحفلة الراقصة هذا العام. وعندما أخذتها أمّها لمشاهدة الحفل بدأت تصرخ وتتصرف بفظاظة خلال إحدى الرقصات، واضطروا إلى جرها خارج مبنى الأوبرا. واضطرت السيدة ويلسون إلى ضربها على الرصيف لتحسن التصرف، وبكت هي الأخرى أيضاً. كره جورج بيبي، وكلما مرّت بالقرب من بيتها رفع أنفه وأغلق أذنيه. هرب بيت ويلز من المنزل، وعاد بعد ثلاثة أسابيع حافياً ويتضور جوعاً، ثمّ أخذ يتبجح حول ذهابه إلى نيو أورلينز.

استمرت ميك بالنوم في غرفة الجلوس بسبب مرض إيتا، وتضايقت من النوم على الأريكة فاضطرت إلى تعويض ساعات النوم التي حرمت منها بالنوم في قاعة الدراسة في المدرسة. وبين الحين والآخر تتبادل مع بيل وتنام مع جورج، ثمّ حالفهم الحظ أخيراً، فأحد المستأجرين في الطابق العلوي انتقل. بعد مرور أسبوع على رحيله وعندما لم يُجب أحد على الإعلان الذي نشروه في الجريدة أخبرته والدته بأن ينتقل إلى الغرفة الفارغة. سُرّ بيل بفكرة أن يكون له مكان لوحده بعيد عن العائلة. انتقلت ميك إلى الغرفة مع جورج الذي نام كقطة صغيرة دافئة وتنفس بهدوء شديد.

عادت إليها تلك الحالات الليلية الغريبة، ولكنها لم تعد تشبه حالات الصيف الفائت عندما اعتادت على التنزه في العتمة وحدها والإصغاء إلى الموسيقى ووضع الخطط. لقد تغيرت الحالة التي تعيشها ليلاً، فهي الآن صاحية طوال الوقت في سريرها، وتشعر بفزع غريب وكأنّ السقف يضغط ببطء على وجهها. كيف سيكون الوضع لو تداعى المنزل؟ قال لها والدها في إحدى المرّات أنّ البيت بأكمله ملعون، هل عنى بكلامه أنّ الجدران في إحدى الليالي قد تتشقق ويتداعى البيت وهم نيام؟

هل سيُدفنون تحت الجص والزجاج المكسور والأثاث المُحطم؟ ألن يكونوا قادرين على الحركة أو التنفس؟ استلقت صاحية وقد تصلّبت عضلاتها. سمعت في الليل أصوات تصدع، هل أحدهم يمشي – هل يوجد أحد صاحٍ أيضاً؟ هل هو السيد سينغر؟

لم تفكر بهاري أبداً، فقد قررت أن تنساه، ونسيته بالفعل. كتب إليها قائلاً أنّه حصل على عملٍ في كراج في برمنغهام. أجابت على رسالته ببطاقة كتبت عليها «بخير» كما خطّطا. أرسل إلى أمّه ثلاثة دولارات أسبوعياً، وبدا أنّ وقتاً طويلاً قد مرّ منذ ذهابهما إلى الغابة سوياً.

انشغلت خلال النهار بالغرفة الخارجية، أمّا ليلاً فبقيت لوحدها في الظلام ولم يكن التفكير كافياً، فقد أرادت أحداً معها. حاولت أن تبقي جورج صاحياً معها.

«من الممتع حقاً أن يبقى المرء صاحياً ويتحدث في الظلام. دعنا نتحدث قليلاً».

وأجابها جواباً ناعساً.

«انظر إلى النجوم في السماء. يصعب التصديق حقاً أنّ كل نجمة من هذه النجوم كوكب كبير كالأرض».

«كيف اكتشفوا هذا؟»

«اكتشفوه وحسب، فهم يملكون أساليب قياس. هذا هو العلم».

«لا أؤمن به».

حاولت أن تغريه بالحديث عن حجة ما حتى يغضب ويظل صاحياً. تركها جورج تتحدث ولم يولها أيّ اهتمام. وقال بعد برهة:

«انظري يا ميك! أترين فرع الشجرة ذاك؟ ألا يبدو كأحد الرواد الأوائل يتسلق جبلاً ويحمل بندقية في يده؟»

«إنّه كذلك حقاً. يبدو كأحدهم تماماً. انظر إلى الخزانة هناك، ألا تبدو الزجاجة كرجلٍ مضحك يحمل قبعةً؟»

«لا»، قال جورج. «لا أراه كرجلٍ مضحك يحمل قبعة بيده».

أخذت رشفة ماء من الكأس على الأرض.

«لنلعب لعبةً سويةً، لعبة التسمية. يمكنك أن تكون أي شيء تريده، أيّ شيء تختاره. يمكنك الاختيار».

وضع قبضتيه الصغيرتين على وجهه، وتنفس بطريقة هادئة ومتوازنة وكأنّه يغطّ في النوم.

«مهلاً يا جورج!» «سيكون الأمر ممتعاً. أنا شخص ويبدأ اسمي بحرف الميم، فلتحزر من أنا».

تنهد جورج وخرج صوته متعباً.

«هل أنتِ هاربو ماركس[1]؟»

«لا، أنا لا أعمل في السينما».

«لا أعلم».

«بالتأكيد تعلم. يبدأ اسمي بحرف الميم، وأعيش في إيطاليا. عليك أن تحزر».

تقلّب جورج على جنبه، وتكور ككرة ولم يجب.

«يبدأ اسمي بحرف الميم، ولكن أدعى أحياناً باسم يبدأ بحرف الدال. أعيش في إيطاليا. يمكنك أن تحزر».

غرقت الغرفة في الصمت والعتمة، وغطّ جورج في النوم. قرصته ميك وشدّت أذنه، صدر عن جورج أنين إلّا أنّه لم يستيقظ. نامت بقربه، وضغطت بوجهها على كتفه الصغير العاري والدافئ. سينام جورج طوال الليل، وستسهر ميك وتفكر بالأرقام العشرية.

تساءلت إن كان السيد سينغر في الطابق العلوي صاحياً؟ وإن كان السقف يتصدع لأنّه يمشي بهدوء، ويتناول عصير البرتقال البارد، ويدرس قطع الشطرنج على الطاولة أمامه؟ وإن شعر السيد سينغر بهذا

1- ممثل إيمائي وكوميدي وموسيقي أمريكي. (المترجمة)

الخوف الرهيب الذي تشعر به في يومٍ من الأيام؟ لا، فهو لم يقترف أيّ خطأ. لم يقترف أيّ خطأ، وقلبه هادئ في الليل، ولكن رغم هذا سيفهم شعورها.

لو استطاعت إخباره عن هذا فقط، فستكون الأمور أفضل. فكرت بالطريقة التي ستخبره بها.

«سيد سينغر، أعرف فتاةً بمثل عمري - سيد سينغر لا أعلم إن كنت ستتفهم أمراً كهذا أو لا. سيد سينغر - سيد سينغر» كررت اسمه مراراً، فقد أحبّته أكثر من أي فردٍ من عائلتها، أكثر من جورج أو والدها. إنّه حبٌّ من نوعٍ آخر، ولا يشبه أيّ شيء شعرت به قبلاً.

عندما يحلّ الصباح ترتدي ثيابها هي وجورج ويتحدثان. أرادت في بعض الأحيان أن تكون قريبةً جداً من جورج. لقد كبر جورج وازداد طوله وشحوبه، وانسدل شعره الناعم والضارب إلى الحمرة فوق أطراف أذنيه. يزرّ عينيه على الدوام لدرجة أن وجهه اكتسب مظهراً مجهداً. وخرجت أسنانه الدائمة، ولكنها بدت زرقاء ومتباعدة كأسنانه اللبنية. غالباً ما بدا فكّه مائلاً بسبب عادته في تحسس بروز كل سنٍ جديد بلسانه.

«اسمعني يا جورج»، قالت ميك. «هل تحبني؟»

«بالتأكيد أحبك».

كانت صباحات الأسبوع الأخير من المدرسة حارة ومشمسة. بعد انتهاء جورج من ارتداء ثيابه يجلس على الأرض ويؤدي وظائفه ضاغطاً بأصابعه الصغيرة القذرة على قلم الرصاص الذي يستمر بكسر رأسه المدبب. وعندما ينتهي من أداء وظائفه تمسكه من كتفيه، وتنظر بإمعان إلى وجهه.

«أعني تحبني كثيراً، كثيراً جداً».

«دعيني وشأني. أنا أحبك، ألستِ شقيقتي؟»

«أعلم، ولكن لنفرض أنني لست شقيقتك. هل كنت لتحبني؟»

تراجع جورج إلى الوراء. لم يعد لديه قمصان ولذلك ارتدى سترة صوفية قذرة.

كان معصما جورج نحيلين وعروقهما الزرقاء بارزة، وقد توسَّع سوار أكمام السترة الصوفية وارتخت وهذا جعل يديه تبدوان صغيرتين جداً.

«لو لم تكوني أختي لم أكن لأعرفك، وبالتالي لن أحبّك».

«ولكن ماذا لو كنت تعرفني ولكن لم أكن أختك».

«ولكن كيف تعرفين أنني كنت سأعرفك؟ لا يمكنك إثبات هذا».

«حسناً، فلتعتبر الأمر شيئاً مُسلماً به ولتتظاهر».

«أعتقد أنني كنت لأحبك، ولكنني مصرّ على أنك غير قادرة على إثبات...»

«إثبات! تشغل بالك بهذه الكلمة كثيراً بالإضافة إلى كلمة خديعة. بالنسبة إلي كل شيء خدعة أو يحتاج إلى إثبات. لا أتحملك يا جورج كيلي. أكرهك».

«حسناً. إذاً لا أحبك أيضاً».

زحف جورج تحت السرير يبحث عن شيءٍ ما.

«ما الذي تبحث عنه؟ من الأفضل ألّا تعبث بالأشياء. إن رأيتك تعبث بصندوقي الخاص سأضرب رأسك بالحائط. سأفعل هذا، وسأدوس عليه أيضاً».

خرج جورج من تحت السرير حاملاً كتاب التهجئة، ثمّ مدّ يده الصغيرة القذرة إلى فتحة في الحشية كان قد خبأ فيها كراته الزجاجية. لا شيء ينكد على ذلك الفتى الذي أخذ وقته في انتقاء ثلاثة أحجار بنية ليأخذها معه.

«اللعنة يا ميك»، أجابها.

كان جورج صغيراً جداً ولكنه قوي جداً أيضاً. إنّ الوقوع بحبه غير منطقي، فقد كانت معرفته بالأمور أقل من معرفتها هي.

انتهت المدرسة ونجحت ميك في كل المواد، حصلت في بعضها على درجة ممتاز جداً، وبالكاد نجحت في مواد أخرى. غدا النهار أطول وأكثر حرّاً، وتمكنت أخيراً من العمل بجد على الموسيقى مجدداً. بدأت تكتب قطعاً موسيقية على الكمان والبيانو، وكتبت أغاني أيضاً. لطالما صدحت الموسيقا في رأسها، واستمعت إلى مذياع السيد سينغر، وتجولت في أرجاء المنزل تفكر بالبرامج التي سمعتها.

«ما الذي يؤلم ميك؟» سألت بورشيا. «ما الذي تخفيه؟ أصبحت تتجول في الأرجاء دون التفوه بكلمة واحدة. وهم لم تعد جشعة كما كانت قبلاً بل وتتصرف كسيدة حقيقية مؤخراً».

بدا وكأنّها تنتظر شيئاً، ولكنها لم تعرف ما الذي كانت تنتظره. كان ضوء الشمس في الشوارع أبيض وحاراً ومبهراً. خلال النهار عملت ميك على موسيقاها أو لعبت مع الأطفال وانتظرت. أحياناً كانت تنظر في الأرجاء بسرعة ويجتاحها ذلك الرعب القديم، ولكن في أواخر شهر حزيران (يونيو) وقع أمر جلل غيّر كل شيء.

في تلك الليلة جلس الجميع على الشرفة في ضوء الغسق الضبابي والهادئ. كان العشاء شبه جاهز، وفاحت رائحة الملفوف في الردهة المفتوحة. اجتمع جميع من في المنزل باستثناء هيزل التي لم تعد بعد من العمل، وإيتا التي ما زالت مريضة. أراح والدهم ظهره على الكرسي ورفع قدمين بجوربين على الدرابزين. جلس بيل على الدرج مع الأطفال، وجلست أمهم على الأرجوحة وبيدها مروحة مصنوعة من ورق الجرائد. وفي الشارع تزلجت فتاة جديدة على الحي بزلاجاتها على طول الشارع. أُشعلت الأضواء في الشارع للتو، ومن بعيد سُمع صوت رجلٍ ينادي أحدهم.

عادت هيزل إلى المنزل وطقطقت بكعب حذائها على الدرج ثمّ استندت بكسلٍ إلى الدرابزين. بدت يديها، عندما رفعتهما لتتلمس شعرها المضفور، بيضاوين جداً في الظلام.

«أتمنى حقاً لو أنّ إيتا قادرة على العمل»، قالت هيزل. «لقد عثرت عل عمل جيد اليوم».

«ما نوع هذا العمل؟» سأل والدها. «هل يمكنني القيام به أو للفتيات فقط؟»

«عمل للفتيات فقط. إحدى الموظفات في وولـورث ستتزوج الأسبوع القادم».

«متجر... أيّ شيء بعشرة سنتات...» قالت ميك.

«هل يهمك الأمر؟»

فاجأها السؤال، فلقد انشغلت بالتفكير في كيس الحلوى الشتوية الخضراء التي اشترتها من هناك البارحة. شعرت بحرارة وتوتر، ثمّ رفعت غرتها إلى الأعلى بعيداً عن جبهتها، وبدأت تعدّ النجوم القليلة التي أخذت تبزغ في السماء.

قذف والدهم بسيجارة على الرصيف وقال:

«لا، لا نريد أن يقع على عاتق ميك الكثير من المسؤوليات وهي بهذا العمر. يجب أن تكبر، أن تعيش سنين نموها».

«أتفق معك»، قالت هيزل. «أعتقد أنّ عمل ميك سيكون خطأً. لا أعتقد أنّ الأمر صائب».

رفع بيل رالف عن حضنه، وجرّ قدميه على الدرج.

«لا يجب أن يعمل أحد دون السادسة عشر من العمر. ما زال أمام ميك عامان، وستنهي دراستها في مدرسة فوكيشنال إن دبرنا أمورنا».

«حتى لو اضطررنا إلى التخلي عن المنزل، والانتقال إلى منطقة المصانع»، قالت أمهم. «أريد أن تبقى ميك في المنزل لبعض الوقت».

ولوهلة شعرت ميك بالخوف من أن يجبروها على العمل، وكانت ستقول لهم لو أجبروها أنّها ستهرب من المنزل. ولكنها تأثرت بالطريقة التي تعاملوا فيها مع الموقف، وشعرت بالحماسة، فالجميع يتحدث

عنها بطريقة لطيفة أيضاً. شعرت بالخجل من نفسها لأنّها فزعت في البداية، وفجأة اجتاحها حبٌ لجميع أفراد عائلتها، وشعرت بضيقٍ في حنجرتها.

«وكم يدفعون؟»

«عشرة دولارات».

«عشرة دولارات أسبوعياً؟»

«بالتأكيد»، أجابت هيزل. «هل اعتقدت أنّ العشرة دولارات راتب شهر؟»

«تجني بورشيا عشرة دولارات أيضاً».

«الملونون...» قالت هيزل.

فركت ميك أعلى رأسها بقبضتها.

«هذا مالٌ كثير. إنّها صفقة جيدة».

«إنّها لا تستحق التعب»، قال بيل. «فأنا أجني عشرة دولارات أسبوعياً».

جفّ لسان ميك، ولذا أخذت تحركه في فمها حتى يخرج لعابٌ كافٍ ويسمح لها بالكلام.

«عشرة دولارات أسبوعياً ثمن خمس عشرة دجاجة مقلية، أو خمسة أزواج من الأحذية أو خمس فساتين أو قسط مذياع». وفكرت بالبيانو، ولكنها لم تصرح به علناً.

«سيساعدنا هذا المبلغ»، قالت أمهم. «ولكن من الأفضل أن تبقى ميك في المنزل لبعض الوقت قبل أن تبدأ العمل، وبما أنّ إيتا الآن...»

«انتظري!» قالت ميك بحماس وتهور. «أريد أن آخذ العمل، وسأبلي فيه جيداً. أعلم أنني أستطيع».

«فلتسمعوا ما تقوله ميك الصغيرة»، قال بيل.

أخذ والدهم ينكش أسنانه بعود ثقابٍ، وأنزل قدميه عن الدرابزين.

«دعونا لا نستعجل شيئاً. أفضل أن تأخذ ميك وقتها وتفكر بالأمر. يمكننا أن نعيش من دون اضطرارها إلى العمل. أعني أنني أستطيع أن أزيد من عملي في إصلاح الساعات إلى ستين بالمئة تقريباً حالما...»

«لقد نسيت»، قالت هيزل. «أعتقد أنهم يمنحون علاوة في عيد الميلاد كل عام».

عبست ميك.

«ولكنني لن أعمل لديهم وقتها لأنني سأكون في المدرسة. أريد أن أعمل خلال العطلة فقط ثمّ أعود إلى المدرسة».

«بالتأكيد»، عجلت هيزل بقولها.

«ولكنني سأرافقك غداً، وأبدأ العمل إن حصلت عليه».

بدا وكأنّ جواً من القلق والضيق خيّم على العائلة. وفي العتمة ضحكوا وتحدثوا، وقام والدهم بخدعة أمام جورج باستخدام أعواد الثقاب ومنديل، ثمّ أعطاه عشرة سنتات ليشتري مشروباً غازياً بعد العشاء من المتجر عند الزاوية. ازدادت رائحة الملفوف قوةً في الردهة، واختلطت برائحة شرائح لحم الخنزير المقلية. نادتهم بورشيا، وكان المستأجرون بانتظارهم حول الطاولة. تناولت ميك العشاء في غرفة تناول الطعام. بدت أوراق الملفوف على طبقها رخوة وصفراء، ولم تستطع تناولها، وعندما مدّت يدها لتأخذ قطعة خبز أوقعت إبريق الشاي المثلج عن الطاولة.

لاحقاً انتظرت ميك عودة السيد سينغر على الشرفة الأمامية فقد أرادت رؤيته بشدة. لقد تراجعت شدة الحماسة التي شعرت بها في الساعة الماضية وشعرت بالغثيان. ستعمل في متجر «أيّ شيء بعشرة سنتات»، دون أن يكون لديها رغبة بهذا. شعرت وكأنّها وقعت في شركٍ ما. لن يكون عملها خلال الصيف فقط بل لوقتٍ أطول، طويل حتى المستقبل الذي تراه أمامها. فعندما يعتاد أهلها على زيادة المال

سيغدو من المستحيل أن يعيشوا من دونه مجدداً. هكذا تجري الأمور هنا. وقفت في العتمة، وأطبقت يديها على الدرابزين. مرّ وقتٌ طويل، ولم يعد السيد سينغر إلى المنزل بعد. وفي تمام الساعة الحادية عشرة خرجت لتبحث عنه، ولكن شيئاً ما أرعبها فجأة وسط العتمة، وركضت هاربة إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي استحمت وارتدت ثيابها بعناية فائقة. أعارتها كل من هيزل وإيتا ملابس لترتديها، وقامتا بتجعيد شعرها حتى تبدو حسنة المظهر. ارتدت فستان هيزل الحريري الأخضر وقبعة خضراء وحذاءً بكعبٍ عالٍ مع جوارب حريرية. وضعت أختاها على وجهها حمرة خدود وأحمر شفاه، ونتفن لها حاجبيها. وعندما انتهت هيزل وإيتا من العمل عليها بدت ميك أكبر بستة عشر عاماً.

فات الأوان الآن على التراجع، فهي قد كبرت حقاً، وأصبحت جاهزة لجني لقمة عيشها. لو ذهبت إلى والدها، وأخبرته بما تشعر به لقال لها أن تنتظر عاماً آخر، وستقول لها هيزل وإيتا وبيل وأمّها إنه ليس عليها الذهاب الآن، ولكنّها لم تستطع القيام بهذا، لم تكن قادرة على فقدان ماء وجهها بهذه الطريقة. ذهبت لترى السيد سينغر، وخرجت الكلمات من فمها بعجلٍ:

«اسمع - أعتقد أنني سأحصل على هذا العمل. ما رأيك؟ هل هذه فكرة جيدة برأيك؟ هل تعتقد أنّ تركي للمدرسة والعمل الآن فكرة جيدة؟ هل تعتقد هذا؟»

لم يفهم عليها في البداية وأسدل جفني عينيه الرماديتين إلى النصف. وقف ويداه غارقتان في جيبيه. كان هناك شعور قديم لم يبوحا به قبلاً، وانتظرا البوح به لبعضهما الآن. لم تكن تريد قول الكثير وهو بالمقابل سيقول لها ما هو صائب. ولو قال لها إنَّ فكرة العمل جيدة، لشعرت بشعورٍ أفضل حياله. أعادت كلماتها ببطء وانتظرت.

«هل تعتقد أنّها فكرة جيدة؟»

أطرق السيد سينغر مفكراً، ثمّ هزّ رأسه إيجاباً.

حصلت ميك على العمل. أخذها مدير المتجر مع إيتا إلى المكتب وتحدث معهما. بعد انتهاء المقابلة لم تكن قادرة على تذكر شكل المدير أو أيّ شيء قيل. لقد وظفت، وفي طريقها خارج المتجر اشترت شوكولا بقيمة عشرة سنتات ومجموعة من معجون اللعب لجورج. ستبدأ العمل في الخامس من حزيران (يونيو). وقفت لوقتٍ طويل أمام نافذة متجر المجوهرات الذي يعمل فيه السيد سينغر ثمّ تسكعت عند الزاوية.

-15-

مكتبة
t.me/t_pdf

حان الوقت ليزور سينغر أنتونوبوليس مرة أخرى. كانت الرحلة طويلة، فعلى الرغم من أنّ المسافة بينهما لم تتجاوز المئتي ميل إلّا أنّ للقطار محطات في نقاط بعيدة عن الطريق، وتوقف لساعاتٍ طويلة في بعض هذه المحطات خلال الليل. سيغادر سينغر البلدة بعد الظهر وسيسافر طوال الليل حتى يصل في الصباح الباكر من اليوم التالي. وكعادته فهو يجهز نفسه للسفر مسبقاً. وفي هذه المرة خطط سينغر لقضاء أسبوع كامل مع صديقه. أرسل ثيابه إلى المصبغة وجهز قبعته وحقائبه، ولفّ الهدايا التي سيحملها في ورقٍ رقيق ملون، وأخذ معه سلّة كبيرة من الفواكه مغلفة بورق السيلوفان، وصندوقاً من الفراولة الموصى عليها مسبقاً. في الصباح السابق لسفره نظف سينغر غرفته. عثر في براده على بقايا كبد الأوز، فأخرجه وأطعمه لقط الجيران. ووضع على باب غرفته اللافتة ذاتها التي وضعها قبلاً مشيراً إلى أنّه سيغيب لبضعة أيام في عمل. خلال التحضيرات تحرّك بروية وبوجهٍ نابض بالحياة، وبدا وجهه رزيناً جداً.

وأخيراً حانت ساعة السفر. وقف على رصيف المحطة مع الحقائب والهدايا يراقب القطار وهو يلتف على السكة الحديدية. عثر لنفسه على مقعد في العربة النهارية، ووضع حقائبه على الرف فوق رأسه. كان القطار مكتظاً بالمسافرين ومعظمهم من الأمهات والأطفال. فاحت من المقاعد الخضراء الفاتحة رائحة قذرة، وبدت النوافذ قذرة أيضاً. هناك بقايا أرزٍ نُثر في عرسٍ حديث على الأرضية. ابتسم سينغر بودٍ للمسافرين

معه، وأراح ظهره على المقعد ثمّ أغلق عينيه. ألقت رموشه السوداء ظلالاً كحوافٍ متعرجة فوق خديه، وحرّك يده اليمنى بتوترٍ في جيبه.

استقر تفكيره لبعض الوقت بالبلدة التي يغادرها. فكر بميك والطبيب كوبلاند وجيك بلاونت وبيف برانن، وفي العتمة احتشدت هذه الوجوه معاً وشعر بأنّه يختنق. فكر بالجدال الذي وقع بين بلاونت والزنجي، وشعر بالحيرة الشديدة حيال طبيعة هذا الجدال. ولكن في مناسبات عديدة انخرط كل من الرجلين في تقريعٍ مرير للآخر الغائب. اتفق سينغر مع كل واحد منهما رغم أنّه لم يعرف ما الذي يريدانه أن يوافق عليه. وفكر بميك ووجهها اللجوج! قالت الكثير ولكنه لم يفهم شيئاً مما قالته. وفكر أيضاً ببرانن في مطعم نيويورك كافيه بفكّه الداكن والقوي وعينيه اليقظتين. وفكر أيضاً بالغرباء الذين لاحقوه في الشارع، وأمسكوا به دون سبب واضح. فكر بالتركي في متجر البياضات الذي يضع يديه أمام وجهه، ويحرّك لسانه لتخرج كلمات لم يرها سينغر قبلاً. فكر بكبير العمال في أحد المعامل وبامرأة سوداء مسنة، وبرجل أعمال في الشارع الرئيس، وبولدٍ صغير يقود الجنود إلى المبغى بالقرب من النهر. حرّك سينغر كتفيه بارتباك بينما تلوى القطار بحركة سلسة ومريحة. أرخى رأسه ليرتاح على كتفيه، ونام لبعض الوقت.

عندما فتح عينيه كانت البلدة قد أضحت بعيدة عنه جداً ومنسية. ومن النافذة القذرة شاهد الريف الجميل في منتصف الصيف. توهجت أشعة الشمس القوية والبرونزية في حقول القطن الفتي والأخضر. وعبر مساحات كبيرة من حقول التبغ بدت النباتات كثيفة وخضراء كحشائش أدغال عملاقة، ورأى بساتين الدراق بثمارها الشهية تتدلى من الأشجار الصغيرة، وشاهد أميالاً من المراعي وعشرات الأميال من الأراضي البور والأراضي القاحلة والمتروكة للأعشاب الأكثر تحملاً. عبر القطار غابات صنوبرية كثيفة حيث الأرض مفروشة بإبر الصنوبر البنية التي سقطت من الأشجار الباسقة بعذرية نحو السماء. في أقاصي

الجنوب وبعيداً جداً عن البلدة غطت مستنقعات خضراء بمياهها الآسنة جذوع الأشجار، وتسلقت الطحالب الرمادية المتفسخة الأغصان حيث تفتحت الزهور المائية المدارية في العتمة الحالكة. وخرج القطار بعدها إلى الأراضي المنبسطة تحت الشمس والسماء شديدة الزرقة.

جلس سينغر برزانة وهدوء ووجهه نحو النافذة تماماً. أعمته المساحات الخضراء الشاسعة والتدرجات اللونية الأولية. بدا هذا التنوع اللوني وثراء الإيناع واللون مرتبطاً بصديقه. كانت أفكاره مع أنتونوبوليس، وكاد يخنقه نعيم لقائهما مجدداً. احتقن أنفه، وأخذ من فمه المفتوح قليلاً أنفاساً سريعة وقصيرة.

سيُسعد أنتونوبوليس بلقائه، وسيفرح بالفواكه الطازجة وبالهدايا. لا بدّ وأنّه خرج الآن من المستشفى. في أول زيارة سيذهبان إلى السينما وبعدها إلى الفندق حيث سيتناولان العشاء. لم يغادره صديقه في كل لحظة صحو عاشها.

كتب سينغر العديد من الرسائل إلى أنتونوبوليس، ولكنّه لم يرسلها. سلّم سينغر نفسه كُلياً لأفكاره عن صديقه.

ولم تبدُ الأشهر الستة، منذ رأى صديقه لآخر مرة، بالمدة الطويلة أو القصيرة، فقد لازمه في تفكيره في كل لحظة صحو عاشها، وهذا التخاطر الخفي مع أنتونوبوليس كبر وتغير وكأنّهما يعيشان معاً. أحياناً يفكر سينغر بأنتونوبوليس بألم وبانكسار، وأحياناً أخرى بفخرٍ، ودوماً بحبٍ لا يشوهه أيّ نقدٍ، حباً حراً من الإرادة. وفي الليل عندما يحلم يحضره دوماً وجه صديقه الكبير واللطيف ولا يفارقه أبداً حتى في أوقات الصحو.

حلّ الليل الصيفي ببطء، وغربت الشمس خلف خط الأشجار الباهت في الأفق وكلح لون السماء. كان ضوء الغسق ضعيفاً وباهتاً، وارتفع قمر أبيض مكتمل مع غمائم قرمزية منخفضة فوق الأفق، وببطء كست الظلمة الأرض والأشجار والبيوت الريفية غير المطلية، وبين

الفينة والأخرى التمع ضوء صيفي خفيف في السماء. راقب سينغر كل هذا بانتباه إلى أنّ حلّ الليل أخيراً، وانعكس وجهه على الزجاج أمامه.

تهادى أطفال عبر الممر في المقطورة والماء يقطر من أكواب الماء التي حملوها. أخذ رجل عجوز في رداء سروالي قبالة سينغر رشفاتٍ من الويسكي من علبة كوكا كولا بين الفينة والأخرى. وكلما أخذ رشفة أغلق العلبة بحذر بسدادة من الورق. وعلى يمينه فتاة صغيرة تمرر مصاصةً حمراء لزجة على شعرها. فُتحت علب أحذية، وأتى العشاء على صوانٍ من مقطورة الطعام. لم يأكل سينغر بل أرخى ظهره إلى الوراء على المقعد، واستمر بمراقبة ما يحدث حوله بين الفينة والأخرى. وأخيراً استقرت الأجواء في المقطورة، واستلقى الأطفال على المقاعد العريضة كالحة اللون وناموا، بينما وضع الرجال والنساء وسائدهم واسترخوا بقدر ما تسمح لهم المساحة التي شغروها.

لم ينم سينغر، وضغط بوجهه على الزجاج، وجاهد ليرى الليل في الخارج. هبط الظلام ثقيلاً بهدوء، وبين الحين والآخر ظهرت بقعة أنارها ضوء القمر أو شعلة مصباح من نافذة بيت ما على طول الطريق. وبالنظر إلى القمر عرف أنّ القطار اتخذ مساراً جنوبياً واتجه شرقاً. كان التوق الذي يعتمل في داخله كبيراً جداً لدرجة أنّ أنفه احتقن جداً، وصار تنفسه صعباً، واكتست وجنتاه بلونٍ قرمزي. بقي جالساً ووجهه قبالة زجاج النافذة البارد والقذر طوال الرحلة الليلية.

تأخر القطار لأكثر من ساعة، وعندما وصلوا كان الصباح الصيفي المنعش والمشع قد حلّ منذ زمنٍ. توجه سينغر إلى الفندق على الفور فقد حجز مسبقاً في فندقٍ جيد. أفرغ محتويات حقائبه، ورتب الهدايا التي أحضرها لأنتونوبوليس على السرير. اختار طعام فطور فخماً من على القائمة، وأحضره الخادم له إلى الغرفة. طلب سمكاً مشوياً وعصيدة الذرة وخبزاً فرنسياً محمصاً وقهوة سوداء ساخنة. أخذ قسطاً من الراحة بعد الفطور، ونام بمواجهة مروحة كهربائية في ثيابه الداخلية. وعند الظهر

بدأ يستعد، استحم وحلق وارتدى ثياباً داخلية جديدة وأفضل بذلة لديه. وفي تمام الساعة الثالثة كانت ساعات الزيارة في المستشفى قد بدأت. حدث هذا يوم الثلاثاء الواقع في الثامن عشر من شهر تموز (يوليو).

عندما وصل إلى المصح بحث عن أنتونوبوليس في المستشفى حيث وضعوه في المرة الماضية. ولكن عندما وقف على باب المهجع عرف على الفور أنّ صديقه لم يكن هناك. عبر الردهات المفضية إلى المكتب حيث أخذوه في المرة الماضية. كان قد كتب مسبقاً السؤال الذي يريد جواباً عليه على بطاقة من البطاقات التي يحملها معه. ورأى شخصاً جديداً وراء النضد غير الذي رآه في المرة السابقة. كان شاباً وأقرب إلى أن يكون فتى ببنية غير مكتملة النمو ووجهٍ طفولي وشعرٍ خفيف. أعطاه سينغر البطاقة، ووقف بهدوء مُثقلاً بالطرود التي يحملها على ذراعيه، وألقى بوزنه على عقبيه.

هزّ الشاب رأسه، وانحنى على المكتب، وخطّ شيئاً على قطعة ورق. قرأ سينغر ما كتبه الشاب، وكلح لون وجنتيه فوراً. حدّق في الملاحظة لوقتٍ طويل، زاغ بصره ورأسه مطأطأ فوق الورقة. كُتب على الورقة أنّ أنتونوبوليس توفي.

في طريق عودته إلى الفندق حرص سينغر على ألّا يسحق الفواكه التي أحضرها لصديقه. أوصل طرود الهدايا إلى الغرفة، ونزل إلى الردهة. كان هناك آلة سلوت خلف نبتة النخيل. وضع عملة معدنية من فئة خمسة سنتات في الآلة، وسحب الذراع، واكتشف أنّ الآلة معطلة. أثار ضجة كبيرة حيال الأمر، وحاصر موظف الفندق شارحاً له باهتياج كبير ما حصل. كان وجهه شاحباً شحوب الموت ولا يشبهه أبداً، وترقرقت الدموع على حواف أنفه. ضرب بيديه بل وخبط بقدمه الطويلة والنحيلة في حذائه الأنيق على السجادة الكالحة. ولكنّه لم يشعر بالرضى حتى عندما استعاد القطعة المعدنية التي وضعها في الآلة، وأصرّ على دفع حساب الفندق والمغادرة. وضب حقيبته، واضطر إلى بذل مجهود كبير

لإغلاقها مجدداً. فبالإضافة إلى الأشياء التي حملها معه، أحضر ثلاث مناشف وقطعتي صابون وقلماً ودواة ولفافة ورق الحمام والإنجيل. دفع الحساب وتوجه إلى محطة القطار ليضع أشياءه في الأمانات. لا يُغادر القطار حتى الساعة التاسعة مساءً، ولهذا عليه أن ينتظر طوال فترة الظهيرة.

هذه البلدة أصغر من البلدة التي يعيش فيها. تقاطعت الشوارع الرئيسة على شكل صليب، وللمتاجر مظهر ريفي. وعلى الواجهات الزجاجية عُرضت الأدوات وأكياس الطعام. هام سينغر على الأرصفة، وشعر بحلقه متورماً، وواجه صعوبة في بلع ريقه. اشترى مشروباً من أحد المتاجر ليتخلص من هذا الشعور الخانق. وأضاع بعض الوقت في صالون حلاقة، واشترى بضعة أشياء تافهة من متجر «أيّ شيء بعشرة سنتات». لم يمعن النظر في وجه أحد، وقد مال رأسه جانباً كحيوانٍ مريض.

كانت فترة ما بعد الظهر في أواخرها عندما وقع أمرٌ غريب لسينغر، فعندما كان يمشي على مهل وبشكل غير منتظم على طول رصيف الشارع. تلبدت السماء بالغيوم وغدا الهواء رطباً. لم يرفع سينغر رأسه، إلّا أنّه عندما عبر صالة السباحة الخاصة بالبلدة التقط بطرف عينه شيئاً أثار اضطرابه. تجاوز صالة السباحة، وتوقف وسط الشارع. عاد بخطواته إلى الوراء، ووقف أمام باب الصالة المفتوح. رأى في الداخل ثلاثة بُكماء يتحدثون بأيديهم. لم يرتدوا معاطفاً، ووضع كل واحد منهم قبعة بولينغ وربطة عنق زاهية وأمسك كأساً من الجعة بيده اليسرى. كان هناك شبه بين ثلاثتهم وكأنهم إخوة.

دخل سينغر، وواجه في البداية صعوبة في إخراج يده من جيبه، وبشكلٍ أخرق رسم بيديه تحية. ربتوا على كتفه، وقدموا له مشروباً بارداً. أحاطوا به، وفرقعت أصابعهم كالبستونات وهم يستجوبونه.

أخبرهم باسمه وباسم البلدة التي يقطنها. ولكنّه لم يكن قادراً على التفكير بشيء آخر ليقوله عن نفسه. سألهم إن عرفوا شخصاً يدعى سبيروس أنتونوبوليس، وأخبروه أنّهم لا يعرفونه. وقف سينغر وقد

أرخى يديه، ومال رأسه جانباً وزاغت نظراته. بدا فاتر الهمة وبارداً جداً، ونظر إليه البكماء الثلاثة بغرابة، وبعد مضي فترة وجيزة تابعوا نقاشهم من دونه. عندما دفعوا حساب الجعة التي طلبوها كانوا مستعدين للمغادرة، ولم يقترحوا عليه أن ينضم إليهم.

تسكع سينغر في الشوارع لنصف يوم، وكاد يفوت قطاره. لم يفهم كيف حدث هذا أو كيف قضى هذه الساعات. وصل إلى المحطة قبل مغادرة القطار بدقيقتين، وبالكاد كان لديه الوقت ليحمل حقائبه ويعثر على مقعد في المقطورة التي كانت فارغة تقريباً. عندما استقر في مقعده فتح علبة الفراولة والتقط الثمار بعناية دقيقة. كانت الثمار كبيرة جداً وأشبه بثمار الجوز وناضجة تماماً. بدت أوراقها الخضراء في الأعلى كباقات صغيرة. وضع سينغر إحدى الثمار في فمه إلّا أنّه رغم الحلاوة الشديدة والشهية لعصارتها أحسّ بنكهة تحلل خفية. أكل إلى أن تخدر فكّه من الطعم، وأعاد تغليف العلبة ووضعها على الرف فوقه. أسدل ستائر النافذة عند منتصف الليل، واستلقى على مقعده. تكور على نفسه، وسحب معطفه حتى رأسه مغطياً وجهه. بقي على هذه الوضعية مخدراً ونصف نائم لاثنتي عشرة ساعة. عندما وصل القطار اضطر الجابي إلى هزه ليستيقظ.

ترك سينغر أمتعته وسط أرض المحطة، وتوجه إلى المتجر. حيّا الصائغ الذي يعمل لديه بإيماءة فاترة من رأسه. وعندما خرج من المتجر تحسس ذلك الشيء الثقيل في جيبه. هام في الشوارع مطأطأ الرأس لبعض الوقت، ولكن وهج الشمس الشديد والحرارة الرطبة كبحاه. عاد إلى غرفته بعينين متورمتين وبصداع في رأسه. بعد أن أخذ قسطاً من الراحة، شرب كأساً من القهوة المثلجة، ودخن سيجارة ثمّ غسل منفضة السجائر والكأس. أخرج مسدساً من جيبه، ووضع رصاصة في صدره.

الجزء الثالث

-1-

21 آب (أغسطس) 1939
صباحاً

«لن أتعجل»، قال الطبيب كوبلاند. «دعوني لوحدي، اسمحوا لي أن أبقى هنا في سلام لبعض الوقت».

«أبي، نحن لا نستعجلك، ولكن الوقت حان لنغادر المكان».

هزّ الطبيب كوبلاند نفسه على كرسيه الهزاز، وأحكم شاله الرمادي على كتفيه. كان الصباح دافئاً ومنعشاً، والحطب يحترق في الموقد والمطبخ خالٍ من أيّ أثاث باستثناء الكرسي الذي جلس عليه، وكانت الغرف الأخرى فارغة أيضاً. نقلوا معظم الأثاث إلى منزل بورشيا، أمّا بقية الأثاث فقد كان في السيارة بالخارج. كل شيء كان جاهزاً باستثناء عقله، ولكن كيف سيتمكن من المغادرة دون بداية أو نهاية، دون حقيقة أو مسعى في عقله؟ رفع يده ليخفف من اهتزاز رأسه، واستمر ببطء في دفع كرسيه الهزاز الذي يُصدر صريراً.

سمع أصواتهم من وراء الباب الموصد.

«فعلت كل ما بوسعي، إنّه مصرّ على الجلوس في مكانه إلى أن يشعر بالاستعداد ليغادر».

«انتهينا أنا وبادي من توضيب الصحون الخزفية و...»

«يجب أن نغادر باكراً»، قال الرجل العجوز. «أو سيحلّ الظلام علينا ونحن على الطريق».

خفتت أصواتهم، وتناهى صوت وقع أقدام في الردهة الفارغة، وسمعهم يتحدثون مجدداً. بجانبه على الأرض هناك فنجان مع صحنه. ملأ الفنجان بالقهوة من الإبريق على الموقد، وتابع هزّ نفسه على الكرسي بينما شرب القهوة ودفأ يديه ببخارها. لا يمكن أن تكون هذه النهاية. وترددت في قلبه أصواتٌ دون كلمات؛ صوت المسيح وجون بروان وسبينوزا العظيم وكارل ماركس، مع أصوات الذي حاربوا وكرسوا أنفسهم لتحقيق مهمتهم في الحياة كأصوات أهله المثقلة بالحزن، وأصوات الموتى، وصوت الأبكم سينغر - الرجل الأبيض المستقيم - وأصوات الضعفاء والأقوياء، صوت الزنوج المدوي والذي يكبر في شدته وقوته، وصوت المسعى الراسخ والحقيقي. ارتجفت شفتاه مجيبةً على هذه الأصوات، إنّ الكلمات مصدر كل حزن بشري حتماً، وكاد يصرخ عالياً:

«أيّها المضيف العظيم! يا قوة الكون العظيمة! فعلت أموراً لم يكن علي فعلها، وتجاهلت أموراً كان عليّ أن أقوم بها، ولهذا لا يمكن أن تكون هذه الخاتمة».

استقر في منزله مع المرأة التي أحبّها، مع ديزي التي دخلت هذا المنزل في فستان زفاف مع خمار أبيض مخرّم وبشرة عسلية غامقة وضحكة عذبة. كان يُغلق على نفسه في المكتب ليلاً ليدرس وحده. حاول أن يتأمل ويُدرب نفسه على الدراسة، ولكن وجود ديزي القريب منه أشعل فيه رغبة قوية لم تكن الدراسة لتروضها. استسلم أحياناً لهذه المشاعر ولكن ليعض على شفتيه بعدها ويأكل الكتب طوال الليل. وولد هاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا، ولكن ضاع كل شيء، ولم يبقِ أحد.

هناك أيضاً مادي بن وبيني مي، وبيندين مادين ومادي كوبلاند الذين

حملوا اسمه ووعظهم. ولكن من هو الذي سيأتمنه على المهمة من بينهم جميعاً ويرتاح بعدها؟

عرف طوال حياته هذه المهمة، عرفها بقوة، وعرف السبب الذي من أجله يعمل، ووثق به في قلبه لأنّه لم ينسَ يوماً ما يحمله المستقبل. انتقل مع حقيبته من منزلٍ إلى آخر، وتحدث مع الجميع عن كل شيء وشرح لهم بصبرٍ. أمّا ليلاً فكان يستقر سعيداً لأنه حقق مسعاه في يومه. وحتى من دون وجود ديزي وهاملتون وكارل ماركس وويليام وبورشيا، كان يستطيع الشعور بالسعادة بمجرّد جلوسه قرب الموقد والتمتع بهذه المعرفة. يشرب إبريقاً كاملاً من مشروب كحولي بلونٍ أخضر كالقرنبيط ويتناول لفافة خبز ذرة. يجتاحه آنذاك إحساس قوي بالاكتفاء لأنّ يومه كان جيداً.

مرت أوقات رضى كثيرة تشبه هذه الأوقات، ولكن ما الذي عنته؟ لم يكن قادراً بعد كل هذه السنين على التفكير بعملٍ يحقق قيمة دائمة.

بعد برهة فُتح الباب المُفضي إلى الردهة ودخلت بورشيا.

«أعتقد أنّه عليّ أن ألبسك ثيابك كطفلٍ»، قالت له. «ها هو حذائك وجواربك. دعني أنزع عنك حذاؤك البيتيّ وألبسك الآخر المخصص للخروج. يجب أن نغادر المكان بأقصى سرعة».

«لمَ تفعلين هذا بي؟» سألها بمرارة.

«ما الذي فعلته بك؟»

«تعرفين جيداً أنني لا أرغب بمغادرة المكان، أنت تضغطين علي لأوافق وأنا في وضعٍ غير مناسب يسمح لي باتخاذ أيّ قرار. أتمنى أن أبقى حيث كنت دوماً، وأنتِ تعرفين هذا».

«أصغِ إلى نفسك!» قالت بورشيا بغضب. «تتذمر كثيراً وقد تعبت منك. لقدَ أرغيت وأزبدت إلى درجة صرت أخجلُ منك».

«هراء! قولي ما تشائين. أتيت لإزعاجي كبعوضة. أعلم ما ترغبين به، ولكن لن يجبرني أحد على القيام بغير الصواب».

نزعت بورشيا حذاءه المنزلي وتناولت زوجاً من الجوارب القطنية السوداء النظيفة.

«أبي، فلنتوقف عن الجدال. لقد قدمنا أفضل ما لدينا، إن الحل الأفضل أن ترافق جدي وهاملتون وبادي، سيعتنون بك وستتعافى».

«لا، لن أتعافى»، قال الطبيب كوبلاند. «يمكنني أن أتعافى هنا أيضاً، أعلم هذا جيداً».

«من سيدفع إيجار البيت؟ كيف ستتمكن من إطعامك؟ من سيعتني بك هنا؟»

«لطالما تدبرت أموري، وما زال بإمكاني تدبرها».

«أنت تُناقض نفسك».

«هراء! أن تتطفلين على حياتي كبعوضة، وأنا سأتجاهلك».

«يا لها من طريقة لبقة تتحدث بها معي وأنا ألبسك حذاءك وجواربك».

«آسف، سامحيني يا ابنتي».

«بالطبع أنت آسف»، قالت. «كلانا آسفان بالطبع. لا يمكننا تحمل تكلفة أيّ جدال. عندما تستقر في المزرعة ستحب الحياة هناك. لديهم أجمل حديقة خضار أراها في حياتي. سيسيل لعابك عندما تفكر بها. هناك دجاج أيضاً ونوعان من الخنازير وثماني عشرة شجرة دراق. ستُذهل بالمكان هناك. أتمنى لو كنت أنا صاحبة الحظ بالانتقال إلى هناك».

«أتمنى هذا أيضاً».

«لِمَ أنت مُصرّ على الحزن؟»

«أشعر أنني فشلت»، قال لها.

«ما الذي تعنيه بأنك فشلت؟»

«لا أعلم. دعيني وشأني يا ابنتي. دعيني أجلس بسلام لبعض الوقت».

«حسناً، دعنا نغادر المكان على الفور».

كان ليجلس بصمت ويهزّ كرسيه إلى أن يستعيد إحساسه بالاستقرار مرة أخرى. اهتزّ رأسه وآلمه عموده الفقري.

«آمل هذا حقاً»، قالت بورشيا. «أتمنى أن يحزن أناس كثر علي عندما أموت كما حزنوا على السيد سينغر. أحبّ أن أعرف أنني سأحظى بجنازة كجنازته، ويأتي أناسٌ كثر...»

«صمتاً!» قال الطبيب كوبلاند بخشونة. «أنت تثرثرين كثيراً».

لقد أصابت وفاة ذلك الرجل الأبيض قلبه بأسىً أسود. تحدث معه كما لم يتحدث مع أيّ رجل أبيض آخر ووثق به. سبب انتحاره الغامض اضطراباً فيه وخسر معه الدعم. لم يكن هناك بداية أو نهاية لحزنه ولم يفهمه حتى. لطالما عاد بتفكيره إلى هذا الرجل الأبيض الذي لم يكن وقحاً أو متهكماً بل عادلاً، كيف يمكن أن يكون الأموات موتى إن كانوا أحياءً في أرواح من تركوهم خلفهم؟ ولكن لا يجب عليه أن يفكر بالأمر بل عليه أن يبعده عن تفكيره الآن.

إنّه يحتاج إلى الانضباط الآن، فخلال الشهر الماضي عادت إليه تلك المشاعر السوداء الرهيبة وتصارعت مع روحه. شعر بكرهٍ لكل تلك الأيام التي ترك فيها نفسه تستلم للموت. وبعد ذلك الشجار الذي وقع بينه وبين زائر منتصف الليل - السيد بلاونت - اجتاحه سواد قاتل، إلّا أنّه عاجز الآن عن تذكر تلك القضايا التي سببت الخلاف بينهما. وهناك أيضاً حالات الغضب المتعددة التي انتابته عندما نظر إلى رجلي ويلي المبتورتين، وصراع الحب والكره - الحب لشعبه وكرهه لمضطهديه - والذي أصاب روحه بالتعب والسقم.

«ابنتي»، قال لبورشيا. «أحضري لي ساعتي ومعطفي سأغادر».

رفع نفسه عن الكرسي متكئاً على ذراعيه. بدت له الأرض بعيدة جداً عن وجهه، وبعد قضائه وقتاً طويلاً في السرير وهنت قدماه، وشعر للحظة أنّه سيسقط. مشى مترنحاً على الأرضية العارية، واتكأ على أحد جانبي الباب. أخذ يسعل، وتناول من جيبه قطعة ورقية مربعة ليضعها على فمه.

«ها هو معطفك»، قالت بورشيا. «ولكن الجو حار في الخارج ولن تحتاجه».

مشى في المنزل الفارغ للمرة الأخيرة. أسدلت الستائر وعبقت الغرف الغارقة في الظلمة برائحة الغبار. اتكأ على جدار الردهة وخرج. كان ضوء الصباح دافئاً في الخارج. في الليلة الماضية وصباح اليوم أتى العديد من الأصدقاء لوداعه، ولكن الآن لم يعد هناك أحد سوى العائلة على الشرفة. توقفت السيارة والعربة في الشارع بانتظاره.

«حسناً يا بينديكت مادي»، قال الرجل العجوز. «أعتقد أنك ستشعر ببعض الحنين إلى المنزل في الأيام الأولى، ولكن لن يطول الأمر».

«إن كنت لا أملك منزلاً فلماذا إذاً سأشعر بالحنين؟»

بللت بورشيا شفتيها بلعابها بتوتر وقالت: «ستعود عندما تتحسن وتصبح جاهزاً. سيكون بادي سعيداً بإيصالك إلى البلدة بالسيارة. يحب بادي القيادة».

حُملت السيارة بصناديق الكتب التي ربطت على السلم في مؤخرة السيارة. وحُشر كرسيان وصندوق ملفات في المقاعد السوداء الخلفية. ورُبط مكتبه على ظهر السيارة وقوائمه إلى الأعلى. كان الحِمل ثقيلاً على السيارة بينما بقيت العربة فارغة من أية حمولة تقريباً. وقف الحمار بصبرٍ، وقد ثبتوا رسنه بقطعة حجر.

«كارل ماركس»، قال الطبيب. «عُد إلى المنزل ولتتأكد من أننا لم ننسَ شيئاً. أحضر معك الكوب الذي تركته على الأرض والكرسي الهزاز».

«لننطلق، أتحرق شوقاً للوصول إلى المنزل قبل العشاء»، قال هاملتون.

وأخيراً باتوا مستعدين للانطلاق. أدار هايبوي ذراع تشغيل السيارة، وجلس كارل ماركس وراء المقود، وحشرت بورشيا نفسها مع هايبوي وويليام في المقعد الخلفي.

«أبي، ما رأيك أن تجلس في حضن هايبوي بدلاً من حشر نفسك بيننا وبين الأثاث».

«لا، المكان مكتظ جداً. سأركب في العربة».

«ولكنك لست معتاداً على العربة»، قال كارل ماركس. «سيكون الطريق وعراً، وقد تستغرق الرحلة اليوم بأكمله».

«هذا لا يهم. ركبت في عربات كثيرة قبلاً».

«اطلب من هاملتون أن يأتي معنا. أعتقد أنّه يفضل ركوب السيارة».

قاد الجد العربة إلى البلدة في اليوم السابق، وأحضر معه منتجات من مزرعته كالدراق والملفوف والقرنبيط ليبيعها هاملتون في البلدة. بيع كل شيء ما عدا كيس الدراق.

«حسناً يا بينديكت مادي، أرى أنك ستعود إلى المنزل معي»، قال الرجل العجوز.

صعد الطبيب كوبلاند في مؤخرة العربة. كان متعباً جداً وكأنّ عظامه مصنوعة من رقائق معدنية. اهتز رأسه، ودفعته نوبة غثيان مفاجئة إلى الاستلقاء على الألواح الصلبة.

«أنا سعيد بقدومك معنا»، قال الجد. «أنت تعرف أنني أكنّ للمتعلمين احتراماً عميقاً. أكنّ لهم احتراماً كبيراً. يمكنني أن أغفر وأغض النظر عن أمور كثيرة إن كان فاعلها رجل متعلم. يسعدني انضمام رجل متعلم مثلك إلى العائلة مجدداً».

أصدرت عجلات العربة صريراً، وانطلقوا في طريقهم.

«سأعود قريباً»، قال الطبيب كوبلاند. «سأعود بعض شهرٍ أو شهرين».

«إن هاملتون رجل متعلم جيد. أعتقد أنّه يشبهك فهو يقوم بكل حساباتي على الورق، ويقرأ الصحف لي أيضاً. أعتقد أن ذلك المدعو ويتمان رجل متعلم أيضاً، فقد أصبح قادراً على قراءة الإنجيل لي، ويقوم بعمليات حسابية أيضاً، وهو أشبه بالطفل. لدي احترام عميق للمتعلمين».

شعر بالألم في ظهره جراء حركة العربة. نظر إلى الأغصان فوق

رأسه ولم يكن هناك فيءٌ كافٍ لذلك غطى وجهه بمنديله ليحمي عينيه من الشمس. لا يُمكن أن تكون هذه النهاية. لطالما شعر أنّ مسعاه قوي وحقيقي، ولأربعين عاماً كانت مهمته حياته وحياته مهمته. ولكن لم يُحقق هذا، ولم يُكتب لأي شيء بأن يكتمل.

«أجل يا بينديكت مادي، يسعدني مجيئك معنا. كنت سأكتب لك رسالة وأستشيرك بخصوص هذا الألم الغريب في قدمي اليمنى. إنّه ألم غريب، وكأنّ قدمي غطت في النوم. أخذت دواء السعال وخلطته بمرهم ثمّ فركت قدمي به. أرجو أن تقترح علي علاجاً جيداً».

«سأفعل ما بوسعي».

«أجل، أنا سعيد بوجودك. أؤمن بالتعاون بين الأقرباء، أقرباء الدم وأقرباء الزواج. أؤمن أننا سنصارع معاً وسنساعد بعضنا. وستحصل يوماً على المكافأة في العالم الآخر».

«هراء!» قال الطبيب كوبلاند بمرارة. «أؤمن بعدالة الزمن الحاضر».

«ما الذي قلته؟ تتحدث بصوتٍ خشن، ولا يمكنني سماعك».

«أؤمن بالعدالة لنا، بالعدالة للزنوج».

«هذا صحيح».

شعر الطبيب كوبلاند بالنار في داخله، وعجز عن البقاء هادئاً. أراد أن يجلس، ويتحدث بصوتٍ عالٍ، ولكن عندما حاول رفع نفسه خانته قواه. كبرت الكلمات في قلبه ولم تكن لتقبل بالصمت. ولكن الرجل العجوز توقف عن الإصغاء إليه، ولم يكن هناك أحد ليصغي إليه.

«هيا يا جاكسون، تحرّك يا عزيزي. فلتسرع ولا تتلكأ، أمامنا طريق طويل».

-2-

بعد الظهر

ركض جيك بخطوات سريعة وخرقاء عبر شارع ويفر، ودخل في زقاق جانبي ثمّ تسلق سياجاً وعجّل خطاه إلى الأمام. أحسّ بالغثيان وشعر بطعم قيء في حلقه. لاحقه كلب ونبح طويلاً إلى أن توقف جيك وهدده بحجرٍ. اتسعت عينا جيك من الرعب، وأطبق يده على فمه المفتوح.

بحق المسيح! هل هذه النهاية؟ شجارٌ وشغبٌ، وعراك مع كل رجلٍ، رؤوسٌ وأعينٌ مدماة من زجاج القوارير المكسورة، بحق المسيح! وتلك الموسيقى ذات الأزيز للعبة الأحصنة الطائرة مع هذه الضجّة، وكل شطائر الهامبرغر وحلوى غزل البنات والأطفال الباكين. وهو وسط كل هذا، يقاتل وقد أعماه الغبار والشمس، وصفوف الأسنان المكسورة والحادة تضرب بمفاصل يده، والضحك. أيها المسيح! وذلك الشعور بأنّه أفلت العنان لإيقاع مجنون وقاسٍ في داخله، والذي عجز عن إيقافه. ودون أن يعرف إن قتل أحداً أو لا، ولكن مهلاً. بحق المسيح! لم يكن هناك أحد قادرٌ على إيقافه.

مشى جيك على مهل، وأدار رأسه بتوترٍ إلى الوراء لينظر خلفه. كان الزقاق خالياً. تقيأ ومسح فمه وجبهته بكمي قميصه، ثمّ ارتاح لبضع دقائق حتى أصبح بحالٍ أفضل. لقد ركض مسافة ثمانية شوارع، وما زال أمامه نصف ميلٍ ليقطعه عبر الطرق الفرعية. تراجع الدوار في رأسه وكل المشاعر الجنونية وبدأ يتذكر الوقائع. انطلق مجدداً، ولكنه هرول هذه المرة.

لم يكن بإمكان أحد إيقافه. داس على هذه المشاعر وكأنها يدوس نيراناً مفاجئة طوال الصيف، ولكن هذا الشعور، وهذا العراك، لم يكن هناك من يستطيع إيقافه. بدا وكأنّه اشتعل دون سبب واضح. كان يعمل على الآلة التي تُشغل الأراجيح، وتوقف ليشرب كأساً من الماء. وأثناء عبوره أرض المعرض رأى صبياً أبيض وزنجياً يتمشيان ثملين معاً. كان نصف الحشد بعد ظهيرة ذلك اليوم ثملاً، لأنّ اليوم أحد، والمعامل عملت بدوامٍ كامل طوال ذلك الأسبوع. كانت الحرارة والشمس تُصيبان بالسقم، وعبِق الجو برائحة نتنة قوية.

رأى المقاتلين قريبين من بعضهما، ولكنّه علم أنّها لم تكن البداية. لطالما شعر أنّ عراكاً كبيراً يلوح في الأفق، والغريب في الأمر أنّه فكر بكل هذا. وقف وراقب العراك لخمس ثوانٍ قبل أن يخترق الحشد. خلال تلك المدة الزمنية القصيرة فكر بأمورٍ كثيرة. فكَّرَ بسينغر، وبأوقات الظهيرة الكئيبة صيفاً وبالليالي السوداء الحارة، وبكل الخلافات والشجارات التي فضّها.

التقط بعينيه ومضة سكين جيب في ضوء الشمس. دفع بكتفيه مجموعة من الناس أمامه، وقفز على ظهر الزنجي الذي يحمل السكين. سقط الرجل وسقط معه جيك على الأرض. اختلطت رائحة عرق الرجل مع الغبار الثقيل في رئتيه. داس أحدهم على رجليه، وتلقى ركلة على رأسه. وبحلول الوقت الذي تمكن فيه من النهوض على قدميه كان العراك قد أصبح جماعياً. قاتل الزنوج الرجال البيض، وقاتل الرجال البيض الزنوج. راقب المشهد عن كثب، ثانية بثانية. كان الفتى الأبيض الذي بدأ العراك قائد العصابة التي تأتي إلى المعرض في أحيانٍ كثيرة. إن عمر أفراد العصابة لا يتجاوز السادسة عشرة، ويرتدون سراويل عالية الخصر وقمصان بولو حريرية ملفتة. واجههم الزنوجَ بأفضل ما لديهم، واستخدم بعضٌ منهم الشفرات.

أخذ جيك يصرخ «هدوء! النجدة! الشرطة!» ولكنه شعر أنّه يصرخ في

وجه سدٍ يتفجر. وسمع في أذنه صوتاً مريعاً، ورغم أنّه صوتٌ بشري لكن لم يكن هناك كلمات. ارتفع الصوت وأصبح أشبه بزئيرٍ أصابه بالصمم. ضُرب جيك على رأسه، ولم يعد قادراً على رؤية ما يجري حوله. رأى عيوناً وأفواهاً وقبضاتٍ، أعيناً مجنونة ونصف مغمضة، وأفواهاً رطبة مفتوحة ومغلقة، وقبضات بيضاء وسوداء. انتشل سكيناً من إحدى الأيدي، وأمسك بقبضةٍ مرفوعة للأعلى ثمّ أعماه الغبار والشمس مع فكرة واحدة في رأسه وهي أن يخرج من هذا العراك، ويبحث عن هاتف ليطلب النجدة.

ولكنه علق داخل العراك، ودون أن يعرف كيف حصل الأمر انخرط فيه، فضرب بقبضتيه، وشعر بذلك الانسحاق الرخو للأفواه تحت مفاصل يديه. قاتل بعينين مغلقتين ورأسٍ مُطَأْطِئ. خرج صوت جنوني من حنجرته، وأخذ يضرب بكل قوته، وبنطح برأسه كثورٍ، وفي رأسه تدور كلمات بلا معنى وأخذ يضحك. لم يرَ من ضربهم، ولم يعرف من ضربه، ولكنه علم أنّ شكل العراك قد تغير، وأن كل رجلٍ بات يقاتل وحده.

وفجأة انفضّ العراك، تعثر وسقط إلى الوراء. أغمي عليه وربما مرت دقيقة أو أكثر قبل أن يفتح عينيه مجدداً. ما زال هناك بضعة سكارى يتعاركون، ويحاول شرطيان أن يفضّا العراك. انتبه إلى الشيء الذي تعثر به، كانت جثة الفتى الزنجي وقد وقع فوقها تماماً. ومن نظرة واحدة عرف أنّه ميت. رغم وجود جرح على رقبته إلّا أنّه كان من الصعب معرفة سبب موته السريع. تذكر الوجه، ولكن لم يعرف أين رآه. كان فم وعينا الفتى مفتوحين وكأنه مدهوش، وعلى الأرض تراكمت الأوراق والزجاجات المكسورة وشطائر الهامبرغر المسحوقة، وأحد رؤوس الأحصنة الدوارة مكسور وأحد الأكشاك تحطم. حاول أن ينهض عندما رأى الشرطيين ومن خوفه بدأ يركض. لا بدّ وأنّهما فقدا أثره الآن.

ما زال أمامه أربعة شوارع، وسيكون آمناً بعدها. جعل الخوف نفسه قصيراً ولهذا أخذ يلهث، وأحكم قبضته وأرخى رأسه. ثمّ خفف سرعته فجأة وتوقف. وجد نفسه وحيداً في زقاق بالقرب من الشارع الرئيس.

اتكأ على أحد الجدران لاهثاً، وأحسّ بلهيبٍ في وريد جبهته. اكتشف أنّه ومن ارتباكه ركض عبر البلدة ووصل إلى غرفة سينغر، ولكن سينغر ميت. أخذ يبكي، ونشج بصوتٍ عالٍ، وسال أنفه وبلل شاربيه.

امتد أمامه جدار ودرج ثمّ طريق. ألقت الشمس الحارقة وزناً ثقيلاً على كاهله. رجع إلى الوراء بخطواته، ولكنّه مشى ببطء هذه المرة بينما مسح وجهه الرطب بكمي قميصه الملطخين بالشحم. لم يتمكن من إيقاف ارتجاف شفتيه، وعضّ عليهما إلى أن شعر بطعم الدم.

عند زاوية الشارع التالي التقى بسيمز. جلس الرجل العجوز على صندوق والإنجيل على ركبتيه. وارتفع خلفه سياج خشبي كبير كُتب عليه بطباشير أرجواني اللون:

مات لينقذكم

اسمعوا قصة حُبه وعظته

كل ليلة الساعة السابعة والربع

كانت الشوارع خاوية، وحاول جيك أن يعبر إلى الرصيف الآخر، ولكن سيمز أمسكه من ذراعه.

«تعال، أشعر أن قلبك الحزين يؤلمك. ضع خطاياك وأعباءك أمام أقدامه المقدسة، أقدام الذي مات لينقذك. إلى أين أنت ذاهب أيها الأخ بلاونت؟»

«إلى الوطن لألعب الهوكي»، قال جيك. «يجب أن ألعب الهوكي. ألدى المُخلّص اعتراض على هذا؟»

«آثم! سيتذكر الرب كل خطاياك. سيرسل لك الرب رسالة هذه الليلة».

«هل يتذكر الرب الدولار الذي أعطيتك إياه الأسبوع الماضي؟»

«أرسل لك المسيح رسالة في الساعة السابعة والربع الليلة. فلتأتِ على الوقت، ولتسمع ما يقوله لك».

لعق جيك شاربه وقال:

«يحتشد عندك الكثير من الناس، ولا أستطيع الاقتراب وسماعك».

«هناك مكان للمتهكمين في الجحيم. أرسل لي المخلص رسالة يأمرني فيها ببناء بيت له عند زاوية تقاطع الجادة الثامنة عشرة والشارع السادس. يريد أن أنصب خيمة تتسع لخمسمئة شخص. سترون أيّها المتهكمون لقد جهز الرب طاولةً لي أمام أعدائي، ومسح رأسي بالزيت، وأترع كأسي...»

«يمكنني أن أحضر لك حشداً كبيراً الليلة»، قال جيك.

«كيف هذا؟»

«أعطني قطعة الطباشير الجميلة اللون التي في يدك، وأعدك بإحضار حشدٍ كبير».

«رأيت اللافتات التي تكتبها والتي تقول «أيها العمال! إن أمريكا أغنى بلد في العالم، ولكن ثُلث الشعب يتضور جوعاً. متى سنتحد ونطالب بحصتنا؟» هذا كل ما تكتبه. إن لافتاتك راديكالية، ولن أسمح لك باستخدام الطباشير خاصتي».

«ولكنني لا أخطط لكتابة أيّة لافتة».

وضع سيمز إصبعه داخل صفحات الإنجيل وانتظر بارتياب.

«سأحضر لك حشداً جيداً. سأرسم على نهاية رصيفي كل شارع فتاتين عاريتين جميلتين بالألوان ومع الأسهم التي تشير إلى الطريق. فتيات جميلات وممتلئات وذوات مؤخرات...»

«أيها المجدف»، صرخ الرجل العجوز. «أيها اللوطي! سيتذكر الله هذا».

عبر جيك الشارع إلى الرصيف الآخر، وتوجه إلى البيت الذي يعيش فيه.

«وداعاً أيها الأخ».

«آثم!» صاح الرجل العجوز. «عد إلى هنا الساعة السابعة والربع

تماماً، ولتسمع رسالة المسيح التي سيهديك فيها إلى الإيمان وينقذك».

مات سينغر. عندما سمع جيك أنّه قتل نفسه لم يكن الحزن ما اجتاحه بل الغضب، وكأنّه أمام جدار. تذكر كل أفكاره الدفينة التي أخبر سينغر عنها. لمَ وضع سينغر حداً لحياته؟ ربما قد جُن. ولكن على أي حال، إنّه ميت الآن - ميت - ميت. ولم يعد بالإمكان رؤيته أو لمسه أو التحدث إليه، والغرفة التي كان يسكن فيها استأجرتها فتاة تعمل ككاتبة على الآلة الكاتبة. لم يعد بإمكانه الذهاب إلى هناك والبقاء وحده. هناك حائط ودرج وطريق مفتوح.

أغلق جيك باب غرفته خلفه. كان جائعاً، ولم يكن لديه شيء ليأكله. شعر بالعطش أيضاً وفي الإبريق على الطاولة بضع قطرات من الماء الدافئ. كان السرير غير مرتب، وتجمع زغب الغبار على الأرضية، وتناثرت الأوراق في أرجاء الغرفة فهو في الفترة الأخيرة كتب الكثير من المنشورات القصيرة، ووزعها في البلدة. حدّقَ في إحدى الأوراق كُتب أعلاها «أ.د.م.م.[1] صديقك». تألفت بعض هذه المناشير من جملة واحدة فقط، وأخرى من عدة جمل. وهناك أيضاً مانيفيستو بعنوان «الصلة بين ديموقراطيتنا والفاشية».

عمل لشهور على هذه المناشير. كتبها خلال ساعات العمل وطبعها وصنع نسخاً كربونية منها على آلة طابعة في مطعم نيويورك كافيه ووزعها بيديه. عمل ليلاً ونهاراً، ولكن من قرأها؟ ما الفائدة التي حققتها؟ إن بلدة بهذا الحجم كبيرة جداً على رجلٍ واحد، لذلك سيغادرها الآن.

ولكن أين سيكون المآل هذه المرة؟ نادته المدن: ممفيس ويلمغنتون وغاستونيا ونيوأورلينز. سيذهب إلى أي مكان، ولكن ليس جنوباً، فالأمر مختلفٌ هذه المرة. لم يعد يتطلع إلى المساحة المفتوحة والحرية بل العكس. تذكر ما قاله ذلك الزنجي كوبلاند له.

1- Taken Without Owner 's Consent (الأخذ دون موافقة المالك) وهو مصطلح درج كثيراً بين الشباب الأمريكي الاشتراكي. (المترجمة)

«لا تكن لوحدك».

هناك أوقات يكون فيها هذا أفضل شيء.

نقل جيك السرير إلى وسط الغرفة، وأخذ من تحته حقيبة وكومة من الكتب وملابس قذرة، وأخذ يوضب أغراضه بسرعة. عاد وجه الزنجي العجوز إلى رأسه، وبعضاً من الكلمات التي تبادلاها. إنّ كوبلاند مجنون، شخص أصولي، ولهذا من الجنون أن يجرب معه المرء الحديث بعقلانية. ما زال لا يفهم ذلك الغضب الذي شعرا به تلك الليلة حتى الآن. علم كوبلاند بالحقيقة، ومن علموا بها أيضاً كانوا مجرّد حفنة من الجنود العراة أمام فيلق مسلح. ولكن ما الذي فعلوه؟ تشاجروا مع بعضهم. إن كوبلاند مخطئ، إنّه مجنون، ولكن في النهاية قد يستطيعان العمل معاً على جوانب معينة. سيذهب إلى الطبيب كوبلاند ويراه. انتابته رغبة مفاجئة بالإسراع. ربما كان هذا أفضل شيء يقوم به. قد يكون الطبيب كوبلاند الإشارة أو يد المساعدة التي انتظرها كثيراً.

أحكم أربطة الحقيبة دون أن يتوقف ليغسل الأوساخ على وجهه ويديه وغادر الغرفة. كان الهواء في الخارج رطباً، وتفوح من الشارع رائحة عفنة. هناك غيوم في السماء والجو ساكن جداً لدرجة أنّ دخان المصنع في المنطقة صعد بخطٍ مستقيم. مشى جيك والحقيبة الثقيلة ترتطم بركبتيه، واستمر بالنظر للوراء خلفه. عاش كوبلاند في أقصى الجهة الأخرى من البلدة، ولهذا عليه أن يُسرع. وشيئاً فشيئاً أصبحت الغيوم في السماء أكثف وبشّرت بمطر صيفي غزير قبل هبوط الليل.

عندما وصل إلى المنزل الذي يسكن فيه كوبلاند انتبه إلى أنّ الستائر مسدلة. توجه إلى الجهة الخلفية من البيت، ونظر عبر النافذة إلى المطبخ المهجور. انتابه شعور خاوٍ باليأس جعل يديه تتعرقان، ونبضات قلبه تضطرب. دخل إلى المنزل المجاور يساراً، ولم يكن هناك أحد. لم يكن هناك حل سوى التوجه إلى منزل عائلة كيلي والاستفسار من بورشيا عن مكان أبيها.

كره جيك الذهاب إلى منزل عائلة كيلي، لم يعد بإمكانه تحمل منظر حامل القبعات في الردهة الأمامية أو الدرج الطويل الذي صعده مرات عديدة. مشى ببطء إلى البلدة، وتوجه عبر الزقاق إلى الباب الخلفي للمنزل. كانت بورشيا في المطبخ ومعها طفل صغير.

«لا يا سيد بلاونت»، قالت بورشيا. «أعلم أنك كنت صديقاً مقرباً من السيد سينغر، وأنت تعرف ما رأي والدي به. ولكننا نقلنا أبي إلى الريف هذا الصباح، وأعلم أنّه لا يحق لي أن أخبرك عن المكان. لا أريد أن أتدخل في هذا الأمر إن كنت لا تمانع».

«ليس عليك أن تتدخلي في الأمر»، قال جيك. «ولكن لماذا؟»

«بعد أن قابلت والدي آخر مرة مرض كثيراً، وتوقعنا أن يموت. وتعبنا كثيراً حتى تمكنا من جعله يجلس مجدداً. إنّه يبلي جيداً الآن، وسيصبح أقوى حيث يوجد حالياً. ولكن سواء كنت تفهم هذا أو لا تفهمه إلّا أنّ والدي لا يكنّ أية ضغينة للبيض، ولكنه متضايق الآن. لكن هل يمكنني أن أسأل عمّا تريده من أبي؟»

«لا شيء»، قال جيك. «لن تفهي ما أريده».

«نملك نحن الملونين مشاعر كبقية الناس، وأنا مصرة على ما قلته يا سيد بلاونت. إنّ والدي مجرّد رجل ملون عجوز ومريض، وقاسى بما يكفي، ولذلك علينا أن نعتني به، وهو لا يتطلع إلى رؤيتك - أعلم هذا».

عندما خرج إلى الشارع مجدداً اكتشف أن الغيم أصبح بلونٍ قرمزي غامق جداً، وحمل الهواء العابق بالرطوبة رائحة عاصفة قريبة. بدا اللون الأخضر الزاهي للأشجار على طول الرصيف متحللاً في الأرجاء وغطى الشارع بوهجٍ أخضر غريب. كان كل شيء ساكناً وهادئاً، وتوقف جيك لدقيقة ليتنشق الهواء وينظر حوله، ثمّ أمسك بحقيبته تحت ذراعه، وبدأ يركض إلى المظلات الواقية من المطر في الشارع الرئيس، ولكنه لم يكن سريعاً كفاية. وفجأة سُمع صوت قصف الرعد كاصطدام أشياء معدنية، وغدا الهواء بارداً بسرعة. سمع هسيس حبات المطر الفضية الكبيرة على

الرصيف، ثمّ أعماه شلال من الماء. عندما وصل إلى مطعم نيويورك كافيه كانت ثيابه رطبة تماماً ويرتجف وأصدر حذاؤه المبلل بالماء صريراً.

أبعد برانن صحيفته، وثبت مرفقيه على النضد.

«هذا مثير للاهتمام حقاً. انتابني شعور أنك ستأتي إلى المطعم عند نزول المطر. كنت أعلم جيداً أنك ستأتي، ولكن سيكون الوقت قد تأخر جداً». ضغط بإبهامه على أنفه إلى أن أصبح مسطحاً وأبيض اللون.

«والحقيبة؟»

«تبدو كحقيبة»، قال جيك. «ويمكنك أن تحس بها كحقيبة، ولذلك إن كنت تصدق حقاً أنّها حقيبة فأعتقد أنّها حقيبة حقاً».

«لا تقف هكذا. اصعد إلى الأعلى وضع ثيابك. سيقوم لويس بكيّها».

جلس جيك على طاولة من طاولات الكبائن الخلفية، وأراح رأسه على يديه.

«لا شكراً. أريد أن أرتاح هنا، وأسترجع قواي».

«ولكن شفتاك زرقاوين، وتبدو متعباً جداً».

«أنا بخير. أريد تناول العشاء فقط».

«لن يجهز العشاء قبل نصف ساعة»، قال برانن بأناةٍ.

«ستكفيني بقايا الطعام، فقط ضعها على طبق، ولا تزعج نفسك بتسخينها».

آلمه الفراغ في داخله، ولم يعد يرغب بالنظر إلى الأمام أو إلى الوراء. حرّك إصبعين من أصابعه الممتلئة القصيرة عبر الطاولة. مرّ أكثر من عام مذ جلس على هذه الطاولة للمرة الأولى، ولكن هل حقق شيئاً أكثر مما حققه آنذاك؟ لا لم يحقق أكثر. لم يحدث الكثير باستثناء حصوله على صديقه ثمّ خسارته. لقد أعطى سينغر كل شيء، ولكن الرجل قتل نفسه، ولهذا بات وحيداً ومن دونِ ظهرٍ يحميه. كيف سيخرج لوحده الآن، ويبدأ من جديد، فمجرّد التفكير بالأمر يثير رعبه. كان متعباً فأسند رأسه إلى الجدار ووضع قدميه على المقعد بقربه.

«تفضل، سيساعدك هذا». قال برانن.
وضع برانن كوب مشروب ساخن وطبقاً من فطيرة الدجاج. كان للشراب رائحة حلوة وقوية. تنشق جيك بخاره، وأغلق عينيه.
«ماذا يوجد فيه؟»
«قشور ليمون مع قطعة سكر وماء حار مع قليل من الرم. إنّه شراب قوي».
«بكم أدين لك؟»
«لا أعلم، سأقوم بالحساب قبل أن تغادر».
أخذ جيك جرعة كبيرة من الشراب، وحرّكه في فمه قبل ابتلاعه.
«لن تحصل على المال أبداً». قال جيك. «ليس لدي مالٌ لأدفعه لك، وحتى لو كنت أملكه لن أدفع لك على أيّ حال».
«حسناً، هل ضغطت عليك قبلاً؟ هل طلبت منك دفع الفاتورة مسبقاً؟»
«لا»، قال جيك. «لطالما كنت عقلانياً. وبما أننا نتحدث عن هذا الأمر أعتقد أنك رجل نزيه من وجهة شخصية وحسب».
جلس برانن على الجهة المقابلة من الطاولة وباله مشغول بأمرٍ. عبث بالمملحة وحرّكها إلى الأمام والخلف وهو يمسد شعره. فاحت منه رائحة عطرٍ وارتدى قميصاً أزرق مُقلماً جديداً ونظيفاً. رفع كميه إلى الأعلى حيث رباط الكم التقليدي الأزرق.
وأخيراً تنحنح على عجل وقال:
«كنت أطالع صحيفة بعد الظهيرة عندما أتيت. يبدو أن المكان الذي تعمل فيه شهد الكثير من المتاعب اليوم».
«هذا صحيح. ماذا كتبوا؟»
«انتظر، سأحضر الصحيفة».
ذهب برانن ليحضر الصحيفة عن النضد ومدّ رأسه من فوق الجدار الفاصل للكابينة.
«كتبوا على الصفحة الأمامية أنّ معرض ساني ديكسي شهد اضطراباً

عاماً. قُتل زنجيان متأثران بجراحهما من طعنات سكاكين. عانى ثلاثة من جروح بسيطة، ونقلوا إلى مستشفى المدينة لتلقي العلاج. اسم الشابين المتوفيين جيمي مارسي ولانسي ديفيز، أمّا الجرحى فهم جون هاملن، ذكر أبيض يعمل في معمل سنترال ميل سيتي، وفاريوس ويلسون، ذكر أسود... إلخ. جرت أيضاً العديد من الاعتقالات. يقال إنّ الاضطراب سببه متعاطف مع حقوق العمال، فقد عُثر على مناشير تحريضية في موقع الحدث. من المتوقع أن تحدث المزيد من الاعتقالات». صكّ برانن أسنانه معاً. «وما تدعو إليه هذه المناشير يزداد سوءاً كل يوم. هناك أخطاء في طباعة الخبر؛ كتبوا كلمة تحريضية «تحويضية». وكلمة «اعتقالات» بألفٍ واحدة».

«إنهم أذكياء»، قال جيك ساخراً. «(سببه متعاطف مع حقوق العمال). هذا رائع!»

«على أيّ حال فالحدث بحد ذاته مأساوي».

وضع جيك يده على فمه، ونظر إلى الطبق الفارغ.

«ما الذي ستفعله الآن؟»

«سأغادر بعد ظهر هذا اليوم».

فرك برانن أظافره بباطن يده.

«حسناً، الأمر ليس مُلحاً إلى هذه الدرجة، ولكن قد تكون المغادرة أمراً جيداً. لمَ أنت مستعجل؟ السفر في مثل هذا الوقت من اليوم غير منطقي».

«أريد أن أرحل فقط».

«أعتقد أن بداية جديدة أمر مناسب، ولكن في الوقت عينه لا تأخذ بنصيحتي. أنا شخص محافظ وأعتقد أنّ آراءك راديكالية، ولكن أريد فهم الأمر من جميع جوانبه. بغض النظر عن أيّ شيء أرغب حقاً بأنّ أراك في وضعٍ مستقر. لمَ لا تذهب إلى مكان يمكنك أن تلتقي فيه بأناسٍ مثلك وتستقرّ فيه».

أبعد جيك الطبق أمامه بانفعال.

«لا أعلم إلى أين سأذهب. دعني وشأني، فأنا متعب».

هزّ برانن كتفيه، وعاد إلى النضد حيث يقف.

كان جيك متعباً جداً، وأصابه شراب الرم وصوت تساقط المطر بالنعاس. منحه الجلوس بأمان في الكابينة، وتناول وجبة غنية شعوراً جيداً. يمكنه أن يسند رأسه ويأخذ غفوة - غفوة صغيرة - لو أراد هذا. أحسّ أنّ رأسه متورم وثقيل، وشعر أنّه سيرتاح أكثر لو أغلق عينيه، ولكنه لن ينام لوقتٍ طويل لأنّ عليه مغادرة المكان بأقصى سرعة.

«إلى متى سيستمر هطول المطر؟»

بدا صوت برانن ناعساً.

«من الصعب معرفة هذا، إنّه مطر مداري وقد يصحو الجو فجأة، أو يخفّ هطول المطر قليلاً ثمّ يستقر الجو ليلاً».

وضع جيك رأسه على ذراعيه، وأتاه صوت هطول المطر كصوتِ البحر المتماوِج. سمع تكات الساعة، وقرقعة الصحون البعيدة، واسترخت يداه تدريجياً. استرخى على الطاولة وراحة يديه مفتوحة إلى الأعلى.

صحا جيك وبرانن يهزه وينظر في وجهه. لقد رأى حلماً مريعاً.

«انهض»، قال له برانن. «أنت ترى كابوساً. نظرت نحوكَ ورأيتك تتأوه بفم مفتوح وتضرب رجليك على الأرضية. لم أرَ أحداً في هذه الوضعيةً قبلاً».

ما زال جيك تحت التأثير الثقيل للحلم. شعر برعبه القديم الذي يباغته دوماً عندما يستيقظ. دفع جيك برانن بعيداً ووقف.

«ليس عليك أن تخبرني أنني كنت أرى كابوساً، فأنا أتذكره. رأيته خمس عشرة مرة قبلاً».

تذكر الحلم الآن رغم عجزه في المرات السابقة عن استعادة الحلم في عقله الواعي. رأى نفسه يمشي بين حشدٍ من الناس، كالحشد في المعرض، ولكن للناس حوله في الحلم ملامح شرقية. كانت الشمس

ساطعة جداً، والناس نصف عراة ويمشون ببطء وبصمت، وعلى وجوههم نظرة من يتضور جوعاً. لم يسمع صوتاً، رأى الشمس والحشد الصامت فقط. مشى بينهم يحمل سلة كبيرة مغطاة ويبحث عن مكان ما ليضعها فيه، ولكنه لم يجد مكاناً لها. وانتابه في الحلم رعبٌ من التجول عبر الحشد دون أن يعرف أن يضع العبء الذي يحمله على ذراعيه منذ وقتٍ طويل.

«ما الذي رأيته؟» سأله برانن. «هل كان الشيطان يلاحقك؟»

وقف جيك، وتوجه إلى المرآة خلف النضد. كان وجهه قذراً ومتعرقاً، وهناك دوائر سوداء تحت عينيه. بلل منديله بماء الحنفية ومسح وجهه، ثمّ أخذ مشطاً صغيراً من جيبه وسرّح شاربيه.

«الأحلام لا شيء. يجب أن تكون نائماً حتى تفهم لمَ هو كابوس وليس حلماً».

أشارت الساعة إلى الخامسة والنصف، وتوقف المطر تقريباً. حمل جيك حقيبته وتوجه إلى مدخل المطعم.

«وداعاً، قد أرسل لك بطاقة».

«انتظر»، قال برانن. «لا يمكنك المغادرة الآن، فالجو ما زال ماطراً».

«إنّه مطر خفيف. أرغب بمغادرة البلدة قبل هبوط الظلام».

«ولكن انتظر، هل تحمل مالاً؟ أي مبلغ يكفيك لأسبوع؟»

«لا أملك مالاً، أنا مفلس».

كان برانن قد جهز مظروفاً وضع فيه عشرين دولاراً. نظر جيك إلى وجهي الأوراق النقدية ثمّ وضعها في جيبه.

«حتى الله لن يفهم سبب قيامك بهذا. لن ترى هذا المال مجدداً، ولكن شكراً على أي حال، لن أنسى لك هذا».

«حظاً موفقاً. أطلعني على أخبارك».

«وداعاً».

«وداعاً».

أغلق جيك الباب خلفه، وعندما نظر وراءه إلى نهاية الشارع شاهد برانن يراقبه حيث وقف على الرصيف. مشى إلى أن وصل إلى السكة الحديدية، وعلى جانبي الطريق صفوف من المنازل الصغيرة المهدمة بمراحيض في الحديقة الخلفية، وحبال من الخرق التي سودها الدخان والمعلقة لتجف. وبعد مسافة ميلين لم يكن هناك أية مساحة مفتوحة ونظيفة، حتى الأرض كانت قذرة ومقفرة. وبين الحين والآخر وقع نظره على علائم محاولة زراعة الخضار، ولكن لم ينمُ شيء سوى الملفوف الذابل وبضعة أشجار تين مغبرة لا تثمر. هناك أطفال يسبحون في القذارة وأصغرهم عارٍ تماماً. كان منظر الفقر قاسياً جداً وباعثاً على اليأس، وأخذ جيك يتمتم في غضب ويشد على قبضتيه.

وصل إلى أطراف البلدة ثمّ انعطف إلى الطريق العام حيث مرت السيارات بقربه. كان كتفاه عريضين وذراعاه طويلين جداً. إنّ جيك رجل قويّ وقبيح، ولم يرغب أحد بالوقوف له، ولكن قد تتوقف له شاحنة في النهاية. سطعت شمس بعد الظهر مجدداً، وسخنت الحرارة الرصيف فتصاعد البخار. مشى جيك بثبات، وعندما أدرك أنّ البلدة أصبحت خلفه اجتاحته موجة طاقة. وتساءل إن كان ما يقوم به هروباً أو هجوماً ضارياً، ولكنّه سيغادر على أي حال وسيبدأ بداية جديدة. امتد الطريق أمامه نحو الشمال ومال قليلاً نحو الغرب، ولكنّه لن يذهب أبعد من هذا، ولن يترك الجنوب. هذا الأمر الوحيد الذي كان واثقاً منه، وشعر بالأمل في داخله. ربما ستتضح معالم رحلته قريباً.

-3-

مساءً

ما نفع هذا؟ إنّه السؤال الذي تريد الجواب عليه. ما هي هذه المنفعة اللعينة من وراء كل تلك الخطط التي وضعتها وكل الموسيقى، بعد أن وقعت في هذا الفخ - الذهاب إلى المتجر والعودة إلى المنزل والنوم والعودة إلى المتجر مجدداً. تشير الساعة على الواجهة الأمامية للمتجر الذي عمل فيه السيد سينغر إلى السابعة، وهي تستعد للمغادرة الآن. وكلما عملت وقتاً إضافياً طلب منها صاحب المتجر أن تبقى لفترة أطول لأنّها قادرة على الوقوف على قدميها لوقتٍ أطول، والعمل بجدٍ أكبر قبل أن تتعب مقارنة بأية فتاة أخرى.

توقف المطر الغزير، وبدت السماء بلون أزرق خفيف وكالح. بدأ الظلام يهبط، وأنيرت الأضواء في المنازل. زعقت أبواق السيارات في الشارع، وصاح الفتية الذين يوزعون الصحف بالعناوين الرئيسة. لم ترغب ميك بالعودة إلى المنزل. إن عادت الآن فستستلقي على الأريكة وتتأوه. لهذه الدرجة كانت متعبة. ولكن إن توجهت إلى مطعم نيويورك كافيه وتناولت بعض المثلجات قد تشعر بأنّها على ما يُرام. ستدخن وتجلس وحدها لبعض الوقت.

كان القسم الأمامي من المطعم مزدحماً، ولهذا جلست في الكابينة الخلفية. شعرت بالتعب في أسفل ظهرها ووجهها، فشعارهم في المتجر «كُن مبتسماً على الدوام». اضطرت في إحدى المرات إلى الخروج من المتجر والعبوس لبعض الوقت حتى يعود وجهها طبيعياً مجدداً، بل وأحست بالألم

في أذنيها أيضاً. اشترت قرطين منذ أسبوع وسواراً فضياً. في البداية عملت ميك في متجر بوتس أند بانز[1] ثمّ نقلوها إلى متجر كوستوم جوليري[2].

«مساء الخير يا ميك»، قال السيد برانن بينما مسح أسفل كأسٍ من الماء بمنديل ثمّ وضعه على الطاولة أمامها.

«أريد مثلجات بالشوكولا وكأساً من الجعة التي في البرميل».

«معاً؟» وضع أمامها قائمة الطعام، وأشار بإصبعه الصغيرة التي يرتدي فيها خاتماً ذهبياً نسائياً.

«انظري، يوجد لحم دجاج مشوي لذيذ ويخنة لحم العجل. لمَ لا تتناولين العشاء معي؟»

«لا شكراً، أريد المثلجات والجعة فقط، فكلاهما باردان كثيراً».

أبعدت ميك شعرها عن ناصيتها. كان فمها مفتوحاً، ولهذا بدا خداها غائرين. هناك أمران لا تصدقهما، الأول أنّ السيد سينغر قتل نفسه وهو الآن ميت؛ وثانياً أنّها كبرت واضطرت للعمل لدى عائلة وولورث.

كانت ميك من عثر على السيد سينغر، فقد اعتقد الجميع أنّ الضجة التي صدرت عن المسدس صوت تشغيل محرك سيارة. ولم يكتشفوه حتى اليوم التالي عندما صعدت ميك لتستمع إلى المذياع. وجدت رقبته ملطخة بالدماء، ثمّ أتى والدها ودفعها خارج الغرفة. ركضت في العتمة خارجاً، وأخذت تلكم نفسها بقبضتيها. في الليلة التالية وضعوه في الكفن في غرفة الجلوس. وضع الحانوتي حمرة خدود على وجنتيه وأحمر شفاه على فمه حتى يبدو وجهه طبيعياً أكثر، ولكنه لم يبدُ طبيعياً، بل كان ميتاً، ميتاً جداً. امتزجت رائحة الزهور برائحة أخرى، ولهذا لم تتمكن من البقاء في الغرفة. في الأيام السابقة كانت ميك قد بدأت العمل، وغلّفت الطرود، وسلّمتها للزبائن من فوق النضد، ووضعت المال في الدرج. مشت عندما كان من المفترض أن تمشي، وتناولت

1- متجر أدوات المطبخ (المترجمة)

2- متجر المجوهرات المصنوعة وفق الطلب (المترجمة)

طعامها عند جلوسها إلى الطاولة. في البداية عندما كانت تخلد إلى النوم لم يغمض لها جفن، ولكنها الآن تنام كما يفترض بها أن تفعل.

استدارت ميك جانباً حتى تُقاطع ساقيها، ولاح النِسل الطولي في جوربها. بدأ النِسل في جوربها عندما توجهت إلى العمل فوضعت بعض البصاق عليه. ولكنه أخذ يكبر أكثر فوضعت بعض العلك في نهايته ليتوقف، ولكن حتى هذا لم يكن مفيداً، ولذلك عليها الآن أن تعود إلى المنزل وتحيكه. من الصعب أن تعرف ما الذي كانت ستفعله من دون جوارب. اعتادت ارتداءها بسرعة كبيرة، ولم تكن فتاةً من النوع العادي الذي يرتدي جوارب قطنية.

لم يكن عليها أن تأتي إلى المطعم، فأسفل حذائها مهترئ. كان الأجدى بها لو أنّها وفرت العشرين سنتاً واشترت نعلاً جديداً. ماذا لو استمرت بالوقوف طوال الوقت في المتجر وفي حذاء مثقوب فما الذي سيحدث؟ ستتقرح قدمها، وستضطر إلى فقئها بإبرة حارة والبقاء في المنزل، وتُطرد من عملها. ثمّ ما الذي سيحدث؟

«تفضلي»، قال السيد برانن. «لم أسمع أحداً يطلب هذا المزيج قبلاً».

وضع المثلجات والجعة على الطاولة، وتظاهر بتنظيف أظافره لأنّها لاحظت أنه يحاول أن يبدأ حديثاً. فكرت ميك أنّه ربما لم يعد يكن نحوها ذلك الحقد، ولهذا لا بدّ وأنّه نسي أمر علبة العلك. يتحدث معها طوال الوقت الآن، ولكنّها رغبت بالجلوس بهدوء لوحدها. كان طعم المثلجات مقبولاً وقد غطيت بالشوكولا والمكسرات والكرز، وبعثت الجعة على الاسترخاء. خلّفت الجعة طعماً مراً مع المثلجات وأثملتها. بالنسبة لها كانت الجعة أفضل شيء بعد الموسيقى.

لم تعد الموسيقى تصدح في عقلها، وهذا أمر غريب، وكأنّها طردت من غرفتها الداخلية. بين الحين والآخر يمرّ لحن سريع وقصير، ولكنها لم تعد تذهب إلى الغرفة الداخلية مع الموسيقى كما اعتادت قبلاً، وكأنّها أصبحت أكثر عصبية، أو ربما لأنّ المتجر استنزف كل طاقتها ووقتها. لم يكن المتجر كالمدرسة، فعندما كانت تعود من المدرسة ينتابها شعور جيد يجعلها على استعداد للعمل على الموسيقى، ولكنها الآن متعبة طوال الوقت. في المنزل

تتناول العشاء وتنام، ثمّ تتناول الفطور وتنطلق إلى العمل مجدداً. ولم تنته من كتابة الأغنية التي بدأت بكتابتها في دفترها الخاص منذ شهرين. أرادت أن تبقى في غرفتها الداخلية، ولكن لم تعرف الطريقة لفعل هذا، وكأنّ الغرفة الداخلية أقفلت في مكان ما بعيد عنها. وهذا أمر يصعب فهمه.

دفعت ميك بسنّها الأمامي المكسور بإبهامها، ولكنها تملك مذياع السيد سينغر الذي لم تُدفع أقساطه ولهذا تكفلت بإكمالها. من الجيد أن يكون لديها شيء يخصّه. وربما في يوم من الأيام قد تتمكن من شراء بيانو مستعمل. ربما إن وفرت دولارين كل أسبوع، ولن تسمح لأحد بلمس هذا البيانو الخاص، ولكنّها قد تُعلم جورج العزف. ستضعه في الغرفة الخلفية، وتعزف عليه كل ليلة، وطوال يوم الأحد. ولكن ماذا لو تخلفت عن الدفع، فقد يأتون ويأخذونه كالدراجة الحمراء؟ ولكن ماذا لو لم تسمح لهم بأخذه، وخبأته في القبو واستقبلتهم عند الباب الأمامي، وصارعتهم. يمكنها أن تصرع رجلين وتضربهما على عيونهما وتكسر أنفيهما وسيغمى عليهما في الردهة. عبست ميك وفركت قبضتها بقوة على جبهتها. هذا كان حالها وكأنّها مصابة بالجنون طوال الوقت. ليس ذلك الجنون الطفولي الذي يختفي على الفور بل جنون من نوع آخر، ولكن دون أن يثيره شيء معين. ربما يكون السبب المتجر، ولكن المتجر لم يطلب منها أن تأخذ العمل، ولهذا لم يكن هناك ما يستدعي الجنون. شعرت وكأنّها تعرضت للغش، ولكن لم يغشها أحد، ولهذا لم يكن بإمكانها اتهام أحد. ولكن الأمرين سيّان فهي تشعر بذلك الشعور - بشعور الغش.

قد تنجح في الحصول على البيانو، وقد تسير الأمور على ما يرام، وربما ستحظى بفرصة تحقيق هذا قريباً، أو ما هي الفائدة اللعينة من وراء كل هذا التفكير بالأمور - الطريقة الذي شعرت بها حيال الموسيقى والخطط التي وضعتها في الغرفة الداخلية؟ لا بدّ وأنّها أمور جيدة لأنّها منطقية. كانت منطقية جداً، جداً، جداً. كانت أموراً جيدة.

حسناً!

حسناً!

إنّها أمور جيدة.

-4-

ليلاً

كان كل شيء هادئاً. جفف بيف وجهه ويديه، عبث نسيم بالحلية الزجاجية المتدلية من المعبد الياباني الصغير على الطاولة. صحا بيف من قيلولته ودخن سيجاره الليلي. فكر بجيك وتساءل إن كان قد سافر الآن. توجه إلى الحمام وتناول زجاجة عطر أغوا فلوريدا الموجودة على الرف، ووضع القليل منه على صدغيه. صفّر بأغنية قديمة، وبينما هبط الدرج الضيق ترك اللحن صدىً متكسراً خلفه.

يُفترض أن يكون لويس مداوماً خلف النضد الآن، ولكن لم يجده هناك ولم يكن هناك زبائن. كان الباب الأمامي مفتوحاً على الشارع المقفر، وأشارت الساعة على الجدار إلى الثانية عشرة إلا سبع عشرة دقيقة. كان المذياع يعمل وهناك حديث عن الأزمة التي يخطط هتلر لها في دانزغ[1]. عاد إلى المطبخ، وعثر على لويس نائماً على كرسي في المطبخ. كان الفتى قد خلع حذاءه، وفكّ أزرار سرواله، وتدلى رأسه على صدره. هناك بقعة كبيرة رطبة على قميصه، ويبدو أنّه غفا منذ فترة طويلة، وتدلى ذراعاه على جانبيه، وما يثير العجب أنّه لم يقع على الأرض على وجهه وهو بهذه الوضعية. نام بعمق، ولم يكن هناك فائدة من إيقاظه، فالليلة ستكون ليلةً هادئة.

مشى بيف في المطبخ على أطراف أصابعه متوجهاً إلى رفٍ عليه

1- مدينة ساحلية وميناء في شمال بولندا (المترجمة)

سلة من أوراق شجيرة الشاي الزيتوني وإبريقان وضعت فيهما أزهار. حمل الزهور ووضعها في واجهة العرض، وتخلص من أطباق وجبة الليلة الماضية الخاصة. شعر بالقرف من الطعام، ولذلك رأى أنّه من الجيد استبدال أطباق الطعام بزهور صيفية طازجة. أغمض عينيه وتخيل المنظر. سينثر على الأرضية أوراق الشاي ذات اللون الأخضر اللطيف، وسيضع الزهور الزاهية في الوعاء الفخاري الأحمر. هذا كل شيء. بدأ يرتب واجهة العرض. أثناء عمله على ترتيب الزهور انتبه إلى أنّ إحداها تحمل ست بتلات برونزية وبتلتين حمراوين. تفحص هذه التحفة ثمّ وضعها جانباً. انتهى من ترتيب النافذة، وخرج إلى الشارع ليتأمل عمله الفني. انحنت سويقات الزهور على جوانب الوعاء بدرجة الارتخاء المناسبة. خففت الأضواء من جمال المنظر، ولكن عندما تسطع الشمس ستظهر الزهور بأفضل حلة وبطريقة فنية صرفة.

بدت السماء في هذه الليلة المرصعة بالنجوم قريبةً من الأرض. تمشى على الرصيف، وتوقف قليلاً ليركل قشرة ليمون باتجاه المسيل المائي في الشارع بطرف قدمه. هناك رجلان في أقصى نهاية الشارع التالي، ويبدوان صغيرين من بعيد وثابتين ومتشابكي الأذرع. لم يكن هناك أحد آخر سواهما. كان مطعمه المكان الوحيد المفتوح والمضاء في الشارع.

لماذا؟ ما السبب الذي يدفعه إلى إبقاء المكان مفتوحاً طوال الليل بينما بقية المقاهي في البلدة مغلقة؟ سُئل كثيراً عن هذا الأمر، ولكنه لم يُجب. ليس المال السبب، فأحياناً تأتي مجموعة من الزبائن لتناول الجعة والبيض المقلي ولا يدفعون أكثر من خمسة أو عشرة دولارات. ولكن هذا نادر الحدوث. فأغلب الأحيان يأتي الزبائن فرادى، ويطلبون أشياء قليلة، ويبقون فترة طويلة. وفي بعض الليالي بين الساعة الثانية عشرة والخامسة صباحاً لا يدخل أيّ زبون. من الواضح أنّ الأمر لم يكن مربحاً.

ولكنه لن يقفل المطعم الليلة ما دام يديره الآن. إن الليل أنسب وقت

لرؤية من لا يشاهدهم عادة. هناك قلة من الزبائن التي تأتي بشكل منتظم مراتٍ عديدة خلال الأسبوع، وآخرون يأتون مرة واحدة يشربون فيها الكوكا كولا ولا يعودون.

قاطع بيف ذراعيه على صدره وتمشى ببطء. وتحت ضوء الشارع امتد ظله الأسود مائلاً. استقر الصمت الهادئ لليل في داخله. هذه هي الساعات المناسبة للاسترخاء والتأمل، وربما لهذا السبب بقي في الطابق السفلي ولم ينم. وبنظرة متفحصة أخيرة عاين الشارع المقفر ودخل إلى المطعم.

ما زال الصوت الخارج من المذياع يتحدث عن الأزمة. وأحدثت المروحة في السقف صوتاً كالطنين. سمع شخير لويس في المطبخ، وفكر بويلي المسكين ثمّ قرر أن يرسل له زجاجة ويسكي في أقرب فرصة. أمسك بصفحة الكلمات المتقاطعة في الصحيفة. في وسط الصفحة صورة امرأة مطلوب التعرف عليها. عرفها وكتب اسمها في المربعات الأفقية الأولى: الموناليزا. أمّا الكلمة العمودية الأولية فكانت مرادفاً لكلمة شحاذ وتبدأ بحرف ميم ومكونة من خمسة أحرف: متسول. أمّا الكلمة الأفقية الثانية فهي مرادف لكمة «يُبعد» تبدأ بحرف ألف ومكونة من ستة أحرف: انقضاء؟ أخذ يجرب مجموعة من المرادفات بصوتٍ عالٍ، ولكنه فقد اهتمامه بالأمر فقد شغلته أحجياتٍ أكبر. طوى الصحيفة ووضعها جانباً وقرر أن يعود إليها لاحقاً.

تفحص بيف الزهرة التي احتفظ بها، وعندما رفعها على راحة يده نحو الضوء لم تبدُ كزهرة مميزة أبداً وتستحق الاحتفاظ بها. انتزع البتلات الرقيقة الزاهية بطريقة «يحبني أو لا يحبني»، وجاءت البتلة الأخيرة بـ «يحبني»، ولكن من؟ من سيحبّ الآن؟ ليس هناك أحد بعينه. قد يأتي أيّ شخص من الشارع، ويجلس لساعة ويتناول مشروباً. ولكن ما من أحد. تذكر كل من أحبّ: أليس ومادلين وغيب، ولكن انتهت كل حكايتهم معه، وتركوه في سراء وضراء كيفما نظر إلى الأمر.

هناك ميك التي عاشت في قلبه طوال الأشهر الأخيرة بطريقة غريبة. هل انتهى هذا الحب أيضاً؟ أجل، لقد انتهى. أتت ميك كل أمسية من أجل مشروب بارد ومثلجات. أصبحت الآن أكبر عمراً، واختفت حركاتها الطفولية العنيفة، وبدلاً من هذا بدأت تتحول إلى سيدة رقيقة، ولكن كان من الصعب معرفة أين يقع هذا التحول. هل هو في الأقراط أو السوار أو الطريقة الجديدة التي تُقاطع فيها ساقيها، وتشد أطراف تنورتها إلى أسفل ركبتها. راقبها ولم يشعر سوى بشعورٍ لطيف. اختفى شعوره القديم الذي تفتح طوال عام بشكلٍ غريب. فكر به مئات المرات، ولكن دون الوصول إلى إجابة. أمّا الآنَ فقد انتهى الأمر بينما تساقطت زهور الصيف مع بداية شهر أيلول (سبتمبر). لم يعد هناك أحد.

ضرب بيف على طرف أنفه بسبابته، ومن المذياع أتى صوت يتحدث بلغة أجنبية، ولم يعرف إن كانت اللغة التي يتحدث بها هذا الشخص الألمانية أو الفرنسية أو الإسبانية، ولكنه بدا وكأنّه يهدد ولهذا أثار توتره. عندما أطفأ المذياع عمّ صمتٌ عميق وطويل، وشعر بالليل في الخارج، وأطبقت الوحدة عليه وشعر بتسارع أنفاسه. كان الوقت متأخراً جداً على الاتصال بلوسيل والطلب منها التحدث إلى بيبي، ولم يتوقع دخول أي زبون في مثل هذه الساعة. توجه إلى الباب، ونظر إلى بداية ونهاية الشارع الذي كان مقفراً ومظلماً.

«لويس»، ناداه. «هل أنت صاحٍ؟»

لم يكن هناك جواب. وضع بيف مرفقيه على النضد، وأسند رأسه على يديه، ثمّ نقل فكّه بلحيته السوداء من جهة إلى أخرى، وببطء علت تقطيبة جبهته.

الأحجية! المسألة التي علقت في رأسه ولم تدعه وشأنه. إنّها أحجية سينغر وبقية المجموعة. لقد مرّ أكثر من عام على بداية كل هذا، أكثر من عام منذ دخل بلاونت إلى المكان وثمل طويلاً، وأكثر من عام على التقائه بالأبكم لأول مرة، ولحاق ميك به في كل مكان. مرّ شهر على

موت ودفن سينغر، وما زالت الأحجية تؤرقه وتحرمه من السكينة. كان هناك شيء غير طبيعي في كل ما حصل، شيء أشبه بدعابة بشعة. عندما فكر بالأمر شعر بالتوتر وبخوف مجهول.

تكفل بأمر الجنازة، فقد كانوا جميعاً يدينون لسينغر. كانت أمور سينغر في فوضى، فهناك أقساط على كل شيء يملكه وبوليصة التأمين على حياته منتهية الصلاحية. وبالكاد هناك ما يكفي لدفنه. أقيمت الجنازة ظهراً، وقد حرقتهم الشمس بحرارتها الضارية بينما وقفوا حول القبر المفتوح. ذبلت الزهور وغدت بنية اللون تحت أشعة الشمس. بكت ميك بشدة، واختنقت بدموعها واضطر والدها إلى ضربها على ظهرها. نظر بلاونت بعبوس إلى القبر وقبضته في فمه. بينما وقف الطبيب الزنجي الذي كانت تجمعه رابطة ما بويلي المسكين بعيداً عن الحشد وناح لوحده. حضر أيضاً غرباء لم يرهم أو يسمع عنهم أحد من قبل. الله وحده يعلم من أين أتوا ولماذا هم هنا.

كان الصمت في المكان عميقاً كالليل. وقف بيف بلا حراك يتأمل، ثمّ فجأة شعر بتسارع نبضات قلبه فاتكأ على المنضدة. وفي ومضة نورانية سريعة رأى ملامح الصراع والبسالة البشرية وطريقها الممهد إلى ما لا نهاية عبر الزمن الأبدي، ورأى الكادحين والعاشقين. توسعت روحه ولكن لم يدم الأمر سوى للحظة فقط، فقد شعر بعدها بتحذيرٍ ما وإشارة على بداية رعب قادم. شعر أنّه معلقٌ بين عالمين، ورأى نفسه يتطلع إلى وجهه على زجاج النضد أمامه. تجمعت حبات العرق على صدغيه وتشوه وجهه من الألم. بدأت إحدى العينين تُفتح بشكلٍ أكبر من العين الأخرى. غارت العين اليسرى في الماضي بينما حدقت العين اليمنى وبرعبٍ وعلى اتساعها إلى مستقبل من الظلمة والأخطاء والدمار. شعر أنه عالقٌ بين النور والعتمة، بين السخرية المريرة والإيمان. والتفت بشكلٍ سريع.

«لويس! لويس! لويس!» نادى بيف.

ومجدداً لم يكن هناك جواب، ولكن بحق الله ألم يكن رجلاً عقلانياً أم أنّه لم يكن كذلك؟ كيف يُمكن لهذا الخوف أن يخنقه بهذه الطريقة دون معرفة السبب؟ هل سيقف هنا كالمغفل أو سيتمالك نفسه ويعود عقلانياً؟ هل كان رجلاً عقلانياً أم لم يكن؟ بلل بيف منديله من ماء الصنبور، وربّت به على وجهه المُجهد والمتوتر. وبطريقة ما تذكر أنّ المظلة أمام المطعم لم تُرفع. وبينما توجه إلى الباب غدت خطواته أكثر ثباتاً. وعندما عاد إلى الداخل مجدداً تمالك نفسه بكل وعي وانتظر شروق شمس الصباح.

مكتبة
t.me/t_pdf

سجل في مكتبة اضغط اللينك

t.me/t_pdf

«بموهبتها الأدبية الأصيلة تقنعنا الآنسة مكولرز بأننا فوّتنا على أنفسنا فرصة رؤية ما هو واضح في العالم الواقعي... إنّ مكولرز سيدة البصيرة النافذة والخاصة، وقاصّة لا نظير لها... إنّها كاتبة من الطبقة الأعلى».

-ف. س. بريتشت-

«لم تستقِ كارسون مكولرز إلهامها من العناوين العريضة ثمّ ادعت أنّ ما كتبته روايات من بنات أفكارها. رغم اهتمام مكولرز ببربرية العنصرية في موطنها الأصلي في الجنوب، إلا أنّ قصصها القصيرة، ورواياتها مجازية وواضحة في الوقت ذاته. مجدت الفرد وبخاصة الخاسرين في الحياة... وعكست ذلك القلب الوحيد بيدٍ ذهبية».

- جريدة النيويورك تايمز-

«وجدتُ في أعمالها كثافة ونبالة في الروح لم أشهدها كثيراً منذ كتابات هيرمن ميلفيل».

- تينيسي ويليامز-

«إنّها موهوبة جداً. تملك الآنسة مكولرز قوة ملاحظة وذاكرة غير عادية، وموهبة فذّة في ترجمة الإحساس المسترجع في الذاكرة عبر اللغة».

-ديانا تريلنغ-

«إنّ الجانب الأكثر إذهالاً في عملها تلك الإنسانية المدهشة التي مكنت كاتبة بيضاء - لأول مرة في الأدب الجنوبي - من التعامل مع شخصيات زنجية بتلك السهولة والعدالة التي تتعامل بها مع عرقها. ولا يمكن عزو هذا إلى أسباب فنية أو سياسية، بل ينبع هذا من موقفها الخاص من الحياة والذي مكّن الآنسة مكولرز من الترفع على ضغوط بيئتها، وتبني الإنسانية البيضاء والسوداء بمسحة وعي ورقة».

-ريتشارد رايت-

ولدت كارسون مكولرز في التاسع عشر من شباط ١٩١٧ وتوفيت في التاسع والعشرين من أيلول ١٩٦٧ .
تعد مكولرز من أهم كاتبات الرواية والقصة القصيرة والمسرح في الولايات المتحدة الأمريكية ومن بين أعمالها: القلبُ صيادٌ وحيد ١٩٤٠ ، تأملاتٌ في عينٍ ذهبية ١٩٤١، أغنية المقهى الحزين ١٩٥١ ، ساعة من دون عقارب ١٩٦١.

t.me/t_pdf

لوحة الغلاف: Richard Diebenkorn